السِّيرَةُ النَّبَوِيَّة

فِي ضَوْءِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

«دراسة محرَّرة، جمعت بين أصالة القديم وجدة الحديث»

الدكتور

محمد بن محمد أبو شهبة

الجزء الأول

دار القلم

دمشق

طَبْعَةُ دارِ القَلَمِ الثّانية
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

إهـداء

إلَى الرُّوحَيْنِ اللَّذَيْنِ رَبَّيَانِي صَغِيراً، وَرَعَيَانِي كَبِيراً،وَاللَّذَيْنِ أنَامَدِينٌ لَهُمَا بِمَا مَنَّ الله بِهِ عَلَيَّ مِنْ عِلْمٍ ، وَمَعْرِفَة، وَاللَّذَيْنِ لاَ أَنْفَكُّ عَنِ الدُّعَاءِ لَهُمَا عَقِبَ كُلِّ صَلاَة.

إلَى رُوحَيْ وَالِدَيَّ الْكَرِيمَيْنِ: أُهْدِي ثَوَابَ هٰذَا الْكِتَاب الَّذِي هُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثِمَارِ غَرْسِهِمَا.

ابْنُكُما البَارُّ

مُحَمَّـد

* ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ .

(قـرآن كـريم)

* «والله ليتمنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه» .

(حديث نبوي صحيح)

* «كنا نُعَلَّمُ مغازي رسول الله كما نُعَلَّمُ السورة من القرآن» .

(علي بن الحسين، رضي الله عنهما)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي عمر الأرض ببني الإنسان، ومن عليهم بنعمتي العقل والبيان، ليميزوا بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، وهادين إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، لتقوم على الناس الحجة، وتنقطع المعذرة.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي العربي، الذي أرسله الله سبحانه على حين فترة من الرسل، والناس في ضلالة عمياء، وجهالة جهلاء، ففتح الله به أعيناً عمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً، فكانت حياته خيراً وبركة على الدنيا كلها، وبَعْثته رحمة للعالمين.

أما بعـد:

فإن خيرما يتدارسه المسلمون، ولا سيما الناشئون والمتعلمون، ويُعنَى به الباحثون والكاتبون دراسة السيرة المحمدية؛ إذ هي خير معلِّم ومثقِّف، ومهذب ومؤدب، وآصلُ مدرسة تخرَّج فيها الرعيل الأول من المسلمين والمسلمات، الذين قلَّما تجود الدنيا بأمثالهم.

ففيها ما ينشده المسلم، وطالب الكمال من دين، ودنيا، وإيمان واعتقاد، وعلم، وعمل، وآداب وأخلاق، وسياسة وكياسة، وإمامة وقيادة، وعدل ورحمة، وبطولة وكفاح، وجهاد واستشهاد، في سبيل العقيدة والشريعة، والمثل الإنسانية الرفيعة، والقيم الخلقية الفاضلة.

ولقد كانت السيرة النبوية مدرسة تخرج فيها أمثل النماذج البشرية، وهم

الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فكان منهم الخليفة الراشد، والقائد المحنك، والبطل المغوار، والسياسي الداهية، والعبقري الملهم، والعالم العامل، والفقيه البارع، والعاقل الحازم، والحكيم الذي تتفجر من قلبه ينابيع العلم والحكمة، والتاجر الذي يحول رمال الصحراء ذهباً، والزارع والصانع اللذان يريان في العمل عبادة، والكادح الذي يرى في الاحتطاب[1] عملاً شريفاً يترفع به عن التكفف والتسول، والغني الشاكر الذي يرى نفسه مستخلفاً في هذا المال ينفقه في الخير والمصلحة العامة، والفقير الصابر الذي يحسبه من لا يعلم حاله غنياً من التعفف، وكل ذلك كان من ثمرات الإيمان بالله، وبرسول الله، وبهذا كانوا الأمة الوسط، وكانوا خير أمة أخرجت للناس!!

لقد كان السلف الصالح من هذه الأمة الإسلامية يدركون ما لسيرة خاتم الأنبياء، وسير الصحابة النبلاء، من آثار حسنة في تربية النشء، وتنشئة جيل صالح لحمل رسالة الإسلام، والتضحية في سبيلها بالنفس والمال، فمن ثَمَّ كانوا يتدارسون السيرة، ويحفظونها، ويلقنونها للغلمان كما يلقنونهم السور من القرآن، روي عن زين العابدين علي بن الحسين ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: «كنا نُعَلَّم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما نعلَّم السورة من القرآن»[2]. وهذا هو الإمام الزهري عالم الحجاز والشام وهو من قدماء من عُنوا بجمع السيرة، بل قيل إن سيرته أول سيرة ألفت في الإسلام[3]، يقول: «في علم السيرة علم الدنيا والآخرة»[4]، وإنها لكلمة صدق وحق، وروي عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا ويقول: يا بني هذه شرف آبائكم، فلا تضيعوا ذكرها»[5] نعم ـ والله ـ إنها لشرف الآباء، والمدرسة التي يتربى فيها الأبناء!!

---

(١) الاحتطاب جمع الحطب الذي توقد به النار، من الصحاري ورؤوس الجبال.
(٢) رواه الخطيب وابن عساكر.
(٣) السيرة الحلبية، ج ١ ص ٢.
(٤) رواه الخطيب وابن عساكر.
(٥) شرح المواهب، ج ١ ص ٤٧٣.

فما أجدر المسلمين في حاضرهم: رجالاً ونساءً، وشباباً وشيباً أن يتعلموها ويعلموها غيرهم، ويتخذوا منها نبراساً يسيرون على ضوئه في تربية الأبناء، والبنات، وتنشئة جيل يؤمن بالله ورسوله، ويؤمن بالإسلام، وصلاحيته لكل زمان ومكان، والتضحية بكل شيء في سبيل سيادته وانتشاره، لا يثنيهم عن هذه الغاية الشريفة بلاء وإيذاء، أو إطماع وإغراء.

لسنا نريد من دراسة السيرة العطرة: سيرة النبي ﷺ، وسِيَر الرعيل الأول وهم الصحابة الكرام، أن تكون مادة علمية يجوز بها طلاب العلم في المعاهد، والمدارس، والجامعات الامتحان أو الحصول على الإجازات العلمية أو أن تكون حصيلة علمية نتفيهق بها، ونتشدَّق في المحافل والنوادي، وقاعات البحث والدرس، وفي المساجد، والمجامع، كي نحظى بالذكر والثناء، وننتزع من السامعين مظاهر الرضا والإعجاب.

ولكنا نريد من هذه الدراسة أن تكون مدرسة نتخرج فيها، كما تخرج السادة الأولون، وأن نكون مثلاً صادقة لصاحب الرسالة ﷺ، وصحابته الكرام ـ عليهم الرضوان ـ في إيمانهم وعقيدتهم، وفي علمهم وعملهم، وأخلاقهم وسلوكهم، وسياستهم وقيادتهم حتى يعتز بنا الإسلام، كما اعتز بهم، ونكون في حاضرنا ـ كما كانوا ـ خير أمة أخرجت للناس.

وقد شاء الله سبحانه ـ وله الخيرة ـ أن أخرج سِفْراً في القسم الثاني من السيرة، وهو من بعد الهجرة إلى الوفاة النبوية منذ سنين، وقد نفد، وها أنذا أكمل ما بدأت، وهو الكتابة في القسم الأول من قبل الميلاد إلى الهجرة.

وقد شاء الله أيضاً ـ ولله الحمد والمنة ـ أن أراجع بعض ما كتبت في القسم الأول في المدينة المنورة، وفي الروضة الشريفة، التي هي من رياض الجنة(١)، وأنا على قِيد أذرع من البقعة المشرفة التي ضمت أفضل مخلوق على

---

(١) روى مسلم في صحيحه بسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «ما بين بيتي ومنبري، روضة من رياض الجنة».

الله، وأطهر جسد عرفته الدنيا: جسد النبي ﷺ، وأن أبدأ بتبييض هذا الجزء في «طيبة» طابت وطاب المقام فيها.

ومن الله أستمد العون والتوفيق، فاللهم أعن وسدِّد، آمين.

وكتبه

أبو السادات[1]

محمد بن محمد أبو شهبة

من علماء الأزهر الشريف

والمتخصص في القرآن وعلومه، والسنة وعلومها

(١) لقد منَّ الله عليَّ بثلاثة ذكور، هم: محمد رضا، وأبو بكر، وعمر، فلم يكن أحب إلى نفسي من هذه الكنية.

مُقَدِّمَاتٌ تمهيدِّيَة لدراسَةِ السِّيرَة

١ ــ منهجي في هــذه الــدراســة .
٢ ــ تاريخ التأليف في السيرة وأشهر كتبها .
٣ ــ التأليف في السيرة في العصر الحاضر .

ــ ١ ــ

منهجي في هذه الدراسة

١ ــ لما كانت هذه الدراسة في ضوء القرآن والسنّة، فسأعنَى بذكر الآيات القرآنية المتعلقة بحوادث السيرة ووقائعها، وشرح ما غمض منها، وإزالة ما عسى أن يكون بين ظواهر هذه الآيات من توهم الاختلاف أو التعارض، وتنزيل هذه الآيات على حسب الوقائع والحوادث.

بل رأيت كما رأى ابن إسحاق، ومن بعده ابن هشام، شرح الآيات في الموضوع الواحد شرحاً موجزاً ولا سيما في الغزوات: كالأحزاب، والحديبية، وبني النضير، وكما صنعت في آيات الإفك. وإنَّ من نافلة القول أن نقول: إن المرجع الأول في دراسة السيرة النبوية هو القرآن الكريم، لأنه الكتاب المتواتر الذي يفيد القطع واليقين، ولا يتطرق إليه الشك والارتياب، فهو أوثق المصادر، وأولاها بالقبول.

* * *

٢ ــ وسأعنَى أيضاً بذكر الأحاديث المتصلة بالموضوعات التي سأعرض لها. ولن أذكر منها إلا ما هو صالح للاحتجاج من حديث صحيح، أو حسن، أو مقبول، ولن أذكر شيئاً من الأحاديث الموضوعة أو الإسرائيليات المكذوبة، أو الروايات الشديدة الضعف، إذ في الأحاديث الثابتة ما يغني عنها، ومما ينبغي أن يعلم أن كتب السير والموالد فيها الصحيح والضعيف، بل والمكذوب المختلق، وذلك مثل ما زعمه بعض الكاتبين في الإسراء والمعراج من أن النبي ﷺ وطىء العرش بنعليه، وأن الله ــ جل جلاله ــ قال: لقد شَرُف

العرش بنعلك يا محمد، وهو كلام باطل، وقد سئل الإمام رَضِيُّ الدين القزويني عن ذلك فقال: «أما حديث وطء النبي صلى الله عليه وسلم العرش بنعله، فليس بصحيح، ولا ثابت، بل وصوله إلى ذروة العرش لم يثبت في خبر صحيح، ولا حسن، ولا ثابت أصلاً، وإنما ثبت في الأخبار انتهاؤه إلى سِدْرة المنتهى فحسب».

ومن ذلك الروايات التي تزعم تمسُّح النبي صلوات الله وسلامه عليه بالأصنام، فكلها باطلة عقلاً ونقلاً، والروايات التي رويت عن ابن عباس وغيره من الصحابة التي ذكروا فيها عمر الدنيا، وأنها سبعة آلاف سنة فهي إسرائيليات مكذوبة، ولا تمت إلى الإسلام بصلة، وعمر الدنيا أضعاف أضعاف ذلك، فلا نلتفت إلى شيء من ذلك مما قد نجده في بعض كتب التفسير، والحديث، والتاريخ والسير ونحوها.

* * *

٣ ــ إن اعتمادي بعد القرآن والأحاديث الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد على كتب التاريخ والسير قديمها وحديثها، بعد البحث والتمحيص والتحقيق، والموازنة بين الروايات، والأخذ بما يصلح للاحتجاج منها، وترك ما عداه. ولن آخذ برواية راوٍ، أو قول قائل يصادم عقلاً، أو يخالف نقلاً متواتراً أو صحيحاً، أو يمس عصمة النبي ﷺ، إلا إذا كان للرواية مخرج محتمل معقول، أو تأويل قريب مقبول، من غير تكلُّف ولا تمحُّل. وفي مقدمة كتب السِّيَر كتاب شيخ كُتَّاب السير، وإمام أهل المغازي: محمد بن إسحاق، إلا إذا عارض روايته ما هو أصح منها كرواية صاحبي الصحيحين، فإني أرجِّح ما في الصحيح، وابن إسحاق على جلالته في السيرة له بعض أوهام عرضت لها أثناء الكتاب، وبينت وجه الحق فيها.

* * *

٤ ــ إن كثيرين من المبشرين، والمستشرقين، الذين يتأكَّلون بالباطل قد تحاملوا على النبي ﷺ استجابة لنداء الصليبية التي ورثوها من آبائهم،

ورضعوها في لبـان أمهاتهم، ورموه بأشنع الصفات التي يتنزه القلم عن ذكرها، وأسفُّوا في ذلك غاية الإسفاف[1]، ولكن المنصفين منهم ـ وقليلٌ ما هم ـ ردُّوا عليهم، وأنصفوا النبـي ﷺ بعض الإنصاف، وإن لم تخلُ كتبهم من الغمز واللمز.

وقد استندوا في طعونهم وسفاهاتهم إما على روايات باطلة اعتبروها صحيحة، وإما على روايات صحيحة حرَّفوها عن مواضعها، وإما على أوهام تخيَّلوها.

ومن الأباطيل التي تمسك بها بعض الكاتبين في السيرة من الغربيين، وأبواقهم المقلِّدون لهم قصة الغرانيق، وزعمهم قيام الإسـلام على السيف والإكراه، وطعنهم في النبـي بسبب تعدد زوجاته ﷺ، وقصة زواجه بالسيدة زينب بنت جحش على ما يذكرها من لا علم عندهم، ولا تحقيق ولا تمييز بين الغث والسمين.

ومن مزاعمهم إنكارهم الوحي بالمعنى الشرعي، وتفسيرهم له بالوحي النفسي، بل أسفَّ بعضهم فجعل الحالة التي كانت تعتري النبـي صلوات الله وسلامه عليه عند الوحي نوعاً من الصَّرَع، إلى غير ذلك مما أشبعت القول فيه في هذه السيرة المحققة.

ومن عجيب أمر المبشرين والمستشرقين أنهم في سبيل إرضاء أهوائهم، ونـزواتهم الجامحـة، وأحقادهم المـوروثة يصحِّحـون الـروايـات المكـذوبـة، والإسرائيليات المدسوسة، ما دامت تسعفهم وتساعدهم على باطلهم، على حين نجدهم يحكمون على روايات صحيحة، بل في أعلى درجات الصحة بالوضع والاختلاق؛ لأنها لا تؤيدهم فيما يجترحون من طعون، وتجنٍ أثيم على مقام النبـي وآل بيته.

ولست أدَّعي أني في ردِّي أباطيل المستشرقين والمـبشريـن ابـنُ بجدتها،

---

(١) حياة محمد، لإميل در منغم، ترجمة عادل زعيتر ص ١١؛ وحياة محمـد، لهيكل ص ١٠، ١١.

وأبو عذرتها[1]، فقد سبق إلى تزييف ذلك في القديم والحديث علماء أجلاء ـ جازاهم الله خيراً ـ ولكني ـ ولله الحمد والمنّة ـ قد أمكنني أن أضيف كثيراً إلى ما سُبقت إليه، حتى غدا كأنه جديد.

كما أعانني تخصصي في الأصلين الشريفين: القرآن وعلومه، والسنّة وعلومها، وصحبتي لهما ما يقرب من نصف قرن؛ أن أنقد المرويات وأمحصها وأن أميِّز بين صحيحها وضعيفها، وغثِّها وسمينها، وأن أضيف إلى ما قاله السابقون بعض ما فاتهم، وذلك كما صنعت في إبطال قصة الغرانيق، وفرية قيام الإسلام على السيف، وبيان الحِكم لتعدد زوجاته ﷺ، فقد استقصيت فيها القول، وأمطت اللثام عن وجه الحق.

* * *

٥ ـ لن أقصر دراستي في السيرة النبوية على السرد التاريخي فحسب، كما صنع معظم المتقدمين، وبعض المتأخرين، ولا على التعليق على مواقف السيرة، أو جلها، مع إغفال الهيكل الأصلي، أو الجانب التاريخي كما صنع بعض المحدثين، وإنما جمعت بين الحسنيين: الهيكل التاريخي مع تحرِّي الحقيقة، والتعليق على المواقف، ولا سيما الحاسمة في تاريخ الدعوة، وانتزاع العبر النافعة، والدروس المفيدة منها.

وما أذكر أني تركت حدثاً مهماً، أو موقعة فاصلة، أو سَرِية مهمة، أو عملاً بارعاً، أو سياسة راشدة، أو قيادة حكيمة، أو أي تصرف كريم للنبي ﷺ، أو لأحد أصحابه، إلا وقفت عنده، أو عندها وقفة أو وقفات، ليتبين للقارىء فرقُ ما بين الأخلاق المحمدية، وسياساته الحكيمة الرشيدة في السلم، والحرب، ومع الأصدقاء، ومع الأعداء، وما بين أخلاق غيره، وسياسته ومعاملته لأصحابه، ولأعدائه، مهما بلغ ذلك الغير من العقل، والعلم، والكياسة، والسياسة، والقيادة، والعدل، والرحمة؛ لكي أخلص من ذلك إلى الفرق البعيد ما بين النبوة، وغير النبوة، والبشر الرسول، وغير الرسول.

---

(١) يقال فلان ابن بجدتها، للعالم بالشيء، وأبو عذرتها إذا أتى بما لم يسبق إليه.

وفي الحق أن الـمُـحْدثين في باب التحليل، والتعليق، والموازنة بين المواقف قد أربوا في ذلك على المتقدمين، وأكسبوا السيرة جِدَّة ورواء، وقد تفاوتوا في ذلك على حسب تفاوتهم في المواهب، وسعة العلم والأفق، والاطلاع على سِير الآخرين.

* * *

٦ ـ النبوة شيء، والعبقرية شيء آخر.

وقد حرصت حينما فكرت في عنوان لهذا الكتاب أن لا أتكلَّف، فسميته «بالسيرة»[١]، وهو اللفظ الذي اختاره قدماء المؤلفين في السير، وقدماء الفقهاء حتى صار عرفاً إذا ذكر اسم السيرة أن لا ينصرف إلا إلى سيرة النبي ﷺ، أو سير أصحابه الكرام رضوان الله عليهم. وقد أضفت «في ضوء القرآن والسنّة» لأن طبيعة البحث والمنحى تقتضي ذلك، ولم أرتضِ أن أجعل العنوان «العبقرية»[٢] وكذلك حرصت حينما كتبت في هذه السيرة، وحلَّلت المواقف، وعلَّقت عليها على أن لا أصف النبي بالعبقرية، كما صنع مؤلفو «العبقريات» أو الزعامة السياسية، أو القيادة الحربية كما صنع الذين ألَّفوا في الزعامات والقيادات، أو أعدَّ النبي بطلاً فحسب كما صنع «كارليل» في كتابه «الأبطال» أو «رسول الحرية»، كما فعل بعض الكاتبين، إلى غير ذلك مما افتنَّ فيه المؤلفون؛ لأني أؤمن عن يقين وعلم أنه ﷺ فوق هؤلاء جميعاً، إنه النبي والرسول، وكفى!!

---

(١) قال في المصباح المنير: «والسيرة: الطريقة، وسار في الناس سيرة حسنة أو قبيحة. والجمع سِيَر مثل سِدْرة وسِدَر، وغلب اسم السير في ألسنة الفقهاء، على المغازي، والسيرة أيضاً، الهيئة والحالة».

(٢) العبقرية نسبة إلى عبقر، أرض تزعم العرب أنها تسكنها الجن، ضرب بها العرب المثل لكل شيء عجيب عظيم، وقيل: قرية تصنع بها الثياب والبسط الفاخرة، فنسبوا إليها كل أمر عجيب، وكل شيء فاخر. وفي الكتاب الكريم: ﴿متكئين على رفرف خضر، وعبقري حسان﴾ جيد البسط وفاخرها، ويطلق العبقري أيضاً على سيد القوم، وقيمهم، وأعقلهم.

والعبقري: هو الأصيل الرأي، البعيد النظر، الذي لا يفوقه أحد في حل المشكلات، من غير تعمُّل، ولا تكلُّف، وقد وصف به النبي ﷺ سيدنا عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ ففي الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ: «أُريت في المنام أني أنزع بدَلْو بكرة على قَليب، فجاء أبو بكر، فنزع ذَنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً[1]، واللّـهُ يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت ـ أي الدلو ـ غرباً[2]، فلم أرَ عبقرياً يفري فريه، حتى روى الناس، وضربوا بعَطَن»[3]. ولم أعلم أحداً غير عمر وصفه النبي ﷺ بالعبقري، وهو ما عبَّر عنه النبي صلوات الله وسلامه عليه في حديث آخر «بالمحَدَّث».

ففي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن النبي ﷺ قال: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحَدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر بن الخطاب» والمحدَّثون: هم الملهمون في إصابة الحق والصواب، وفي حل المعضلات وابتداع ما لم يُسبقوا إليه. قال الإمام الخطابي: «يُلقى الشيء في رُوعه، فكأنه قد حُدِّث به، يظن فيصيب، ويخطر الشيء بباله فيكون». وقال أبو أحمد العسكري وغيره: «هو من أُلقي في رُوعه شيء من قبل الملأ الأعلى، فيكون كالذي حدثه غيره»[4]. ووقع في بعض الروايات تفسير المحدَّث بأنه «الملهم بالصواب الذي يُلقى على فيه»، ووقع في

---

(١) القليب: البئر، الذنوب: الدلو الملأى بالماء، وهو كناية عن قصر مدة خلافته ـ رضي الله عنه ـ وقلة الفتوحات لاشتغاله بحروب الردة وتثبيت دعائم الإسلام وبحسبه فضلاً هذا.

(٢) الغرب: الدلو الكبير.

(٣) يفري فريه: يعمل عمله، ويقدر الأمور مثله، والعطن: مبارك الإبل حول الآبار والمياه، والكلام كناية عن طول خلافته، وكثرة الفتوحات في عهده، وانتفاع الناس بثمرات الفتوح، وتدوينه الدواوين، وتمصيره الأمصار.

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٧ ص ٣٩، ٤٠.

صحيح مسلم من رواية ابن وَهْب «مُلْهَمون»، وهي «الإصابة بغير نبوة»، ووقع في رواية للبخاري زيادة «من غير أن يكونوا أنبياء»[1].

فمن ثَمَّ نرى أن المعاني كلها تلتقي عند معنى الإلهام، وأن في بعض الروايات التنصيص على أنه إلهام بغير نبوة، فدل على فرق ما بين إلهام الأنبياء وإلهام المحدَّثين غير الأنبياء، وهذا الإلهام بغير نبوة هو ما يعرف بالعبقرية، فهي لا ترجع إلى الذكاء، والفطنة، والتجربة، وإنما مرجعها إلى الإلهام وإلقاء الصواب في النفس من غير تعمُّل وتكلُّف، فالعبقرية إذاً تليق بمُلهم محدَّث من أصحابه كعمر، والزعامة إنما تليق بسياسي محنك كمعاوية مثلاً، والقيادة الحربية إنما تليق بأمثال سيف الله خالد، وسعد، وأبي عبيدة، والبطولة إنما تليق بالكثيرين من أصحابه كعلي، وأبي دُجانة، وأبي طلحة، والمقداد بن عمرو، وطلحة بن عبيدالله ــ رضي الله عنهم أجمعين ــ على ما اتصفوا به من قوة الإيمان، وحسن السيرة، وسمو الأخلاق.

إنه ﷺ فوق أي عبقري، وأجلُّ من أي زعيم، وأعظم من أي قائد، وأشجع من أي بطل، وأسمى من أي مصلح، لقد جمع له من صفات هؤلاء خيرها، وأفضلها، وأعدلها، وأرحمها. ولكنه فوق هؤلاء جميعاً، إنه نبي يوحى إليه، ورسول يبلِّغ عن ربه، وهذا ما لا يدرك ولا ينال.

فجعل العبقرية، أو الزعامة، أو القيادة، أو البطولة، أو الإصلاح، أو أو. . . عنواناً له ﷺ فيه تحيُّف عليه، وهضم لحقه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والذين كتبوا في حياة النبي وسيرته من غير المسلمين لا يؤمنون به على أنه نبي ورسول، فمن ثَمَّ كتبوا عنه على أنه عظيم، أو بطل، أو مصلح، أو زعيم أو نحو ذلك، وإن كان بعضهم كتب عنه تحت عنوان «حياة محمد» ولا يجوز لنا معاشر المسلمين المؤمنين، ولا سيما أهل العلم، والدين، أن نجاريهم فيما عنونوا

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب مناقب عمر، وصحيح مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ــ باب فضائل عمر.

به وفيما وصفوه مما يخلّ بالنبوة، أو يخدشها؛ لأننا نعتقد أنه نبـي ورسول، وكل الصيد في جوف الفِرا.

ومما يزيد الضوء والتوضيح لما أُريد أن الفاروق الملهم العبقري، وصاحب الموافقات[1]، والذي قال فيه النبي «إن الله جعل الحق على لسان عمـر وقلبه»[2] كان كثيراً ما يبدي رأياً، ويبدي رسول الله رأياً، فإذا به يعود إلى رأي رسول الله مذعناً مقتنعاً، فمن ذلك أنه لما عرض على النبي أن يقتل رأس النفاق ابن أُبَـيّ بعدما كاد يثير فتنة بين المهاجرين والأنصار قال له النبـي: «وكيف يتحدَّث الناس ــ يا عمر ــ أن محمداً يقتل أصحابه»؟!! ثم كان من المؤمن الصادق عبدالله بن عبدالله بن أُبـيّ أن جاء إلى النبـي يعرض عليه قتل أبيه فقال له: «لا بل نترفّق به، ونحسن صحبته ما دام بيننا»!! وصار من أمر رأس النفاق أنه كلما أبدى لوناً من ألوان النفاق لامه قومه وعنفوه، فأراد أن يبين الرسول لسيدنا عمر بعد نظره، وأصالة رأيه لمّا أبـى على عمر قتله فقال: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتُه يوم قلت لي لأرعدت له آنُف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»!! فقال عمر: قد ــ والله ــ علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري!!.

وفي قصة حاطب بن أبـي بَلْتعة قال الفاروق عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، وما كان ــ علم الله ــ منافقاً، فقال له النبـي: «وما يدريك يا عمر لعل الله اطَّلع على أهل بدر، فقال لهم: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم ذنوبكم»!!

فإذا عمر يبكي بعد أن تبين له الحق، فيقول: «الله ورسوله أعلم»!!

وسيدنا عمر هو القمة في العبقرية، ولكن أين العبقرية من النبوة؟!

ومن العجيب حقاً أن هذا المعنى الدقيق سبق إلى العلم به العباس عم

(١) كان الفاروق عمر يرى الرأي ويتمناه فينزل الوحي بموافقته.
(٢) رواه أحمد وغيره.

النبي ﷺ، على حين غفل عن إدراكه كبار الكتاب، وحذّاق المؤلفين المعاصرين الذين ضربوا في كل علم وفن بسهم، وليس أدل على هذا من هذه القصة: ذلك أنه لما أسلم أبو سفيان بن حرب ليلة الفتح ـ وكان العباس رضي الله عنه قد سبقه إلى الإسلام ـ قال النبي للعباس: «خُذْ أبا سفيان، وقف به عند خَطْم[1] الجبل» وذلك ليرى جيش الفتح، فمرت به كتائب الله، وفيها «الكتيبة الخضراء» كتيبة رسول الله ﷺ، فلم يملك أبو سفيان نفسه أن قال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً!! فقال له العباس رضي الله عنه: إنها النبوة يا أبا سفيان!! فقال: نعم ـ والله ـ إنها النبوة!!

لقد وقفت عند هذه الكلمة طويلاً، وهي التي أوحت إلي بما كتبت، وأكّدت في نفسي ما كنت علمت[2].

* * *

٧ ـ المعجزات الحسية:

الذي أؤمن به أن القرآن هو المعجزة العظمى للنبي ﷺ، والآية العقلية الباقية على وجه الدهر، وأنه آية الآيات، ومعجزة المعجزات، ولكني أؤمن أيضاً أن النبي ﷺ أُوتي من المعجزات الحسية مثل ما أوتي الأنبياء السابقون، بل وأعظم، وهذه المعجزات الحسية بعضها ثابت بالقرآن الكريم نصاً: كالإسراء، وانشقاق القمر، أو بالإشارة إليه كالمعراج، وبعضها ثابت بالأحاديث المتواترة، والكثير منها ثابت بالأحاديث الصحيحة المروية في الصحيحين وغيرهما من كتب

---

(١) هو ما برز منه في الطريق.

(٢) أذكر أنه طلب إلي من منذ بضعة عشر عاماً أن أكتب مقالاً لمجلة الأزهر بمناسبة الميلاد النبوي، فكتبت مقالاً تحت عنوان «عبقرية النبي السياسية» وقد عرض المقال على أستاذنا الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله رحمة واسعة، وكان شيخَ الأزهر آنذاك، فقرأ المقال وارتضاه، إلا أنه وقف عند العنوان، وصار يبتسم ابتسامته الوقورة المعبِّرة، ففهمت ما أراد، واستشرته، فأشار علي أن أغيِّر «عبقرية» «بموهبة» فأذعنت بعد أن اقتنعت، وكتبت تحت هذا العنوان بضع مقالات موسمية في مجلة «الأزهر»، ومن يومها وأنا أبالغ في التحرِّي حينما أكتب عن الرسول ﷺ.

السنن والمسانيد. ولا يطعن في كونها معجزات أن النبـي ﷺ لم يتحدَّ الناس بها كما تحدَّاهم بالقرآن الكريم؛ لأن فريقاً من العلماء لا يشترط في المعجزة أن تكون مقترنة بالتحدي، ثم إن بعضها وإن لم يقع التحدِّي به صراحة، لكنه في قوة المتحدَّى به، ففي الصحيحين وغيرهما عن عدة من الصحابة أن المشركين من أهل مكة «سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم القمر شِقَّين حتى رأوا حراء بينهما».

ولا أدري ما الداعي إلى إنكار المعجزات الحسية؟! والشيء إذا تواردت عليه الأدلة والبراهين ازداد قوة وثبوتاً، وفي كتب الأحاديث من الصحاح والسنن والمسانيد الكثيرُ من المعجزات الحسية، والإمامان البخاري ومسلم ــ وهما من هما، دقة وتحرياً عن الرجال، وتشدّداً في الحكم بالتصحيح ــ قد خرَّجا في صحيحيهما قطعة كبيرة منها، وعقد الإمام البخاري لذلك باباً كبيراً[1]، ومن أراد زيادة في بحث «المعجزات الحسية» فليرجع إلى الفصل الذي كتبته في الرسالة التي ألفتها في «الإسراء والمعراج»[2].

والأقدمون من المؤلفين في السير والتاريخ ذكروا الكثير من المعجزات الحسية، وإن اختلفوا في ذكرها قلَّة وكثرة، وابن إسحاق ــ شيخ كتاب السِّيَر وعمدتهم ــ ذكر منها جملة مع قرب عصره من عصر النبوة، وقد لقي الكثيرين ممن أخذوا العلم والحديث عن الصحابة العدول، وروى عنهم.

وقد ابتدع هذه البدعة السيئة ــ وهي الاكتفاء بالقرآن ــ المستشرقون، ثم سرت عدوى هذه البدعة إلى كتابنا المعاصرين كالدكتور محمد حسين هيكل ــ رحمه الله ــ في كتابه «حياة محمد»، وكذلك صنع المستشرق الفرنسي الذي أسلم (اتيين دينيه) وزميله السيد سليمان إبراهيم الجزائري، في كتابيهما «حياة محمد»، وقلما تجد أحداً من المؤلفين المتأخرين في «السيرة النبوية» يذكر شيئاً من المعجزات الحسية.

---

(١) صحيح البخاري ــ باب علامات النبوة.
(٢) ص ٢٠ ــ ٢٧.

ومن هؤلاء من يتلطف فيقول: إنه ما دام القرآن آية دالة على صدق النبي ﷺ، فنحن في غنية عن غيره من الآيات، ولا سيما والكثير منها لم يثبت إلا بالطرق الآحادية التي لا تفيد اليقين، ومنهم من يجاهر فينكر المعجزات الحسية جملة!!.

وأحب أن أقول لهؤلاء وأولئك: إن موقفهم من المعجزات الحسية وإنكارها، حدا ببعض المبشرين والمستشرقين إلى الطعن في النبي، وتفضيل غيره من الأنبياء عليه، بحجة أن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام ليس له من المعجزات الحسية المتكاثرة ما لموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وهكذا نراهم قد أعطوا لأعداء النبي ــ وإن لم يقصدوا ــ متكأ لهمزه ولمزه.

وأما أنا ــ اتباعاً للمنهج العلمي الصحيح ــ فلن أجاريهم في هذا، فالشيء ما دام من الممكنات العقلية، ثم أخبر بوقوعه الرواة الموثوق بهم عدالة، وضبطاً، وأمانة، فلا يجوز أن ننكره استناداً إلى استبعاده في العادة، وهل المعجزات إلا أمور خارقة للعادة.

وقد يكون من العوامل التي جعلتني أقف هذا الموقف بعد البحث والروية أني من المتخصصين في الحديث الشريف وعلومه، الذين سبحوا في بحاره، وغاصوا في أعماقه، حتى وصلوا إلى شيء من لآلئه ودرره، واقتنعوا بعد الدراسة الطويلة المضنية بدقة ووفاء القواعد التي وضعها أئمة الحديث، وصيارفته وأطباؤه، لمعرفة الصحيح، من الحسن، من الضعيف، والمقبول من المردود(١)، وليس من البحث العلمي السليم إنكار المرويات جملة، وإنما الطريقة العلمية الصحيحة نقدها من ناحية السند والمتن، فإن لم نجد فيها مطعناً قبلناها، وإلا تركناها، فإذا لم نتبع هذه الطريقة صار الإنكار هوى وشهوة.

وإليك ما ذكره الإمام الحافظ الكبير ابن حجر في هذا، قال: «وأما ما عدا القرآن من نبع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام، وانشقاق القمر، ونطق

---

(١) أعلام المحدثين للمؤلف ص ٣٥ ــ ٤٢.

الجماد، فمنه ما وقع التحدِّي به، ومنه ما وقع دالاً على صدقه من غير سبق تحدٍّ، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده صلى الله عليه وسلم من خوارق العادات شيء كثير، كما يقطع بوجود جود حاتم، وشجاعة علي، وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت مورد الآحاد، مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر، وانتشر، ورواه العدد الكبير، والجم الغفير، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار، والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلك، بل لو ادَّعى مُدَّعٍ أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظري لما كان مستبعداً، وهو أنه لا مرية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدَّثوا بهذه الأخبار في الجملة، ولا يحفظ عن أحد من الصحابة، ولا من بعدهم مخالفة الراوي فيما حكاه من ذلك، ولا الإنكار عليه فيما هنالك، فيكون الساكت منهم كالناطق، لأن مجموعهم محفوظ من الإغضاء على الباطل»(١).

ومعذرة إذا كنت أطلت في هذا، فالأمر يتعلق بمنهجين، وطريقتين، فكان لا بد من بيان الطريقة المثلى، والمنهج الحق المبين.

* * *

٨ ــ قد عنيت ــ ما استطعت ــ بذكر التشريعات الإسلامية وتاريخها، ولا سيما في القسم الثاني المدني الذي حفل بها، لأنها وثيقة الصلة بالسيرة النبوية، كما أخذت نفسي بذكر نبذ موجزة ــ ولكنها مفيدة ــ عن هذه التشريعات، حتى أعطي للقارىء صورة صادقة للإسلام الصحيح، وذلك كما صنعت في تشريع الصلاة، والأذان، وتحويل القبلة إلى الكعبة، والصوم، والزكاة، والعيدين، والحجاب، ونكاح المتعة ونحوها، وكذلك الأحداث المتعلقة بالسيرة كبناء مسجد قباء، والمسجد النبوي، وفضلهما، ومنزلة المساجد في الإسلام، ومسجد الضرار، وزواج النبي من أزواجه، مع بيان الحكمة في هذا الزواج، وذكر تعريف بكل زوجة، ومواليد المشاهير من الصحابة،

---

(١) فتح الباري، ج ٧ ص ٣٩٢ ــ ٣٩٣ ط الحلبي.

ووفياتهم، والتعريف بفضلهم ومنزلتهم بإيجاز، حتى لا يصل الكتاب إلى بضعة أسفار، إلى غير ذلك مما لا يستغني عن معرفته مسلم، فضلاً عن طالب علم.

ولذلك التزمت التسلسل الزمني في السيرة بذكر السنوات وما حدث فيها كما صنع كثير من المؤلفين، ليسهل على القارىء لهذه السيرة معرفة تاريخ هذه التشريعات حتى بمجرد النظر إلى الفهرس، وقد آثرتُ هذه الطريقة على الطريقة الموضوعية في البحث، وإن كنت في بعض الأحيان التزمت الطريقة الموضوعية في البحث كما صنعت في هذا الجزء حينما عرضت لسياسة «الاضطهاد والإيذاء» وسياسة «الإطماع والإغراء» وعدم جدوى السياستين مع النبي ﷺ والمؤمنين المخلصين.

وفي الجزء الثاني حينما عرضت لبيان «موقف الإسلام من اليهود، وموقف اليهود من الإسلام» فقد جمعت الموضوع في مكان واحد، وكذلك فاتني، أو إن شئت الدقة فقل: أعجلت عن أن أكتب فصلاً آخر عن «موقف الإسلام من المنافقين وموقف المنافقين من الإسلام» وسأتدارك ذلك ـ إن شاء الله ـ في الطبعة الثانية للجزء الثاني، كما فاتني أن أذكر في الفصول الموجزة التي ختمت بها الجزء الثاني عن المثل الكامل ﷺ، وجوانب حياته المشرقة بعض الفصول مثل «النبي المشرِّع» و«النبي القاضي» و«النبي المفتي» ونحوها وسأتدارك ذلك بمشيئة الله تبارك وتعالى.

وقد التزمت هذا المنهج بذكر التشريعات، وأخلاق الرسول في نفسه، ومع ربه تبارك وتعالى، ومع أهله وزوجه وولده، ومع أصحابه، ومع أعدائه، وفي سره، وعلنه، ويسره، وعسره، ومنشطه، ومكرهه، حتى يخرج القارىء لهذه السيرة العطرة بصورة مشرقة معبرة عن الرسالة، وعن الرسول.

* * *

٩ ـ قد حرصت ما استطعت على ذكر النقول بنصها ولا سيما فيما يتعلق بما ذكره ابن إسحاق في سيرته، إلا أن يكون هناك نص أصح منه، أو أوثق أو أوفى مروي في غير السيرة فإني أؤثره عليه، وذلك لما يمتاز به التأليف في

العصور الأولى من قوة الأسلوب، وفحولة المعاني، وجزالة الألفاظ، وإشراق الديباجة، والتزام أساليب العرب، ومذاهبهم في البيان.

وإنك لتقرأ في كتب الحديث، أو في سيرة ابن هشام، أو إن شئت الإنصاف سيرة ابن إسحاق، فتحس بأنك تعيش في جو عربي أصيل، وأنك بين قوم عرب أصلاء، فلا ميوعة في الألفاظ، ولا ضحولة في المعاني، ولا مسخ لمناهج العرب في التعبير، ولهذا آثرت المحافظة على النصوص حتى تكون السيرة إلى فائدتها العلمية أداة من أدوات تقويم اللسان، واستقامة البيان، وتعلم الأساليب العربية الفحلة، ولن يستقيم للأمة العربية اليوم أساليبها البيانية، وتتقوم ألسنتها على القواعد العربية، حتى ترجع إلى منابع العربية الفصحى السليمة وهي القرآن، والحديث، وما أثر عن العرب الخلَّص في الجاهلية والإسلام.

* * *

ـ ٢ ـ
تاريخ التأليف في السيرة وأشهر كتبها

لقد عُني المسلمون عناية فائقة بأحاديث رسول الله ﷺ، وسننه، وأيامه، ومغازيه، وقبل أن تدوَّن الأحاديث تدويناً عاماً في آخر القرن الأول الهجري، كانت مقيدة في الحوافظ، مدوَّنة في الصدور عند جمهرة الصحابة، والتابعين، وكان القارئون الكاتبون منهم يدونون منها ما استطاعوا من لدن النبي ﷺ إلى عهد التدوين، ومن ذلك ما يتعلق بسيرة النبي ومغازيه.

السيرة جزء من الحديث

وقد شغلت السيرة النبوية حيزاً غير قليل من الأحاديث، والذين ألفوا في الأحاديث لم تَخْلُ كتبهم غالباً عن ذكر ما يتعلق بحياة النبي ومغازيه، وخصائصه، ومناقبه، ومناقب صحابته، وقد استمر هذا المنهج حتى بعد انفصال السيرة عن الحديث في التأليف، وجعلها علماً مستقلاً، وأقدم كتاب وصل إلينا في الأحاديث، وهو «موطأ» الإمام مالك ـ رحمه الله ـ (المتوفى ١٧٩)، لم يَخْلُ من ذكر جملة من الأحاديث فيما يتعلق بسيرة النبي ﷺ، وأوصافه، وأسمائه، وذكر ما يتعلق بالجهاد.

وصحيح الإمام أبي عبدالله البخاري (المتوفى ٢٥٦) ذكر فيه قطعة كبيرة مما يتعلق بحياة النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، كما ذكر كتاب «المغازي» وما يتعلق بخصائصه وفضائله عليه الصلاة والسلام، وفضائل أصحابه ومناقبهم، وذلك كله لا يقل عن عشر الكتاب[1]، وكذلك صحيح الإمام

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد، وكتاب المغازي، وكتاب الفضائل، وأبواب المناقب.

أبـي الحسين مسلم بن الحجـاج (المتوفى ٢٦١) اشتمل على جزء كبير من سيرة النبـي، وفضائله، وفضائل أصحابه، والجهاد والسير[١].

وكذلك صنع الإمام أحمد (المتوفى ٢٤١) في مسنده الكبير، وأبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، لم تخل كتبهم من كتاب الجهاد، وذكر طرف مما يتعلق بالسِيَر، وهذا يدل على الصلة الوثيقة بين الأحاديث والسيـر، فهي جزء منها.

التأليف في السير على سبيل الاستقلال

وكذلك أُلِّفَت في السيرة النبوية كتب خاصة بها، وقد بدأ التدوين فيها على سبيل الاستقلال في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وأول من عرف بالمغازي والسير جماعة منهم:

١ ــ أبان بن عثمان بن عفَّان: ابن الخليفة الثالث ــ رضي الله عنه ــ وكان أبَان والياً على المدينة لعبدالملك بن مروان سبع سنين، وعرف بالحديث والفقه، والظاهر أن سيرته التي جمعت لم تكن إلا صحفاً فيها أحاديث عن حيـاة رسول الله ﷺ، وأيامه، ومغازيه، وقد فقدت فيما فقد من كتب المسلمين وكانت وفاته سنة خمس ومائة.

٢ ــ عُرْوة بن الزبير بن العوام: أبوه الزبير حَوَارِيُّ رسول الله ﷺ، أسلم قديماً، وشهد الغزوات، والمشاهد كلها، وأمه السيدة أسماء بنت الصديق التي شهدت الكثير من أحداث السيرة، وكان لها عمل مشهور مذكور في الهجرة، وكان عروة ثقة كثير الحديث، وقد خرَّج له أصحاب الصحاح، وغيرهم، وقد روى الحديث عن خالته السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ وعن غيرها من الصحابة، وكان معروفاً بتدوين العلم والحديث، روى ابنه هشام قال: «أحرق أبـي يوم الحرَّة كتباً قد كانت له»، فكان يقول: «لأن تكون عندي أحب إلي من أن يكون لي مثل أهلي وولدي»، ولم يصل لنا شيء من كتبه.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢، ١٣، ١٥، ١٦.

ولكن وصل إلينا الكثير من روايته في كتب الحديث والسير وتوفي سنة اثنتين أو ثلاث أو خمس وتسعين للهجرة.

٣ ـ الإمام محمد بن شهاب الزهري: عالم الحجاز، والشام، وهو من الثقات في الرواية، أجمع العلماء على جلالته، أخرج له أصحاب الصحاح، والسنن، والمسانيد، وهو من أوائل من دوَّنوا الحديث بأمر الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ (المتوفى ١٠١) بل قيل: إنه أول من دوَّن الحديث مطلقاً، وكذلك قيل: إنه أول من دوَّن في السيرة، وسيرته أول سيرة ألفت في الإسلام(١)، وهي من أوثق السير وأصحها، ويعتمد عليه ابن إسحاق كثيراً في السيرة توفي سنة ١٢٠هـ.

طبقة أخرى

ثم جاء بعد هؤلاء طبقة(٢) أخرى، من مشاهيرهم:

١ ـ عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الأنصاري: كان جده قتادة من أصحاب رسول الله ﷺ، شهد بدراً وأحداً والمشاهد، وأصيبت عينه يوم أحد، فسقطت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ، فعادت أحسن عينيه وأحدّهما، وابنه عمر روى المغازي والأخبار عن أبيه، ورواها عن عمر ابنه عاصم، قال فيه ابن سعد: كان راوية للعلم، وله علم بالمغازي والسير، أمره عمر بن عبدالعزيز أن يجلس في مسجد دمشق، ويحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة، ففعل، وكان من المصادر المهمة التي اعتمد عليها ابن إسحاق، والواقدي، توفي سنة عشرين ومائة، وقيل: تسع وعشرين ومائة.

٢ ـ عبدالله بن أبي بكر، بن محمد، بن عمرو، بن حزم الأنصاري: جده الأعلى عمرو صحابي، بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، ليفقههم في الدين، ويعلمهم القرآن والسنة، وجده محمد قيل: له رؤية، مات يوم الحرة،

---

(١) الروض الأنف، ج ١ ص ١٢٢؛ السيرة الحلبية، ج ١ ص ٢.

(٢) الطبقة في اصطلاح المحدثين: جماعة تقاربوا في السن، واجتمعوا في لقاء المشايخ، والأخذ عنهم.

وأبوه أبو بكر كان قاضي المدينة، وواليها، وهو أول من دوَّن الحديث بأمر عمر بن عبدالعزيز أو من أوائلهم، فقد نشأ إذاً في بيت علم ورواية، وقد نقلت عن عبدالله أخبار كثيرة ذكرها ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، والطبري توفي سنة خمس وثلاثين ومائة.

طبقة أخرى

ثم جاء بعد هذه الطبقة طبقة أخرى عاشت في العصر العباسي الأول، من أشهرهم:

١ ــ موسى بن عقبة: مولى الزبيريين، والظاهر أنه استفاد من هذه الصلة، قال فيه الإمام مالك: «عليكم بمغازي ابن عقبة، فهي أصح المغازي». وكانت سيرته التي كتبها مختصرة موجزة وصل إلينا منها بعض مقتطفات، ينقل عنه ابن سعد والطبري بعضَ أخبار السيرة، وقد روى له البخاري في الصحيح[1]، وكانت وفاته سنة إحدى وأربعين ومائة.

٢ ــ محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي: وهو من أصل فارسي، كان جده يَسار من سبي «عين التمر» سباه خالد بن الوليد، وكان ولاؤه لقيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، فلذلك قيل له: المطَّلبي ولد نحو سنة خمس وثمانين، لقي كثيراً من علماء المدينة وأخذ عنهم، قال فيه الإمام الشافعي: «من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق» وهو يعتبر ثقة في المغازي، لكنه مضعَّف في رواية الحديث، وجرحه بعض المحدثين، وأثنى عليه آخرون، ألف ابن إسحاق كتابه المغازي، وهو أقدم كتاب وصل إلينا في السيرة، ألَّفه للمهدي بأمر أبيه المنصور، جمع فيه تاريخ العالم منذ خلق الله آدم إلى زمنه، وقد طوَّل فيه فلم يرضه المنصور، وأمره باختصاره فاختصره، ولكن الكتاب جاء بعد هذا يفيض بالكثير مما لا يتصل بسيرة الرسول، ويعرض الكثير مما لا يؤيده دليل، ويفشو فيه الشعر المنحول[2]، والخبر المفحش، والرواية

---

(١) صحيح البخاري ــ كتاب المغازي ــ باب الخندق، وباب غزوة بني المصطلق، تعليقاً في التراجم، وروى له في أصول الكتاب.

(٢) المنسوب لغير قائله.

المنكرة، هذا إلى سوقه على نهج لا يؤلف بين أجزائه نظام[1]، وأيضاً فله أوهام ــ أغلاط ــ فيه كما سنبين بعض ذلك فيما يأتي، توفي ببغداد سنة إحدى وخمسين ومائة، وقيل اثنتين وخمسين.

٣ ــ الواقدي محمد بن عمر بن واقد مولى بني هاشم: كان الثاني بعد ابن إسحاق في العلم بالمغازي والسير والتواريخ، وكان معاصره مع صغر سنه عنه، وقد لقي الكثيرين من الشيوخ، وروى عنهم، وكان كثير العلم بالتاريخ والحديث، وقد اختلف في تقديره المحدِّثون ما بين معدل ومجرِّح له، ويروى أنه اختلط[2] في آخر عمره، قال فيه البخاري: «منكر الحديث» ولكنهم لا يطعنون في سعة علمه بالمغازي قال فيه الإمام أحمد بن حنبل: «إنه بصير بالمغازي» على حين قال فيه أيضاً «الواقدي يركب الأسانيد»[3]. عني الواقدي بالمغازي والسير بخاصة، والتاريخ الإسلامي بعامة، وكان لا يعرف كثيراً من أمور الجاهلية.

وقد كانت كتبه عمدة للمؤرخين من بعده، ونقلوا منها واقتبسوا، وللواقدي كتاب «التاريخ الكبير» مرتب على السنين، اقتبس منه الطبري في تاريخه كثيراً، وكتاب «الطبقات» ذكر فيه الصحابة والتابعين حسب طبقاتهم، ويظن أن كاتبه ابن سعد قد تأثر به في «طبقاته»، ولم يبق لنا من كتبه إلا كتاب «المغازي» وكان من أكبر المصادر التي اعتمد عليها الطبري في تاريخه، توفي ببغداد سنة سبع ومائتين وقيل تسع.

طبقة أخرى

ثم جاء بعد ذلك طبقة أخرى، من مشاهيرهم:

١ ــ أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المَعَافِري[4]: من

---

(١) مقدمة مختصر سيرة ابن هشام، ص ٣.

(٢) أصابته غفلة وسوء حفظ.

(٣) أي يضع للمرويات أسانيد قوية بدل الضعيفة.

(٤) بفتح الميم والعين المهملة، وبعد الألف فاء مكسورة، نسبة إلى المعافر بن يعفر قبيل كبير، ينسب إليه بشر كثير عامتهم بمصر.

مصر، وأصله من البصرة، وله كتاب في «أنساب حِمْير وملوكها» وكتاب في «شرح ما وقع في أشعار السيرة من الغريب» وله الكتاب الذي اشتهر به «السيرة» وهو مختصر لسيرة ابن إسحاق، مع بعض الزيادات، أو التعقبات والتصحيحات، ولئن كانت سيرة ابن إسحاق لم تصلنا بعينها فقد وصلتنا مهذبة على يد ابن هشام.

وقد تلقَّاها عن زياد بن عبدالله البكَّائي[1] (المتوفى سنة ١٨٢) عن ابن إسحاق وقد بين ابن هشام في المقدمة منهجه حيال سيرة ابن إسحاق فقال: «وأنا ـ إن شاء الله ـ مبتدىء هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم، ومن ولد رسول الله ﷺ من ولده، وأولادهم لأصلابهم: الأول فالأول من إسماعيل إلى رسول الله، وما يعرض من حديثهم، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل ـ على هذه الجهة ـ للاختصار، إلى حديث سيرة رسول الله ﷺ، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق مما ليس لرسول الله فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه ـ لما ذكرت من الاختصار ـ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعضه لم يقر لنا البكائي بروايته، ومستقصٍ ـ إن شاء الله تعالى ـ ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له، والعلم به»[2].

من أجل هذا نُسِيَ ابن إسحاق، وذُكر ابن هشام، فلم يعد يذكر هذا الكتاب في السيرة إلا مقروناً باسم ابن هشام، لا يكاد يذكر ابن إسحاق إلى

(١) هو أبو محمد زياد بن عبدالله البكائي شيخ ابن هشام، روى عنه البخاري في كتاب الجهاد، وخرَّج له مسلم في مواضع من كتابه، وكفى بهما مزكِّيَيْن، وموثِّقين، وذكر البخاري في «التاريخ» عن وكيع قال: «زياد أشرف من أن يكذب في الحديث»، وقد وَهِم الترمذي، فنقل عن البخاري أنه قال: «قال وكيع: زياد على شرفه يكذب في الحديث» ولو صح ما نقله عنه الترمذي لما خرَّج له سديثاً، ولا خرَّج له مسلم (الروض الأنف، ص ٥).

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣.

جانبه، وهذا بالنسبة للمتأخرين، أما المتقدمون فلا يـذكرون إلا ابن إسحاق، وكانت وفاة ابن هشام سنة ثماني عشرة ومائتين.

وقد شرح هذه السيرة شرحاً يدل على تبحُّر في العلم، وتضلُّع في علم اللغة والأدب والأخبار، الإمامُ أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي[1] الأندلسي، المولود سنة ثمان وخمسمائة والمتوفى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، في كتابه القيم «الروض الأُنُف» وكان ــ رحمه الله ــ إلى جانب علمه معروفاً بالصلاح، والتقوى، والورع.

٣ ــ محمد بن سعد تلميذ الواقدي وكاتبه: يدوِّن له كتبه وأخباره، ومن أجل هذا لقب «بكاتب الواقدي» ولد بالبصرة سنة ثمان وستين ومائة، وآباؤه موال للحسن بن عبدالله بن عبيدالله بن العباس، وأجلُّ كتبه «الطبقات الكبير» في ثمانية أجزاء، وقد خصَّص الجزء الأول والثاني من كتابه لسيرة رسول الله ﷺ ومغازيه، وخصَّص الأجزاء الستة الأخرى لأخبار الصحابة والتابعين مرتباً لهم على حسب الأمصار، ثم رتَّب علماء كل مصر حسب شهرتهم وزمنهم، وقد حظي ابن سعد بثناء بعض المحدِّثين، قال فيه الخطيب البغدادي: «محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة، وحديثه يدل على صدقه، فإنه يتحرَّى في كثير من رواياته» وهو أحد شيوخ المؤرخ الكبير البلاذري، وتوفي ببغداد سنة ثلاثين ومائتين[2].

وممن عرف في التأليف في المغازي من طبقة تلي هؤلاء:

سعيد بن يحيى، بن سعيد، بن أبان، بن سعيد، بن العاص، بن أبـي أُحيحة، أبو عثمان البغدادي: ثقة ربما أخطأ، من العاشرة، روى له البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي. وقد قال الحافظ الذهبي في ترجمة أبيه يحيى بن سعيد بن أبان: «المحدِّث الثقة، وحدَّث عنه ابنه سعيد بن يحيى

(١) سهيل الذي ينسب إليه واد بالأندلس من كورة «مالقا»، وفيه قرى، وفي إحدى هذه القرى ولد السهيلي.
(٢) ضحى الإسلام، ج ٢ ص ٣٢٠ ــ ٣٣٨.

صاحب المغازي، وأحمد بن حنبل» وكانت وفاته سنة تسع وأربعين ومائتين، ولعله هو الذي يعنيه الحافظ المؤرخ ابن كثير في بدايته بقوله: قال الأموي.

منهج هؤلاء المؤلفين

وقد نهج مؤلفو هذه الكتب منهج المحدِّثين في الرواية: من ذكر الأسانيد، والنظر في الرواة، وإن لم يلتزموا ما التزمه المحدِّثون من التشدد في التعديل والتجريح، وقبول الرواية، وربَّ رجل مجرَّح عند أهل الحديث وهو ثقة عند أهل السير، وهذا يرجع إلى اختلاف الغرضين، فغرض المحدث ذكر الأحاديث التي هي مناط معرفة الحلال والحرام، ومن ثَمَّ كان لا بد من التشدد في الرواية، وغرض المؤلف في السير والتواريخ ذكر أخبار ليست مناط الحلال والحرام غالباً، فمن ثَمَّ تساهلوا، ووُجدت في كتبهم الروايات المرسلة، والمنقطعة، والمعضلة، والشاذة، والمنكرة، بل الموضوعة المختلقة على قلة[1] بل المحدثون أنفسهم يتشدَّدون ويبالغون في التحرِّي عن الرواة حينما يروون أحاديث الأحكام، ويتساهلون بعض الشيء في رواية الفضائل، روي عن الإمام أحمد أنه قال: «نحن إذا روينا في الحلال والحرام شدَّدنا، وإذا روينا في الفضائل تساهلنا»، وفي معنى الفضائل المغازي، والسير، وروي عنه أيضاً أنه قال: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازي»، ومراده أنه يغلب فيها رواية المراسيل، والمنقطعات، والبلاغات[2]، ونحوها، وإلَّا فقد صحَّ فيها أحاديث كثيرة.

كتب أُلِّفت في السِيَر بَعْدُ

ثم جاء بعد هؤلاء علماء كثيرون أَلَّفوا في السير، ما بين مُطْنب، وما بين موجز، وما بين متوسط، ومنهم من اعتنى بذكر الأسانيد، ومنهم من حذفها

---

(١) المرسل: ما حذف منه الصحابي. المنقطع: ما حذف منه واحد من الرواة في موضع أو مواضع. المُعْضَل: ما حذف منه اثنان من الرواة على التوالي. الشاذ: ما خالف فيه الراوي الثقة من هو أوثق منه. المنكر: ما خالف فيه الراوي الضعيف من هو أقوى منه. الموضوع: هو المختلق المكذوب على رسول الله أو من بعده من الصحابة والتابعين.

(٢) ما يقال فيها بلغني عن فلان كذا، ولم يكن لقيه قطعاً.

خشية التطويل وهم الكثير، ومنهم من ألف فيها نظماً: من هؤلاء من تقيد بنظم السيرة لابن هشام، ومنهم من لم يتقيد بذلك، ومن أشهر هذه الكتب:

١ ـ «جوامع السيرة» للإمام الحافظ أبـي محمد علي بن أحمد بن حَزْم، الأندلسي الظاهري المتوفَّى سنة ست وخمسين وأربعمائة.

٢ ـ «السيرة» للحافظ الكبير عبدالمؤمن بن خَلَف الدمياطي المصري المتوفَّى سنة خمس وسبعمائة.

٣ ـ «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» مجلدان، للإمام أبـي الفتح محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس الأندلسي، المتوفَّى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة، ثم اختصره وسماه «العيون في تلخيص سيرة الأمين المأمون» وقد شرحه الشيخ برهان الدين إبراهيم بن محمد الحلبـي المتوفَّى سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، ونظمه الشمس محمد بن يونس الشافعي المتوفَّى سنة خمس وأربعين وثمانمائة.

٤ ـ «مختصر السيرة» للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة، وقد اقتصر فيه على أصح الأقوال، وأقواها.

٥ ـ «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» للشيخ العلاَّمة شهاب الدين أبـي العباس أحمد بن محمد القسطلاني الشافعي المصري، المتوفَّى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، وهو كتاب جليل القدر، كثير النفع، لا نظير له في الاستيفاء، وذكر الأقوال والآراء والحجج، اعتمد فيها على سيرة الحافظ ابن سيد الناس، وسيرة الشمس الشامي وغيرها. وقد شرحها كثيرون، ومن أجل الشروح شرح الإمام الحافظ محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني المصري المالكي، المتوفَّى سنة اثنتين وعشرين ومائة بعد الألف، وهو شرح جليل تعرض فيه لنقد المرويات، وبيان صحيحها من ضعيفها، وبيان الراجح من الأقوال، وهو يدل على سعة علم الإمام الزرقاني وتبحره.

٦ ـ «سُبُل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد» المعروفة بالسيرة

الشامية، للشيخ محمد بن يوسف الصالحي، المتوفَّى سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة.

٧ ــ «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» المعروفة بالسيرة الحلبية للشيخ علي بن برهان الدين الحلبي، المتوفَّى سنة أربع وأربعين وألف للهجرة، وقد اعتمد فيه على سيرة ابن سيد الناس، وهو من الكتب التي عنيت بتزييف بعض المرويات، وبيان بطلانها، اعتماداً على ما ذكره الأئمة السابقون كالإمام القاضي عياض ــ رحمه الله.

نظم السيرة

وكذلك عُني بنَظْم السيرة كثيرون، منهم من تقيد بسيرة ابن هشام، ومنهم من لم يتقيد، فمن الأولين:

١ ــ الشيخ عبدالعزيز بن أحمد المعروف بسعد الدريني، المتوفى في حدود سنة سبع وتسعين وستمائة.

٢ ــ والشيخ فتح الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن الشهيد، المتوفى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة في أكثر من عشرة آلاف بيت.

ومن الآخرين:

١ ــ الإمام الحافظ عبدالرحيم بن الحسين العراقي، المتوفى سنة ست وثمانمائة.

٢ ــ والشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، المتوفى سنة خمس وثمانين وثمانمائة[1].

كتب الموالد

وثمّة كتب أخرى وهي «كتب الموالد» وهي كثيرة جداً، وقد عُنيت بمولد

---

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢ ص ١٠١٢، ١٠١٣؛ مقدمة سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٧، ٨.

النبي ﷺ، وما صاحب ميلاده من إرهاصات[1]، وآيات، وعلامات، وعن نشأته في طفولته، وشبابه، وكهولته، حتى بعثه الله سبحانه رحمة للعالمين، وما صاحب هذه النشأة من خوارق العادات، وما تحمله في سبيل تبليغ الرسالة، وما منَّ الله به عليه من المعجزات بعد النبوة، وشمائله وأخلاقه قبل النبوة وبعدها، وما خصَّه الله به من خصائص إلى غير ذلك مما تُعنى به هذه الكتب، وفي هذه الكتب الصحيح والضعيف، والجيد والرديء، فلا يؤخذ كل ما فيها من غير بحث وتمحيص.

كتب جمعت بين التاريخ والسيرة

وكذلك أُلِّفت كتب في التاريخ العام ولكنها تشمل على السيرة منها:

١ ــ «تاريخ الأمم والملوك» للإمام الحافظ، المفسر، الفقيه، المؤرخ محمد بن جرير الطبري، المتوفَّى سنة عشر وثلاثمائة.

٢ ــ «مروج الذهب» للإمام العالم المؤرخ الرحَّالة أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، المتوفَّى سنة ست وأربعين وثلاثمائة.

٣ ــ «تاريخ الإسلام» للإمام الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي المعروف بالذهبي، المتوفَّى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، فقد بدأه بسيرة الرسول ﷺ وهي تكاد تكون مجلداً كبيراً.

٤ ــ «البداية والنهاية» للإمام الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي، المتوفَّى سنة أربع وسبعين وسبعمائة، وقد ذكر سيرة النبي في نحو أربعة أجزاء، وهذا الكتاب هو خير كتب التاريخ في بيان الصحيح من الضعيف من المرويات، والتنبيه إلى الروايات الموضوعة، والإسرائيليات الباطلة، التي دست في السيرة والتاريخ.

* * *

---

(١) الإرهاصات: ما يقع بين يدي النبوة من خوارق العادات.

ـ ٣ ـ

التأليف في السيرة في العصر الحاضر

١ ـ كتب المستشرقين

وقد ألَّف في السيرة الكثيرون من المستشرقين من كل جنس ولون. ومن هؤلاء المنصفون ـ وقليلٌ ما هم ـ وغير المنصفين ـ وهم الكثيرون ـ، ولا عجب فأغلبهم مبشِّرون بدياناتهم، والكثرة الكاثرة منهم صليبيون لا يزالون يحملون الحقد على الإسلام، ونبي الإسلام، فمن ثَمَّ لا يجدون ثغرة ينفثون منها أحقادهم وسمومهم إلا نفذوا منها، ولا رواية واهية منكرة أو مختلقة إلا طبَّلوا لها وزمروا، ولا عليهم لو زيفوا الصحيح ما دام ذلك يساعدهم على أهوائهم، ولأجل أن يُلَبِّسوا على الأغرار من المسلمين تستَّروا تحت ستار البحث العلمي، وحرية الرأي، وما هو من البحث، ولا حرية الرأي في شيء، وإنما الغرض حلُّ عرى الإيمان من نفوس المسلمين، والتشكيك في سيرة مثلهم الأعلى وقدوتهم، وهو النبي ﷺ.

وقد ساعد على تقبل آرائهم أن المغلوب ينظر إلى الغالب على أنه فوقه في كل شيء، فمن ثَمَّ نظر بعض المتعلمين، ولا سيما الذين لم يحظَوا من الثقافة الإسلامية وعلوم الإسلام الأصيلة بحظ يؤهلهم للتمييز بين الحق والباطل، والخطأ والصواب ـ نظروا إلى المستشرقين على أنهم قمم في التفكير، وفي البحث، فلا يُراجعون ما يقولون! ولا يُنقض ما إليه ينتهون، بل بلغ ببعض الذين تثقفوا ثقافة إسلامية أن انزلقوا فيما انزلق إليه غيرهم، ومنهم من قام بترجمة بعض هذه الكتب من غير أن يعلِّق على ما فيها من خطأ بيِّن، وباطل

صراح، وليته اكتفى بهذا، ولكنه شارك في الإثم، فكال لها المديح والثناء!! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٢ ــ كتب المسلمين

وقد أُلِّفت في العصر الأخير كتب كثيرة في سيرة النبي ﷺ، وحياته الفذَّة، وسِيَر أصحابه النبلاء، في كل قطر ومصر، منها الجيد الأصيل، ومنها ما عليه مؤاخذات وانتقادات، ومنها الموجز، ومنها الوسيط ومنها المبسوط، ومنها ما نُحي فيه إلى المنهج القصصي، ومنها ما نهج فيه المنهج المسرحي، ومنها ما تابع مؤلفوها فيها بعض المستشرقين، وانزلقوا فيما انزلقوا إليه أو بعضه، ومنها ما رد مؤلفوها فيها عليهم، وأظهروا خطأهم، وأبانوا عن تعصبهم، وكانت لهم في ذلك جهود مشكورة.

ردٌّ بعض أباطيل المستشرقين من غير تأليف في السيرة

ومن العلماء المتأخرين من تعرض لرد بعض أباطيل المستشرقين، وذلك كما صنع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في إبطال قصة الغرانيق، وقصة زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش، وقد سار على نهجه من جاء بعده من المؤلفين في السيرة كما فعل العلامة الشيخ محمد الخضري في «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»، والدكتور محمد حسين هيكل في كتابه «حياة محمد»، وغيرهما من المؤلفين والكاتبين الذين أسهموا في هذا المضمار الشريف في كل قطر ومصر، والذين هم أكثر من أن يُحْصَوا، فجزاهم الله خير الجزاء.

جهود العلماء المتقدمين

ومما ينبغي أن يعلم أن ردَّ هاتين القصتين الباطلتين، وغيرهما من القصص الباطل، والمرويات الموضوعة، قد سبق إليها بعض الأئمة الكبار، الذين جمعوا بين علم المعقول، وعلم المنقول، ويكاد يكون في القمة من هؤلاء؛ الإمام الحافظ الأصولي، العلامة أبو الفضل القاضي عياض بن موسى السبتي الأندلسي، المتوفَّى سنة أربع وأربعين وخمسمائة، فقد ألف كتابه «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى» وهو كتاب لو كتب بالذهب لكان قليلاً عليه،

وهو وإن لم يكن كتاب سيرة بالمعنى المعروف إلا أنه اشتمل على كثير مما يتعلق بسيرة النبـي ﷺ، مع رد بعض الأباطيل التي دست في السيرة النبوية، وألصقت بها زوراً كهاتين القصتين، فالزمه ـ أيها القارىء ـ واشددْ به يديك.

عناية الأمة الإسلامية بسيرة نبيها

أما بعد:

فمهما يكن من شيء فلم تُعْنَ أمة من الأمم في القديم والحديث بآثار نبيها وحياته، وكل ما يتصل به من قرب أو بعد، مثل ما عنيت الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل، هذه العناية التي كان من آثارها هذه الثروة الطائلة من الكتب المؤلفة في مولده، وسيرته، وحياته، وشمائله، وفضائله، وخصوصياته، ومعجزاته، وأخلاقه، وآدابه، وأزواجه، وأولاده، وأجداده، وجداته، ونسبه من لدن جده الأعلى خليل الرحمن، وابنه الذبيح إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، إلى خروجه من بين أبويه الشريفين الكريمين، وحيوات من بقي من ذريته من بعده، وخدمه، ومماليكه، وسراريه[1]، ومرضعاته، وحاضناته.

بل بلغت العناية بالعلماء وكتاب السير أن بحثوا في نياقه، وبغاله، وحميره، وأسمائها، ومن أين جاءت، وكتبوا عن وصف نعاله، ومطهرته، وأسوكته، إلى غير ذلك مما يدل على غاية الحب، والعناية بآثاره، ومخلفاته ﷺ، وإن ما يتعلق بالسيرة النبوية وسير آل بيت النبـي ليكوِّن مكتبة حافلة قيمة تعدُو الألوف عدّاً.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه رسول الله حقاً، فما كان لمدَّعٍ أن يكون له هذا الحب كله، ولا هذه العناية كلها! ولا هذا التكريم والتعظيم.

وعلى أن رسالته هي خاتمة الرسالات، وأحقها بالخلود، وأبقاها على الزمان، وعلى أنه لا نبـي بعده، بنفسي، وأبـي، وأمي هو ﷺ.

* * *

(١) جمع سُرِّية بضم السين وتشديد الراء المكسورة الأمة المملوكة.

الباب الأوّل

الفصل الأول : موجز لتاريخ العرب قبل الإسلام .
الفصل الثاني : الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .
الفصل الثالث: ولاة البيت وتاريخ مكة إلى مولد الرسول ﷺ .
الفصل الرابع : زواج عبدالله بآمنة .

الفَصْل الأوّل
مُوجَزُ لتاريخ العَرَب قَبْل الإِسْلَام

كان لزاماً على من يكتب في السيرة المحمدية، وأحداثها، وآثارها البعيدة، لا في حياة العرب فحسب، بل في حياة البشر جميعهم، أن يعرض عرضاً موجزاً لتاريخ العرب في الجاهلية من ناحية جغرافية بلادهم، وأحوالهم الدينية، والاجتماعية، والأخلاقية، والسياسية، حتى يكون الدارس للسيرة على بيِّنة من هذه البلاد، وسكانها، الذين اختير منهم خاتم الأنبياء، والذي أُرسل بأعظم رسالة إلهية، والتي أحدثت أعظم إصلاح في العالم كله، لم تحدثه رسالة من الرسالات.

شبه جزيرة العرب

هي عبارة عن هذا الجزء الذي يقع في الجنوب الغربي من قارة آسيا، وهي أكبر جزيرة في العالم، ويبلغ متوسط عرضها سبعمائة ميل، ومنتهى طولها ألف ومائة ميل، ومساحتها حوالي ألف ألف ميل مربع[١].

ويحدها من الجنوب: البحر العربي (المحيط الهندي)، ومن الشرق: الخليج العربي ونهر الفرات، ومن الغرب: البحر الأحمر وبرزخ السويس (قديماً) (قناة السويس الآن)، ومن الشمال: البحر الأبيض المتوسط، وهكذا

---

(١) أي مليون ميل مربع، مكة والمدينة في عصر الجاهلية وعصر الرسول عن جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ١.

نرى أنها تحيط بها البحار والأنهار من جميع نواحيها إلا جزءاً قليلاً منها، ولهذا يطلق عليها البعض تجوُّزاً (جزيرة العرب)[1].

وهذا التحديد الذي يقول به الهمداني يدخل بلاد الشام كلها، والبادية التي بين العراق والشام وبادية سيناء في جزيرة العرب، وهو يتفق وما ذكره (هيرودوت) المؤرخ القديم، غير أنه اعتبر النيل الحد الغربي للقارة، وجعل صحراء مصر الشرقية كما هي معروفة الآن من الجزيرة العربية.

موقع الجزيرة الهام

وتحتل شبه جزيرة العرب موقعاً هاماً إذ أنها تربط بين قارات ثلاث: آسيا، وإفريقيا، وأوروبا، وأما من الناحية الحضارية للعالم قبل الإسلام فهي تربط بين الحضارتين السائدتين حينئذ: الحضارة الرومانية، والحضارة الفارسية.

طبيعة جزيرة العرب

وشبه جزيرة العرب أرض صحراوية تتخللها جبال كثيرة. تختلف ارتفاعاً وطولاً، وعرضاً، ولعل أعظمها جبال (السَّراة) الممتدة من سورية وفلسطين شمالاً، إلى بلاد اليمن جنوباً، وهي توازي ساحل البحر الأحمر، وتقترب منه في مواضع عديدة، ويتراوح ارتفاع هذه الجبال ما بين عشرة آلاف قدم[2]، وثلاثة آلاف قدم، فتبلغ قممها في الشمال: في (مدين) وفي الجنوب: في اليمن، وعسير، حوالي عشرة آلاف قدم، بينما تكون خلف مكة ثمانية آلاف قدم، وقرب المدينة ثلاثة آلاف قدم.

وتحصر بينها وبين ساحل البحر الأحمر أرضاً سهلة ضيقة تعرف (بتهامة) تشرف عليها هذه المرتفعات وتنحدر إليها انحداراً شديداً قصيراً. وسواحلها المهيمنة على البحر الأحمر يصعب رسوُّ السفن فيها لخلوّها من المرافىء الصالحة ولوجود الشعب المرجانية التي تمتد في بعض المواضع بعيداً في البحر، وتوجد جبال أخرى في (نجد) وفي الأقسام الجنوبية من شبه الجزيرة متفاوتة الارتفاع.

---

(١) المرجع السابق عن «صفة جزيرة العرب»، للهمداني، ص ٤٦، ٤٧.

(٢) القدم ثلاثون سنتيمتر.

الحِــرار

وفي شبه جزيرة العرب حرار كثيرة، وهي أرض ذات حجارة سود نخرة، واحدتها حَرَّة، وتسمى لابة ولوبة، وقد تكونت من فعل البراكين، ويشاهد منها نوعان: نوع يتألف من فجوات البراكين نفسها، ونوع يتألف من حممها التي كانت تقذفها، فتسيل على جوانب الفتحة، ثم تبرد، وتتفتت بفعل التقلبات الجوية، فتكون ركاماً من الأحجار البركانية التي تغطي الأرض بطبقات، قد تكون رقيقة، وقد تكون سميكة.

وقد اشتهر كثير من مناطق الحرار بالخصب، والنماء، وبكثرة المياه، ولا سيما حرار المدينة التي استغلت استغلالاً جيداً، ومنها خيبر حيث كانت واحة عظيمة، وتضم قرى كانت تشتهر بأنواع المزروعات من قديم الزمان. وليس في بلاد العرب نهر واحد بالمعنى المعروف من الأنهار، وإنما هي جداول غير صالحة للملاحة، وهي إما قصيرة سريعة الجريان، شديدة الانحدار، وإما ضحلة تجف في بعض المواسم، وبها كثير من العيون العذبة وحول هذه العيون الواحات، والوديان ذات الأشجار الوارفة، وتوجد بها بعض المـزروعات، والخضـر، والفاكهة.

الجنس العربـي

والجنس الذي يسكن شبه الجزيرة يسمى (الجنس العربـي) وهو أحد الأجناس الساميَّة[1]، ولكنه أكثرها محافظة على خصائص الساميين، ويتكلم اللغة العربية، وهي إحدى اللغات السامية، ولكنها أيضاً أكثرها محافظة على خصائص اللسان السامي، وترجع هذه المحافظة إلى طبيعة الحياة في شبه الجزيرة، وهي طبيعة الانعزالية، والمحافظة على الأنساب والأحساب، وعدم التزوج من غيرهم، أو تزويجه منهم، فقد حرست هذه الحياة الجنس العربـي،

---

(١) نسبة إلى سام بن نوح، وهم الشعوب الذين يتكلمون بالعربية، والعبرانية، والسريانية، والحبشية.

واللغة العربية من الهجمات التي تعرض لها غير العرب من الساميين وغير اللغة العربية من فروع اللسان السامي[1].

وإذا كانت الأمة العربية من الجنس الأبيض أرقى الأجناس البشرية، بل قد عدَّها بعض علماء التشريح نموذجاً للتقويم البشري الكامل (أنثروبـولوجيا) فـإن لغتها أرقى اللغات الحية على الإطلاق، وأثراها، وأخفها على اللسان، وأعذبها على السمع، وأشملها لمقوِّمات الآداب والعلوم من الألفاظ والتراكيب[2].

والأمة العربية من أقدم الأمم وأشهرها، كان لها في التاريخ القديم والحديث آثار لا تزال باقية إلى الآن، وقد خلَّد الله سبحانه وجودها بأن اختار منها خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمداً ﷺ، فكان شاهد صدق على أنها الأمة الجديرة بقيادة العالم إذا عضَّت بالنواجذ على هذا الدين الذي هو خاتم الأديان وأوفاها بحاجة البشرية، كما خلَّد لغتها حينما جعل آية خاتم أنبيائه العظمى وَحْياً يُتلى، وقرآناً عربياً مبيناً، باقياً ما بقي مسلم على هذه الأرض، وما من أمة إسلامية إلا وتاريخها ممتزج بتاريخ هذه الأمة العربية، ولهذه الأمة التي حملت لواء الإسلام إلى الدنيا كلها فضل عليها.

أقسام العـــرب

١ ـ العرب البائدة

وهي قبـائل عـاد، وثمود، والعمـالقة، وطسم، وجـديس، وأميم، وجرهم، وحضرموت ومن يتصل بهم، وهذه بادت قبل الإسلام، وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر، والمؤرخون يقسمون العرب البائدة إلى قسمين: العمالقة وهم من نسل لاوز بن سام بن نوح، ومن عداهم من نسل إرم بن سام بن نوح، فالأولون يقال لهم الساميـون والآخرون الآراميـون، والعماليق ملكوا مصر مدة، وأسسوا فيها أسرة ملوكية، وملكوا العراق وأسسوا

---

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة العربية، ج ١ ص ٣٩.
(٢) دائرة معارف القرن العشرين مادة عرب، ج ٦ ص ٢٢٦.

بها دولة تسمى «دولة حمورابي» أول ملوكهم، والذي عرف بالقانون المشهور «قانون حمورابي» وذلك في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد والعرب الباقية هم القحطانيون والعدنانيون.

٢ ـ القحطانية

وهم أولاد قحطان الذين كانوا يسكنون الجنوب: اليمن وما حواليها، ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ، وحمير، وقد خرجت منهم جماعات، وقبائل في ظروف متعددة من أهمها انهيار سد مأرب، ونزلوا بأجزاء مختلفة من الجزيرة العربية، ومن هؤلاء «اللخميون» الذين نزلوا «الحيرة» على تخوم فارس وكونوا ملكاً بها، ومنهم أيضاً (أولاد جفنة) ملوك الغساسنة الذين كانوا يسكنون على حدود بلاد الروم، ومنهم ملوك كندة الذين كانوا بحضرموت، وكان منهم أبو امرىء القيس، كما أن منهم (الأزد) الذين تفرع منهم الأوس والخزرج، ومنهم الجراهمة الذين حطوا رحالهم بالقرب من وادي مكة، واتصل بهم نبي الله إسماعيل لما كبر، وصاهرهم، والقحطانيون يقال لهم: العرب العاربة.

٣ ـ العدنانية

نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهم المعروفون بالعرب المستعربة، أي الذين دخل عليهم دم ليس عربياً، ثم تمَّ اندماج بين هذا الدم وبين العرب، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد.

وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكة، وهم إسماعيل وأبناؤه، والجراهمة الذين تعلَّم منهم إسماعيل العربية، وصاهرهم، ونشأ أولاده عرباً مثلهم، ومن أهم ذرية إسماعيل (عدنان) جد النبي ﷺ الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب، وبطونها فقد جاء بعد عدنان ابنه معدّ، ثم نزار، ثم جاء بعده ولداه: ربيعة، ومضر، ومنهما كانت معظم القبائل العربية، فمن أشهر قبائل مضر: هوازن، وغطفان، وتميم، وعدي، وقريش، ومن أشهر قبائل ربيعة: عبدالقيس، وبكر، وتغلب، وحنيفة.

ولم تتسع مكة وما جاورها لعرب الشمال، فبدأوا يهاجرون يبحثون عن مساقط الماء، ومنابت العشب، فنزل عبدالقيس البحرين، ونزل بنو حنيفة اليمامة، ونزل بنو هوازن بنواحي أوطاس، وهكذا تفرقت القبائل في ربوع الجزيرة، والعدنانيون يقال لهم: العرب المستعربة، لأن جدهم الأعلى وهو إسماعيل تعلم العربية وتلقنها من جُرْهم.

أما قضاعة فقد اختلف فيهم، فقيل: إنهم عدنانيون وعليه الأكثر، وقيل: إنهم من قحطان، وهو قول ابن إسحاق، والكلبي، وطائفة من أهل النسب[1].

وهذا الذي ذكرنا من تقسيم العرب إلى عدنانية وقحطانية هو ما عليه جمهرة علماء الأنساب وغيرهم، ومن العلماء من يرى أن العرب: عدنانية، وقحطانية ينتسبون إلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

وقد ترجم الإمام البخاري في صحيحه لذلك فقال: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام، وذكر في ذلك حديثاً عن سَلَمة قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسهام[2]، فقال: «ارموا بني إسماعيل وأنا مع بني فلان» ــ لأحد الفريقين ــ فأمسكوا بأيديهم، فقال: «ما لكم»؟ قالوا: كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ فقال: ارموا وأنا معكم كلكم» وفي بعض الروايات: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً».

قال البخاري: وأسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة، يعني: أن خزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم.

---

(١) البداية والنهاية، ج ٢ ص ١٥٦.

(٢) يلعبون بها ليتعودوا على فنون الحرب.

سكان جزيرة العرب

يسكن شبه جزيرة العرب فريقان:

١ ـ بـدو

وهم الذي يسكنون البادية، ويرتحلون وراء العشب والكلأ، ويتتبعون مواقع الغيث والمطر، وهم يسكنون الخيام، وهي البيوت من الوبر، والشعر، وهم الأكثرون ولا سيما في الشمال: الحجاز وما والاها من نجد وتهامة.

٢ ـ حضـر

وهم الذين يسكنون القرى والمدن، ويسكنون بيوتاً من اللبن، أو الحجر، ومعظم هؤلاء كانوا يسكنون في الجنوب: اليمن وما جاورها، وعلى تخوم بلاد فارس والروم.

وجود بعض المدنيّات والحضارات في جـزيـرة العـرب

وقد نشأت من قديم الزمان ببلاد العرب حضارات أصيلة، ومدنيات عريقة من أشهرها:

١ ـ حضارة سبأ باليمن.

وقد دل القرآن الكريم ـ الذي هو أوثق المصادر وأحقها بالقبول ـ على أنه كان في بعض بلاد العرب حضارات قديمة، وعمران، وخصب، ونماء، ورخاء، وتقدم. ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار والسيول التي كانت تضيع في الرمال، وتنحدر إلى البحار، فأقاموا الخزانات والسدود بطرق هندسية بديعة، وأشهر هذه السدود (سد مأرب)، واستفادوا بمياهها في الزروع المتنوعة، والحدائق ذات الأشجار الزاكية، والثمار الشهية، قال عزَّ شأنه:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ

﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

كما دل القرآن الكريم أيضاً على أنه كانت هناك في هذا الزمن الغابر قرى متصلة، ما بين اليمن، إلى بلاد الحجاز، إلى بلاد الشام، وأن قوافل التجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشام، فلا يعدمون ظلاً، ولا ماء، ولا طعاماً. قال عزَّ شأنه:

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾[2].

٢ ــ حضارة عاد بالأحقاف

كما قامت حضارات أخرى في غير اليمن، فقد كان في الأحقاف شمال حضرموت قبيلة (عاد)، وهم الذين أرسل إليهم نبي الله هود عليه السلام، وكانوا أصحاب بيوت مشيدة، ومصانع متعددة، وجنات، وزروع، وعيون. قال عزَّ شأنه:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ[3] أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾[4].

---

(١) الآيات ١٥ ــ ١٧ من سورة سبأ.
(٢) الآيتان ١٨ ــ ١٩ من سورة سبأ.
(٣) لأنه منهم كقولك: يا أخا العرب لمن كان منهم.
(٤) الآيات ١٢٣ ــ ١٣٤ من سورة الشعراء.

٣ ـ حضارة ثمود بالحجاز

وكذلك كانت حضارة في بلاد الحِجْر حيث تسكن ثمود، وقد دلَّ القرآن الكريم على ما كانوا يتمتعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيون وبساتين وزروع؛ قال عزَّ شأنه:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ[1] وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ[2] ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ[3] ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ ﴾[4].

وقال فيهم أيضاً:

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ[5] ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[6].

وقد اضمحل كل ذلك من زمان طويل، ولم يبقَ منه إلا آثار ورسوم، فقد درست القرى والمدن، وتخربت الدور والقصور، ونضبت العيون، وجفت الأشجار، وانمحت البساتين والزروع.

يقول بعض الباحثين: «وتدل البحوث والدراسات التي قام بها السياح

---

(١) جمع جنة وهي البستان.
(٢) أي ثمرها نضيج طيب لين.
(٣) الفراهة الكيس والمهارة.
(٤) الآيات ١٤١ ـ ١٥٠ من سورة الشعراء.
(٥) أي نِعَمَه.
(٦) الآية ٧٤ من سورة الأعراف.

والعلماء عن بلاد العرب على أن تغييراً كبيراً طرأ على جوها، وأن هذا الجفاف الذي نعهده الآن في هذه البلاد لم يكن على النحو الذي كان عليه في العصور التي سبقت الإسلام، وأن ذلك الجفاف أثر تأثيراً سيئاً في شبه جزيرة العرب، فجعل أكثر بقاعها صحارى جرداء، كما أثّر في حالة سكانها، فقاوم نشوء المجتمعات الكبرى، وأثر تأثيراً خطيراً في تاريخ الأمة العربية، وفي حدوث الهجرات»، إلى أن قال: «وكل ذلك يدل على مدى التغير الذي طرأ في بلاد العرب سواء أكان من الناحية المناخية أم من الناحية الجيولوجية، فأدى إلى مقاومة الحضارة، ومنع نشوء المجتمعات الكبرى بها، وحوَّل أراضيها إلى بقاع صحراوية، وطبع الحياة فيها بطابع الرحلة، والانعزالية الاجتماعية والسياسية، ويميل كثير من السياح، وعلماء طبقات الأرض الذين جابوا أنحاء شبه الجزيرة العربية إلى تأييد القول بظهور الجفاف في الألف الثاني قبل الميلاد»[1].

ولا يفوتني في هذا المقام أن أنبه إلى أن هذه الحقائق التي جاء بها القرآن منذ قرابة أربعة عشر قرناً على لسان النبي العربي الأمي، ثم جاء علماء الآثار وطبقات الأرض في العصر الأخير، فوصلوا إلى ما أيَّد هذه الحقائق كل التأييد ـ من أكبر الأدلة على صدق النبي ﷺ، ومن المعجزات الدالة على أنه نبي يُوحى إليه، ولم يكن النبي منقِّباً ولا باحثاً عن الآثار، ولا كان هناك من أهل الكتاب ولا غيرهم من كان يعلم هذا، وصدق الله:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[2].

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، ص ١١٩.
(٢) الآية ١١١ من سورة يوسف.

أقسام شبه جزيرة العرب

قسَّم جغرافيو العرب شبه الجزيرة إلى خمسة أقسام:

(١) الحجاز، (٢) وتهامة، (٣) ونجد، (٤) والعروض، (٥) واليمن.

وزاد الأصطخري وابن حوقل ثلاثة أصقاع وهي:

(١) بادية العراق، (٢) وبادية الجزيرة، (٣) وبادية الشام(١).

فالحجاز هي الجبال الممتدة من الجنوب إلى الشمال، وسميت حجازاً، لأنها حجزت بين الغور وتهامة غرباً وبين نجد شرقاً، وما بين هذه الجبال إلى سيف البحر على امتداده يُسمَّى (تهامة)، وما يوجد شرق الحجاز من الأرض المرتفعة إلى أطراف العراق والسماوة يُسمَّى (نجداً)، والجزء الذي يضم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها يُسمَّى (العروض)، وما يوجد حول صنعاء وما والاها من البلاد إلى حضرموت والشَّحَر وعمان يُسمَّى: (اليمن)، والذي يهمنا التعريف به هو الحجاز.

الحجـــاز

وهو عبارة عن سلسلة الجبال الكثيرة، والممتدة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام، كما قال معظم الجغرافيين، وما حول هذه الجبال، وما يتخللها من وديان يدخل في الحجاز أيضاً، وسُمي حجازاً لأنه حجز بين إقليم نجد شرقاً، وبلاد تهامة غرباً كما ذكرنا، ولكن اسم الحجاز في العرف يشمل تهامة أيضاً بل عدَّ بعض العلماء تبوك، وفلسطين من أرض الحجاز(٢).

وطول الحجاز من الجنوب إلى الشمال سبعمائة ميل، وعرضه من الشرق إلى الغرب خمسون وثلاثمائة ميل. وتعتبر جبال السراة هي العمود الفقري لشبه

(١) مكة والمدينة، عن الأصطخري، ص ٢٠، ٢١؛ وصبح الأعشى ٤/٢٤٥.
(٢) المصدر السابق عن معجم البلدان ٣/٢١٨، ط السعادة.

الجزيرة العربية، وتختلف جبال الحجاز ارتفاعاً وانخفاضاً، فمنها ما يبلغ بضعة آلاف من الأمتار، ومنها لا يزيد عن مائتي متر.

أودية الحجاز

وتتخلل هذه الجبال وديان كثيرة، وعيون وآبار، وحول العيون والآبار توجد الواحات، ومن أشهر هذه الوديان:

١ ــ **وادي إضَم**: ويقع جنوب خيبر حتى يقارب المدينة حيث تتصل به أودية فرعية، كوادي العقيق.

٢ ــ **وادي القُرى**: وهو يستمد مياهه من السيول التي تنحدر إليه من العيون التي عند خيبر، ثم يتجه غرباً حتى يصب في البحر الأحمر جنوب قرية (الوجه). ووادي القرى وادٍ مهم، لأنه كان ممر القوافل، التي كانت من أهم وسائل نقل التجارة في العالم القديم.

٣ ــ **وادي الرمة**: عند حرة (فَدَك) يتكون من التقاء بضعة أودية ثم يتجه نحو الشرق حتى جبل (القصيم) ويبلغ طوله أكثر من خمسين وتسعمائة كيلو متراً.

٤ ــ **وادي الصفراء**: وهو واد كثير النخل والزروع في طريق الحجاج، سلكه رسول الله ﷺ في بعض غزواته، وبينه وبين بدر مرحلة، وسمي باسم قرية (الصفراء) وهي قرية كثيرة النخل والزروع، وماؤها عيون تجري إلى ينبع.

وكان يمر بالحجاز أحد طريقي التجارة البرِّيَّيْن بين الشرق والغرب مبتدئاً من اليمن، مخترقاً تهامة والحجاز، ماراً بمكة، ويثرب (المدينة) حتى يصل إلى (أيلة) على خليج العقبة، ثم منها إلى موانىء البحر الأبيض المتوسط.

الحجاز لم تطأه قدم مغير

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن لا تطأ الحجاز قدم دخيل قط، أو مغير، ولا كان لأحد من الدول المجاورة القوية عليها سلطان، ولعل ذلك لوعورة الأرض وكثرة الجبال، وضيق المسالك، وسعة مغاورها، كما أن حالته الاقتصادية

لم تكن لتطمع أحداً فيه، فمن ثَمَّ بقي أهله على ما فطروا عليه من الحرية، والانطلاق، وما اتصفوا به من الخلال الكريمة، وبقيت أنسابهم سليمة من الهجنة[1]، ولغتهم سليمة من العجمة، ولا سيما مكة المكرمة، فلم يكن بها إلا العرب الخلَّص، ما عدا أناساً لا حول لهم ولا طول، ولا أثر لهم يذكر في حياة العرب في الجاهلية، وإنما كانوا يحترفون بعض الحرف كالحدادة، والصياغة، وخدمة الأشراف، والعمل لهم في تجاراتهم، وبساتينهم، وهم طبقة العبيد والأرقاء من الحبشة، والروم وفارس، ممن لا يتطاولون إلى قريش، أو مصاهرتها، أو التأثير فيها.

وبعضهم كان نصرانياً كجبر الرومي، وعدَّاس النِّينَوِي، إلا أنهم لم يكن لهم من علم النصرانية إلا الانتماء إليها، وبعضهم كان على دين قريش، وقد صار معظم هؤلاء من أسعد الناس بالإسلام وأكرمهم عند الله تبارك وتعالى، أمثال بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي ـ رضي الله عنهم ـ وأرضاهم.

أشهر مدن الحجاز

يشتمل الحجاز على قرى ومدن كثيرة أهمها: مكة، ويثرب (المدينة)، والطائف، وجدة.

مـــكّـــة

وهي بلد الله الحرام، وفيها الكعبة المشرفة التي يحيط بها المسجد الحرام، وهي تقع في واد سهل منبسط غير ذي زرع، تحيط به الجبال من كل جانب مع تخلل شعاب بين هذه الجبال، وفي شمال مكة يوجد جبل «حراء» الذي به «غار حراء»، وفي جنوبها يقع جبل ثور الذي يوجد به «غار ثور».

ومكة مدينة في نشأتها لعين (زمزم) وللكعبة البيت الحرام، وهي وما حولها

(١) الهجين من الإبل والخيل: من أبوه عربي وأمه غير عربية، الهجنة: اختلاط نسب العرب بنسب العجم.

حرم معلوم الحدود. وضعت على حدوده نُصُبٌ، وعلامات يعرف بها، يأمن فيه الإنسان، والحيوان، والطير، فلا يسفك فيه دم، ولا يهاج فيه حيوان، ولا يصاد فيه طير، بل ولا يقطع شجرها، وقد حرمها الله وما حولها من يوم أن خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة كما روي في الصحيحين[1]، وقد أظهر الله هذا التحريم على لسان الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتسمى (بكّة)، قال تعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[2].

وتسمى: (أم القرى)[3] قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴿٧﴾ ﴾[4].

ولمكة مكانة ممتازة في نفوس المسلمين، ففيها الكعبة، والمسجد الحرام، والصفا والمروة، وبجوارها عرفات، والمزدلفة، ومنى، وهي من مشاعر الحج، فلذلك تهفو إليها قلوب الألوف لقضاء الحج والعمرة، من لدن الخليل إبراهيم عليه السلام إلى وقتنا هذا.

ويرجح بعض الباحثين في السيرة نشأتها إلى سنة خمسين وألفين قبل الميلاد[5]، وقد اختلف في أول من أنشأها، فجمهور المؤرخين على أن أول من بناها وسكنها العماليق[6]، ثم خلفهم عليها جرهم حتى أسكن الخليل إبراهيم

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الحج ـ باب لا يحل القتال بمكة؛ وصحيح مسلم ـ كتاب الحج ـ باب تحريم مكة.

(٢) الآية ٩٦ من سورة آل عمران.

(٣) العرب يطلقون القرية على البيوت المجتمعة صغرت أم كبرت، وفي الحديث الصحيح «أمرت بقرية تأكل القرى» أي المدينة.

(٤) الآية ٧ من سورة الشورى.

(٥) حياة محمد ورسالته، ص ١٤.

(٦) هم من العرب البائدة، وهم من نسل لاوز بن سام بن نوح، والعماليق ملكوا مصر مدة، وكونوا بها أسرة مالكة حوالي القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، وملكوا العراق =

إسماعيلَ وأمه هاجر بهذا الوادي، فنشأ إسماعيل به حتى صار رجلاً، واختلط بهم وصاهرهم، ثم غلبت خزاعة جرهماً عليها، واستمروا حكامها حتى جاء قصي بن كلاب، فجمع قريشاً فيها، بعد أن تمكن من إجلاء خزاعة عنها، وبذلك عادت لقريش السيادة على مكة وحماية البيت حتى ظهور الإسلام.

والذي تدل عليه قصة بناء الكعبة في صحيح البخاري، أن الخليل لما أسكن ابنه وأمَّه هناك لم يكن بها أحد. وأن الجراهمة أول من أقاموا بجوار إسماعيل، مما يدل على أن مكة لم تنشأ إلا بعد نبع زمزم، وبناء البيت، واتصال إسماعيل بالجراهمة، ومصاهرته فيهم، وستأتي هذه القصة إن شاء الله تعالى.

المــدينــة

وهي تقع على بعد نحو من ثلاثمائة ميل شمال مكة، وكان اسمها الغالب عليها في الجاهلية يثرب، وقد ورد في القرآن الكريم، وهي تقع بين حرَّتين، وأرضها تشتهر بالخصب من قديم، وبها البساتين، والنخيل، والفواكه، والزروع.

وقيل إن تاريخ نشأتها يرجع إلى نحو سنة ستمائة وألف قبل الميلاد، وكان يسكنها العماليق في بادىء الأمر، ثم ارتحل إليها بعض اليهود لما تعرضوا لموجات من الاضطهاد، والقتل، والأسر على يد «بختنصر» البابلي وغيره فأقاموا بها[1]، حتى نزل بعد انهيار (سد مأرب) بعض القبائل العربية الجنوبية، وهما قبيلتا الأوس والخزرج، فوجدوا الثروة والمال مع اليهود فاستعانوا بإخوانهم

= وأسسوا بها دولة حمورابي اسم أكبر ملوكها، ومؤسس أقدم شريعة في العالم في القرن السالف الذكر، وقد أغار على الدولة البابلية الأولى، وقد فني المقهورون في القاهرين وصارت الدولة البابلية عربية بحتة (دائرة معارف القرن العشرين مادة عرب).

(١) من هذا يتبين أن اليهود طارئون ودخلاء على المدينة، ومن كرم العرب أن تركوهم يساكنونهم فيها، حتى جاء الإسلام، فاستعملوا الدس، والغدر، والخيانة مع النبي والمؤمنين، فلم يكن بدٌّ من إجلائهم عنها كما سيأتي في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى.

العرب، فأعانوهم، فقتلوا رؤساءهم وأذلوهم، وأصبح للأوس والخزرج الزعامة بيثرب.

وقد استمرت الحال على هذا حتى مجيء الإسلام، وسارعت إليه القبيلتان، وعرفتا فيما بعد (بالأنصار).

وكانت المدينة من قديم الزمان تقع على طريق القوافل التجارية بين الجنوب والشمال، وبين مكة والشام، مما جعلها تزدهر، وقد اكتسبت بعد مجيء الإسلام وهجرة النبي ﷺ وأصحابه إليها مكانة ممتازة، فقد أضحت عاصمة الإسلام، وقلبه النابض، وقطبه الذي تدور عليه رحاه، وقد جعل النبي المدينة حرماً آمناً، ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال:

«إن إبراهيم حرَّم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوتُ في صاعها، ومُدِّها، بمثليْ ما دعا به إبراهيم لأهل مكة» وفي رواية: «بمثل ما دعا به إبراهيم»[١]. وفي الحديث الصحيح أيضاً: «إن إبراهيم حرَّم مكة وأنا أحرم ما بين لابَتَيْها فلا يسفك فيها دم، ولا يصاد بها صيد، ولا يُهاج بها طير، ولا يُعضد[٢] بها شجر»، وكذلك ورد أنها حرم في صحيح البخاري[٣].

وكانت تسمى (يثرب) فسماها النبي (طيبة) و(طابة)، ونهى أن يقال (يثرب)، وفي المدينة المسجد النبوي، ثاني المساجد المشرفة التي تُشد إليها الرحال، وإن كان ثالثها في البناء، وفي المسجد النبوي (الروضة) ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» وفي المسجد النبوي أفضل بقعة ضمَّت أفضل جسد لبشر.

وفي المدينة وما جاورها آثار وذكريات عزيزة للنبي ﷺ، وأصحابه، ولأيام

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الحج ـ باب فضل المدينة.
(٢) يقطع.
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الحج ـ باب حرم المدينة.

الإسلام، وأحداثه وتشريعاته، وفيها (البقيع) مقبرة خيار المسلمين من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من أئمة العلم، والدين، فلا عجب إذا كانت تهفو إليها قلوب ألوف المسلمين كل عام، وميناء المدينة التي تشرف على البحر الأحمر (ينبع) وتبعد عنها نحواً من مائة وثلاثين ميلاً.

الطـائـف

وهي بلدة تقع على بعد نحو خمسة وسبعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مكة، على ربوة عالية يبلغ ارتفاعها نحو خمسة آلاف قدم على ظهر جبل (غزوان)، فمن ثَمَّ كان هواؤها بارداً في الصيف، وكانت ـ ولا تزال ـ مصيف أهل مكة، وغيرهم، قال الشاعر:

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

ويحيط بها وديان كثيرة تتجمع بها المياه في موسم الأمطار، وبها عيون وآبار كبيرة، وأرضها خصبة تكثر بها الحدائق، التي تثمر الفواكه الجيدة، وبها تجود الزروع والحبوب، ولا تزال إلى وقتنا هذا، يجلب منها لأهل مكة وغيرها الفواكه كالعنب، والمشمش، والرمان، وغيرها.

وكانت تسكن الطائف قديماً قبيلة ثقيف، وكانت من أعتى القبائل، وأصعبها مراساً وعناداً، وقد استأنى بهم النبـي، ودعا لهم حتى هداهم الله للإسلام.

جـدّة

هي ميناء مكة على البحر الأحمر، وهي تبعد عن مكة نحو خمسة وسبعين كيلو متراً، وأرضها رمليّة، وليس بها زراعة، وهي أهم موانىء الحجاز كلها، وعن طريقها يدخل المستورد، ويخرج المصدَّر، وهي من المراكز التجارية المهمة بالبلاد، وتقع على أحد الطريقين المعبدين بين مكة والمدينة الآن، وقد أصبحت الآن عروس موانىء البحر الأحمر بعد أن ضربت في الحضارة والعمران بحظ كبير، وقد استبحر فيها العمران من جميع جهاتها ولا سيما من جهة مكة.

أحوال الجزيرة السياسية والدينية والاجتماعية

الأحوال السياسية

قلنا إن سكان الجزيرة ينقسمون إلى بدو، وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة: كمملكة اليمن في الجنوب، ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب)، ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقة بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي[1].

والقبيلة لها رئيس يسمى «السيد» أو «الشيخ» وأحياناً يطلقون عليه الأمير، أو الملك.

وهذا الرئيس إنما ترشحه للرياسة منزلته من القبيلة وصفاته، وخصائصه، من شجاعة، ومروءة، وكرم، ونحوها، فمن ثَمَّ لم تكن هذه الرئاسة وراثية، فقد تنتقل هذه الرئاسة إلى ابنه إذا كان كفئاً وإلا فلابن أخيه، أو لغيره إذا لم يكن كذلك.

ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية، فالأدبية أهمها احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه، وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، و(الصفايا) وهي ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، و(النشيطة) وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله:

---

(١) مكة والمدينة، ص ٣٤.

لك المرباع فينا، والصفـايا　　　وحكمك، والنشيطة، والفضول(١)

وعليه إزاء هذه الحقوق واجبات كثيرة، ومسؤوليات ضخمة، فهو في السلم جواد كريم، مسؤول عن إكرام الضيوف، وقرى الوافدين، وعابري السبيل، وإغاثة المحتاج من أبناء القبيلة، وإجارة المستجير، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

وقصارى القول أنه رمز القبيلة، ولسانها الناطق، وعقلها المعبِّر بمعونة العقلاء ذوي التجربة والسنّ من رجال القبيلة.

وتسود الحريّة النظام القبلي، فقد نشأ العربي في جو طليق، وفي بيئة طليقة، فمن ثم كانت الحرية من أخص خصائص العرب، ويعشقونها، ويأبون الضيم والذل.

وكل فرد في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، وينتصر لكل أفرادها محقاً أو مبطلاً، حتى صار من مبادئهم: «انصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً» وكان شعارهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم　　　في النائبات على ما قال برهاناً

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دريد بن الصمة:

وهـل أنـا إلا من غَـزِيَّـة إن غَـوَتْ
غـويتُ، وإن تَـرْشُـدْ غَـزِيَّـةُ أرشـد

مِمَّ تتكون القبيلة؟

وتتكون القبيلة من طبقات ثلاث:

١ ـ طبقة الأحرار: وهم أبناء القبيلة الصرحاء، وهم الذين يجمع بينهم الدم الواحد، والنسب المشترك.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣١.

٢ ـ طبقة الموالي: وهم من انضموا إلى القبيلة من العرب الأحرار من غير أبنائها بطريق الحِلْف، أو الجوار، أو العتقاء من الأرقاء فيها.

٣ ـ طبقة الأرقاء: وهم المجلوبون عن طريق الشراء، أو أسرى الحرب[١].

فالطبقة الأولى: هي صلب القبيلة، وهي تتمتع بحقوق كثيرة، ولكن يقابلها كثير من الواجبات، نظمها القانون العرفي الذي تحكم به القبيلة.

والطبقة الثالثة: كانت في وضع اجتماعي سيىء، فقد سلبوا معظم حقوقهم الإنسانية، وفرضت عليهم من الواجبات ما أرهقهم، وأهدر إنسانيتهم، وكان من حسنات الإسلام ـ وما أكثرها ـ أن ردَّ لهؤلاء كرامتهم، وأوصى بهم خيراً، وفتح لهم باب الحرية على مصراعيه.

أما الطبقة الثانية وكانت بَيْنَ بَيْنَ، فلهم حقوق، وعليهم واجبات.

ممالك وحضارات في شبه الجزيرة

وقد قامت ممالك وحضارات قديمة في شبه الجزيرة العربية، فنشأت في الجنوب مملكة مَعِين، ثم قتبان، وسبأ، وحِمْيَر، وأعظم هذه الممالك:

مملكة سبأ[٢]

وقد كانوا ذوي ملك عظيم، وأهل فن هندسي دقيق، وخبرة بإقامة السدود والخزانات، ومن أعظم السدود التي أقاموها «سد مأرب».

سد مأرِب

كانت الأمطار تهطل بغزارة على أرض اليمن ثم تنحدر إلى البحر فتضيع فيه، فلا ينتفع بها إلاَّ موسم نزولها، وكانت مملكة سبأ قد بلغت مبلغاً عظيماً في فن العمارة، فعمدوا إلى مكان ضيق يوشك أن يلتقي عنده جبلان عظيمان،

(١) مكة والمدينة في الجاهلية والإسلام، ص ٣١، ٣٦.

(٢) قال علماء النسب: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان قالوا: وكان أول من سبى من العرب فسمي سبأ لذلك، ويقال: إنه أول من لبس التاج.

وفي هذا المضيق أقاموا سداً هائلاً، وهو «سد مأرب»[1]، وجعلوا له أبواباً، وعيوناً يصرفون منها المياه، وبذلك أمكنهم أن يحتفظوا بالماء وراء السد لينتفعوا به وقت ما يريدون، فزادت رقعة الأرض المزروعة، وزرعوا في العام أكثر من مرة، كما استفادوا به أيضاً في التحكم في السيول التي كانت تغرق القرى، وتتلف المزروعات، فكثر الخصب، وعم الرخاء، وعاش أهلها في نعمة عظيمة، وثمار وزروع كثيرة، وأرزاق متنوعة متتالية[2].

وقد كانوا يتولَّون السد بالرعاية والتجديد، فكان كلما تهدم منه جانب أسرعوا بإصلاحه حتى لقد حدث ذلك عدة مرات، فلما ضعفت الدولة في آخر أيامها شغلها ذلك عن العناية بالسد فبدأ يضعف، وقلَّت مقاومته للسيول الجارفة، فانهار أمامها انهياراً يكاد يكون كلياً، فعمَّ السيل البلاد، وسبب الدمار والخراب، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم «بسيل العَرِم»[3] وبسبب هذا السيل العام، وما حدث قبله من سيول كثيرة، تبدلت الحال غير الحال، وعمَّ الخراب الديار والبلاد، وبعد أن كانت بلادهم ذات بساتين مثمرة، وزروع نافعة، صارت ذات أشجار لا تغني ولا تسمن من جوع، وذلك كما قال تعالى:

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾[4].

وبسبب هذه السيول المتلاحقة، ولا سيما أعظمها، وهو سيل العرم، كانت هجرة بعض القبائل العربية من اليمن، فتفرقوا في غور البلاد ونجدها، حتى

---

(١) في القاموس: مأرب كمنزل موضع باليمن.

(٢) البداية والنهاية، ج ٢ ص ١٩٩.

(٣) العرم: الصعب الشديد فهو إضافة الموصوف إلى الصفة، وقيل العرم: المطر الشديد، وقيل اسم الوادي الذي كان يأتي منه السيل وبني فيه السد، وقيل العرم: جمع عرمة وهو كل ما بني لحجز الماء فهو اسم للسد.

(٤) الآيتان ١٦ ــ ١٧ من سورة سبأ.

صار مثلاً «تفرقوا أيدي سبأ» فنزلت طوائف منهم الحجاز، ومنهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة، ومنهم أهل المدينة ـ وهم الأوس والخزرج ـ فكانوا أول من سكنها، ونزلت طوائف أخرى منهم بالشام، وهم الذين تنصروا فيها بعد، وهم: غسان، وعاملة، وبهراء، ولخم، وجذام، وتنوخ، وتغلب، وغيرهم[1]، وأقام أكثرهم باليمن منهم: مذحج، وكندة، وأنمار، والأشعريون، وبجيلة، وحِمْير، وقد كان انهيار السد سبباً في سقوط مملكة (سبأ) وقيام مملكة حمير.

ملوك سبأ

وكان أعظم ملوك سبأ (بلقيس) وقد قص القرآن قصتها مع سيدنا سليمان عليه السلام، وقصته مع الهدهد حينما غاب، ثم أتى له بخبرها، ومما قصه الله ـ تبارك وتعالى ـ يتبين لنا أنها وقومها كانوا يعبدون الشمس من دون الله، وما كانت تتمتع به مملكتها من أسباب القوة والرخاء، وما كان لها من مجلس شورى، وما كانت تتصف به من عقل ورزانة، وما بلغ فن المعمار في عهدها، وكيف كان عرشها على درجة من الفخامة، والأبهة، اقرأ إن شئت قوله تعالى:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ... ﴾.

إلى قوله تعالى:

﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً

---

(١) البداية والنهاية، ج ٢ ص ١٥٩، ١٦١.

﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[١].

مملكة حمير

وبعد أن تضعضع ملك سبأ، وضعف أمر القائمين عليه قامت مملكة «حِمْير»، وقد حاولت أن تصلح السدود الموجودة، ولكنها لم تلبث أن انهارت مرة أخرى، وكان من ملوكهم ملك اسمه (ذو نواس) وكان قد اعتنق اليهودية، وكان باليمن نصارى يسكنون (نجران) وقد تسربت النصرانية إلى بلاد اليمن من الحبشة، وكان (ذو نواس) متعصباً لليهودية، فلهذا، ولخوفه أن يمتد نفوذ الحبشة إلى بلاده عن طريق النصارى خيَّرهم بين اعتناق اليهودية، أو الموت، فأبوا اعتناق اليهودية، فحفر لهم أخدوداً ــ شِقاً في الأرض ــ وأضرمه ناراً، ثم صار يعرض عليهم اليهودية، فمن أبــى قذفه في النار، حتى أفنى الكثيرين منهم بهذا العمل العاري عن الرحمة والإنسانية، وقيل إنه وأتباعه هم المرادون بقوله تعالى في سورة البروج:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾[٢]؛

فلو صح أنهم المرادون بالآيات، فيكون هؤلاء المسيحيون كانوا على التوحيد الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام، وقيل في أصحاب الأخدود غير ذلك[٣].

---

(١) الآيات ٢٠ ــ ٤٤ من سورة النمل.

(٢) الآيات ٤ ـ ٨ من سورة البروج.

(٣) فقد روى الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده قصة أخرى تغاير هذه في التفاصيل إلا أنها تتفق معها في الغاية، وذكر ابن إسحاق قصة أخرى قريبة مما ذكرها مسلم إلا أنها تختلف بعض الشيء، والذي يظهر لي ــ والله أعلم ــ أن قصة الأخدود تعددت زماناً ومكاناً، وأشخاصاً، وإن كانت نهايتها واحدة وهي فتنة بعض المؤمنين =

آثار سبأ وحمير

وقد خلَّفت سبأ وحمير آثاراً تدل على العظمة، والرقي، والحضارة، وهي تشمل كثيراً من الأطلال والنقوش، كما كان لها أسطول ضخم ينقل البضائع بين موانىء اليمن، والهند، والصين، والصومال وسومطرة، بحيث كانت التجارة شبه احتكار في يدها، وكذلك كانت سبأ في إبان عظمتها التجارية تسيطر على طرق النقل التجارية التي تجتاز الحجاز متجهة إلى الشمال حيث الشام و (العقبة) ومنها إلى البحر الأبيض[1].

استيلاء الحبشة على اليمن

وبعد قصة الأخدود المحزنة فرَّ رجل من أهل نجران، وذهب إلى قيصر الروم يستنصره، فكتب قيصر إلى النجاشي ينيبه عنه في الدفاع عن النصرانية، وأمده بالسفن، فجرَّد النجاشي لذلك حملة بقيادة (أرياط) فانتصر على الحميريين، وأغرق (ذو نواس) نفسه لما عاين الهزيمة وبذلك أصبحت اليمن تابعة للحبشة.

أبـرهـة

ولم يطل الأمر لأرياط، فقد تمرد عليه أحد مساعديه، وهو (أبرهة) فقتله غيلة وغدراً، وخلص الأمر له، وأبرهة هذا هو الذي قصد مكة لهدم الكعبة ولكن الله رد كيده، ونكل به وبجيشه كما سيأتي.

استيلاء فارس على اليمن

ثم فر أحد أولاد ملوك حمير، وهو (سيف بن ذي يزن) إلى ملك الفرس واستنصره على الأحباش، فأرسل جيشاً بقيادة (وهرز)، وتعاون هو و (سيف)

= الصادقين عن دينهم بعرضهم على النار، فلما أبَوا الفتنة رُموا فيها، وكان من أسرار الإعجاز القرآني أن جاء على هذا النهج الحكيم، من غير تعيين للأشخاص، ولا تحديد للزمان، والمكان لتشمل كل هؤلاء، الذين وقع بهم البلاء (البداية والنهاية، ج ٢ ص ١٤٢ ــ ١٤٥).

(١) التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية، ج ١ ص ٤٩.

على القضاء على الأحباش، ولما تم انتصار الفرس أمر كسرى أن يتوج سيف بن ذي يزن ملكاً على اليمن، ثم لم يلبث أن قتله الأحباش الذين استبقاهم عبيداً له، وقيل: كان بتدبير من الفرس، ولم يزل الأمراء الفرس يتتابعون على اليمن حتى انتهى الأمر إلى (باذان)، فلما أرسل النبي كتاباً إلى كسرى، داعياً له إلى الإسلام، أمر كسرى (باذان) أن يأتي بالنبي مكبلاً، فأرسل اثنين للنبي يطلبانه، فقابلهما النبي ﷺ بحلم، وقال لهما: «إن ربي قتل ربكم في ليلة كذا» وكان كسرى قد قتله ابنه في هذه الليلة، فرجعا إلى باذان، وأخبراه، فلما استيقن الخبر أسلم بسبب هذا، فأبقاه النبي أميراً على اليمن.

مملكة الأنباط

وكذلك قامت في الشمال مملكة الأنباط، وهم قبائل بدوية نزحت من الأرض المعروفة اليوم بشرق الأردن، ونزلت جنوب سوريا، وكوَّنت لها مملكة امتدت من غزة شمالاً حتى العقبة جنوباً، وقد تحكمت هذه المملكة في طريق التجارة بين الشمال والجنوب، وعاصمة مملكتهم (البتراء) أو (بطره)، وهي مدينة شهيرة في بلاد العرب حتى اليوم، تمتاز بآثارها الفخمة، وبخاصة أنقاض المعبد الذي كان به الآلهة التي يعبدها (الأنباط)، ولا تزال أعمدته الشاهقة شاهداً على ما وصلت إليه هذه المملكة من حضارة ورقي[1].

مملكة الحيرة وغسان

وكذلك تكونت في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة على تخوم فارس (مملكة الحيرة) وتكونت في الشمال الغربي على حدود الروم مملكة (غسان)، وكانت كل من فارس والروم تتعرض لهجمات بعض القبائل العربية في شمال الجزيرة، يختطفون خلالها ما يستطيعون الحصول عليه ثم يفرون عائدين إلى قلب الجزيرة، حيث لا تستطيع جيوش الفرس والروم ملاحقتهم خوفاً من وعورة الطريق، وقلة الماء، لذلك عمد الفرس والروم أن يقيموا حاجزاً بينهم

---

(١) المرجع السابق، ص٥٣، ٥٤.

وبين العرب. وكان ذلك الحاجز عبارة عن بعض القبائل العربية تألّفها الفرس والروم وأسكنوها في شمال شبه الجزيرة، وأمد كل من الفرس والروم هذه القبائل بعون من السلاح والمال، وكانت هذه القبائل تعرف مسالك الجزيرة، وتستطيع الوقوف في وجه هجمات المغيرين، وبذلك تكونت في الحيرة مملكة تحمي الفرس، وتحميها الفرس، وتكونت مملكة غسان تحمي الروم، وتحميها الروم.

ملوك الحـــيرة

ومن أشهر ملوك الحيرة: عمرو بن عدي، والمنذر بن ماء السماء، والنعمان بن المنذر، وقد غضب كسرى على النعمان لأنه أنف أن يزوج أحداً من بناته وأخواته من كسرى، وأولاده، فتوعده كسرى وطلبه، ولكن النعمان هرب، فظفر به وألقاه في السجن حتى مات.

ملوك الغساسنة[١]

وهم من قبيلة جَفْنة وكانت (جُلَّق) ـ دمشق ـ عاصمتهم، ومن أشهرهم: الحارث بن جبلة، والمنذر بن جبلة، وجَبَلة بن الأيهم، وهو آخر ملوك الغساسنة، وفي عهده فتح المسلمون بلاد الشام، (وجَبَلة) هو صاحب القصة المشهورة مع سيدنا عمر بن الخطاب[٢]، وبسببها تنصَّر بعد أن أسلم، ثم لحق ببلاد الروم.

وكان ملوك الحيرة، وغسان بوصفهم من سلالة يمنية يحتفظون في مظاهرهم وحضارتهم بالحضارة اليمنية. وأبرز مثال لذلك القصران الشهيران: (الخورنق) و(السدير).

على أن أهم دور قامت به هاتان المملكتان هو أنهما كانتا جسراً عبرت عليه

---

(١) سموا باسم بئر نزلوا عليه وهم خارجون من اليمن.

(٢) ذلك أنه وطىء إزاره وهو يطوف بالكعبة رجل مسلم، فلطمه جبلة لطمة شديدة، فذهب الرجل شاكياً إلى أمير المؤمنين عمر، فأراد أن يقصه منه، ففر ثم تنصر ولحق ببلاد الروم حتى مات.

ألوان من حضارة الفرس والروم إلى شبه الجزيرة، وأهم هذه الألوان الحضارية هي: الدين، وضروب من المعازف، وأدوات اللهو، والقراءة، والكتابة، وبعض الألفاظ اللغوية، والفنون الحربية وغيرها.

الحالة الدينية عند العرب[1]

يكاد يتفق علماء الأديان على أن التدين غريزة في الإنسان، وقد عبر عن هذه الحقيقة معجم (لاروس) للقرن العشرين بقوله: «إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلّهي، وبما فوق الطبيعة، هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية، وإن هذه الغرايز الدينية لا تخفى بل لا تضعف ولا تذبل»، وشرح (بارتلمي سانت هلير) نشأة التدين بقوله: «ما العالم؟ ما الإنسان؟ من أين جاءا؟ من صنعهما؟ ما نهايتهما؟ وما الموت؟ وماذا بعد الموت؟... هذه الأسئلة لا توجد أمة، ولا شعب، ولا مجتمع إلا وضع لها حلولاً جيدة، أو رديئة، مقبولة أو سخيفة، وهذا هو التدين»[2].

وقد اختلف علماء الأديان في تحقيق الظروف التي تنمّي غريزة التدين في النفس، فيرى بعضهم أنها تنمو حيث يصل الإنسان إلى مستوى من السمو الفكري، والوعي الثقافي، الذي يفكر فيه: كيف خلق؟ ومن خلقه؟ وإلى أين يصير؟

ويرى بعضهم أن غريزة التدين تنمو حيث يظهر اختلاف المظاهر الكونية، وحين يشتد إحساسه بالضعف أمام هذه المظاهر.

ويرى فريق ثالث: أنها تنمو تبعاً للرخاء، وهدوء البال، فيجد فراغاً من شغله، وهمومه، للبحث في الكون، وخالقه، ومدبره.

(١) حينما يُتَكلّم عن الدين كظاهرة من الظواهر البشرية يراد به ما هو أعمّ من أن يكون سماوياً أو أرضياً، حقاً أو باطلاً.

(٢) «الدين»، ص ٧٥، ٧٦.

والحق أن كلًّا من هؤلاء نظر إلى المسألة من جانب خاص، ولا يمكن أن ينهض واحد منها ليكون سبباً لنمو فكرة التدين عند جميع البشر، وفي جميع البيئات، والظروف والملابسات[1].

ومهما يكن من شيء فقد كان العرب من طوائف البشر المتدينين، بل والمتصلبين في عقائدهم على ما كان فيها من زيغ وضلال، ووثنية.

الــوثنيــة

وقد كان معظم العرب وثنيين يعبدون الحجارة من الأصنام، والأوثان، والأنصاب[2]، بل كان بعض معبوداتهم شجرة كبيرة يعظمونها[3]، وليس من شك في أن دين إبراهيم عليه السلام كان التوحيد الخالص، وكذلك دين إسماعيل، قال تعالى:

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾[4].

وليس من شك في أن أبناء إسماعيل وذريته كانوا على التوحيد الخالص وإنما طرأت عليهم الوثنية بعد.

نشأة الوثنية ببلاد العرب

وقد اختلف العلماء في: متى نشأت الوثنية في بلاد العرب؟ وعلى يد من دخلت؟

فقال فريق من العلماء إن أول من أدخل الأصنام إلى بـلاد العرب

---

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة، ج ١ ص ٨٦.

(٢) فرَّق بينها ابن الكلبي بأن الصنم ما كان على صورة إنسان من خشب، والوثن ما كان على صورة إنسان من حجر، والنصب حجارة تنصب على هيئة هيكل أو بناء، فيعبدونها ويذبحون عندها.

(٣) تفسير الزمخشري عند تفسير قوله تعالى في سورة النجم ﴿أفرأيتم اللاَّت، والعُزَّى...﴾.

(٤) الآية ١٢٥ من سورة البقرة.

عمرو بن لُحَيّ[1] الخزاعي، فقد ذكر ابن إسحاق أنه خرج إلى الشام وبها يومئذ العماليق، وهم يعبدون الأصنام، فاستوهبهم واحداً منها وجاء به إلى مكة، فنصبه في الكعبة، وهو (هُبَل) وكان قبل ذلك في زمن الجراهمة قد فَجَر رجل يقال له: (إسَاف) بامرأة يقال لها: (نائلة) في الكعبة، فمسخهما الله حجرين كي يعتبر بهما الناس، ويتعظوا، فأخذهما عمرو بن لحي فنصبهما حول الكعبة، فصار من يطوف يتمسح بهما.

وروى ابن الكلبي أن سبب ذلك أن عمرو بن لحي كان له تابع من الجن يقال له: أبو ثمامة، فأتاه ليلة، فقال: أجب أبا ثمامة، فقال لبيك من تهامة، فقال: ادخل بلا ملامة، فقال: ائت سيف جدة، تجد آلهة معدة، فخذها ولا تهب، وادع إلى عبادتها تُجَب، قال: فتوجه إلى جدة[2]، فوجد الأصنام التي كانت تعبد في زمن نوح وإدريس، وهي: وَدّ، وسُوَاع، ويَغُوث، ويَعُوق، ونَسْر[3]، فحملها إلى مكة، ودعا إلى عبادتها، فانتشرت بسبب ذلك عبادة الأصنام في العرب، وصارت فيهم بعد أن كانت في قوم نوح. وفي مسند الإمام أحمد «أول من سيَّب السوائب، وعبد الأصنام عمرو بن لحي الخزاعي»[4].

ويذكر ابن الكلبي رأياً آخر في منشأ عبادة الأصنام، ذلك أنهم كانوا لا يظعن من مكة ظاعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، وصبابة به، فحيثما حل وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة؛ تيمناً منهم بها، وصَبَابة بالحرم، وحبّاً له، وهم بعد يعظمون الكعبة، ومكة، ويحجون

---

(١) بضم اللام وفتح الحاء ــ المهملة ــ وتشديد الياء.

(٢) بضم الجيم وتشديد الدال المهملة: بلد بالحجاز.

(٣) في صحيح البخاري عن ابن عباس أن وداً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً كانت أسماء أناس من عظماء قوم نوح،وصالحيهم، فلما ماتوا صنعوا لهم هذه التماثيل لتكون تذكاراً لهم، وعظة، واعتباراً لغيرهم، ليفعل مثل فعلهم، وبتوالي الزمن تنوسي هذا المعنى وعبدت من دون الله، ثم نقلها عمرو بن لحي إلى العرب.

(٤) فتح الباري، ج ٧ ص ٣٥٩، ٣٦٠.

ويعتمرون، ثم لم يلبثوا أن عبدوا ما استحبوا من هذه الحجارة، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصارت إلى ما صاروا إليه الأمم قبلهم[١].

ومهما يكن من شيء فقد انتشرت عبادة الأصنام في بلاد العرب، وكان من أعظم أصنامهم (هُبَل) الذي كان بجوف الكعبة، وكان من العقيق[٢] على صورة إنسان، وكان مكسور الذراع، فأبدله القرشيون ذراعاً من ذهب، ومن أشهرها (وَدّ) وكان لكَلْب بدُومة الجَنْدل، أما (اللاَّت) فكانت بالطائف لثقيف، وكانت صخرة كبيرة تعظمها ثقيف، وقد أمر النبي ﷺ بهدمها بعد خضوعهم، ودخولهم في الإسلام، وأما (العُزّى) فكانت بوادي نخلة، وقد قطعها خالد بن الوليد بأمر النبي، وأما (مَنَاة) فكانت بالمُشَلَّل من قديد[٣] على ساحل البحر الأحمر، وكانت الأنصار وغسان يعظمونها قبل الإسلام، وكانوا يحجون إليها، وكان من أهلّ لها لم يطف بين الصفا والمروة، ويتحرج من ذلك، فلما أسلموا بقوا على تحرجهم فأنزل الله قوله:

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴿١٥٨﴾ ﴾[٤].

فجاءت الآية لنفي هذا الحرج الذي كان في نفوسهم، فلذلك لم يكن في نفي الجناح وهو الحرج ما ينفي وجوب السعي أو فرضيته، وكان الواحد منهم يصنع لنفسه الصنم من العجوة أو الحلوى فإذا جاع أكله! ووجد أحدهم يوماً صنماً له وقد بال عليه الثعلب، فرمى به وقال:

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه　　　لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

---

(١) الأصنام، ص ٦.

(٢) هذا يدل على أن بعض الأصنام قد يكون من غير الخشب والحجر، وأن ما ذكره ابن الكلبي أمر غالبي.

(٣) مكان بين مكة والمدينة.

(٤) الآية ١٥٨ من سورة البقرة.

ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى

ولم يكن العرب يعتقدون أنها تخلق، أو تدبر الكون، وإنما كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله قال عز شأنه:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1].

أي كيف يصرفون عن عبادة الله الحق إلى عبادة الأصنام. وقال:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[2].

ولكنهم كانوا يزعمون ما حكاه الله تعالى عنهم:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[3].

وهكذا صدق عليهم قوله تعالى:

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[4].

ومن هذه الآيات يتبين لنا أن الله ـ عزَّ شأنه ـ نفى الوسائط بينه وبين خلقه في عبادته، وجعل طريق الوصول إليه مفتوحاً لمن يريد، وأن المشركين ناقضوا أنفسهم حينما أقروا بألوهية الله، وأشركوا معه غيره في العبادة.

عبادة الملائكة والجن

ومن العرب من كان يعبد الملائكة ويسمِّيها بنات الله، ومنهم من كان يعبد

---

(١) الآية ٨٧ من سورة الزخرف.
(٢) الآية ٦١ من سورة العنكبوت.
(٣) الآية ٣ من سورة الزمر.
(٤) الآية ١٠٦ من سورة يوسف.

الجن، زاعماً أن بينها وبين الله نسباً وصِهراً، قال تعالى موبخاً لهم ومنكراً عليهم، ومسفِّهاً آراءهم:

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾(1).

فالجِنَّة المراد بها الجن وهو الظاهر، وقيل: المراد بها الملائكة، ومنهم من زعم أن الله اتخذ ولداً من الملائكة، قال سبحانه في الرد عليهم:

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾(2).

إنكار البعث

ومن عقائدهم الباطلة إنكار البعث، وقد قرر القرآن الإنكار في آيات عديدة، قال سبحانه حكاية لمقالتهم:

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾(3).

وقــالَ:

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾(4).

---

(1) الآيات ١٥٣ ـ ١٥٨ من سورة الصافات.
(2) الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ من سورة الأنبياء.
(3) الآيتان ٣٦ ـ ٣٧ من سورة المؤمنون.
(4) الآيات ١ ـ ٤ من سورة ق.

وَقَــالَ:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾(1).

وكان بعضهم دهريين يقولون كما حكى الله عنهم:

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴿٢٤﴾ ﴾(2).

إنكارهم الرسالة

وكانوا ينكرون رسالة الرسل، وأن يرسل الله رسولاً من البشر قال تعالى:

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾(3).

وقال إنكاراً عليهم، وبيان أن الله ما أرسل رسولاً إلا من البشر:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ ﴿٤٤﴾ ﴾(4).

وقال أيضاً:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾(5).

---

(1) الآيتان ٧٨ ــ ٧٩ من سورة يس.

(2) الآية ٢٤ من سورة الجاثية.

(3) الآية ٢ من سورة يونس.

(4) الآيتان ٤٣ ــ ٤٤ من سورة النحل.

(5) الآيتان ٧ ــ ٨ من سورة الأنبياء.

الاستقسام بالأزلام[1]

ومن عقائدهم الاستقسام بالأزلام، وكانت ثلاثة مكتوب على أحدها «أمرني ربي»، وعلى الآخر «نهاني ربي»، والثالث غُفْل ـ ليس عليه شيء ـ. كان أحدهم إذا أراد سفراً، أو غزواً، أو تجارة، أو نكاحاً، أو أمراً ما ضرب القداح، وكانت عند سادن ـ خادم ـ الصنم الأكبر (هبل)، وكانت توضع في خريطة[2]، ثم يجلجلها، ثم يضع السادن يده، فإذا خرج الآمر مضى لشأنه، وإذا خرج الناهي أمسك، وإذا خرج الغفل أجالها مرة أخرى[3].

وقد حرم الإسلام هذا قال تعالى:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ... ﴾.
إلَى قَوْلِهِ: ﴿... وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ﴿٣﴾ ﴾[4].

وقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[5].

التحليل والتحريم

وقد كانوا يحلِّلون ويحرمون ما لم يأذن الله به، ومن ذلك تحريمهم البَحِيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وكان أول من سيَّب السوائب عمرو بن لُحيّ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قُصْبَه[6] في النار، وكان أول من سيب السوائب».

---

(١) الأزلام جمع زَلَم بفتح الزاي واللام: القدح وهو قطعة من خشب، والاستقسام: طلب معرفة ما قسم له.

(٢) كيس من جلد.

(٣) تفسير الكشاف عند قوله: «وأن تستقسموا بالأزلام».

(٤) الآية ٣ من سورة المائدة.

(٥) الآية ٩٠ من سورة المائدة.

(٦) في القاموس «القصب ـ بالضم ـ الظهر والمعي» أي يجر أمعاءه في النار.

أما البَحيرة فهي التي بحرت أذنها أي شقت، كانت الناقة، أو الشاة إذا ولدت خمسةَ أبطن شقوا أذنها، وتركوها للطواغيت ـ الأصنام ـ فلا يركبها أحد، ولا ينتفع بلحمها ولا وبرها، ولا لبنها.

وأما السائبة: فكان الواحد منهم ينذر إن برأ من مرضه، أو قدم من سفر ليُسَيِّبَنَّ بعيراً. فكانوا يتركونه لآلهتهم فلا يحمل عليه شيء.

وأما الوصيلة: فهي الناقة البكر تبكر في أول نتاجها بأنثى ثم تثني بأنثى فكانوا يسيِّبونها لآلهتهم، ويقولون: وصلت إحدى الأنثيين بالأخرى، ليس بينهما ذكر.

وأما الحام: فهو فحل الإبل إذا نتج منه عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره، ويتركونه لأصنامهم، ولا ينتفعون منه بشيء. وهذا ولا شك تشريع بما لم يأذن به الله، وفيه إضاعة للمال بغير داع؛ فلذلك أنكر الله سبحانه عليهم ذلك، قال عز شأنه:

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾(1).

كما بين لهم أن التحليل والتحريم من الله، وأن صنيعهم هذا كذب، وافتراء على الله قال عز شأنه:

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾(2).

وكذلك جعلوا للأصنام نصيباً في الأنعام والزروع، وجعلوا لله نصيباً وآثروا جانب الأصنام على جانب الله، قال سبحانه:

---

(1) الآية ١٠٣ من سورة المائدة.

(2) الآية ١١٦ من سورة النحل.

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ (١) وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ (٢) سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾(٣).

وكذلك كانوا يحرمون ذكور الأنعام حيناً، ويحرمون إناثها حيناً آخر، وتارة ثالثة كانوا يحرمون الذكور والإناث، لا يستقرون على حال ولا يستندون إلى حجة، فجادلهم الله بالحكمة، والمنطق القويم، فقال سبحانه:

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾(٤).

إلى غير ذلك من ابتداعاتهم وافتراءاتهم.

* * *

(١) أي لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان، والتصدق على الفقراء والمساكين.

(٢) من إنفاق عليها بذبح الذبائح عندها والعناية بها، وإجراء الأرزاق على سدنتها ونحو ذلك.

(٣) الآية ١٣٦ من سورة الأنعام.

(٤) الآيتان ١٤٣ ــ ١٤٤ من سورة الأنعام.

اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب

أما اليهودية فقد كانت بخيبر وما جاورها، ويثرب (المدينة) وفي بلاد اليمن. وفي الحق أن اليهودية لم تجد قبولاً ولا انتشاراً في بلاد العرب، ولعل ذلك لأن اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار، فلذلك لم يقبل العربي أن يدخل ديناً يجعله في طبقة دنيا عن طبقة دعاة هذا الدين، وأيضاً فقد كانوا لا يهمهم نشر دينهم، بقدر ما يهمهم جمع الأموال، هذا إلى أن أخلاقهم التي كانوا يتصفون بها من اللؤم، والغدر، والخيانة، والحرص والشره إلى المال، والتي تعتبر على الضد من أخلاق العرب ـ زهّدت العرب في دينهم، والانتظام في سلكهم وجماعتهم.

أما النصرانية فكانت منتشرة بنجران شمال اليمن، وطبيعي أنها جاءت من الحبشة، وفي شمال الجزيرة في دولة الغساسنة، وقد كانت وثيقة الصلة بالروم، فمن ثم انتشرت فيها النصرانية أكثر من غيرها، وفي الحيرة فقد تنصر معظم الأسرة المالكة، وقد ذكر ياقوت في «معجم البلدان» أنه كان بالحيرة بيعة[1] ـ كنيسة ـ وأنها من أقدم الكنائس ببلاد العرب، وقد ذكر أنه كان على واجهتها كتابة نصها: «بنت هذه الكنيسة هند أمة المسيح، وأم عبده» وفي غير هذه الأقاليم لا تجد أثراً يذكر للنصرانية.

والسبب في عدم انتشار النصرانية في بلاد العرب التعقيدات التي فيها ولا سيما في باب الألوهية، فإنها لا يقبلها العقل العربي، والأمور التي يزعم القُسُس أنها من الأسرار، وطبيعة العربي تأبى ذلك أيضاً.

(١) البيعة ـ بكسر الباء ـ متعبد النصارى، وتجمع على بِيَع بكسر الباء وفتح الياء.

الحنيفيــون[1]

وقد كان في العرب من يدين بشريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، في الألوهية والتوحيد، والإيمان بالبعث، واليوم الآخر، وأن رسولاً سيبعث في آخر الزمان، ويخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وهم (الحنيفيون) منهم:

١ ــ **قُسّ بن ساعدة الإيادي**: كان خطيباً، حكيماً، عاقلاً، له نباهة، وفضل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بشّر بالنبـي ﷺ، فقد روى أبو نُعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس قال: «إن قس بن ساعدة كان يخطب قـومـه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه ــ وأشار بيده إلى مكة ــ قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل من ولد لـؤيّ بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعيش إلى مبعثه لكنت أول من يسعى إليه» وقد أدرك النبـي ﷺ، ولكنه مات قبل البعثة.

وروي أن النبـي قال: «رحم الله قُساً كأني أنظر إليه على جمل أورق تكلم

---

(١) سُموا بذلك من حَنَف عن الشيء أي مال عنه، لأنهم مالوا عن الدين الباطل إلى الدين الحق، سواء أكانوا على دين إبراهيم أم على دين المسيح الحق، وإن كانت الكلمة تطلق على الأولين غالباً، وفي الكتاب الكريم «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً».

بكلام له حلاوة لا أحفظه» فقال بعض قومه: نحن نحفظه، فقال: «هاتوه» فذكروا خطبته المشحونة بالحكم والمواعظ.

وروى الطبراني في كتابه «المعجم الكبير» والحافظ البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: قدم وفد عبدالقيس على النبي ﷺ فقال: «أيكم يعرف قُسَّ بن ساعدة الإيادي»؟ قالوا: كلنا نعرفه يا رسول الله، قال: «فما فعل»؟ قالوا: هلك، قال: «فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام، وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس وهو يقول: يا أيها الناس: اجتمعوا، واستمعوا، وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً...» إلى آخر خطبته المشهورة ثم قال رسول الله ﷺ: «أفيكم من يحفظ شعره»؟ فأنشده بعضهم قوله:

في الذاهبين الأولـ ـين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلـ ـيَّ ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالـ ـة حيث صار القوم صائر

ولذلك قال الجاحظ في «البيان والتبيين»: «ولإياد وتميم خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ، وموعظته، وهو الذي روّاه لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسن كلامه، وأظهر من تصويبه، وهذا إسناد[1] يعجز عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمال، وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة، لاحتجاجه للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص وإيمانه بالبعث، ولذا كان خطيب العرب قاطبة»[2].

(١) في البداية والنهاية: «وهذا شرف...».
(٢) البيان والتبيين، ج ١ ص ٥٢، ط ثالثة.

ولو أن الرواية بهذا كانت ثابتة لاستقام كلام الجاحظ، ولكن بعض حفاظ الحديث ونقاده قالوا: في السند راو كذاب متهم بوضع الحديث، وقد حكم الحافظ ابن الجوزي عليها بالوضع، ووافقه بعض الحفاظ.

نعم رويت رواية أمثل من هذه وأقوى، ولكنها تفيد أن الذي أوردَ القصة بكمالها: نظمها ونثرها بين يدي رسول الله ﷺ هو الصدِّيق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وأغلب طرق القصة لا تخلو من ضعف[1]، ومهما يكن من شيء فقد كان قس بن ساعدة من الحنفاء الداعين إلى الله وتوحيده، والإيمان باليوم الآخر في هذا العصر الجاهلي المظلم.

٢ ـ **زيد بن عمرو بن نُفَيْل**: ابن عم الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ووالد الصحابي الجليل سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان حنيفاً على دين الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وكان لا يأكل ما ذبح على الأنصاب، وقد التقى بالنبي ﷺ بمكان يقال له: (بلدح)[2] وكانت قُدِّمت إلى النبي سفرة[3]، فأبى أن يأكل منها. ثم قدمت لزيد، فأبى، وقال: لا آكل ما تذبحون على أنصابكم، روى البخاري في صحيحه بسنده عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ «أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبي الوحي، فقدمت إلى النبي سفرة فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه»، وكان زيد بن عمرو بن نفيل يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟!

وهذه الرواية الصحيحة ترد ما ذكره بعض الكتاب في السيرة من أن

---

(١) البداية والنهاية، ج ٢ ص ٢٣١ ـ ٢٣٧؛ اللآلىء المصنوعة، ج ١ ص ٥٥.
(٢) مكان في طريق التنعيم، ويقال: واد.
(٣) طعام المسافر.

النبي أكل مما ذبح على النصب، أما زيد فقد أبى أن يأكل منها، وهو زعم باطل[1].

ثم ذكر البخاري في قصة طويلة أن زيداً خرج إلى الشام يطلب الدين الحق، فلقي عالماً من علماء اليهود، فلم يعجبه ما قال، ثم خرج فلقي عالماً من النصارى فلم يقع في نفسه ما عرض عليه، ولكنه وجدهما يذكران دين إبراهيم وأنه هو الدين الحنيف، فلما سمع قولهما في إبراهيم خرج، فلما برز رفع يديه وقال: «اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم».

وروى البخاري تعليقاً[2] عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموؤودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها»[3].

وروى ابن إسحاق أنه كان يقول: «اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به، ولكني لا أعلمه» ثم يسجد على راحته، وروى ابن سعد، والفاكهي عن عامر بن ربيعة أن زيداً قال له: «إني خالفت قومي واتّبعتُ ملة إبراهيم، وإسماعيل، وما كانا يعبدان، وكانا يصليان إلى هذه القبلة، وأنا أنتظر نبياً من بني إسماعيل يبعث، ولا أراني أدركه، وأنا أومن به وأصدقه، وأشهد أنه نبي، وإن طالت بك حياة فأقرِئْه مني السلام»، قال عامر: فلما أسلمت أعلمت النبي ﷺ بخبره، فردَّ عليه السلام، وترحم عليه، وقال: «لقد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً»، وروى أن سعيد بن زيد، وعمر بن الخطاب سألا رسول الله عن زيد فقال: «غفر الله له ورحمه، فإنه مات على دين إبراهيم» ولما بعث

(١) انظر: «محمد رسول الحرية» لعبدالرحمن الشرقاوي.
(٢) المعلق: هو ما حذف من مبتدأ إسناده راو أو أكثر، وقد يحذف السند كله.
(٣) صحيح البخاري ــ باب زيد بن عمرو بن نفيل.

النبي ﷺ، وكان بالشام وبلغه ذلك، عاد ليؤمن به، فقتل بمضيعة من أرض البلقاء[1].

٣ ـ **ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعُزّى**: ابن عم السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ وكان ممن كره عبادة الأوثان، وما كان عليه قريش من الضلال، فخرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل إلى الشام يبحثان عن دين تركن إليه نفوسهما، فأما زيد فقد انتهى أمره إلى الحنيفية ـ كما أسلفنا ـ واتّبع دين إبراهيم، وأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصَّر، ولعله لقي من الرهبان من بقي على دين عيسى الحق، ولم يبدل، ولم يحرف، فقد كان موحِّداً، وبشر بالنبي ﷺ، وفي صحيح البخاري في حديث بدء الوحي الطويل: «وكان امرءاً قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي»ولما أخبره النبي ﷺ بخبره قال: «هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً، ليتني فيها حياً إذ يخرجك قومك»، فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟» قال: نعم لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي[2].

وقد اختلف في وفاته، فذهب الكثيرون إلى أنه مات قبل أن يؤمر النبي بالإنذار على ما في الصحيح، وقيل عاش حتى شهد المبعث، وأنه كان يمر على بلال وهو يعذب على رمضاء مكة ويقول: «أحد. أحد» فيقول ورقة: «أحد. أحد، يا بلال، والله لئن قتلتموه لأتخذنّه حناناً[3]».

وأيّاً ما كان فقد مات على التصديق بالنبي والإيمان به، روى البيهقي في الدلائل وأبو نعيم أنه لما توفي قال ﷺ: «لقد رأيت القَسَّ[4] في الجنة عليه

---

(١) فتح الباري، ج ٨ ص ١٤٢ ـ ١٤٤؛ سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٢٢٤ ـ ٢٣٢.
(٢) صحيح البخاري ـ باب كيف كان بدء الوحي.
(٣) بركة أتبرك به.
(٤) القس ـ بفتح القاف وتشديد السين ـ والقِسِّيس ـ بكسر القاف وتشديد السين ـ: رئيس النصارى في العلم والدين.

ثياب الحرير، لأنه آمن بـي وصدقني»، وفي رواية: «رأيت ورقة في بطنان الجنة عليه السندس» ولذلك عدَّه بعض العلماء أول من آمن بعد خديجة من الرجال، وعده البعض من الصحابة[1].

٤ ـ **أمية بن أبـي الصَّلْت بن عوف الثقفي**: كان ممن طلب الدين، ونظر في الكتب، ويقال: إنه ممن دخل في النصرانية، وأكثر في شعره من ذكر التوحيد، والبعث، وأحوال القيامة، وكان يعلم من الكتب أن نبياً سيبعث من العرب، وكان يرجو أن يكون هو، فتحنَّث وتعبَّد أملاً في هذا، وكأنه ظن أن النبوة تُنال بالرياضات، وما علم أنها فضل من الله يؤتيه من يشاء.

ولما بُعث النبـي ﷺ حسده، وقال: «إن الحنيفية حق، ولكن الشك يداخلني في محمد». ولما قيل له: أفلا تتبعه؟ قال: «أستحي من نُسَيَّات ثقيف أني كنت أقول لهن: إني أنا هو، ثم أصير تابعاً لغلام من بني عبد مناف!!» ولما أنشدت أخته النبـي شيئاً من شعره قال: «آمن شعره، وكفر قلبه» وقد روي في صحيح البخاري أن النبـي ﷺ قال: «كاد أمية بن أبـي الصلت أن يسلم» وقد عاش حتى وقعة بدر الكبرى: فرثى من مات بها من الكفار، ثم مات من غير أن يسلـم بين كمده، وحسده، وحسرته، قيل سنة اثنتين بعد بدر، وقيل سنة تسع.

* * *

(١) شرح المواهب، ج ١ ص ٢٩٢، ٢٩٣.

الحياة الاجتماعية عند العرب

لقد كان للعرب أوضاع، وتقاليد اجتماعية، وقوانين عرفية فيما يتعلق بالأنساب والأحساب، وعلاقة القبيلة بالأخرى، وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض، وفيما يتعلق بالأسرة من نكاح، وطلاق، وثبوت نسب، ووضع المرأة في الأسرة، والبنين، والبنات، ونظام التوارث إلى غير ذلك مما يتعلق بالحالة الاجتماعية ويمكن إجمال ذلك فيما يأتي:

١ ـ الاعتزاز الذي لا حدَّ له بالأنساب، والأحساب[١]، والتفاخر بها

وقد حرص العرب حَضَراً وبَدْواً على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، اعتزازاً بالدم العربي أن يختلط بغيره، ولعلك على ذكر مما ذكر آنفاً من إباء النعمان بن المنذر أن يزوج إحدى بناته من كسرى، أو أحد أولاده مع أنه كان تابعاً له، وتحمل في سبيل ذلك ما تحمل. وقد بالغوا في التفاخر بها حتى أضاعوا وقتهم فيه، قال تعالى:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾[٢].

ولما جاء الإسلام قضى على ذلك، وبينَّ لهم أن التفاضل إنما هو بالتقوى والعمل الصالح، وأن النسب الأصيل إذا اجتمع إليه العلم والعمل بلغ

---

(١) النسب ـ القرابة من جهة الآباء والأمهات، والحسب ـ بفتح الحاء والسين ـ ما يعد من المآثر والفضائل كحسن الخلق، والشجاعة، والجود ونحوها، مأخوذ من الحساب، لأنهم كانوا إذا تفاخروا حسب كل واحد مناقبه، ومناقب آبائه.

(٢) الآيتان ١ ـ ٢ من سورة التكاثر.

الإنسان غاية الكمال. وكذلك حافظوا على أنساب خيولهم الأصيلة، وإبلهم الكريمة، وهو مظهر من مظاهر الاعتزاز بالأنساب.

٢ ـ الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، ولا سيما الشعر

فقد كان شعرهم سجل مفاخرهم وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نَجَم فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء الفطاحل، وقد كان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعر يَنْبَغ في القبيلة لأنه كان يعتبر رمز القبيلة، والمنافح عنها، والمتغني بمفاخرها وأمجادها، وكانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ. ولمكان الفصاحة والبلاغة من العرب كانت آية النبي الكبرى قرآناً يتلى، وفي أعلا درجات الفصاحة، والبلاغة، وقد أهَّلتهم ملكة البيان لحمل رسالة الإسلام فيما بعد، والمنافحة عنها باللسان والبيان.

٣ ـ المرأة في المجتمع العربي

وقد كانت المرأة عند كثير من القبائل كسَقَط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزوج من غيرها من حقه أن يزوجها بعد وفاة أبيه، أو يَعْضلها عن النكاح، حتى أبطل الإسلام ذلك وكان الابن يتزوج امرأة أبيه، فحرم الإسلام ذلك، وسماه (نكاح المَقْت) وما كانوا يورثونها ويقولون إنما يرث من يحارب ويجالد حتى جعل الإسلام لها حقاً مفروضاً، كما كانوا يجمعون بين الأختين حتى حرم ذلك الإسلام.

ومن الحق أن نقول: إن بعض القبائل كانت تجلُّ المرأة، وتأخذ رأيها في الزواج، وكتب الأدب والتاريخ فيها الكثير من القصص في ذلك.

والعرب جميعاً يغارون على أعراضهم، ويحافظون على نسائهم أكثر من أنفسهم، والعربي قد يقتل، وقد يسطو على الأموال، ولكن تأبى عليه مروءته أن ينتهز ضعف امرأة، أو وحدتها في سفر مثلاً، فينتهك عرضها.

والمرأة العربية الحرة كانت تأنف أن تفترش لغير زوجها وحليلها، وكانت

أيضاً تتسم بالشجاعة تتبع المحاربين وتشجعهم، وقد تشارك معهم في القتال إذا دعت الضرورة.

والمرأة البدوية تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف، وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصون والتعفف. ومن صفاتها أنها تضجر من الحضر وترى الحرية، والهدوء، والصفاء في البادية، وليس أدل على هذا من قصة (ميسون بنت بحدل) التي تزوجها خليفة المسلمين معاوية بن أبـي سفيان، فولدت له يزيد، فإنها لم تُطِق حياة القصور، والنعيم والترف، وتاقت إلى الخيام، والعيش الجاف، وإلى بدوي مثلها فقالت:

لَبيت تخفُق الأرواح فيه ... أحبُّ إلي من قصر مُنيف
ولبس عباءة وتقرَّ عيني ... أحبُّ إلي من لبس الشُّفوف
وأكل كسيرة في قعر بيتي ... أحبُّ إلي من أكل الرغيف
وخِرْق[1] من بني عمي ضعيف ... أحبُّ إلي من عِلْج[2] عنيف

فلما بلغت معاوية ــ رضي الله عنه ــ مقالتها سرَّحها، وأعادها معززة إلى أهلها.

٤ ــ النكاح والطلاق

لم يكن للعرب حدٌّ محدود في النكاح، فقد جاء الإسلام ومنهم من له العشر من النساء والأكثر، والأقل، فقصر ذلك على أربع إن علم أنه يستطيع الإنفاق عليهن، والعدل بينهن، فإن خاف عدم العدل فليكتف بواحدة، وما كانوا في الجاهلية يلتزمون العدل بين الزوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهن حتى جاء الإسلام فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهن في العشرة، وقرر لهن حقوقاً ما كنَّ يحلمن بها.

---

(١) بكسر الخاء، وسكون الراء: رجل نحيف هزيل.
(٢) العلج: رئيس العجم والمراد به رئيس، غليظ، متعجرف.

أنكحة الجاهلية

وكانت هناك في الجاهلية أنكحة كثيرة منها الصحيح الذي هو كأنكحتنا اليوم بخطبة، وولي، ومهر، ومنها الفاسد، فمن الفاسد: نكاح الاستبضاع، ونكاح التواطؤ، ونكاح البغايا، ونكاح الشغار، ونحوها، والنكاح الصحيح كان يلتزمه أكثر العرب، ولا سيما الأشراف منهم. وإليك ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ «أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء[1]: فنكاحٍ منها نكاح النساء اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليَّته أو[2] ابنته، فيُصْدِقُها، ثم ينكحها.

ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طَمْثها[3]: أرسلي إلى فلان، فاستبضعي[4] منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها[5]، فإذا حملت، ووضعت، ومرَّ ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمِّي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا تمنع من جاءها، وهُنَّ البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علَماً، فمن أرادهن

---

(١) جمع نحو: أي ضرب وَزْناً ومعنى أو نوع.

(٢) أو للتنويع لا للشك.

(٣) حيضها.

(٤) أي اطلبي منه المباضعة، وهو الجماع، مشتقة من البضع وهو الفرج، وإنما كانوا يطلبون ذلك من أكابرهم، ورؤسائهم المعروفين بالشجاعة، أو الكرم، أو غير ذلك من الفضائل.

(٥) والظاهر أنه يكون عن رضاً منها، وتواطؤ بينهم وبينها.

دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها جمعوا لها، ودعـوا لها القافة[1]، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط[2] به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك.

فلما بُعث محمـد ﷺ بالحق هـدم نكاح الجـاهلية، إلا نكـاح النـاس اليوم»[3].

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة ــ رضي الله عنها ــ كنكاح الخِدْن وهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدانٍ﴾ كانوا يقـولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزنا أقرب منه إلى النكاح، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح البدل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرجل: انزلْ لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك[4].

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشِّغار وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق.

الــطـــلاق

وكذلك كانوا يسرفون في الطلاق من غير أن يكون هناك داع مشروع، أو مقبول، حتى جاء الإسلام فبيَّن لهم النبـي أن «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[5]. ولم يكن للطلاق حدٌّ محدود، فكان الرجل يطلق ثم يراجع، وهكذا فلما جاء الإسلام قيَّد ذلك، وأعطى للزوج فرصة لتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرتين، فإن طلَّق الثالثة فقد انقطعت عروة النكاح، ولا تحلّ له إلا بعد زوج آخر، ففي الكتاب الكريم:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾[6].

---

(١) جمع قائف وهو الذي يعرف شبه الولد بالوالد بالسمات الخفية.

(٢) استلحقه به.

(٣) صحيح البخاري ــ كتاب النكاح ــ باب لا نكاح إلا بولي.

(٤) فتح الباري، ج ٩، ص ١٥٠.

(٥) رواه الحاكم وصحّحه.

(٦) الآية ٢٢٩ من سورة البقرة.

ثمَّ قَالَ بَعْدُ:

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾[1].

ومما كان يلحق بالطلاق في التحريم الظِّهار، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنت علي كظهر أمي، وكان تحريماً مؤبداً حتى جاء الإسلام، فوسمه بأنه منكر من القول وزور، وجعل للزوج مخرجاً منه، وذلك بالكفّارة قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[2].

٥ ــ وأد البنات وقتل الأولاد

ومن المآسي التي كانت تزاولها بعض القبائل وأد[3] البنات خشية العار، وقتل الأولاد من الفقر أو خشية الفقر، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾[4].

وقــال:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾[5].

---

(١) الآية ٢٣٠ من سورة البقرة.

(٢) الآيات ٢ ــ ٤ من سورة المجادلة.

(٣) الوأد كان بأن يحفر للبنت حفرة في التراب، ثم تلقى فيها حية، ويهال عليها التراب.

(٤) الآيتان ٨ ــ ٩ من سورة التكوير.

(٥) الآية ١٥١ من سورة الأنعام.

وقـــال:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[1].

وقد ذكروا أن السبب في وأد البنات أن قبيلة حاربت أخرى فغلبتها وسبت نساءها، وبناتها، وتزوجوا بهنَّ، فلما تصالحوا خُيِّر النساء والبنات أن يرجعن إلى أزواجهن وأهليهن، وبين البقاء عند من تزوجوهن فاخترن البقاء، فآل رجال القبيلة الأخرى على أنفسهم أن يئدوا البنات وهنَّ صغار، ثم فشت هذه العادة عند غير هذه القبيلة، مجاراة لها، أو خوفاً أن يصيبها ما أصابها.

وقد بلغ من سفههم أنهم كانوا يجعلون لله البنات، ولهم الذكور، وكان من العار والخزي أن يُبشَّر الواحد منهم بأن امرأته ولدت أنثى، ويدركه من الحسرة والكمد ما يجعله في حيرة من أمره، وقد بين لنا القرآن الكريم ذلك بهذا البيان البارع قال سبحانه:

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[2].

وكان في العرب قبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء كزيد بن عمرو بن نفيل، وقد حدثناك من خبره، فلما جاء الإسلام قضى على ذلك، وكرَّم البنات والبنين، وأوصى بهنَّ وبهم خيراً، وكان في المثل العالية التي كان يضربها النبي في معاملة بناته، وبناتهن، وأولادهن، وبنات المسلمين أكبر معلم ومهذب في هذا.

---

(١) الآية ٣١ من سورة الإسراء.

(٢) الآيات ٥٧ ـ ٥٩ من سورة النحل.

٦ ـ الحروب، والسطو، والإغارة

وكانت تقوم بين القبائل الحروب لأتفه الأسباب، من أجل ناقة، أو سباق فرس، أو نحو ذلك، وذلك كحرب البَسُوس التي قامت بين بكر، وتغلب أربعين عاماً من أجل ناقة حتى أكلت الكثير من أبطالهم ورؤسائهم، وكان من ضحاياها كليب بن ربيعة. وكحرب داحس والغبراء، التي قامت ودامت طويلاً بسبب سباق فرسين.

وكان يغلب على بعض قبائل البدو السطو والإغارة قصد نهب الأموال، وسبـي الأحرار وبيعهم، كزيد بن حارثة فقد كان عربياً حراً، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسياً حراً، وقد قضى الإسلام على ذلك حتى كانت تسير المرأة ـ فضلاً عـــن الرجل ـ من صنعاء إلى حضرموت، لا تخاف إلا الله والذئب على غنمها.

٧ ـ العلم والقراءة والكتابة

وقد كان العرب أمة أمية لا تكتب ولا تحسب، وهذه هي الصفة التي كانت غالبة عليها، ولم يكونوا أهل كتاب وعلم كاليهود والنصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل والأمية، والتقليد، والجمود على القديم وإن كان باطلاً، وكان فيهم قليل ممن يكتب ويقرأ، ولكنهم مع أميتهم وعدم اتساع معارفهم ـ كانوا يشتهرون بالذكاء، والفطنة، والألمعية، ولطف المشاعر، وإرهاف الحس، وحسن الاستعداد، والتهيؤ لقبول العلم والمعرفة، والتوجيه الرشيد، ولذلك لما جاء الإسلام صاروا علماء، حكماء، فقهاء، وزالت عنهم الأمية، وصار العلم والمعرفة من أخص خصائصهم.

وكان فيهم من يعلم علم النجوم ومساراتها، والاهتداء بها، ومعرفة بالأنواء، وسقوط الأمطار، وتحسس مخابىء الماء تحت أطباق الأرض، كما مهروا في علم قص الأثر، وهو القيافة، وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة، وكان طبهم مبنياً على التجارب التي اكتسبوها من الحياة والبيئة.

* * *

الحالة الأخلاقية عند العرب

مثالب العرب

كان للعرب في جاهليتهم بعض الأخلاق المرذولة كالعنجهيّة، والعصبية، والظلم، وسفك الدماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى، والتعامل بالربا، وشرب الخمر، والسرقة، والزنا، ومما ينبغي أن يُعلم أن الزنا إنما كان في الإماء وأصحاب الرايات من البغايا، ويندر أن يكون في الحرائر، وليس أدل على هذا من أن النبي ﷺ لما أخذ البيعة على النساء بعد الفتح «على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين» قالت السيدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: أو تزني الحرة؟!!

وكانوا يزاولون ألواناً من اللهو، واللعب، والمجون، والشطارة[1]، والقمار، وهو الميسر، إلى غير ذلك، وليس معنى هذا أنهم كانوا كلهم على هذا، لا، لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون، ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء؛ ولا يظلمون، ويتحرجون من أكل أموال اليتامى، ويتنزهون عن التعامل بالربا.

فضائل العرب

ولكنهم ـــ والحق يقال ـــ كانوا ذوي فضائل وأخلاق كريمة متأصلة فيهم، بل الرأي عندي أن فضائلهم أكثر من مثالبهم، ولهذا اختار الله خاتم أنبيائه

---

(١) اتباع وسائل الخبث واللؤم، كمغازلة النساء، ومعاكسة الإماء، والتعرض لهن بالليل، وتصنع البطولة.

ورسله منهم، واستأهلوا أن يكونوا حملة الرسالة المحمدية الخالدة وتبليغها للعالم كافة، فمن فضائلهم:

١ ـ حب الحرية، وإباء الضيم والذل

والعربي بفطرته يعشق الحرية يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقاً لا سلطان لأحد عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو أن يُنال في شرفه، وعرضه ولو كلَّفه ذلك حياته.

٢ ـ الشجاعة

فقد كانوا مضرب الأمثال فيها، وقد كان الواحد منهم يقابل الأسد في الصحراء فينازله حتى يقهره، وبعضهم لم يعرف الفرار ولا الهزيمة قط، وقد كان لهذه الفضيلة وزنها حينما جاء الإسلام، وفرض عليهم الجهاد.

٣ ـ الكرم

وهو خلق متأصل في العرب، ولا سيما أهل البادية وقد كان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كان يطعم الوحش، والطير، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال.

٤ ـ المروءة والنجدة

والعربي بفطرته ذو مروءة فهو يأبى أن ينتهز ضعف الضعيف، وعجز العاجز كالمرأة، والشيخ، والمريض، وهو ذو شهامة إذا استنجد به أحد أنجده، ويرى من النذالة التخلي عنه.

٥ ـ الوفاء بالعهد

وهو من صفات العرب المشهورة، وقصة السموأل بن عادياء في الوفاء مشهورة، فقد ضحَّى بابنه، ولم يقبل أن يخون العهد بتسليم الأدرع التي أودعت عنده، ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه لما ظفر الحارث بن عبَّاد بقاتل ابنه، وهو المهلهل بن ربيعة في حرب البسوس، وهو لا يعرفه قال له: إذا دللتك على

المهلهل تطلقني؟ قال له: نعم، فقال له: أنا مهلهل، فاكتفى بأن جزَّ ناصيته وتركه، ولم يقبل أن يخلف وعده.

٦ ـ العفو عند المقدرة

وقد كان الواحد منهم ينازل خصمه، وقرنه، حتى إذا أمكنه الله منه، عفا عنه وتركه، بل كان يأبى أن يجهز على جريح.

٧ ـ حماية الجار وإجارة المستجير

وكانوا إذا استجار بالواحد منهم مستجير أجاره، وربما ضحَّى بنفسه وولده في سبيل إجارته، كما كانوا يرعون حقوق الجار، ولا سيما رعاية حرمه، والمحافظة على عرضه، قال شاعرهم:

وأغضُّ طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

٨ ـ القناعة والرضا باليسير

ومن أخلاق العرب القناعة، وهي الرضا باليسير، ولعل طبيعة البلاد هي التي فطرتهم على هذا، فقد كان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمرات يقيم بها صلبه، ورشفات من ماء يرطب بها كبده، وقلة تكاليف الحياة جعلتهم يكتفون بالقليل قال قائلهم:

إذا لم تكن إبل فمعزى ... كأن قرون جلتها[1] العصيُّ
فتملأ بيتنا أقِطاً وسمناً ... وحسبك من غنى شبع وريُّ

٩ ـ قوة الروح، وعظمة النفس

والعربي يمتاز إلى شجاعته البدنية، بقوة الروح وعظمة النفس، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانية صنعتا العجائب. وهذا ما حدث بعد تشرفهم بالإسلام، وتوحدهم تحت لوائه فإنهم لم يهابوا الفرس ولا الروم على كثرة عددهم وعددهم، وكان لهم معهم في حروبهم مواقف مشهورة.

---

(١) المسن منها.

١٠ ـ الصبر على المكاره وقوة الاحتمال

ولعلهم اكتسبوا ذلك الخلق من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حرّ الظهيرة، ومرنوا على الحر والبرد، ولهذا لما دخلوا في الإسلام بعدُ ضربوا في الصبر وقوة الاحتمال مثلاً لم تُعرف لغيرهم، ولم يؤثر فيهم الحر، والبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ حينما كلفوا بالجهاد.

هذه الفضائل وغيرها كانت رصيداً مدخراً في نفوس العرب حتى جاء الإسلام فنماها وقواها، ووجهها وجهة الحق والخير، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من شبه جزيرتهم كما ينطلق الملائكة الأطهار، ففتحوا الأرض، وملأوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً، وعدلاً بعد أن ملئت جَوْراً وظلماً، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيراً بعد أنه طفحت شراً، وتحققت سنة الله تعالى لهم حيث قال:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾[١].

* * *

(١) الآية ٥ من سورة القصص.

حالة العرب الاقتصادية

كان العرب بَدْواً، وحَضَراً. أما البدو فكان عماد حياتهم على تربية النَّعَم، والانتجاع بها مساقط الغيث ومواطن الكلأ، وكانوا يأكلون من لحومها وألبانها، ويكتسون، ويصنعون خيامهم وأثاثهم من أوبارها وأصوافها، ويبيعون ما زاد عن حاجتهم منها، وكان ثراؤهم بحسب ما يملكون من رؤوس الإبل، والبقر، والغنم.

أما حياة الحَضَر فمنهم من كانوا يعتمدون في معايشهم على الزراعة: زراعة الحبوب، والفواكه، والنخيل، والخضر، وذلك في البلاد ذات الأراضي الخصبة كاليمن، والطائف، والمدينة، ونجد، وخيبر وما شابهها، أما الكثرة الكاثرة منهم فكان اعتمادهم على التجارة، ولا سيما أهل مكة فقد كان لهم مركز ممتاز في التجارة وكان لهم بحكم كونهم أهل الحرم منزلة في نفوس العرب، فلا يعرضون لهم، ولا لتجارتهم بسوء، وقد تمنن الله عليهم بذلك في القرآن الكريم قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

وكانوا يجعلون التجارة في قمة وجوه المكاسب والارتزاق.

---

(١) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت.

وقد اقتسم بنو عبد مناف التجارة إلى الأقطار فيما بينهم، فكان هاشم يتوجه إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطّلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، وزاول بعض أبنائهم التجارة من بعدهم.

وكذلك اشتهر بالتجارة اليمنيون، ولم يكن نشاطهم مقصوراً على التجارة البرية بل اشتغلوا بالتجارة في البحار، فسافروا إلى سواحل أفريقية، كالحبشة والسودان، والصومال، وغيرها من بلاد أفريقيا وإلى الهند وجاوة، وسومطرة، وغيرها من بلاد آسيا، وجزر المحيط الهندي أو البحر العربي كما يُسمَّى، وقد كان لهم فضل كبير بعد اعتناقهم الإسلام، في نشره في هذه الأقطار.

وكانت وسيلة نقل التجارة هي القوافل التي تتكون من الإبل التي تعتبر سفن الصحراء، لما لها من قوة، وجلد، وصبر على العطش، وتحمل الأسفار البعيدة.

وكان يزاول التجارة بعض الأشراف كهاشم، وأبي طالب، وأبي لهب والعباس، وأبي سفيان بن حرب، وأبي بكر، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله وغيرهم، منهم من كان يتّجر في ماله، ومنهم من كان يعمل لغيره بالأجر، أو المضاربة، كما حدث من رسول الله ﷺ في اتجاره في مال خديجة ــ رضي الله عنها ــ ومن الأشراف من كان يتّجر له مواليه ومماليكه.

وكان بعض الحضريِّين يشتغل برعي الإبل، أو الغنم لنفسه، أو لغيره، ولا غضاضة في هذا سواء أكان من الأشراف، أم من غيرهم، وقد رعى رسول الله الغنم في صغره، وكذلك فعل عمر بن الخطاب وابن مسعود وغيرهما وكانت القوافل تحمل الطيب، والبخور، والمر، والصمغ، واللبان، والتوابل، والتمور، والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنية، والأنسجة الحريرية، والأسلحة، وغيرها مما يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستورداً من خارجها، ثم تذهب به إلى الشام وغيرها، ثم تعود محملة بالقمح، والحبوب، والزبيب، والزيوت، والمنسوجات الشامية وغيرها.

التعامل بالربا

وكان التعامل بالربا سائداً في الجزيرة العربية، ولعل هذا الداء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود الذين استحلوا الربا في معاملة غير شعب بني إسرائيل، وكان للمعاملات الربوية صور مؤلمة وبخاصة (ربا النَّساء) فقد كان الداين يقول لمدينه: إما أن تقضي وإما أن تُربي وأزيدك في الأجل، فيقبل حتى يصير الدرهم أضعافاً مضاعفة، وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم، ولا سيما في ثقيف بالطائف، وقد كان الربا من المفاسد الاقتصادية التي قضى عليها الإسلام.

وكذلك كانت لهم معاملات أخرى في البيوع، منها ما حرمه الإسلام وأبطله، ومنها ما أقره وعدَّل فيه حتى يصير شرعياً، وفي كتب الحديث، والفقه صور كثيرة لهذه البيوع.

رحلتا الشتاء والصيف

وكانت لقريش رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهبون فيهما آمنين بينما الناس يتخطفون من حولهم، هذا عدا الرحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام، وقد تمنن الله عليهم بها فقال سبحانه:

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾[1].

أسواق العرب

وكان للعرب أسواق مشهورة: عكاظ؛ ومَجَنَّة؛ وذو المجاز[2]. قال الإمام الفيومي: عكاظ ــ وزن غراب ــ سوق من أعظم أسواق الجاهلية، وراء قرن المنازل بمرحلة، من عمل الطائف على طريق اليمن، وقال أبو عبيد: هي

---

(١) سورة قريش.

(٢) عكاظ: بضم العين على وزن غُراب، ومجنة: بفتح الميم وتكسر، وفتح الجيم وتشديد النون، وذو المجاز: بفتح الميم. أسماء أماكن كانت تقام هذه الأسواق فيها.

صحراء مستوية لا جبل بها ولا علم؛ وهي بين نجد، والطائف، وكان يقام فيها السوق في ذي القعدة نحواً من نصف شهر، ثم يأتون موضعاً دونه إلى مكة يقال له: سوق مجنة فتقام فيه السوق إلى آخر الشهر؛ ثم يأتون موضعاً قريباً منه يقال له: ذوالمجاز، فيقام فيه السوق إلى يوم التروية، ثم يصدرون إلى منى[1]. وكانت عكاظ أشهر هذه الأسواق، وأذكرها وأعظمها. يغشاها العرب من كل أنحاء الجزيرة العربية؛ وإن كانت قبائل مضر أكثر غشياناً لها من غيرها لوقوعها في منطقتها[2].

وفي السيرة الحلبية[3]: أن العرب كانت إذا حجَّت تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم تجيء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً؛ ثم تجيء إلى ذي المجاز فتقيم به إلى أيام الحج؛ ولكن المعروف أن شوال ليس من الأشهر الحرم، وهذه الأسواق إنما كانت تقام فيها، حتى يأمن الناس على أنفسهم، وأموالهم.

ويذكر بعض المؤلفين في أخبار مكة أن العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنة بعد مضي عشرين يوماً من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز فلبثوا فيها ثمان ليال، ثم يذهبون إلى عرفة[4]، وهو قريب مما ذكره أبو عبيد، وكانوا لا يتبايعون في عرفة، ولا أيام منى حتى جاء الإسلام فأباح لهم ذلك قال تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴿١٩٨﴾﴾[5].

يعني بالتجارة في منى وعرفات.

وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام إلى حين من الدهر، ثم دَرَست،

(١) المصباح المنير مادة «عكاظ».
(٢) مكة والمدينة، ص ٨٤.
(٣) ج ١ ص ٣٩٧.
(٤) درر الفوائد المنتظمة، في أخبار الحاج وطريق مكة، ص ٦٦.
(٥) الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

فأما عكاظ فتُركت عام الحروري بمكة أبي حمزة المختار بن عوف الإباضي في سنة تسع وعشرين ومائة، وخاف الناس أن يُنتهبوا، وخافوا الفتنة فتركت حتى الآن، ثم تركت مجنة؛ وذو المجاز بعد ذلك؛ واستغنَوْا بالأسواق بمكة ومنى وعرفات[1]. ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقاً للأدب والشعر والخطابة يجتمع فيها فحول الشعراء ومصاقع الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروة كبرى للغة، والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية، وقد أتاحت هذه الفرص لقريش أن يطعِّموا لغتهم بغيرها من لغات القبائل، ويختاروا منها ما يشاؤون، فمن ثَمَّ كانت اللغة القرشية أعذب اللغات على اللسان، وأحلاها عند الأسماع، وأثراها وأكثرها شمولاً، كما كانت هذه الأسواق أدوات تقريب بين اللهجات العربية.

* * *

(١) درر الفوائد المنتظمة، ص ٦٧.

مدنية العرب وحضارتهم قبل الإسلام

يجمل بـي قبل الدخول في الموضوع أن أبين معنى الحضارة[1].

مفهوم الحضارة عند العلماء المسلمين، أو علماء الاجتماع منهم خاصة هي كما بينها الإمام العلاَّمة عبدالرحمن بن خلدون في مقدمته «أن الحضارة عبارة عن نمط من الحياة المستقرة، ينشىء القرى والأمصار، ويضفي على حياة أصحابه فنوناً منتظمة، من العيش، والعمل، والاجتماع، والعلم، والصناعة، وإدارة شؤون الحياة، والحكم، وترتيب وسائل الراحة، وأسباب الرفاهية»[2].

أما مفهوم الحضارة عند المحدثين فيعرفها أصحاب المعاجم «بأنها مظاهر الرقي العلمي، والفني، والأدبـي، والاجتماعي في الحضر»[3]. ولا يُعكِّر على هذا التعريف إلا قصر تلك المظاهر على الحضر أي المدن، مع أن المكان لا دخل له في تغيير حقائق الأشياء، وطبائعها، فهل لو وجدت تلك المظاهر، أو بعضها في القرى أصبحت شيئاً غير ذلك؟ ما نظنّ هذا، ومن ثَمَّ يكون تعـريف ابن خلدون أسلم منطقاً، وأشمل مفهوماً، وأدق تحديداً.

ويستخلص من هذين التعريفين أن الحضارة عبارة عن إنتاج الإنسان

---

(١) الحضارة لغة الإقامة الثابتة المستقرة في المدن والقرى، ويقابلها البداوة. وصلة المعنى اللغوي بالمعنى الاصطلاحي الآتي بيانه ظاهرة، لأن الإقامة الثابتة في المدن أو القرى تستلزم النشاط العقلي والوجداني والسلوكي الذي ينتج الحضارة.

(٢) مقدمة ابن خلدون.

(٣) المعجم الوسيط.

الاجتماعي الواعي، بحيث تتجلّى في هذا الإنتاج خصائصه الفكرية، والوجدانية، والسلوكية. وهذا المفهوم يتسع لكل ما يتصل بالروح، والفكر، والفلسفة، والأخلاق، والقانون، والفنون، فضلاً عن الجانب المادي من العمران، وما ينتجه العلم التجريبي والاختراع مما يتصل بجميع مرافق الحياة كالصناعة والزراعة، والطب، والهندسة، وما إليها مما يكون عوناً على تيسير العيش، ورغد الحياة.

كما يستخلص من هذا أيضاً أن المجتمعات تختلف في نموها الحضاري، بمقدار ما تسهم في تحقيق عناصر الحضارة في حياتها، وبمقدار ما يسعفها وعيها، وظروفها البيئية في هذا الصدد[1].

بناء على هذا نقول: هل كانت للعرب حضارة قبل الإسلام؟.

نعم. قد كانت لهم حضارة في اليمن، وفي ديار عاد، وفي ديار ثمود، وفي الحيرة، وفي بلاد غسان، وفي بلاد الشام، بل وفي بلاد الحجاز ذاتها: في مكة، والمدينة، والطائف.

وقد علمت ما كان في اليمن من قيام ممالك ذات سيادة وسلطان، ولها نظم وقوانين، ومجالس شورى وقضاء، إلى غير ذلك مما ذكرناه سابقاً، وما وصلت إليه الممالك من حضارة زاهية وعلم وفن، فقد أقاموا السدود، والخزانات، للاستفادة بالماء، وعدم تبدده في الصحراء، وبذلك تمَّ لهم تنظيم الصرف، والري، وليس من شك في أن هذا يتطلب فناً، وعلماً بالأصول الهندسية، وتقدماً في الفن المعماري، وناهيك بسد (مأرب) الذي يعدُّ من أفخم وأضخم ما صنعه الإنسان في العصور القديمة، وفيما قصه القرآن الكريم عن مملكة (سبأ) وما كشف عنه علماء الآثار في الزمن الأخير ما يشهد لذلك، وقد بلغت اليمن من بسط العيش، ورخاء الحياة، وفخامة المدنية ما حمل معاصريهم من اليونانيين أن يسموا بلادهم (بلاد العرب السعيدة).

وكذلك كان في عاد حضارة زراعية، وصناعية، وتجارية، ومعمارية،

---

(١) من محاضرة في أسبوع القرآن بجامعة أم درمان الإسلامية للدكتور فتحي الدريني.

وكذلك كان في ثمود، وبحسبهم أنهم كانوا ينحتون في الجبال بيوتاً في غاية الدقة والإحكام، وكذلك قامت في (الحيرة) على تخوم بلاد الفرس مملكة ذات شأن، وقامت حضارة بلغت في الفن المعماري مبلغاً عظيماً، وبحسبنا القصران الشهيران: الخورنق، والسدير، اللذان لا تزال آثارهما باقية إلى الآن.

وفي بلاد غسان قامت حضارة، وكان هناك عمران، وتجارة، وزراعة، وصناعة ونظم وقواعد لضبط شؤون الملك.

وفي دولة الأنباط قامت مملكة، وكانت حضارة، وفي دولة تدمر قامت مملكة، وكانت حضارة أصيلة، ولا تزال آثار المعابد والقصور في هاتين الدولتين باقية إلى يومنا، شاهدة على ما بلغ القوم من حضارة.

دولة حمورابي

وإذا صح ما ذكره المؤرخون أن دولة حمورابي في بابل كانت عربية، وأن أصلها هم العماليق الذين نزحوا من بلاد العرب إلى بلاد العراق، ثم كونوا لهم مملكة (ببابل) في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ـ تكون هذه الدولة من أقوى الشواهد على حضارة العرب، فقد كانت هذه الدولة لا تقل في الحضارة والمدنية عن أرقى أمم الأرض حضارة في زمانها.

وقد ثبت أن العرب العماليق ملكوا مصر في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، وأنهم أسسوا بها أسرة مالكة، فلم يكونوا أقل من الأسر المصرية في شيء[1].

وكذلك نشأت في بلاد الحجاز حضارة في مكة، والمدينة، والطائف، ونحوها من المدن المشهورة، فكان هناك بناء وعمارة، وكانت هناك تجارة، وتجار مَهَرة يصيرون من رمال الصحراء ذهباً، وكانت هناك زراعة وبساتين، في المدينة، وفي الطائف، واليمامة، وهَجَر.

وكان بمكة مجلس للشورى يرجعون إليه في الأمور المهمة، ودار لهذا،

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين، ج ٦ مادة: عرب.

وهي (دار الندوة) فكانوا يجتمعون فيها كلما أهمهم أمر، ويجتمعون فيها اجتماعاً عاماً كل عام، وكانت تدار فيها المناقشات بكل حرية، وهي تدل على نضجهم التفكيري، ومن يقرأ الحوار الذي دار بينهم في الائتمار بالنبي ﷺ قبيل الهجرة يعلم ما وصل إليه العرب في باب الشورى[1].

وإذا كان الجانب الأخلاقي من العناصر المهمة في تكوين الحضارة فقد كان للعرب ـ حَضَراً وبَدْواً ـ من ذلك رصيد ضخم من كرم، وشجاعة، وحماية للذمار، ومروءة، ونجدة، ورعاية للجار، ووفاء بالعهد، وإباء للضيم والذل، إلى غير ذلك مما لم نذكره، وإن حضارة الأخلاق الكريمة، والصفات النفسية الأصيلة لأهم ـ عندي ـ من حضارة البناء، والصناعة، والزراعة، إذ عليها تقوم الأمم التي تستحق البقاء والخلود، وماذا تجدي الحضارة المادية إذا كانت النفوس خالية من المعاني النفسية، والأخلاق الكريمة؟!

لقد كان للعرب خصائص فطرية، وعقلية، ونفسية، وخلقية هي التي أهلتهم لأن يكون منهم سيد البشر وقمة العرب سيدنا محمد ﷺ، وأن يكونوا حَمَلة هذه الرسالة العامة الخالدة للناس أجمعين، وصَدَق الله في قوله:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴿١٢٤﴾﴾[2].

ومهما يكن من شيء فقد كان للعرب في جاهليتهم ممالك وحضارات ساهمت إلى حد كبير في بناء الحضارة الإنسانية، فلا تعجب ـ أيها القارىء الكريم ـ إذا كانوا لما اعتنقوا الإسلام عن يقين واقتناع صنعوا الأعاجيب في باب الحضارة، وبلغوا فيها شأواً لم تبلغه أمة من الأمم، ولا تزال آثار هذه الحضارة الإسلامية باقية إلى يومنا هذا. لقد كانت هذه الحضارة من أقوى الأسس التي قامت عليها الحضارة الأوروبية في العصر الحديث، كما شهد بذلك المنصفون من أبناء هذه البلاد.

* * *

(١) إنما أردت الاستدلال على نضجهم الفكري وطريقتهم في عرض الآراء وقبولها أو رفضها فحسب، أما الائتمار وما انتهوا إليه من عزم على قتل الرسول فهو ولا ريب جريمة، وأمر منكر.

(٢) الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

الفصل الثاني
الخليل إبراهيم عليه السلام

أرى لزاماً عليَّ قبل أن أذكر كيف نبعت زمزم ومتى بني البيت الحرام ومن بناه؟ ورؤيا الخليل في ذبح ابنه وحيده وبكره: إسماعيل، أن أذكر كلمة عن خليل الرحمن، وأبـي الأنبياء ﷺ.

هو نبـي الله إبراهيم بن آزر[1]، بن ناحور، بن ساروغ، بن راعو، بن فالغ، بن عابر، بن شالح، بن أرفخشذ، بن سام، بن نوح، عليه السلام[2].

وكان عمر (آزر) أو (تارخ) خمساً وسبعين سنة لما ولد له إبراهيم، وكان له أخوان: (ناحور) و (هاران) وكان إبراهيم هو الأوسط، و (هاران) هو أبو (لوط) ـ عليه السلام ـ وكان مولد الخليل إبراهيم بأرض الكلدانيين بالعراق، وهي بابل وما جاورها، وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السِيَر، والتواريخ، والأخبار.

ولما كبر إبراهيم تزوج السيدة سارة، ابنة عمه[3]، ثم خرج (آزر) ومعه

---

(١) في القرآن الكريم (آزر) وفي كتب أهل الكتاب (تارخ) والمعتمد عندي ما في القرآن، وقد حاول بعض العلماء التوفيق بينهما، فقيل إن آزر لقب له، وتارخ اسمه، وقيل: لعل له اسمين: آزر وتارخ، فإن صح شيء من هذين فلا يكون هناك خلاف بين القرآن والتوراة.

(٢) البداية والنهاية، ج ١ ص ١٣٩.

(٣) البعض يقول: إنها ابنة أخيه (هاران)، وأن شريعتهم كانت تجيز هذا، وهو غير صحيح، والصحيح: أنها ابنة عمه، ونربأ بأبـي الأنبياء أن يتزوج ابنة أخيه، وإنما هذه =

ابنه إبراهيم، وزوجته سارة، وابن أخيه (لوط) بن (هاران) من أرض الكلدانيين، إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا (حرَّان) وكان أهل حرَّان يعبدون الكواكب والأصنام، وكذلك كان أهل بابل (كلدانيا)، ولما نبيء الخليل وبعثه الله إلى قومه دعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده، ونبذ عبادة الكواكب والأصنام، وكان حريصاً على هداية أبيه إلا أنه لم يستجب إليه، وناظر أباه، وناظرهم، وقرع باطلهم بالحجة والبرهان، وقد قص القرآن الكريم ذلك باستفاضة[١].

وبحرّان مات (تارخ) أو (آزر) أبو إبراهيم عليه السلام وله مائتان وخمسون عاماً، وفي نفس إبراهيم أسىً ولوعة على عدم إيمانه، وقد تعرض الخليل بسبب دعوته إلى الله، وتكسيره أصنام القوم إلى الإيذاء والبلاء، حتى انتهى به الأمر إلى الإلقاء في النار، ولكن كل ذلك لم يثنه عن الدعوة إلى ربه وتبليغ شريعته.

هجرة الخليل إلى بلاد الشام

ثم هاجر الخليل إبراهيم إلى الأرض المباركة أرض الشام، ومعه زوجته السيدة سارة، وابن أخيه (لوط)، وكانت امرأة الخليل عاقراً، ولم يكن له من الولد أحد، ثم وهبه الله بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، خلعة من الله، وكرامة له حينما ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى الله حيث يتمكن من عبادة ربه، ودعوة الخلق إليها، وقام بتبليغ رسالته في بلاد الشام، أما ابن أخيه (لوط) فقد أرسله الله إلى أهل (سَدُومَ)[٢].

= من الأخبار الإسرائيلية المكذوبة، قال ابن كثير: ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران ــ كما حكاه السهيلي عن العتيبي والنقاش ــ فقد أبعد النجعة، وقال بلا علم، ومن ادعى أن تزوج ابنة الأخ كان إذ ذاك مشروعاً فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت ــ كما هو منقول عن الربانيين من اليهود ــ فإن الأنبياء لا تتعاطاه (البداية والنهاية، ج ٢ ص ١٥٠).

(١) انظر سورة مريم ٤١ ــ ٤٨؛ وسورة الأنبياء ٥١ ــ ٧١.

(٢) سدوم: بلد من بلاد الشام وقيل إنها بالذال المعجمة كما في القاموس.

رحلة الخليل إلى مصر

ثم ارتحل الخليل ومعه زوجه إلى مصر، وكان بها ملك جبار ظالم لا يمر به رجل ومعه زوجته، إلا اغتصبها منه وقتله، فلما رآهما عيون الملك قالوا له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، وسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي، ثم أتى الخليل سارة، فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني، فأخبرته أنك أختي، فلا تكَذِّبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخـذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأُطلق، ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فاطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، وإنما أتيتموني بشيطان!! فقال: ارجعوها إلى إبراهيم، وأَخْدَمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مَهْيَم ــ يعني ما الخبر ــ فقالت: «ردَّ الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر»(١).

وفي مسند الإمام أحمد أنها لما دخلت عليه دعت قائلة: «اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسلك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ هذا الكافر». وقد عصمها الله وصانها لعصمة عبده، ورسوله، وحبيبه، وخليله إبراهيم ــ عليه السلام ــ وتقبلاً لدعائها ودعائه، فقد لجأ الخليل وقت ذُهب بها إلى الجبار ــ إلى الصلاة، وإلى الدعاء: أن يرد الله كيد هذا الذي أراد أهله بسوء، ومن هذا نرى أن الصلاة كانت ــ ولا زالت ــ ملاذاً يلجأ إليها المكروبون والمهمومون.

استيلاد الخليل هاجر

ثم رجع الخليل ــ عليه السلام ــ وزوجه سارة من بلاد مصر إلى بلاد الشام، ومعهما أنعام وعبيد ومال جزيل، ومعهما هاجر القبطية المصرية، فأقام بها نحو عشرين سنة، وكانت نفسه ــ عليه السلام ــ تتوق إلى الولد، حتى سأل الله ذرية طيبة. فبشره الله بغلام حليم، والله سبحانه إذا أراد شيئاً مما يجري بين

(١) صحيح البخاري ــ كتاب الأنبياء ــ باب «واتخذ الله إبراهيم خليلاً».

الناس هيأ له الأسباب، فألهم سارة، فقالت لإبراهيم: إن الرب قد أحرمني الولد، فادخل على أمتي هذه لعل الله يرزقك منها ولداً فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم ــ عليه السلام ــ فحملت منه، ثم وضعت إسماعيل ــ عليه السلام ــ وقد ولد ولإبراهيم الخليل ست وثمانون سنة، وبعد ذلك بشرت الملائكة سارة بإسحاق نبياً من الصالحين؛ فولدته بعد العقم، وعلى الكبر، ولإبراهيم نحو من مائة سنة، فبين ولادة إسماعيل وإسحاق ما يقرب من أربعة عشر عاماً.

ومن ذرية إسماعيل كانت العرب العدنانية على اختلاف قبائلها وبطونها، ومن سلالته من الأنبياء خاتمهم، وواسطة عقدهم، ونبـي العرب والعجم: سيدنا محمد بن عبدالله القرشي الهاشمي ﷺ.

إسكان هاجر وإسماعيل بجبال فاران[1]

ولما وضعت هاجر المصرية[2] إسماعيل داخلَ السيدة سارة ما يداخل الضرائر من الغَيْرة، لأنها لم ترزق بولد، وقد تراءى لها أن هاجر بدأت تتعاظم عليها، فصارت تلاحقها بالأذى. فأمر الله خليله إبراهيم أن يذهب بهاجر وابنها إسماعيل إلى وادٍ بجبال فاران، حيث يوجد مكان الكعبة البيت الحرام، وكان هضبة حمراء مشرفة، تطييباً لخاطر السيدة الصابرة سارة، وتنفيذاً لما سبق به التقدير الإلهي من بناء البيت، وأن يصير من نسل إسماعيل أمة مسلمة عظيمة، وأن يبعث فيها رسولاً من أنفسها، يتلو عليهم من آياته، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فأخذهما الخليل وذهب بهما إلى هناك، وترك عندهما جراباً من تمر وسقاء من ماء، ثم عاد، فجرت وراءه هاجر، وهي تقول: إلى من تتركنا يا خليل الرحمن؟ آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فقالت: **إذاً لا يضيِّعنا!!** وهذا يدل على إيمانها، وشدة توكلها على ربها، وأنها جديرة أن تكون أماً لنبـي عظيم، ولأمة عظيمة.

---

(١) فاران: هي مكة كما يعبر عنها في التوراة.

(٢) هي من قرية «أم العرب» ويقال: أم عريك كانت أمام الفرما.

نبع عين زمزم

فلما نفد الماء صار إسماعيل يتمرغ ويتلوى من شدة العطش، فلم تُطِق أن تراه هكذا، وخرجت تسعى نحو الصفا، فصعدت عليه علَّها تجد ماء، ثم نزلت مهرولة إلى المروة، ووقفت تنظر حواليها عسى أن تجد ماء، فلم تجد، ثم عادت إلى الصفا، وهكذا صارت تسعى بين الصفا والمروة حتى أكملت سبعة أشواط، فكان هذا أصلاً لفريضة السعي بينهما، ثم نزلت وهي هلعة جزعة أن لم تجد ماء، فسمعت من يناديها ويقول: جاءك الغواث، فصارت ترهف سمعها إلى الصوت وتتسمع، حتى نزل جبريل ــ عليه السلام ــ وهو في صورة طائر، فضرب الأرض بجناحه، وقيل بعقبه، فنبعت عين زمزم، فصارت تحوط عليها التراب من شدة الفرح، وتقول لها: زمي، زمي فشربت وشرب إسماعيل حتى رويا، ولم تخف العطش والضَّيْعة بعدها، وسمعت من يقول لها لا تخافي الضَّيْعة، فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله!!

حصول الأنس بجرهم ونشأة مكة

ثم مرت بهاجر وابنها رفقة[1] من قبيلة جرهم إحدى القبائل التي نزحت من اليمن، فنزلوا في أسفل المكان الذي بنيت فيه مكة، فرأوا طيراً يحوم[2] حول مكان قريب منهم، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، إن عهدنا بهذا الوادي ليس فيه ماء[3]، فأرسلوا رسولاً منهم، فإذا هو بالماء، فأخبرهم به، فأقبلوا نحوه وكانت أم إسماعيل عند الماء، فقالوا لها: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت نعم، ولكن لا حق[4] لكم في الماء عندنا، قالوا: نعم، وقد سرت هاجر، فقد وجدت من يؤنسها، ويزيل وحشتها، فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا، وابتنوا بيوتاً حتى صارت من ذلك أبيات عدة.

---

(١) جماعة.

(٢) يدور.

(٣) هذا يدل على أن مكة لم تكن وجدت بعد.

(٤) لا ملك لكم فيه، أما الشرب فنعم.

وكان إسماعيل لا يزال غلاماً، فلما شب وكبر اختلط بهم، وتعلم منهم العربية حتى صارت له لساناً، فكان أباً للعرب المستعربة.

روى أبو عبيدة قال: حدثنا مسمع بن عبدالملك عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسن عن آبائه قال: أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة[1]، وتعلم منهم الرمي والقنص، ولما كبر إسماعيل أعجبهم، فوجدوا فيه من الخصال والفضائل ما حببهم فيه، فزوَّجوه منهم.

قصة الذبيح

وكان الخليل ـ عليه السلام ـ يتعهد إسماعيل وأمه هاجر بين الحين والحين، ويزورهما كلما حن الشوق إليهما، وكان الغلام إسماعيل قد شب عن الطوق، وصار يسعى في مصالحه، وأهلاً لمعاونة أبيه، وفي زَوْرة من الزورات رأى الخليل في منامه من يأمره بذبح ولده ووحيده، ورؤيا الأنبياء وحي ـ كما في الحديث الشريف ـ فلم يشك الخليل في صدق الرؤيا، ولكن الأمر يتعلق بابنه، وفلذة كبده، فكان لا بد أن يتروَّى في الأمر، فرأى مثل ذلك في الليلة الثانية، وقيل: إن ذلك كانت ليلة اليوم الثامن من ذي الحجة فسمي يوم التروية[2] ثم تريث أيضاً فرأى مثل ذلك في الليلة الثالثة وقيل إن ذلك كان ليلة التاسع فسمي: يوم عرفة[3]، فلم يكن بدٌّ ـ بعد ثلاث ـ من امتثال أمر الله والصبر على البلاء، ولكنه رأى أن يعرض الأمر على ولده؛ ليكون أطيب لقلبه، وأهون عليه من أن يأخذه قسراً، أو يبغته فجأة، فعرضه عليه، فكان ـ كما وصفه الله ـ حليما، وجديراً بأن يكون رسولاً نبياً، فقال:

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ ﴾[4].

---

(١) البيان والتبيين ج ٣، ص ٢١ والمراد من ولد إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

(٢) وقيل لأن الحجاج كانوا يحملون معهم فيها الماء قبل الخروج لأداء المناسك.

(٣) وقيل غير ذلك وإنه سمي يوم عرفة لأن آدم وحواء تعارفا فيه في الأرض بعد أن نزلا من الجنة.

(٤) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

وأخذ الخليل بيد ابنه ووحيده، وخرج به إلى المنحر بمنى، وأضجعه على وجهه، وأخذ السكين بيده، وأمرَّها على عنق ابنه، فما قطعت، ولا أثَّرت، وحينئذ نودي من السماء: أن يا إبراهيم قد صدَّقْتَ الرؤيا، وامتثلت الأمر، وإنا قد فدينا ابنك بما تيسَّر لك من كبش سمين، فطلب كبشاً، فذبحه مكان إسماعيل، فكانت التضحية سنة باقية في عقبه إلى يوم الدين، واستحق الخليل وابنه إسماعيل أن يكونا مَثَلين في الآخرين. وأن يكون عليهما السلام من رب العالمين. وإليك القصة كما حكاها الله في القرآن الكريم، قال سبحانه:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ
بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ(١) قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ
مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا
وَتَلَّهُ(٢) لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ(٣) عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾(٤).

الذبيح إسماعيل لا إسحاق

الذي يدل عليه القرآن الكريم، والأحاديث، والآثار الثابتة، أن الذبيح هو إسماعيل ــ عليه السلام ــ ولكن اليهود تدسَّسوا إلى الرواية في الإسلام، فدسّوا فيها بعض الروايات الضعيفة التي تدل على أنه إسحاق وهذا من عداوة اليهود المتأصلة للعرب، فقد أرادوا أن لا يكون للجد الأعلى للنبي الأمي فضل

(١) بلغ سناً يسعى فيها في مصالحه، ويعين أباه.
(٢) تله أي ألقاه على وجه.
(٣) كبش سمين.
(٤) الآيات ٩٩ ــ ١١١ من سورة الصافات.

أو مزية، حتى لا ينجرَّ هذا الفضل إلى نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وبالتالي إلى الجنس العربـي.

ولم يقف أمرهم عند حد الدس في الروايات الإسلامية، بل قام أسلافهم بتحريف التوراة ذاتها، حتى يتم لهم ما أرادوا، ولكن الله أبـى إلا أن يغفلوا عما يدل على هذه الجريمة، والجاني ــ غالباً ــ يترك ما يدل على جريمته. والحق يبقى له شعاع ــ ولو خافت ــ يدل عليه مهما حاول المبطلون إخفاء نوره، وطمس معالمه، فقد حذفوا من التوراة لفظ «إسماعيل» ووضعوا بدله لفظ «إسحاق»، ولكنهم غفلوا عن كلمة كشفت عن التزوير، وعن هذا الدس المشين، ففي التوراة (الإصحاح الثاني والعشرون ــ فقرة٢): «فقال الرب: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق، واذهب إلى أرض المريا. وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك...»[1].

وليس أدل على كذب هذا من كلمة «وحيـدك»، وإسحاق ــ عليـه السلام ــ لم يكن وحيداً قط، لأنه ولد ولإسماعيل نحو أربع عشـرة سنة كما هو صريح توراتهم في هذا، وقد بقي إسماعيل ــ عليه السلام ــ حتى مات أبوه، الخليل، وحضر وفاته ودفنه. وإليك ما ورد في التوراة:

في سفر التكوين (الإصحاح السادس عشر ــ الفقرة ١٦) ما نصه: «وكان أبرام ــ يعني إبراهيم ــ ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجـر إسماعيـل لأبرام».

وفي سفر التكوين (الإصحاح الحادي والعشرون ــ فقرة ٥): «وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه...» وفي الفقرة ٩ وما بعدها ما نصه: «(٩) ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح (١٠) فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق (١١) فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه (١٢) فقال الله

(١) وقد ذكرت التوراة القصة في ١٤ فقرة، فليرجع إليها من يشاء، لتكون له الحجة عليهم من نفس كتابهم المقدس عندهم.

لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول سارة اسمع لقولها؛ لأنه بإسحاق يدعى لك نسل (١٣) وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة: لأنه نسلك»[١] إلى آخر القصة.

فما قولكم يا أيها اليهود المحرفون؟ وكيف يتأتّى أن يكون إسحاق وحيداً؟! مع هذه النصوص التي هي من توراتكم التي تعتقدون صحتها، وتزعمون أنها ليست محرفة!!

وقد دلَّت التوراة، ورواية البخاري في صحيحه على أن الخليل إبراهيم أسكن هاجر وابنها عند مكان البيت المحرم حيث بُني فيما بعد، وقامت مكة بجواره، وقد عبَّرت التوراة بأنهما كانا في (برية فاران)، وفاران: جبال بمكة، وهذا هو الحق أن قصة الذبح كان مسرحها بمكة ومنى وفيها يذبح الحجاج ذبائحهم اليوم.

وقد حرَّفوا في النص الأول، وجعلوه: «جبل المريا» وهو الذي عليه مدينة أورشليم بمدينة القدس العربية، ليتم لهم ما أرادوه، ولكن أبى الحق إلا أن يظهر تحريفهم!!

وقد ذكر العلامة الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن كثير أن في بعض نسخ التوراة (بكرك) بدل وحيدك وهو أظهر في البطلان، وأدل على التحريف إذ لم يكن إسحاق بكراً للخليل بنص توراتهم كما ذكرنا آنفاً، فالحق أن الذبيح هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهو الذي يدل عليه ظواهر الآيات القرآنية، فلا عجب أن ذهب إليه جمهرة الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم، وأئمة الحديث، منهم السادة العلماء: علي، وابن عمر، وأبو هريرة، وأبو الطفيل، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، والحسن البصري، ومحمد بن كعب

(١) ويصدِّق هذا كتاب الله الشاهد على الكتب السماوية كلها قوله سبحانه حكاية لمقالة إبراهيم، وإسماعيل عليهما السلام بعد أن بنيا البيت: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ ولو أن اليهود وعوا ما جاء في التوراة والقرآن لعلموا أنه ستكون أمة لها شأنها من نسل إسماعيل، ولما حسدوا العرب على هذا الفضل.

القرظي، وسعيد بن المسيِّب، وأبو جعفر محمد الباقر، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والكلبي، وأبو عمرو بن العلاء، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس، وفي زاد المعاد لابن القيم: أنه الصواب عند علماء الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وهذا الرأي هو المشهور عند العرب قبل البعثة وذكره أمية بن أبي الصلت في شعر له[1].

وقد نقل العلامة ابن القيم عن شيخه الإمام ابن تيمية في هذا كلاماً قوياً حسناً، أحببت نقل خلاصته لما فيه من الحجة الدامغة قال: «ولا خلاف بينهم ــ أي النَّسابين ــ أن عدنان من ولد إسماعيل ــ عليه السلام ــ وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدَّس الله روحه ــ يقول: هذا القول إنما هو مُتَلَقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم؛ فإن فيه: «أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بِكره» وفي لفظ «وحيده»، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده والذي غرَّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم «اذبح ابنك إسحاق» قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم لأنها تناقض قوله: «اذبح بكرك ووحيدك»[2]، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق؟ والله تعالى قد بشَّر أم إسحاق به، وبابنه يعقوب فقال تعالى ــ حكاية لقول الملائكة لإبراهيم لما أتوه بالبشرى ــ :

﴿ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾[3].

(١) تفسير الآلوسي ج ٢٣، ص ١٣٥، ١٣٦.
(٢) قد بينت ذلك بذكر النصوص من التوراة آنفاً، والبكر أول مولود يولد للشخص.
(٣) الآيتان ٧٠ ــ ٧١ من سورة هود.

فمحال أن يبشرها بأن يكون لها ولد ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب ــ عليه السلام ــ داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة الصافات (الآيات من ١٠٣ ــ ١١١).

ثم قال تعالى:

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾[1].

فهذه بشارة من الله تعالى له، شكراً على صبره على ما أمر به. وهذا ظاهر جداً في أن المبشَّر به غير الأول، بل هو كالنص فيه.

وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار؛ تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله. ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة، دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام حجّ البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام ــ كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقّى عنهم ــ لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة.

وأيضاً: فإن الله سبحانه وتعالى سمّى الذبيح حليماً، لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه، ولما ذكر إسحاق سمّاه عليماً فقال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

إلى أن قال:

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾[2].

---

(١) الآية ١١٢ من سورة الصافات.

(٢) الآيات ٢٤ ــ ٢٨ من سورة الذاريات.

وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته، وهي المبشرة به، وأما إسماعيل فمن السرية[1] ــ يعني هاجر.

وأيضاً فلأنهما بشِّرا به على الكبر، واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك. . .

وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغَيْرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غَيْرة سارة؛ فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها، ويسكنها في أرض مكة؛ لتبرد عن سارة حرارة الغَيْرة، وهذا من رحمة الله تعالى بها ورأفته وإبعاده الضرر عنها، وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذه بذبح ابنها دون ابن الجارية؟! بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية، فحينئذ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها وتتبدل قسوة الغَيْرة رحمة، ويظهر لها بركة الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً، هذه وابنها منهم، وليري عباده جَبْره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد، والوحدة، والغربة والتسليم إلى ذبح الولد ــ آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما، ومواطىء أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين، ومتعبداً لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته فيمن يريد رفعه من خلقه: أن يمنَّ عليه بعد استضعافه، وذلِّه، وانكساره، قال تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾»[2].

وكذلك دلَّت الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين، روى الحاكم في

(١) قال في المصباح المنير: «والسرية: فعلية، قيل: مأخوذة من السِّر ــ بالكسر ــ وقيل من السر ــ بالضم ــ بمعنى السرور، لأن مالكها يسر بها، فهو على القياس» وأما على الأول فضم السين من تغيير النسب.

(٢) زاد المعاد ج ١، ص ٢٨ ــ ٣٠.

المستدرك، وابن جرير في تفسيره وغيرهما عن عبدالله بن سعيد الصنابحي قال: «حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، أيها الذبيح؟ فقال بعضهم: إسماعيل، وقال البعض: إسحاق، فقال معاوية: على الخبير سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فأتاه أعرابي، فقال: يا رسول الله خلفت الكلأ يابساً، والمال عابساً[1]، هلك العيال، وضاع المال، فعُد علي مما أفاء الله تعالى عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ، ولم ينكر عليه، فقال القوم: من الذبيحان يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن عبدالمطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل أمرها أن ينحر بعض بنيه، فلما فرغ أسهم بينهم فكانوا عشرة، فخرج السهم على عبدالله، فأراد أن ينحره، فمنعه أخواله بنو مخزوم، وقالوا: أرض ربك، وافد ابنك. ففداه بمائة ناقة، قال معاوية: هذا واحد، والآخر إسماعيل»[2].

وشهد شاهد من أهلها

وروى ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي: أن عمر بن عبدالعزيز أرسل إلى رجل ـ كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان من علمائهم ـ فسأله: «أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل ـ والله يا أمير المؤمنين ـ وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب» وهذا هو الحق الذي لا ينبغي أن يكون غيره.

وأما الحديث المشهور على الألسنة أن النبي ﷺ قال: «أنا ابن الذبيحين» فقد قال الإمام العراقي فيه: إنه لم يقف عليه. ولا يعرف بهذا اللفظ، وعلى هذا فلا يحتج به، ولا تجوز روايته، أو ذكره إلا مقترناً ببيان حاله.

وقد وردت روايات أخرى موقوفة ومرفوعة في أن الذبيح إسحاق، إلا أن المرفوع منها إلى النبي ـ والحق يقال ـ إما موضوع، وإما ضعيف، فلا تثبت به

---

(١) المال: المراد به الحيوان أي عابساً من شدة الجوع والعطش.

(٢) هذا الحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقيل: إنه حسن، وقد ضعفه بعض العلماء، وهو في حكم المرفوع لتقرير النبي لقول الأعرابي: يا ابن الذبيحين.

حجة، والموقوف منها على الصحابة أو على التابعين إن صح سنده فهي من الإسرائيليات التي رويت عن أهل الكتاب الذين أسلموا بحسن نية، وحقيقتها أنها من دس اليهود، وحسدهم للعرب، أن يكون لجدهم الأعلى فضل.

وقد اغتر بهذه الروايات التي لا تثبت أمام النقد بعض العلماء: كابن جرير الطبري، والقاضي عياض، والسهيلي فذهبوا إلى أنه إسحاق.

وتحيَّر بعضهم في تعارض الروايات، ولم يستطع أن يرجِّح أو يصل إلى الحقيقة، فتوقف في الجزم برأي في هذا الموضوع كالإمام السيوطي، بل بعضهم ذهب إلى أن الذبح وقع مرتين: مرة بمكة لإسماعيل، ومرة بالشام لإسحاق.

والحق هو ما ذهب إليه جمهور الصحابة، والتابعين، والعلماء الراسخين، من أنه إسماعيل، وأن الروايات في أنه إسحاق دسيسة يهودية، واختلاق ممقوت، دعا إليه الحقد والحسد للعرب، فلا تُلْقِ لذلك بالاً، وإن وجد في بعض كتب التفسير، والحديث، والسِيَر، والحق أحق أن يتبع.

ولادة إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام

وبعد ميلاد إسماعيل ببضعة عشر عاماً مرت ملائكة الرحمن بالخليل إبراهيم، وهم ذاهبون إلى تدمير قرى قوم لوط، فظنهم بشراً، وقرَّب إليهم عجلاً حنيذاً[1]، فلم يأكلوا، فنكرهم وتوجَّس منهم خيفة، فطمأنوه، وأخبروه بشأنهم، وبشَّروه وزوجه سارة بغلام عليم، وهو إسحاق، ومن بعد إسحاق بابنه يعقوب، فعجبت السيدة سارة وقالت كما حكاه الله تبارك وتعالى:

﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾[2].

---

(١) مشوياً على الحجارة المحمَّاة بالنار.

(٢) الأيتان ٧٢ ــ ٧٣ من سورة هود.

وكذلك تعجب إبراهيم ــ عليه السلام ــ استبشاراً بهذه البشارة، وفرحاً بها، وتثبيتاً لها، فقال كما حكاه الله عز شأنه:

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾[1].

وكذلك ذُكرت هذه البشرى في مواضع أخر من الكتاب العزيز[2]، وبعد البشارة حملت سارة بإسحاق، ثم وضعته، وكان لإبراهيم نحو مائة عام، ثم ولد لإسحاق يعقوب أبو الأسباط الاثني عشر، ومن ذريته كان جميع أنبياء بني إسرائيل من لدن يوسف إلى عيسى عليهما السلام.

بناء البيت العتيق

ثم جاء إبراهيم ليزور ابنه إسماعيل كما كان شأنه، وكانت هاجر قد ماتت ــ رضي الله عنها ــ وبلغ إسماعيل مبلغ الرجال، وتزوج، وكان إسماعيل يبري نباله ــ فقد كان رامياً ــ تحت شجرة عظيمة بالقرب من زمزم، فلما رأى أباه قام إليه، فتصافحا، وتعانقا، وقبَّل كل منهما الآخر، ثم قال له: «يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر» قال: فاصنع ما أمرك به ربك، قال: «وتعينني؟»، قال: وأعينك، قال: «إن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً»، وأشار إلى الأكمة المرتفعة عما حولها.

فشرعا في رفع القواعد والبناء: إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، فلما رفعا القواعد عن الأرض جيء للخليل بالحجر الأسود فوضعه في ركن البيت حيث يوجد اليوم، حتى إذا ارتفع البناء قدر قامة الرجل أتى إسماعيل بحجر، فقام عليه أبوه، فأثرت قدماه فيه، وهذا الحجر هو الذي عرف فيما بعد

---

(١) الآيات ٥٤ ــ ٥٦ من سورة الحجر.
(٢) الذاريات ٢٥ ــ ٣٠؛ والصافات ١١٢ ــ ١١٣.

بمقام إبراهيم على الصحيح، ولما فرغا من بناء البيت دَعَوا بهذا الدعاء كما حكى الله في القرآن الكريم:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[1].

وقد تقبَّل الله الدعاء، فكانت الأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس، وكان النبي المبعوث فيهم هو خاتم الأنبياء، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وبذلك كانت الكعبة البيت الحرام أول مكان مُشَرَّف بني في الأرض، قال تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2].

تشريع الحج على لسان إبراهيم

ولما فرغ الخليل من بناء البيت أمره الله سبحانه أن يؤذِّن، ويُعلم الناس بالحج، فقال: يا رب، وماذا يبلغ صوتي؟ فقال: يا إبراهيم أذِّن وعليَّ البلاغ، فوقف الخليل على جبل أبي قبيس[3] وصار ينادي ويقول: «يا أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج فحجُّوا، فأجابه كل من كتب الله لهم الحج إلى يوم

---

(١) الآيات ١٢٧ ـ ١٢٩ من سورة البقرة.
(٢) الآيتان ٩٦ ـ ٩٧ من سورة آل عمران.
(٣) جبل بمكة مشرف على الكعبة.

القيامة وهم في أصلاب الآباء، أو في عالم الذر، فمن ثَمَّ كانت مشروعية التلبية: «لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبّيك، إن الحمد، والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، ومن يومها قد صار الحج فرضاً مفروضاً إلى يوم القيامة، وقد ذكر الله ــ تبارك وتعالى ــ ذلك في الكتاب الكريم واستطرد منه إلى بيان شعائر الحج فقال:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ
لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ
رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ
وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ
فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ (١) وَلْيُوفُوا۟
نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ
خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟
ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ
وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ
سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا
لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ
وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ
لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟
ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا

(١) وسخهم وشعثهم.

وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾(١).

وقد دعا الخليل عليه السلام ربَّه أن يجعل ما حول البيت بلداً آمناً، وأن يرزق أهله المؤمنين من الثمرات في هذا الوادي غير ذي الزرع، وأن يبارك لهم فيها قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾(٢).

كما دعا الخليل لمكة أن تستمر دار أمن وسلام، وملاذ، وأن يجنبه ربه، وبنيه عبادة الأصنام، وأن يجعل قلوب الناس تصبو إلى سكان البيت ومجاوريه. وأن يرزقهم من الثمرات، وأن يوفقه وذريته للطاعات، وإقامة الصلوات، قال عز شأنه حكاية لذلك:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا(٣) وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ

---

(١) الآيات ٢٦ ـ ٣٧ من سورة الحج.

(٢) الآية ١٢٦ من سورة البقرة.

(٣) كان الدعاء الأول قبل بناء البيت، وقبل أن تكون مكة. وأما هنا فكان بعد أن بني البيت ووجدت مكة، وهذا هو السر في أنه جاء منكراً في الأول ومعرفاً في الثاني.

﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

وقد استجاب الله دعاء خليله، وأعطاه سؤله، وحقق رجاءه، قال عز شأنه:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2].

وقد كان ذلك أمراً سبق به التقدير الأزلي من قبل أن خلق الله السماوات والأرض، ولكن أظهره وشرعه على لسانه نبيه، وخليله إبراهيم.

أول من بنى البيت

وقد دلَّت الآيات القرآنية المتواترة التي سقناها إليك، والأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري وغيره من أئمة النقل والرواية على أن أول من بنى الكعبة هو الخليل إبراهيم، ومعاونه ابنه إسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وقد كان مكان البيت ربوة عالية مشرفة على ما حولها، معروفة للملائكة، ولمن سبق من الأنبياء، وبقعة مشرَّفة معظَّمة من قديم الزمان حتى جاء الخليل فأسس قواعده وبناه.

وقد رويت روايات أخرى أغلبها موقوفة على بعض الصحابة والتابعين، رواها أصحاب التواريخ كالأزرقي والفاكهي، وبعض المفسرين والمحدثين الذين لا يلتزمون إخراج الأحاديث الصحاح والحسان، بعضها يفيد أن أول من بنى البيت آدم عليه السلام. وقيل: ابنه شيث، روى عبدالرزاق عن ابن جريج عن عطاء قال: «إن أول من بنى البيت آدم وقيل: بنته الملائكة قبله» وعن وهب بن

(١) إبراهيم ٣٥ ـ ٤١.
(٢) الآية ١٢٥ من سورة البقرة.

مُنَبِّه: «أول من بناه شيث بن آدم» ووهب من أهل الكتاب الذين أسلموا. وروى البيهقي في «الدلائل» من طرق أخرى عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً «بعث الله جبريل إلى آدم، فأمره ببناء البيت، فبناه آدم، ثم أمره بالطواف به، وقال له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت وضع للناس»(١).

وقد قال الحافظ، المفسر، المؤرخ ابن كثير في هذا الحديث الأخير: «إنه من مفردات ابن لَهيعة وهو ضعيف، والأشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون موقوفاً على عبدالله بن عمرو بن العاص، ويكون من الزاملتين(٢) اللتين أصابهما يوم اليرموك من كتب أهل الكتاب» وهذا ما أرجِّحه وأميل إليه، ومهما قيل في ثبوت هذه الروايات، وما ماثلها فهي لا تقوى على معارضة ما دل عليه القرآن المتواتر، والسنة الصحيحة ويعجبني في هذا ما قاله الحافظ ابن كثير في بدايته، قال: «ولم يجيء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسَّك بهذا بقوله: «مكان البيت»(٣) فليس بناهض، ولا ظاهر لأن المراد مكانه المقدَّر في علم الله المقرر في قدرته، المعظَّم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم»(٤).

ولا ينافي ما رجحناه وذهبنا إليه ما روي «أنه ما من نبي إلا وقد حج البيت» وما رواه أبو يَعْلى في مسنده بسنده عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ، فلما أتى وادي «عسفان» قال: «يا أبا بكر أي وادٍ هذا؟» قال: هذا وادي عسفان، قال: «لقد مرَّ بهذا نوح وهود وإبراهيم على بَكَرات(٥) لهم

---

(١) فتح الباري، ج ٦ ص ٣١٠؛ تفسير ابن كثير والبغوي، ج ١ ص ٣١٦، ط المنار.
(٢) الزاملة: البعير الذي يحمل عليه المتاع، أي حمل بعيرين من الكتب، وهذا من الأسباب التي جعلت بعض الرواة لا يروي عنه تحوُّطاً، فمن ثَمَّ جاءت مروياته أقل من مرويات أبي هريرة، مع أنه كان أكثر من أبي هريرة حديثاً لأنه كان قارئاً كاتباً.
(٣) كما في الآية ٢٦ من سورة الحج.
(٤) البداية والنهاية، ج ١ ص ١٦٣؛ وج ٢ ص ٢٩٩.
(٥) بكرات: جمع بكرة: الناقة الفتية القوية.

حمر، خطمهم[1] الليف، وأُزُرهم[2] العباء، وأرديتهم النِّمار[3]، يحجون البيت العتيق»، وما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن عباس قال: لما مرَّ النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «يا أبا بكر، أي واد هذا؟» قال: وادي عسفان، قال: «لقد مرَّ به هود، وصالح ــ عليهما السلام ــ على بَكَرات حمر، خطمها الليف، وأزُرُهم العباء، وأرديتهم النِّمار، يلبُّون يحجون البيت العتيق» إسناده حسن، لأن المقصود الحج إلى محله، وبقعته المعروفة، وإن لم يكن ثم بناء[4].

رواية البخاري في صحيحه

وها أنذا أذكر رواية الإمام البخاري في صحيحه، المشتملة على إسكان الخليل هاجر، وابنها عند البيت، وقصة نبع زمزم، وقصة بناء البيت؛ لأنها أصحُّ ما روي في هذا الباب، بعضها مرفوع إلى النبي ﷺ صراحة، وجُلُّها موقوف من كلام ابن عباس، ولكن له حكم المرفوع، لأن مثل هذا لا يقوله ابن عباس بمحض الرأي، فهو إما سمعه من النبي أو من صحابي عنه، ويستبعد جداً أن يكون تلقَّاه عن أهل الكتاب الذين أسلموا، لأن ما جاء في الحديث أدق، وأوفى وأشمل مما جاء في كتبهم.

وسأذكر الحديث بطوله لما فيه من الإمتاع، والحِكَم، والأحكام، والسنن والعبر والعظات، وهو ــ إلى ذلك ــ قطعة من الأدب الحي، والقَصَص الحق.

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق[5] من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً

---

(١) خطم جمع خطام: وهو الزمام الذي تشد به الناقة.

(٢) أزر: جمع إزار: وهو ما يستر به أسفل الجسم من الوسط.

(٣) أردية جمع رداء: ما يوضع على الكتفين ويستر به النصف الأعلى. النمار: جمع نمرة، الكساء المخطط.

(٤) البداية والنهاية، ج ١ ص ١١٩، ١٣٨.

(٥) المنطق، والنطاق ما تشد به المرأة وسطها.

لتعفي أثرها على سارة[1]، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت ـ أي مكانه ـ، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه[2] تمر، وسقاءً[3] فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس، ولا شيء؟! وقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيّعنا! ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنيَّة حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه: ﴿ربَّنا إني أسْكَنْتُ من ذُريتي بوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عند بيتك المحرَّم، ربَّنا ليقيموا الصلاة...﴾، حتى بلغ (يشكرون).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السِّقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى ـ أو قال: يتلبط[4] ـ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه. ثم استقبلت الوادي تنظر: هل ترى أحداً؟ فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف دِرْعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود[5] حتى جاوزت الوادي ثم أتت المَرْوة، فقامت عليها، ونظرت: هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما»[6].

---

(١) ذلك أن سارة كانت وهبت هاجر للخليل إبراهيم، فحملت منه إسماعيل، فلما ولدته اشتدت بها الغَيْرة، فصارت تؤذيها وتلاحقها، وهي تهرب منها، فاتخذت المنطق ليُعَفِّيَ أثرها، فلا تعرف سارة أين ذهبت هاجر.

(٢) وعاء من جلد.

(٣) ما يحمل فيه الماء كالقربة.

(٤) يتمرغ، ويضرب برجليه الأرض من العطش.

(٥) الذي أصابته المشقة والتعب.

(٦) أي هذا أصل مشروعية السعي بينهما.

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صَهْ[١]، ثم تسمَّعت، فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواث[٢]، فإذا هي بالملك ـ يعني جبريل ـ عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه[٣]، وتقول بيدها هكذا[٤]، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت ـ أو قال ـ لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عيناً معيناً»[٥].

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: «لا تخافوا الضَّيْعة، فإن هذا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه، وشماله.

فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ـ أو ـ أهل بيت[٦] من جرهم مقبلين من طريق كَدَاء[٧]، فنزلوا في أسفل مكة، فوجدوا طائراً عائفاً[٨]، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء!! فأرسلوا جَرِيّاً أو جريين[٩]، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء[١٠] قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس» فنزلوا معهم.

(١) أي اسكتي، تخاطب نفسها.
(٢) أي إغاثة فأغثني.
(٣) تجعله كالحوض بيدها.
(٤) أي تفعل بيديها هكذا: أي تمثل فعلها بيديها.
(٥) ظاهراً جارياً على وجه الأرض.
(٦) جماعة و«أو» للشك من الراوي في أي اللفظين قاله.
(٧) بفتح الكاف والمدة أعلى مكة.
(٨) يحوم حول الماء ويدور.
(٩) الجري: الرسول و«أو» للشك.
(١٠) يعني في امتلاكه، أما الشرب والانتفاع به فمباح.

حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنْفَسَهم[1] وأعجبهم حين شب، فلما أدرك[2] زوَّجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته[3]، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا[4]، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرّ، نحن في ضنك وشدة، فشكت إليه! قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له: يغيِّر عتبة بابه[5]، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً[6] فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنا كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا في جَهْد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّر عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك فطلقها، وتزوج امرأة منهم أخرى[7].

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بَعْدُ فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيفْ أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله ـ عز وجل ـ فقال: ما طعامكم: قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهمَّ بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة

---

(١) أي رغبهم في مصاهرته نفاسته عندهم.
(٢) بلغ مبلغ الرجال.
(٣) هاجر وابنها.
(٤) يطلب لنا الرزق.
(٥) المراد بالعتبة: المرأة وهي من الكنايات البديعة، فالعتبة تصون الباب وتصون ما هو بداخله، وهي المعبر لبيت الإنسان، الذي يؤويه، ويقيه الحر والبرد، والمرأة تعف زوجها، وتصونه وتصون نفسها، وماله. وهي سكن النفس، وإليها يفيء الزوج بعد العناء والتعب فيجد الروح والراحة.
(٦) أبصر وأحس.
(٧) قيل: هي رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمية، وقيل غير ذلك.

إلا لم يوافقاه(١). قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبِّت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دَوْحة(٢) قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد(٣)، قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر(٤) فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: «ربَّنا تقبَّل منا إنك أنت السميع العليم» قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم». انتهى الحديث(٥).

فلما بلغ موضع الحجر الأسود وضعه في موضعه الذي هو فيه، وكان ارتفاع الكعبة تسعة أذرع، وعرضها في الأرض(٦) ثلاثين ذراعاً بذراعهم، وكان الحِجْر داخلاً في البيت لمَّا بناه الخليل، ولم يجعل للكعبة سقفاً، وجعل لها بابين باباً شرقياً، وباباً غربياً، وكانا ملصقين بالأرض، وحفر لها بئراً عند بابها خزانة للبيت يُلْقى فيه ما يُهْدَى له.

---

(١) لا يعتمد عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه إلا في مكة، فإنما يوافقانه ببركة دعاء الخليل.

(٢) شجرة عظيمة.

(٣) من المعانقة، والمصافحة، والتقبيل.

(٤) هو الحجر الذي قام عليه الخليل وهو يبني.

(٥) صحيح البخاري ــ كتاب الحج ــ باب فضل مكة وبنيانها، وكتاب أحاديث الأنبياء باب «واتخذ الله إبراهيم خليلاً».

(٦) يعني طول كل ضلع من أضلاعها لأنها مربعة تقريباً.

ولما فرغ الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ من بناء البيت جاء جبريل، وأرى الخليل المناسك كلَّها، وأمره أن يؤذِّن في الناس بالحج فقال: يا رب وما يبلغ صوتي؟ فقال الله ـ عزَّ شأنه ـ : «أذِّن يا إبراهيم وعليَّ البلاغ» فوقف الخليل على جبل أبـي قُبَيس وصار ينادي: يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجُّوا، فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن، ومن كان سبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «لبَّيك اللهمَّ لبَّيك».

وحجَّ الخليل إبراهيم، وحجَّ إسحاق، وأمه سارة من بيت المقدس، ثم رجع الخليل إلى الشام، وكانت وفاته هناك عليه الصلاة والسلام[1]. ومن يومها صار الحج فريضة محكمة باقية إلى يوم القيامة، فلله الحمد والمنة على ما أنعم وشرع.

المسجـد الحـرام

ولما بنى الخليل وابنه إسماعيل البيت عُرف بالكعبة، وصار الناس يحجون إليه، ويعتمرون ويطوفون به، ويصلُّون إليه، وعرف ما حول الكعبة بالمسجد الحرام، وهو أول المساجد المشرَّفة في الأرض التي تُشدُّ إليها الرحال، ففي الحديث الصحيح المتفق عليه أن النبـي ﷺ قال: «لا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى».

ولم يكن للمسجد الحرام سور، وكان تحيط به الدور من جميع الجهات، حتى كان عهد الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وضاق المسجد بحجّاج البيت وزوّاره، فلم يكن بدٌّ من توسعته، فاشترى الدور من أهلها، وهدمها ووسَّع المسجد الحرام، وجعل له سوراً على قامة الرجل، ووضع عليه السُرج والمصابيح. فلما كان عهد عثمان ـ رضي الله تعالى عنه ـ اشترى دوراً أخرى وزادها في المسجد. فلما ولي عبدالله بن الزبير أحكم بنيانه، وحسَّن جدرانه، وأكثر أبوابه، ولم يوسعه. فلما ولي الأمر عبدالملك بن

(١) فتح الباري، ج ٦ ص ٣١٤.

مروان الأموي زاد في ارتفاعه، وأمر بالكعبة فكُسيت الديباج[1]، وكان الذي تولَّى ذلك بأمره الحجاج بن يوسف الثقفي.

ولم يزل المسجد الحرام يتعاهده الخلفاء والملوك والأمراء من لدن عبدالملك إلى يومنا هذا، وقد كانت آخر توسعة على يد آل سعود: حكام الحجاز ونجد وملحقاتها. وقد أنافت هذه العمارة والتوسعة على كل عمارة قبلها، ونرجو أن يكون عملهم مقبولاً، وجزاؤهم كثيراً، وأن تكون عمارة المسجد موصولة إلى ما شاء الله.

مقام إبراهيم

هو الحجر الذي كان يقف عليه الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما ارتفع البناء عن قامته، وقد أثَّرت قدماه فيه.

وقد كانت آثار قدمي الخليل في الحجر باقية إلى أول الإسلام، قال أبو طالب في لاميته المشهورة:

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

وقد روي أن المقام كان ملصقاً بحائط الكعبة، على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فأخَّره عن البيت قليلاً حتى لا يحصل التضييق على الطائفين بالبيت والمصلِّين عند المقام، وقد وافق الفاروق الصحابة ولم ينكر عليه أحد[2]. وكيف وهو صاحب الموافقات، ومن موافقاته قوله لرسول الله ﷺ: «لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلّى»، فأنزل الله سبحانه قوله:

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴿١٢٥﴾ ﴾[3].

رواه البخاري في الصحيح[4].

---

(١) الحرير.
(٢) البداية والنهاية، ج ١ ص ١٦٤.
(٣) الآية ١٢٥ من سورة البقرة.
(٤) صحيح البخاري.

وبعد أن بنى الخليل عليه الصلاة والسلام الكعبة والبيت الحرام أمره الله أن يبني بيت المقدس فبناه، وقيل إن يعقوب ـ عليه السلام ـ هو الذي أسسه، وقد كان بين البناءين أربعون عاماً، فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: «قلتُ يا رسول الله، أيُّ مسجد وضع في الأرض أولاً؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أيّ؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، وأينما أدركتك الصلاة فصَلِّ فهو مسجد»[1].

ولكن قد يشكل على هذا ما اشتهر من أن باني المسجد الأقصى هو سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ وقد روى النسائي بإسناد صحيح من حديث عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن سليمان بن داود لما بنى البيت المقدس سأل الله عز وجل خلالاً ثلاثاً: سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد، لا ينهزه ـ أي لا يدفعه ـ إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه فأوتيه» وبين إبراهيم وسليمان ما يزيد عن ألف عام.

والحق أن ما حدث من سيدنا سليمان لم يكن تأسيساً من الأصل، وإنما كان تجديداً وتوسعة لما أُسس قبل، ويكون الخليل بعد أن بنى الكعبة بأربعين سنة بنى بيت المقدس، أو بناه حفيده يعقوب كما قيل.

وإذا كان كذلك فلا يكون الحديث مخالفاً للتاريخ، ولا للواقع، لأنه ﷺ عنى المؤسس الأول لبيت المقدس لا المجدِّد[2]، واستعمال البناء في التجديد مستساغ ووارد في اللغة العربية.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) زاد المعاد، ج ١ ص ٨؛ وفتح الباري.

التشكيك في قصة إبراهيم وإسماعيل
(عليهما السلام)

قد ذكرت آنفاً قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإسكانه هاجر وابنها إسماعيل بوادٍ ليس به ماء، ولا أنيس عند مكان البيت، وذكرت الآيات القرآنية التي تفيد القطع في هذا، وذكرت القصة تامة وافية كما رواها الإمام البخاري عن ابن عباس، وهذه القصة يكاد ينعقد الإجماع على جملتها وإن وقع خلاف على التفاصيل، والذين يعرضون لتفاصيل حوادثها بالنقد يروونها على أن هاجر ذهبت بإسماعيل إلى الوادي الذي به مكة اليوم، وكانت به عيون أقامت جُرْهم عندها، فنزلت هاجر منهم أهلاً وسهلاً لما جاء إبراهيم بها وبابنها، فلما شبَّ إسماعيل تزوج جرهمية ولدت له أولاده، وكان لهذا التلاقح بين إسماعيل العبري المصري، وبين هؤلاء العرب ما جعل ذريته على جانب من العزم، وقوة البأس، والجمع بين فضائل العرب، والعبريين، والمصريين.

أما ما ورد عن حيرة هاجر لما نضب الماء منها، وعن سعيها سبعاً بين الصفا والمروة، وعن زمزم، وكيف نبع الماء منها فموضع شك عندهم[1].

والذي نراه أن ما دلَّت عليه رواية البخاري في صحيحه هو الصحيح، وأن التسلسل التاريخي فيها أدق وأوضح ولا سيما أن قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام:

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ[2] رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ ﴾[3].

يكاد يكون نصاً على أنه لم يكن هناك ناس، ولا زرع، ولا ماء، ومن

---

(١) حياة محمد، ص ٨٩.

(٢) إن كان هذا الخطاب والدعاء بعد البناء فالآية على ظاهرها وإن كان قبل البناء فالمراد عند مكان بيتك الذي سيكون ويبنى فيها بعد.

(٣) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.

قواعد البحث العلمي أنه إذا تعارض النقل فلنأخذ بما هـو أصح وأوثق، ورواياتهم هذه التي يروونها لا تنهض إلى معارضة ما دل عليه القرآن، ونصت عليه الروايات الصحيحة.

وإذا كان البعض قد ارتاب في تفاصيل القصة، فقد نفاها من أساسها (وليم موير) وذكر أنها من الإسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال، ليربطوا بها بينهم وبين العرب بالاشتراك في أبوة إبراهيم لهم أجمعين، أن كان إسحاق أباً لليهود، فإذا كان أخوه إسماعيل أبا العرب فهم إذاً أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود، وتيسر لتجارة اليهود في شبه الجزيرة، ويستند المؤرخ الانكليزي في رأيه هذا إلى أن أوضاع العبادة في بلاد العرب لا صلة بينها وبين دين إبراهيم، لأنها وثنية مغرقة في الوثنية، وكان إبراهيم حنيفاً مسلماً.

وسأدع الدكتور محمـد حسين هيكل ــ رحمه الله ــ يردُّ عليه، قال: ولسنا نرى مثل هذا التعليل كافياً لنفي واقعة تاريخية، فوثنية العرب بعد موت إبـراهيم وإسماعيل بقرون كثيرة لا تدل على أنهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم إلى الحجاز، وحين اشترك وإسماعيل في بناء الكعبة، ولو أنها كانت وثنية يومئذ لما أيد ذلك رأي سيرموير، فقد كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام، وحاول هو هدايتهم فلم ينجح، فإذا دعا العرب إلى مثل ما دعا إليه قومـه فلم ينجح، وبقي العرب على عبادة الأوثان لم يطعن ذلك في ذهاب إبراهـيم وإسماعيل إلى مكة، بل إنَّ المنطق ليؤيد رواية التاريخ، فإبراهيم الذي خرج من العراق فاراً من أهله إلى فلسطين وإلى مصر ــ رجل ألف الارتحال، وألف اجتياز الصحاري، والطريق ما بين فلسطين ومكة كان مطروقاً من القوافل منذ أقدم العصور، فلا محل إذاً للريبة في واقعة تاريخية انعقد الإجماع على جملتها.

والسير وليم موير والذين ارتأوا في هذه المسألة رأيه يقولون بإمكان انتقال جماعة من أبناء إبراهيم وإسماعيل بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب، واتصالهم وإياهم بصلة النسب وما ندري، وهذا الإمكان جائز عندهم في شأن

أبناء إبراهيم وإسماعيل، كيف لا يكون جائزاً في شأن الرجلين بالذات!؟وكيف لا يكون ثابتاً قطعاً ورواية التاريخ تؤكده؟! وكيف لا يكون بحيث لا يأتيه الريب، وقد ذكره القرآن، وتحدثت به الكتب المقدسة الأخرى؟[1].

وأزيد فأقول: إن هذه الزعمة التي زعمها سير موير تنافي ما هو معروف عن اليهود من دعواهم أنهم شعب الله المختار، وزعمهم أن النبوة فيهم، فكيف يختلقون أمراً يرد عليهم في هذا؟! بل كيف يختلقون أمراً يقتضي ضرورة فضل العرب، وأنهم شركاؤهم في النبوة بكون خاتم الأنبياء والمرسلين منهم؟! وقد قرأت موقفهم من تحريف نصوص توراتهم في قصة الذبيح!!.

وقد قرأنا تاريخ حروبهم مع النبي ﷺ، وحصاره لهم حتى نزلوا على حكمه كارهين، فما وجدنا أنهم مرة قالوا ـ وهم يستعطفون النبي ـ أنهم أبناء عمومة، وكان الأجدر بهم أن يذكروا هذا وهو حق؛ استعطافاً للنبي عليهم!! وذلك على عكس المشركين القرشيين، فقد كانوا إذا أزموا يذكّرون النبي بالرحم والقرابة التي تجمعهم، وهذا يدل على أنهم كانوا أكره ما يكرهون أن يذكروا هذه الصلة التي تربطهم بالعرب، فهل بعد هذا يزعم زاعم أن قصة مجيء إبراهيم إلى الحجاز وإسكانه هاجر وابنها من اختلاق اليهود؟!

الأشهــر الحــرم

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾[2].

يعني عدة شهور العام في تقدير الله، وحكمه الأزلي، وأمر الناس بالأخذ

---

(١) حياة محمد، ص ٩٠.

(٢) الآية ٣٦ من سورة التوبة.

به ـــ اثنا عشر شهراً، والمراد الشهور القمرية التي تعرف بسير القمر في المنازل، وعلى هذه الشهور كان يعتمد العرب، ولما جاء الإسلام جعلها مواقيت الناس يعتمدون عليها في صيامهم، وحجهم، وزكواتهم، ومعاملاتهم، وسائر أحكامهم، وأمورهم.

والشهر الفلكي أو الحقيقي مدته تسعة وعشرون يوماً، ومائة وأحد وتسعون جزءاً من ثلاثمائة وستين جزءاً لليوم بليلته، وتكون السنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً وأجزاء من اليوم، فما زاد عن نصف يوم عدُّوه يوماً كاملاً وزادوه في الأيام، وتكون السنة حينئذ كبيسة، وتكون أيامها ثلاثمائة وخمسة وخمسين يوماً، واصطلحوا على جعل الأشهر شهراً كاملاً أي ثلاثين يوماً، وشهرا ناقصاً أي تسعة وعشرين، فالمحرم في اصطلاحهم ثلاثون يوماً، وصفر تسعة وعشرون، وهكذا إلى آخر السنة القمرية الأفراد منها ثلاثون، وأولها المحرم. والأزواج تسعة وعشرون، وأولها صفر إلا ذا الحجة من السنة الكبيسة فإنه يكون ثلاثين يوماً لاصطلاحهم على جعل ما زادوه في أيام السنة الكبيسة في ذي الحجة آخر السنة.

وأما مدار الشهر الشرعي فعلى الرؤية، فمن ثَمَّ اختلفت الأشهر فكان بعضها ثلاثين وبعضها تسعة وعشرين، وقد صدع النبي ﷺ بهذه الحقيقة فقال: «الشهر هكذا، وهكذا، وعقد الإبهام في الثالثة، والشهر هكذا، وهكذا، وهكذا يعني تمام الثلاثين» رواه مسلم والبخاري مختصراً. ولا يتعين شهر للكمال، وشهر للنقصان، بل قد يكون الشهر ثلاثين في بعض السنين، وتسعاً وعشرين في بعض آخر منها، وأما ما أخرجه الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «شهرا عيد لا ينقصان: رمضان وذو الحجة» فالمعنى لا ينقص أجرهما، والثواب المرتب عليهما، وإن نقص عددهما في بعض السنين. وقيل الغالب والكثير أنهما لا ينقصان في سنة واحدة[١].

ولما كانت السنة القمرية تنقص عن السنة الشمسية بنحو عشرة أيام

(١) تفسير الألوسي، ج ١٠ ص ٩٠، ٩١.

أو أحد عشر يوماً فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الصوم والحج تارة في الشتاء، وتارة في الصيف، وتارة في الربيع، وتارة في الخريف. وهذا من رحمة الله بعباده في التشريع، حتى تنزاح المشقة، ويذهب السأم والملل بأداء العبادات في وقت لا يتغير، وليتدرب المتعبد على أداء العبادات في جميع فصول العام، وكذلك شاء الله أن يكون اعتبار الشهور بسير القمر، وظهوره، لأن ذلك لا يحتاج إلى حساب ولا كتاب، بل هو أمر مشاهد بالبصر، فيستوي في معرفته الجاهل والمتعلم، والبدوي والحضري.

وقد جعل الله من هذه الشهور أربعة حُرُماً، وإنما سميت حُرُماً لتحريم الله القتال فيها، وتعظيم العرب لها، حتى لو أن الواحد منهم يلقى قاتل أبيه، أو أخيه في هذه الأشهر فلا يعرض له بسوء، فلما جاء الإسلام لم يزدها إلا حرمة وتعظيماً. وهذه الأشهر هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الفرد، ويقال له: رجب مضر[1]. ومنهم من يقول: المحرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة. والأول هو الأولى وهو الذي جاءت به الأحاديث الصحيحة التي رواها الشيخان.

وقد كان تعظيم الأشهر الحرم من بقايا شريعة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وقد جاءت الأشهر الحرم على هذا الوضع لأجل تأمين حجاج البيت وزوَّاره، فحرَّم الله قبل شهر الحج شهراً ليسيروا إلى هذه البقاع، وهو شهر ذي القعدة[2]، وحرَّم ذا الحجة لأنهم يوقعون فيه مناسك الحج، وحرَّم بعده شهراً وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم. وحرَّم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت، وأداء العمرة.

---

(١) وذلك لأن مضر كانت تعظمه أكثر من غيرها، وقيل لأن ربيعة بن نزار كانوا يعظمون رمضان ويسمونه رجباً، فأضيف رجب إلى مضر تمييزاً له عن غيره.
(٢) وسمي ذا القعدة لقعودهم فيه عن القتال.

وقد ذكر بعض المؤرخين للعرب قبل الإسلام[1] أن قدماء أهل الجاهلية، وهم العرب العاربة، كانوا يسمون الأشهر العربية بهذه الأسماء وهي: (١) (مؤتمر)، (٢) و (ناجر)، (٣) و (خوان)، (٤) و (صوان)، (٥) و (ربى)، (٦) و (آيدة)، (٧) والأمم، والبعض سماه (الأصم)، (٨) و (عادل)، (٩) و (ناطل)، (١٠) و (واغل)، (١١) و (رنة)، (١٢) و (برك). ومؤتمر هو اسم المحرم، وناجر هو صفر، وهكذا. وقد ذكر البيروني في كتابه «الآثار الباقية» نحواً من ذلك إلا أنه ذكر (الزباء) بدل (ربى) و (بائدة) بدل (آيدة). والظاهر أنهم راعوا بعض الظروف الجوية، والأحوال الاجتماعية، والملابسات التي كانوا عليها عند وضعهم هذه الأسماء. فالمؤتمر للمحرم؛ لأنهم كانوا يجتمعون فيه ويأتمرون، والأصم لرجب، لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت وهكذا.

ثم سمت العرب قبل الإسلام الشهور العربية بالأسماء المعروفة مراعين أيضاً الأحوال، وخصائص هذه الأوقات، والأوضاع التي كانوا عليها عند وضع هذه الأسماء، فالمحرم سمِّي بذاك تأكيداً لتحريمه لأن العرب كانت تتقلب به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً. وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار، فهو يأتي بعد ثلاثة أشهر حرم. وشهر ربيع الأول سمي بذلك لارتباعهم فيه، والارتباع: الإقامة في عمارة الربع. وربيع الآخر كالأول. وجمادى سمي بذلك لجمود الماء فيه، فقد صادف حينما وضعوا الأسماء للشهور أن كان الوقت شديد البرد قال شاعرهم:

وليلة من جمادى ذات أندية
لا يبصر الكلب في ظلمائها الطُّنُبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة
حتى يلف على خيشومه الذنبا

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي.

وجمادى يُذكَّر ويؤنث، فيقال: جمادى الأولى، والأول، وجمادى الآخرة، والآخر. و(رجب) من الترجيب وهو التعظيم، وقد بيَّنا أن مضر كانت تعظمه جداً. وقد كانوا لتعظيمه يتركون فيه القتال ويحرمونه. و (شعبان) من تشعُّب القبائل، وتفرقها للغارة بعد تركهم ذلك في رجب. و(رمضان) من الرمضاء وهي شدة الحر، فقد صادف وقت التسمية أن كان الطقس حاراً جداً. و(شوال) من شالت الإبل بأذنابها، لأجل الطراق من الفحل. و(ذو القَعدة) بفتح القاف وكسرها لقعودهم عن القتال فيه استعداداً للحج. و(ذو الحَجة) بفتح الحاء وكسرها لحجهم فيه[1].

النســـيء

النسء والنسيء: تأخير حرمة شهر حرام إلى شهر آخر، ذلك أن العرب كانوا أصحاب حروب وغارات وثارات، فإذا حلَّ عليهم شهر حرام، وهم يحاربون شقَّ عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر ليس من الحرم، كما كانوا يشق عليهم ترك القتال ثلاثة أشهر متوالية، فإذا فرغت العرب من حجها قام رجل منهم معروف بذلك وأحلَّ لهم المحرم، وجعل مكانه صفراً شهراً حراماً، فإذا أرادوا الصدر[2] قام هذا الرجل فيهم فقال: اللهمَّ إني نسأت لك أحد الصفرين: الصفر الأول[3]، ونسأت الآخر للعام المقبل، فإذا جاء صفر ووجدوا أنفسهم في حاجة إلى قتال نسأوه، وهكذا حتى صار من أمرهم عدم تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من بين الشهور أربعة أشهر، فجعلوا التحريم لعدد الشهور، لا لأعيانها وذواتها.

وكان أول من نسأ الشهور على العرب (القَلمَّس) وهو حذيفة بن عبد بن

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ٤ ص ١٦١، ١٦٢.
(٢) الرجوع إلى مكة.
(٣) يريد المحرم.

فقيم، ينتهي نسبه إلى كنانة بن خزيمة، ثم قام بعده على ذلك ابنه عبَّاد بن حذيفة، ثم قام بعد عبّادٍ قَلْعُ بن عبّاد، ثم قام بعد قلعٍ أمية بن قلع، ثم قام بعد أمية عوفُ بن أمية، ثم قام بعد عوف أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام(١)، وقد اختلف في جنادة هذا أسلم أم لم يسلم؟ ويدل على إسلامه ما جاء في بعض الأخبار أنه حضر الحج في زمن سيدنا عمر، فرأى الناس يزدحمون على الحجر الأسود، فنادى أيها الناس إني قد أجرته منكم، فخَفَقه عمر بالدرة، وقال: ويحك، إن الله قد أبطل أمر الجاهلية(٢).

وقد ذكر السُهَيلي في «الروض الأنف»(٣) أن النسيء كان عند العرب على ضَرْبين: أحدهما: ما ذكره ابن إسحاق من تأخير شهر المحرم إلى صفر لحاجتهم إلى شن الغارات، وطلب الثارات.

والثاني: تأخيرهم الحج عن وقته تحرياً منهم للسنة الشمسية، فكانوا يؤخرونه كل عام أحد عشر يوماً أو أكثر قليلاً، حتى يدور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة، فيعود إلى وقته، ولذا قال ـ عليه السلام ـ في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» وكانت حجة الوداع في السنة التي عاد فيها الحج إلى وقته(٤)، ولم يحج رسول الله ﷺ من المدينة إلى

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ٢ ص ٤٣، ٤٤.

(٢) الروض الأنف، ج ١ ص ٤٢، ط الجمالية؛ الإصابة في تاريخ الصحابة، ج ١ ص ٣٤٧، ط أولى.

(٣) ج ١ ص ٤١.

(٤) يوهم كلام السهيلي هذا أن الحج في السنة التاسعة وهي الحجة التي أمّر فيها النبي ﷺ الصدِّيق كانت في غير شهرها، وهو غير صحيح وإن قاله البعض، ويدل على هذا ما روي في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «بعثني أبو بكر الصدِّيق في الحجة التي أمَّره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع في رَهْط يؤذِّنون في الناس يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان» ولا يقال يوم النحر إلا لليوم العاشر من ذي الحجة، وأيضاً فنسيء الحج لا يتوقف على الصورة التي ذكرها السهيلي، فيجوز أن ينسأ على ما ذكره ابن إسحاق، وذلك كأن يكون بينهم قتال في شوال مثلاً، فيضطرون إلى مواصلته في ذي القعدة وذي الحجة، فيؤخرون حرمتها إلى شهرين آخرين حلالين.

مكة غير تلك الحجة، وذلك لإخراج الكفار الحج عن وقته، ولطوافهم بالبيت عراة.

وقد جاء الإسلام فحرم النسيء بنوعيه تحريماً مؤكّداً مؤبّداً قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾[1].

وقد أكد النبي حرمة الأشهر الحرم، وحرَّم النسيء، وبيَّن أن الزمان عاد كما كان منذ أن خلقه الله، فلا نسيء بعد اليوم، ولا تغيير، ولا تبديل في الأشهر الحرم، فقال في خطبته في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض: السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى الآخرة، وشعبان»[2].

وقد دلَّت آية النسيء على أن التحليل والتحريم إنما هو لله، ولرسله المبلِّغين عنه، وليس لأحد أن يحلِّل أو يحرِّم، وإلا كان افتراء وكذباً على الله، قال عز شأنه:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[3].

---

(١) الآية ٣٧ من سورة التوبة.

(٢) رواه البخاري.

(٣) الآية ١١٦ من سورة النحل.

أولاد إسماعيل

ذكرت فيما سبق قصة نبع زمزم، وأنها كانت هزمة، أو همزة جبريل حينما ضرب الأرض بعقبه أو بجناحه، فنبعت زمزم لتكون سقياً لإسماعيل، وأن جُرْهماً نزلوا بجوار السيدة هاجر وابنها إسماعيل على أن لا يكون لهم ملك في الماء، وأن إسماعيل لما كبر صاهر فيهم، وقد صار له من امرأته الجرهمية أولاد عدتهم: اثنا عشر رجلاً: (١) نابت، وكان أكبرهم (٢) وقيذر ــ ويقال له: قيذار وقيدار ــ (٣) وأذبل ــ وقيل: أدبيل، وأدبال ــ (٤) وميشا (٥) ومسمع (٦) وماشي ــ وقيل ماسي ــ (٧) ودِمًّا ــ وقيل: دمار ــ (٨) وأذر ــ وقيل: أدر ــ (٩) وطيما (١٠) ويطور ــ وقيل: قطور ــ (١١) ونبش ــ وقيل: نفيس، ويافيش ــ (١٢) وقيذُم ــ وقيل: قيدمان ــ[١].

وأمهم رعلة بنت مُضاض بن عمرو الجرهمي ــ وقيل: مِضاض ــ. وجرهم بن قحطان، وقحطان أبو اليمن كلها وإليه يجتمع نسبها، وهو قحطان بن عامر، بن شالخ، بن أرفخشذ، بن سام، بن نوح. وقال ابن إسحاق: جرهم بن يقطن بن عَيبر بن شالخ، ويقطن هو: قحطان بن عيبر بن شالخ، وقد بلغ إسماعيل ــ عليه السلام ــ فيما يذكرون ــ مائة وثلاثين سنة، ثم مات ــ رحمة الله وبركاته عليه ــ ودفن بالحِجْر مع أمه هاجر[٢].

وقد وَلَد نابتُ بن إسماعيل يَشْجُبَ بن نابت، ثم وَلَدَ يشجبُ يعربَ، ثم وَلَدَ يعربُ تيرحَ، ثم ولد تيرحُ ناحور، ثم ولد ناحورُ مُقَوِّم، ثم ولد مقومُ أددَ، ثم ولد أددُ عدنانَ، ومن عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل بن إبراهيم ــ عليهما السلام ــ فقد ولد عدنان رجلين: معدُّ بن عدنان، وعكٌّ، ومنهما كانت قبائل العرب العدنانية كلها.

* * *

---

(١) السيرة ج ١، ص ٤،٥؛ البداية والنهاية ج ١، ص ١٩٣.

(٢) أما أمه فدفنت فيه قبل أن يُبنى البيت كما قدمنا في حديث البخاري. وأما إسماعيل فإن صح ذلك يكون دفن فيه بعد البناء، ولم يكن هذا الموضع يعرف بالحجْر إلا بعد أن بنت قريش الكعبة، فقد ضاقت بهم النفقة، فتركوا قطعة من البيت وهي الحجر كما سيأتي ذلك.

الفَصل الثَالِث
وُلاةُ البَيْتِ
وَتَاريخ مَكّة إلى مَوْلدِ الرَسُول ﷺ

وقد ولي أمر البيت إسماعيل ـ عليه السلام ـ فلما مات وليه بعده ابنه نابت ما شاء الله أن يليه، ثم ولي البيت بعده مضاض بن عمرو الجرهمي.

ولاية الجراهمة

ثم ولي البيت الجراهمة، وصاروا الحكام بمكة، وكان معهم بنو إسماعيل إلا أنهم لم ينازعوهم الملك والرئاسة لخؤولتهم وقرابتهم، وإعظاماً لمكة أن يكون بها بَغْي أو قتال، فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا في البلاد، فلا يناوئون قوماً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم فغلبوهم، وكان أول من ولي البيت من جرهم مضاض بن عمرو الجرهمي جد أولاد إسماعيل، ثم انتقلت بعده إلى ابنه الحارث، ثم إلى عمرو بن الحارث، وكان مع جرهم بنو قطوراء[1]. وهما ابنا عم وكان رئيس جرهم مضاضاً، ورئيس قطوراء السميدع، وقد تنافسوا الملك والرئاسة بمكة، وقد وقعت بينهم حرب، فانتهت بانتصار جرهم، وبذلك صفا لهم الجو.

ثم لم تلبث جرهم أن بغَوا بمكة، واستحلُّوا حرمتها، فظلموا من دخل بها من غير أهلها مع أن الله جعلها حرماً آمناً، وأكلوا مال الكعبة التي يهدى إليها[2]، فقيَّض الله لهم من أخرجهم من البلد الحرام.

---

(١) هو قطوراء بن كركر.

(٢) كان الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد احتفر بئراً عند باب الكعبة، فكان كل ما يهدى إلى الكعبة يلقى في هذا البئر، فلما فسد أمر جرهم صار يسرقون مال الكعبة ويستحلونه.

غلبة خزاعة على البيت

فلما رأى بنو بكر بن عبد مناة من كنانة وغبشان من خزاعة ظلمَ الجراهمة وبغيهم أجمعوا على حربهم وإخراجهم من مكة، فآذنوهم بالحرب، فاقتتلوا، واعتزل بنو إسماعيل الفريقين، فغلبهم بنو بكر وغبشان. قال ابن إسحاق: وكانت مكة في الجاهلية لا تقرُّ فيها ظلماً، ولا بَغْياً، ولا يبغي فيها أحد إلا أخرجته ورمته، ولا يريدها أحد بسوء إلا هلك مكانه، فيقال: إنها ما سميت ببكة إلا أنها كانت تبك أعناق الرجال إذا أحدثوا فيها[١].

وقال ابن هشام: أخبرني أبو عبيدة أن بكة اسم لبطن مكة، لأنهم كانوا يتباكون فيها، أي يزدحمون يعني في الطواف بالكعبة، والدعاء، والسعي بين الصفا والمروة.

طم الجراهمة زمزم

فلما غلب الجراهمة على أمرهم، وهمُّوا بالخروج من مكة عمد عمرو ابن الحارث بن مضاض الجرهمي إلى نفائس وهي: غزالان من ذهب، وسيوف محلاة، وأدرع، فجعلها في زمزم وطمَّها[٢]، وبالغ في طمها، ثم انطلق عمرو بقومه إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً[٣].

فلم تزل زمزم من ذلك العهد مطمومة مجهولة حتى أذن الله سبحانه وتعالى أن تعاد، وكان ذلك قبل ميلاد النبي ﷺ على يد جده عبدالمطلب.

ولاية خزاعة البيت

ثم ولي أمر البيت بعد جرهم غبشان من خزاعة[٤] دون بني بكر بن عبد مناة، وكان الذي وليه منهم عمرو بن الحارث الغبشاني، وقريش يومئذ بيوتات

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١، ص ١١٤.

(٢) دفنها وسواها.

(٣) السيرة ج ١، ص ١١٣، ١١٤.

(٤) سموا خزاعة لأنهم تخزعوا أي تخلفوا، وانقطعوا من ولد عمرو بن عامر حينما أقبلوا من اليمن يريدون الشام، فنزلوا بمر الظهران فأقاموا به.

متفرقون في قومهم من بني كنانة، وما زال بنو خزاعة يتوارثون أمر البيت كابراً عن كابر حتى كان آخرهم حُلَيل بن حبشية بن سلول الخزاعي الذي تزوج قصي بن كلاب ابنته حُبَّى[1]، واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمائة سنة، وقيل: خمسمائة سنة، وكانوا قوم سوء في ولايتهم، ففي زمانهم كان أول عبادة الأصنام بالحجاز بسبب رئيسهم عمرو بن لحيّ الخزاعي كما أسلفنا.

* * *

(١) بضم الحاء وتشديد الباء المفتوحة مقصوراً.

قصي بن كلاب

كان كلاب بن مرة متزوجاً من فاطمة بنت سعد بن سيل، فولدت له زهرة وقصياً، ومات كلاب وقصي طفل في المهد، وقدم مكة بعد هلاك كلاب ربيعة بن حرام من عذرة، فتزوج فاطمة، واحتملها إلى بلاده، فحملت قصياً معها، وأقام أخوه زهرة بمكة لأنه كان رجلاً، وقد ولدت فاطمة لربيعة رِزاحاً، فلما كبر قصي تسابَّ هو ورجل من قضاعة فعيَّره بأنه ليس منهم، وإنما هو ملصق فيهم، فدخل على أمه وهو مغضب فأخبرها، فقالت له: يا بني، صدق أنك لست منهم، ولكن رهطك خير من رهطه، وآباؤك أشرف من آبائه، وإنما أنت قرشي، وأخوك وبنو عمك بمكة، وهم جيران بيت الله الحرام.

فاحتمل بنفسه إلى مكة وأقام قصي بمكة، وعُرف عنه من الجد وحسن الرأي ما جعله موضع احترام أهلها وأهله فيها، وتقديرهم له، وكانت سدانة البيت في هذا الوقت لخزاعة يتولاها حُليل بن حبشية، فما لبث حين خطب إليه قصي ابنته حُبَّى أن رغب فيه وزوجه، فولدت لقصي: عبدالدار، وعبدمناف، وعبدالعزى، وعبداً، وكثر ولده وانتشروا، كما كثر ماله، وعظم جاهه وشرفه.

ولاية قصي البيت

ثم هلك حُليل فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر، فقريش هم في الذروة من ولد إسماعيل، وصريح ولده، فكلَّم رجالاً من قريش وبني كنانة، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة، فأجابوه، واستنصر أيضاً بأخيه لأمه رزاح بن ربيعة، فجاء ومعه إخوته لأبيه، وكانت

حرب شديدة بينهم، وبين خزاعة وبني بكر، انتهت بانتصار قصي ومن معه، وهزيمة الآخرين وإجلائهم عن مكة، وتمَّ لقصي ولاية البيت وأمر مكة، وجمع قومه من منازلهم ـ وكانت بعيدة عن البيت ـ إلى ما حول البيت، فسمي: مجمِّعاً، وتملك على قومه وأهل مكة فملَّكوه، وكان أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه.

وصارت مآثر قريش كلها إلى قصي: الحجابة[1]، والسقاية[2]، والرفادة[3]، واللواء[4]، والندوة[5]، فحاز شرف مكة كلها، فما تُنكَح امرأة، ولا يتزوج رجل من قريش، وما يتشاورون في أمر نزل بهم، ولا يعقدون لواء حرب إلا في داره.

ولَمَّا بنت قريش بأمر قصي حول الكعبة دورها تركوا مكاناً كافياً للطواف حول البيت، وتركوا بين البيوت طرقاً ينفذ منها إلى الحرم، واتخذ لنفسه دار الندوة، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضي أمورها، وقيل إن حُليلاً هو الذي أوصى بذلك لقصي لما انتشر ولده من ابنته، فأبت خزاعة أن تمضي ذلك لقصي، فعند ذلك هاجت الحرب بينه وبين خزاعة، وقيل إن حليلاً عهد بالمفاتيح إلى أبي غبشان وهو من خزاعة، وكان رجلاً سِكِّيراً، فابتاعها منه قصي بزق خمر، فقيل: أخسر من صفقة أبي غبشان.

وكان قصي أول من سن الرفادة وجعلها فرضاً على قريش، حيث قال: «يا معشر قريش إنكم جيران الله، وأهل بيته، وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله، وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج، حتى يصدروا عنكم ففعلوا».

---

(١) أن تكون مفاتيح الكعبة بيده فلا يدخلها أحد إلا بإذنه.

(٢) هي الشراب الذي كانوا يصنعونه لأهل مكة في الموسم من ماء زمزم يخلط تارة بعسل، وتارة بلبن، وتارة ينبذ فيه التمر والزبيب، يتطوعون بذلك للحجيج من عند أنفسهم.

(٣) طعام كانت قريش تجمعه كل عام لأهل الموسم ويقولون: هم أضياف الله تعالى.

(٤) ما يعقد للحرب.

(٥) الاجتماع للمشورة.

جعل قصي هذه المآثر لعبدالدار

وكان عبدالدار أكبر أبناء قصي، وكان عبدمناف قد شَرُف في حياة أبيه، وذهب كل مذهب، وكذلك شَرُف عبدالعزَّى، وعبد، فقال قصي ـ وقد كبرت سنه، ووهنت قوته ـ لابنه عبدالدار: أما والله يا بني لألحقنَّك بهم وإن كانوا قد شَرُفوا عليك، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلا في دارك، فأعطاه داره: دار الندوة، وأعطاه الحجابة، واللواء، والسقاية، والرفادة(١).

منازعة بني عبدمناف لبني عبدالدار

وتولَّى عبدالدار هذه المناصب التي آثره بها أبوه، وتولَّاها أبناؤه من بعده، لكن أبناء عبدمناف كانوا أشرف في قومهم، وأعظم مكانة، لذلك أجمع عبدشمس، وهاشم، والمطلب، ونوفل بن عبدمناف أن يأخذوا ما بأيدي أبناء عمومتهم، وتفرق رأي قريش: بعضها مع هؤلاء، وبعضها مع أولئك، وعقد بنوعبدمناف «حلف المُطَيَّبين» لأنهم غمسوا أيديهم في طيب جاءت به بعض نساء بني عبدمناف في جفنة، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، فتعاقدوا، وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، وتعاقد بنوعبدالدار، وتعاهدوا وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا، ولا يُسلم بعضهم بعضاً، فسمُّوا «الأحلاف»، وكادوا يقتتلون في حرب تفني قريشاً، ولكن رحمة الله تداركتهم فتداعوا للصلح على أن يعطوا بني عبدمناف السقاية، والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبدالدار كما كانت، ففعلوا، ورضي كل واحد من الفريقين بذلك، وظل الأمر عليه حتى جاء الإسلام(٢).

---

(١) السيرة ج ١، ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) المرجع السابق ص ١٣١، ١٣٢.

ولاية هاشم بن عبدمناف السقاية والرفادة

فولي هاشم بن عبدمناف الرفادة، والسقاية، وذلك أن عبدشمس كان رجلًا سَفَّاراً قلما يقيم بمكة، وكان مقلاً من المال ذا ولد، وأما هاشم فكان موسراً، فهذا هو السبب في تولِّيه الأمرين مع أن عبدشمس كان أكبر منه، وكان هاشم يستعين بقريش في الرفادة، فكان إذا حضر الحاج قام في قريش فقال: «يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوّار الله وحجاج بيته، وهم ضيف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، فاجمعوا لهم ما تصنعون به طعاماً أيامهم هذه التي لا بد لهم من الإقامة بها، فإنه ـ والله ـ لو كان مالي يسع لذلك ما كلفتكموه» فيستجيبون له، ويُخرجون لذلك خَرْجاً من أموالهم كلٌّ بقدر طاقته، فيصنع به للحجاج طعاماً حتى يرجعوا من مكة.

وكان هاشم ـ فيما يزعمون ـ أول من سن الرحلتين لقريش: رحلتي الشتاء والصيف، وأول من أطعم الثريد بمكة، وكان اسمه عَمْراً، وإنما سمي هاشم لذلك، قال شاعرهم:

عمرو الذي هشم الثريد[1] لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف[2]
سنت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وفي عهده ازدهرت مكة، وسمت مكانتها في أنحاء الجزيرة كلها، واعتبرت العاصمة المعترف بها، وطوَّع لهم هذا الازدهار أن يعقدوا معاهدات الأمن وحسن الجوار مع الدول المجاورة لهم، من رومان، وفرس، وأحباش، وغساسنة وغيرها.

مناوأة أمية بن عبدشمس لعمه هاشم

وظل هاشم تتقدم به السن في مكانته على رياسة مكة وزعامتها، لا يفكر أحد في منافسته، حتى خُيِّل لابن أخيه أمية بن عبدشمس أنه قد بلغ مكاناً

(١) هو الخبز يخلط بالمرق واللحم.
(٢) وفي رواية: ورجال مكة مسنتون عجاف.

يسوغ له هذه المنافسة، لكنه لم يقدر وغُلب على أمره، وبقي الأمر لهاشم لا ينازعه أحد، وترك أمية مكة إلى الشام، فأقام بها عشر سنين[1].

تزوج هاشم من بني النجار

وكان هاشم بن عبد مناف رجلاً تاجراً كثير المال، يكثر من الأسفار ما بين مكة والشام، وفي سفرة من سفراته نزل بالمدينة، فرأى سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، فأعجب بها، وكانت سلمى لشرفها في قومها واعتزازها بنفسها لا تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، إذا كرهت رجلاً فارقته، فتزوجها هاشم، وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح من الأوس، فولدت له عمرو بن أحيحة، وولدت لهاشم عبدالمطلب، فسمته: شيبة، فتركه هاشم عندها حتى صار غلاماً دون المراهقة، فذهب إليه عمه المطلب فجاء به إلى مكة، ثم هلك هاشم بغزة[2] من أرض الشام وهو في رحلة من رحلاته التجارية، ثم هلك بعده عبد شمس بمكة، ثم المطَّلب برَدْمان[3] من أرض اليمن، ثم نوفل بسلمان من أرض العراق.

ولاية المطلب الرفادة والسقاية

وبعد موت هاشم ولي السقاية والرفادة من بعده المطَّلب بن عبدمناف، وكان أصغر من عبد شمس وهاشم، وكان ذا شرف في قومه وفضل، وكانت قريش تسميه «الفيض» لسماحته وجوده.

عبدالمطلب في مكة

وتذكَّر المطَّلب أن ابن أخيه هاشم بالمدينة، وأنه قد آن له أن يرجع إلى أهله وبلده، فركب إلى المدينة، وذهب إلى سلمى وطلب إليها أن تدفع إليه الفتى، وقد قارب البلوغ، وبعد تمنع أذنت له ودفعته إليه، فاحتمله على بعيره، وأردفه إياه، ودخل به مكة، فظنته قريش عبداً له جاء به؛ فتصايحت:

---

(١) حياة محمد ص ٩٦.

(٢) غزة بفتح أوله وتشديد ثانيه وفتحه مدينة في فلسطين من ناحية مصر.

(٣) بفتح أوله وسكون الدال المهملة: موضع باليمن.

عبدالمطلب ابتاعه، فقال المطلب: ويحكم، إنما هو ابن أخي هاشم قدمت به من المدينة، فغلب على الفتى هذا اللقب، وصار مشهوراً به، وتنوسي الاسم الأصلي: شيبة.

ولاية عبدالمطلب السقاية والرفادة

ثم هلك المطّلب برَدْمان فولي عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب، فأقامها للناس، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لهم، وشَرُف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم، وصار سيد قريش، والمقدَّم من أشرافها.

وقد لقي عبدالمطلب في القيام بهذين المنصبين، ولا سيما السقاية شيئاً غير قليل من المشقة، فقد كان إلى يومئذ وليس له من الأبناء إلا الحارث، وكانت سقاية الحاج يؤتى بها منذ نضبت زمزم من آبار عدة مبعثرة حول مكة، فتوضع في أحواض إلى جوار الكعبة، وكانت كثرة الولد عوناً على تيسير هذا العمل، والإشراف عليه، فلذلك كان عبدالمطلب في هم وتفكير دائم في هذا الأمر.

وبينما هو على هذا رأى رؤيا كانت سبب الفرج بعد الكرب، واليسر بعد العسر، وعادت (زمزم) كما كانت عيناً ثرَّة يشرب منها الحجيج، وكان عبدالمطلب يشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم، وربما يخلط الماء باللبن، أو العسل ويسقي أضياف الله.

السقاية بعد عبدالمطلب

ولما مات عبدالمطلب صارت السقاية إلى أبي طالب، ثم اتفق أن أملق في بعض السنين، فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف إلى الموسم الآخر، وصرفها أبو طالب في السقاية، فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شيء، فاستسلف أخاه أربعة عشر ألفاً أخرى، فقال له العباس بشرط إن لم تعطني تترك لي السقاية أكفيكها، فقال: نعم، وجاء العام المقبل ولم يكن مع

أبي طالب شيء، فأخذها العباس، ثم صارت من بعده إلى ولده عبدالله، ثم إلى علي بن عبدالله، ثم إلى داود بن علي، ثم إلى سليمان بن علي، ثم إلى عيسى بن علي، ثم أخذها المنصور واستناب عليها مولاه أبا رزين[1]، وبتوالي العصور ذهبت هذه المفاخر واندرست.

* * *

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٤٧، ٢٤٨.

رؤيا عبدالمطلب في شأن زمزم

روى ابن إسحاق في سيرته بسنده عن علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ أنه كان يحدث حديث زمزم حين أُمر عبدالمطلب بحفرها قال: قال عبدالمطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آتٍ(١) فقال: احفر طيبة(٢). قال: قلت: وما طيبة؟! فقال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر بَرَّة(٣). قال: قلت: وما برة؟! قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة(٤). قال: قلت: وما المضنونة؟! قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني، فقال: احفر زمزم، قال: قلت: وما زمزم؟! قال: لا تنزف(٥) أبداً، ولا تذم(٦)، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم(٧)، عند نقرة الغراب الأعصم(٨)، عند قرية النمل(٩).

---

(١) يعني في المنام.

(٢) لأنها للطيبين والطيبات من ذرية إبراهيم.

(٣) لأنها فاضت على الأبرار، وغاضت عن الفجار، ولأن برها كثير لا ينقطع.

(٤) لأنها ضُنَّ بها على غير المؤمنين، فلا يتضلَّع منها منافق.

(٥) لا يفرغ ماؤها، ولا يلحق قعرها.

(٦) لا توجد قليلة الماء من قولهم: بئر ذمة أي قليلة الماء وليس المراد ضد المدح لأن المنافقين وأرقاء الإيمان يذمونها.

(٧) تشبيهاً لها باللبن كما قال تعالى: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ الآية ٦٦ من سورة النحل. ويقال: بل كان هناك في موضعها فرث ودم.

(٨) الذي إحدى رجليه بيضاء.

(٩) قال السهيلي: «أما قرية النمل أيضاً ففيها من المشاكلة والمناسبة أن زمزم هي عين مكة التي يردها الحجيج، والعمَّار من كل جانب، فيحملون إليها البر والشعير وغير ذلك، =

عثور عبدالمطلب على زمزم

فلما بيَّن له شأنها، ودلَّ على موضعها، خرج بمعوله، ومعه ابنه الحارث، وليس له ولد غيره يومئذ، فحفر فيها، فلما بدا لعبدالمطلب الطي[1] كبَّر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه، فقالوا: يا عبدالمطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً، فأشركنا معك فيها، قال: ما أنا بفاعل!! إن هذا الأمر قد خُصصت به دونكم، قالوا: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد هُذَيم، قال: نعم وكانت بأشراف الشام، فركب عبدالمطلب ومعه نفر من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، والأرض إذ ذاك مفاوز، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق فني ماء عبدالمطلب وأصحابه حتى كادت أعناقهم تنقطع من العطش، وضن عليهم بنو قومهم من قريش بالماء، وقالوا: إنا بمفاوز وإنا لنخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فرأى عبدالمطلب أن يحفر كل واحد لنفسه قبره، ففعلوا، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى.

ثم بدا لعبدالمطلب، فقال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا الماء لَعَجْز، فعسى أن يرزقنا الله ماء ببعض البلاد فارتحلوا، حتى إذا بعث عبدالمطلب راحلته انفجرت عين ماء عذب من تحت خفِّها، فكبَّر عبدالمطلب، وكبَّر أصحابه، ثم نزل فشرب وشربوا، وملأوا أسقيتهم، ثم دعا قريشاً، فقال: هلمُّوا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاؤا، وشربوا، واستقوا ثم قالوا: قد ـ والله ـ قضي لك علينا يا عبدالمطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك الماء بهذه الفلاة

= وهي لا تحرث، ولا تزرع، وقرية النمل لا تحرث، ولا تبذر، وتجلب الحبوب إلى قريتها من كل جانب»، قال الزرقاني في «شرح المواهب»: «وأطال: يعني الإمام السهيلي في الروض في وجه تأويل هذه الرؤيا بما يحسن كتبه بالعسجد». (شرح المواهب، ج ١ ص ١١٢).

(١) الحجارة التي غطي بها البئر.

لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلُّوا بينه وبينها.

وفي رواية أخرى أن عبدالمطلب لما رأى رؤياه غدا ومعه ابنه الحارث إلى حيث وصف له مكانها، فوجد قرية النمل، ووجد الغراب الأعصم ينقر عندها بين الوثنين: إساف، ونائلة، فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أُمر، فقامت إليه قريش، وقالوا: والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما، فقال عبدالمطلب لابنه: ذُدْ عَنِّي حتى أحفر، فوالله لأمضين لما أُمرت، فلما عرفوا أنّه جادٌّ خلّوا بينه وبين الحفر، فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطي فكبر، وعرف أنه صُدق.

فلما تمادى به الحفر وجد غزالين من ذهب، ووجد الأسياف والأدرع، فقالت له قريش: لنا معك في هذا شرك. فقال: لا، ولكن هلمَّ إلى أمر نَصَف بيني وبينكم، نضرب عليها القداح[1]، قالوا: وكيف تصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين، ولي قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له، ومن تخلَّف قدحاه فلا شيء له، قالوا: أنصفت، فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبدالمطلب، وقدحين أبيضين لقريش، ثم أعطوا القداح لسادن هُبَل، وقام عبدالمطلب يدعو الله عز وجل، فضرب صاحب القداح، فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبدالمطلب، وتخلَّف قدحا قريش، فضرب عبدالمطلب الأسياف باباً للكعبة، وضرب الغزالين حلية للباب، فكان أول ذهب حليت به الكعبة، ثم أقام عبدالمطلب سقايتها للحاج، فكانت له عزاً وفخراً على قريش، وعلى سائر العرب، وقد ذكر عنه أنه قال: إني لا أحلها لمغتسل، وهي لشارب حل وبل[2].

---

(١) جمع قدح بكسر القاف وهو السهم من الخشب الذي كانوا يستقسمون به.

(٢) في القاموس: والبل ـ بالكسر ـ الشفاء والمباح، ويقال: حل وبل، وهو إتباع يعني بمعنى حل.

تعفية زمزم على جميع الآبار

وكانت قريش لما طُمّت زمزم حفرت أبياراً بمكـة، فحفر هـاشم بن عبد مناف بئراً عند فم شِعْب أبـي طالب، وحفر عبد شمس بن عبد مناف بئراً بأعلى مكة، وحفر أمية بن عبد شمس بئراً لنفسه، وحفر بنو أسد بن عبدالعزَّى بئراً، وحفر بنو عبدالدار بئراً، وبنو جُمَح بئراً، وبنو سَهْم بئراً، وهكذا.

فلما أعاد عبدالمطلب حفر زمزم عَفَت على الآبار التي كانت قبلهـا، وانصرف الناس إليها لمكانها من المسجد الحرام، ولفضلها على ما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

فضـــل زمزم

وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرة فمنها: ما رواه مسلم في صحيحه في قصة إسلام أبـي ذر ــ رضي الله عنه: «إنها طعامُ طُعْم»[1] ورواه أبو داود الطيالسي مرفوعاً بزيادة: «طعامُ طُعْمٍ، وشفاء سُقْم» وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شُرب له» ورواه سويد بن سعيد وهو ضعيف وروى الدارقطني والحاكم وصحَّحه عن ابن عباس عن النبـي ﷺ: «ماء زمزم لما شُرب له: إن شربته لتستشفي شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وهي هزمة[2] جبريل، وسقيا الله إسماعيل»، ومهما يكن من شيء فقد صحح الحـافظ الدمياطي ــ وهو من الحفاظ المتأخرين المتقنين ــ حديث: «ماء زمزم لما شُرب له» وأقره الحافظ العراقي[3].

وروى ابن ماجه والحاكم عن ابن عباس أنه قال لرجل: «إذا شربت من

---

(١) مشبع.

(٢) هزمة أو همزة: أثر ضربته في الأرض بعقبه، أو بجناحه.

(٣) مقدمة ابن الصلاح وشرحها، للحافظ العراقي، ص ١٣.

زمزم فاستقبل القبلة، واذكر اسم الله، وتنفّس ثلاثاً[1] وتضلّع منها[2]، فإذا فرغت فاحمد الله، فإن رسول الله ﷺ قال: «إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم»[3].

ولن تجد أحلى، ولا أهنأ من ماء زمزم حين تخرج من البئر، وأقرب ما تكون في هذه الحالة إلى اللبن الحليب قريب العهد بثديه، وتبريدها أو تبخيرها يخرجها عن طبيعتها المستساغة، وفوائدها الصحية والغذائية معروفة بالتجربة، ولكن لا بد أن يصاحب شربها حسن الاعتقاد في فوائدها، وإلا فلا يستفيد شاربها منها، لأن المعروف أن من يشرب الشراب وهو له كاره، أو معتقد عدم جدواه لن يشعر بفائدته، وهذا هو السبب في أن البعض يعاف ماء زمزم، ولا يستسيغها، ولا يستفيد منها.

وأشهد الله أني ما عافتها نفسي قط، وقد تضلّعت منها مراراً وتكراراً، ولا سيما وهي خارجة من بئرها، وأني ما استفدت في تنظيم جهازي الهضمي بشيء مثل ما استفدت منها، وصدق رسول الله: «إنها طعامُ طُعْمٍ، وشفاء سُقْم».

* * *

---

(١) يعني خارج الإناء، والمراد أن يشرب على ثلاث مرات، فقد ورد نهي النبي ﷺ عن التنفس في الإناء.

(٢) أي اشرب منها حتى ترتفع أضلاعك كناية عن الشرب الكثير.

(٣) البداية والنهاية، ج ٢ ص ٢٤٧.

نذر عبدالمطلب ذبح أحد أولاده

قد علمت آنفاً ما لقيه عبدالمطلب من قريش من عَنَت وتعسف حين أعاد حفر زمزم، لقلة من يمنعه من ولده آنذاك، حتى قال بعضهم له: «يا عبدالمطلب أتستطيل علينا وأنت فذ، لا ولد لك!!».

فحز ذلك في نفس عبدالمطلب فنذر لله سبحانه: لئن ولد له عشرة بنين، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرنَّ أحدهم عند الكعبة!!.

فلما بلغ بنوه عشرة[1]، وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم، ثم أخبرهم

(١) وقيل: إنهم تكاملوا عشرة بعد حفر زمزم بثلاثين عاماً، كما رواه ابن سعد، والبلاذري وهم:
١ ــ الحارث: أكبرهم. وأمه صفية بنت جندب.
٢ ــ والزبير: بفتح الزاي، وقيل: بضمها. وأمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية.
٣ ــ حجل: بتقديم الحاء المهملة على الجيم، وقيل بالعكس. وأمه هالة بنت وهيب.
٤ ــ وضرار: وهو شقيق العباس.
٥ ــ والمقوم: على صيغة اسم الفاعل أو المفعول. وأمه هالة.
٦ ــ وأبو لهب عبدالعزى: وأمه آمنة بنت هاجر.
٧ ــ والعباس: وأمه نتلة، وقيل نتيلة ــ بالتصغير.
٨ ــ وحمزة: وأمه هالة بنت وهيب.
٩ ــ ١٠ ــ وأبو طالب، وعبدالله: وأمهما فاطمة بنت عمرو المخزومية. فيكون الزبير وأبو طالب وعبدالله إخوة أشقاء، ولعبدالمطلب ست بنات، عمات النبي ﷺ وهنَّ: صفية، وأم حكيم البيضاء، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبرة.

بنذره، وقيل: إنه رأى رؤيا تذكره بنذره[1]، ودعاهم إلى الوفاء فأطاعوه، وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً، ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني، ففعلوا، ثم أتوه، فدخل على هُبَل في جوف الكعبة، وقال لصاحب القداح: اضرب على بَنِيَّ هؤلاء بقداحهم، وأخبره بنذره الذي نذر، ففعل الرجل.

خروج القدح على عبدالله

وكان عبدالله أحب ولد عبدالمطلب إليه، وكان يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أشوى[2]، فلما أخذ سادن هُبَل القداح ليضرب بها قام عبدالمطلب يدعو الله، فضرب الرجلّ فخرج القدح على عبدالله، فهم عبدالمطلب بذبحه، فقام إليه أخوال عبدالله من بني مخزوم فقالوا: والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه، وقالت له قُريش: لا تفعل ــ خشية أن تكون سُنّة، وأشاروا عليه أن ينطلق إلى المدينة، فإن بها عرَّافة ــ كاهنة ــ لها تابع[3] فسَلْها، ثم أنت على رأس أمرك: إن أمرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتكَ بأمر لك وله فيه فرج قبلته.

فداء عبدالله بمائة من الإبل

فانطلقوا حتى أتوا المدينة، فوجدوا العرَّافة بخيبر فركبوا إليها. فلما قصَّ عليها عبدالمطلب قصته استمهلتهم إلى الغد، ولما عادوا إليها في اليوم التالي قالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرة من الإبل، قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قرِّبوا صاحبكم، وقرِّبوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا عليه وعليها القداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا عشراً حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه، فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم.

---

(١) شرح المواهب، ج ١ ص ١١٤.
(٢) أي أبقى ما يرضي نفسه.
(٣) مخبر من الجن.

فلما رجعوا قرَّبوا عبدالله وعشراً من الإبل، فخرج على عبدالله، فزادوا عشراً، فخرجت على عبدالله!! وما زالوا يضربون ويزيدون حتى بلغت الإبل مائة، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل، فقالت قريش: لقد رضي ربك يا عبدالمطلب، فقال: لا، حتى أضرب عليها بالقداح ثلاثاً، ففعل، وفي كل مرة يخرج القدح على الإبل، ثم نُحرت وتركت، لا يُصد عنها إنسان، ولا طير ولا سبع.

وهكذا شاء الله ــ عز وجل ــ أن يكون هذا الفداء كرامة للنسمة المباركة التي ستخرج من ظهر عبدالله بن عبدالمطلب، وإرهاصاً بين يدي المولود الذي لا يزال في ضمير الغيب.

وقد ترك حادث الذبح والفداء للفتى الهاشمي عبدالله دوياً في المجتمع القرشي، بل في المجتمع العربي كله، وأصبح ذكره على كل لسان، وقصته سمراً في كل بيت.

* * *

الفَصْلُ الرَّابِع
زَوَاجُ عَبْدِاللهِ بِآمِنَـة

ها هو ذا عبدالله بن عبدالمطلب وقد رضي عنه الإله، وعظم فيه الفداء قد أصبح ملء الأسماع والأبصار، وقد كان عبدالله شاباً، نسيباً، جميلاً، وسيماً، غض الإهاب، قوي البنيان، فلا عجب أن غدا مطمع الآمال، وغاية الأماني، من الغيد الكواعب الحسان، من شريفات قريش، أن يصرن زوجاً له[1] حتى برَّح بهن الهوى والحب.

فرأى أبوه عبدالمطلب ــ شريف مكة وسيدها ــ أن يزوجه بكراً من كرائم البيوتات القرشية، وفكَّر الشيخ ثم فكر، حتى هداه تفكيره ــ وهو العارف بالأعراق والأحساب ــ إلى فتاة بني زُهرة آمنة بنت وَهْب، بن عبدمناف، بن زُهرة[2]، بن كلاب، بن مرة، فأخذ بيد عبدالله، وذهب به حتى أتى منازل بني زُهرة، ودخل وإياه دار وَهْب بن عبدمناف الزهري، وهو يومئذ سيد بني زُهرة نسباً وشرفاً، فزوجه ابنته آمنة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً،

---

(١) روي عن العباس ــ رضي الله عنه ــ: «أنه لما بنى عبدالله بآمنة أحصَوا مائتي امرأة من بني مخزوم، وبني عبدمناف متن ــ يعني كدن أن يمتن حسرة ــ ولم يتزوجن أسفاً على ما فاتهن من عبدالله، وأنه لم تبق امرأة من قريش إلا مرضت ليلة دخل عبدالله بآمنة» (شرح المواهب ج ١، ص ١٣٤).
ومهما يكن من أمر الرواية، أو المبالغة فيها، فهذا أمر معهود في البشر يحدث كل يوم، وسَلِ الأسر في القرى والمدن إذا تزوج ابن مرموق مشهور من غير بنات الأسرة أو القرية ــ تعلم الحقيقة.

(٢) زُهرة: بضم الزاي وسكون الهاء، اسم رجل لا اسم امرأة هي أمه كما زعم ابن قتيبة.

وموضعاً[1] وبنى عبدالله بآمنة، وبقي في بيت أبيها ثلاثة أيام على عادة العرب في ذلك، حتى كان اليوم الرابع انتقل بها إلى منازل بني عبدالمطلب، وعاش الفتى المرموق المحبوب المرضي عليه من الإله، والفتاة الوادعة الجميلة الشريفة أياماً معدودات ــ لم تتجاوز عند جمهرة المؤرخين عشرة أيام ــ وقد شاء الله أن تكون الأيام العشرة هي عمر الحياة الزوجية في هذا الزواج المبارك.

تعرض بعض النساء لعبدالله

وقد ذكر ابن إسحاق أنه لما انصرف عبدالله مع أبيه قاصدين دار بني زُهْرة مرّا على امرأة من بني أسد بن عبدالعزّى، وهي عند الكعبة، قيل اسمها قُتَيلة[2]، وهي أخت ورقة بن نوفل، فنظرت إلى وجه عبدالله فوجدت فيه نوراً يتلألأ، فقالت له: لك مثل الإبل التي نحرت عنك، وَقَعْ علي الآن[3]، فقال: أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه، ولا فراقه. وقيل في المرأة التي عرضت نفسها عليه أنها فاطمة بنت مرّ الخثعمية، وكانت من أجمل النساء وأعفهن، وكانت رأت نور النبوة في وجه عبدالله، وكانت ممن قرأ الكتب القديمة، فقالت له: يا فتى هل لك أن تقع علي الآن، وأعطيك مائة من الإبل، فأبى.

ويروى أن عبدالله قال حين عرضت عليه المرأة نفسها:

أما الحرام فالحِمام[4] دونه ... والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه

وفي الحق أني في شك من هذا العرض، فالبيئة العربية ما كانت تسمح بهذا العرض، وكأنّ بعض العلماء شعر بما شعرت به، ففسَّر عرض نفسها عليه بأنها عرضت عليه الزواج بها، ولكن البيتين المذكورين لا يلتقيان مع قصد الزواج، والوقوع عليها في الحلال!! فالله أعلم بصحة هذه القصة.

---

(١) نسباً: من جهة الأب، وموضعاً من جهة الأم.
(٢) وقيل: اسمها رقية.
(٣) قالوا: يعني على سبيل الزواج.
(٤) وفي رواية: فالممات والمعنى واحد.

حمل السيدة آمنة بالنبي

وفي هذه الأيام المعدودة حملت السيدة الشريفة آمنة بسيد هذه الأمة، وقد ادخرها القدر لأعظم أمومة في التاريخ، وتوالت عليها الرؤى والبشريات بجلال قدر هذا الجنين، فرأت فيما يرى النائم حين حملت به أنه خرج منها نور أضاء الأرض، وبدت منه قصور بصرى من أرض الشام، فقد روى أبو نعيم في «الدلائل» وابن سعد في «الطبقات» أن آمنة قالت: «رأيت كأنه خرج مني شهاب أضاءت له الأرض، حتى رأيت قصور الشام»، وما كانت هذه الرؤيا ومثيلاتها ليخفى تأويلها على السيدة آمنة، وهي من هي ذكاءً وفطنة، فقد فهمت أن من حملت به سيملأ الأرض نوراً وضياء، وهدىً ورحمة، وسيكون له شأن وذكر.

وفاة عبدالله بن عبدالمطلب

ولم يطل المقام بالفتى الشاب عبدالله مع زوجته آمنة بنت وَهْب، فقد خرج في تجارة إلى الشام وترك الزوجة الحبيبة، وما دَرَى أنها علقت بالنسمة المباركة، وقضى الزوج المكافح مدة في تصريف تجارته، وهو يعدُّ الأيام كي يعود إلى زوجته فيهنأ بها، وتهنأ به، وما إن فرغ حتى عاد، وفي أوبته عرَّج على أخوال أبيه عبدالمطلب وهم بنو النجار بالمدينة، فاتفق أن مرض عندهم، فبقي وعاد رفاقه، ووصل الركب إلى مكة، وعلم منهم عبدالمطلب بخبر مرضه، فأرسل أكبر بنيه: الحارث ليرجع بأخيه بعد إبلاله، وما إن وصل الحارث إلى المدينة حتى علم أن عبدالله مات، ودفن بها في دار النابغة من بني النجار، فرجع حزين النفس على فقد أخيه، وأعلم أباه بموت الغائب الذي لا يؤوب، وأثار النبأ الموجع الأحزان في نفس الوالد الشيخ المفجوع في فقد أحب أولاده إليه، وألصقهم بنفسه، وأثار الأسى والحسرة في نفس الزوجة التي كانت تحلم بأوبة الزوج الحبيب الغالي، وتشتاق إليه اشتياق الظمآن في اليوم الصائف القائظ إلى الشراب العذب الحلو البارد، وتبدَّد ما كانت تعلِّل به نفسها من سعادة وهناءة في كنف الزوج الفتى الوسيم، والذي كان مشغلة المجتمع القرشي والعربي حيناً من الزمان، فما مثله من فتى، وما مثله من زوج!!

ولم يكن للجنين عند فقد الأب إلا شهران، وهذا الذي ذكرنا، من أن عبدالله مات، والنبي لا يزال حملاً في بطن أمه، هو الذي ذكره شيخ كتاب السيرة ابن إسحاق، وتابعه عليه ابن هشام، وهو الرأي المشهور بين كتاب السير والمؤرخين، وكان عمر عبدالله حينذاك ثماني عشرة سنة[١].

ويرى بعض العلماء أن والد النبي ﷺ توفي بعد ميلاده وهو لا يزال في المهد، قيل: ابن شهرين، وقيل: أكثر من ذلك، والأول هو الراجح، وإن قال السهيلي: إن الرأي الثاني قول أكثر العلماء.

وترك عبدالله لابنه الجنين: خمسة من الإبل، وقطيعاً من الغنم، وجارية هي أم أيمن بركة الحبشية حاضنته فيما بعد، وهذه الثروة، وإن لم تكن مظهر ثراء وسعة، فهي كذلك لم تكن مظهر فقر ومَتْربة.

رثاء آمنة لعبدالله

وروي أن عبدالله لما توفي قالت السيدة آمنة ترثيه:

عفا جانب البطحاء من آل هاشم ... وجاور لحداً خارجاً في الغمائم[٢]
دعته المنايا دعوة فأجابها ... وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره[٣] ... تعاوره أصحابه في التزاحم
فإن تك غالته المنون وريبها ... فقد كان معطاء كثير التراحم

رؤيا لعبدالمطلب

روى أبو نعيم بسنده قال: قال عبدالمطلب: «بينا أنا نائم في الحِجْر إذ رأيت رؤيا هالتني، ففزعت منها فزعاً شديداً، فأتيت كاهنة قريش فقلت لها: إني رأيت الليلة كأن شجرة نبتت قد نالت رأسها السماء، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب، وما رأيت نوراً أزهر منها أعظم من نور الشمس سبعين

(١) وهو الذي صححه الحافظ العلائي، والحافظ ابن حجر، واختاره السيوطي (شرح المواهب ج ١، ص ١٣١).
(٢) هي الأغطية، والمراد بها الأكفان التي لُفَّ فيها.
(٣) هو النعش الذي يحمل عليه الميت.

ضعفاً. ورأيت العرب والعجم لها ساجدين، وهي تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً، ساعة تخفى، وساعة تظهر.

ورأيت رَهْطاً من قريش قد تعلّقوا بأغصانها، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها، فإذا دنَوا منها أخذهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً، ولا أطيب منه ريحاً، فيكسر أظهرهم، ويقلع أعينهم، فرفعت يدي لأتناول منها نصيباً، فلم أنل، فقلت: لمن النصيب؟ فقال: النصيب لهؤلاء الذين تعلّقوا بها وسبقوك.

فانتبهت مذعوراً، فرأيت وجه الكاهنة قد تغيّر، ثم قالت: لئن صدقتْ رؤياك ليخرجنَّ من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب، وتدين له الناس.

فقال عبدالمطلب لأبي طالب: لعلك أن تكون هو المولود، فكان أبو طالب يحدّث بهذا الحديث والنبي ﷺ قد خرج[1]، ويقول: كانت الشجرة ــ والله ــ أبا القاسم الأمين، فيقال له: ألا تؤمن؟ فيقول: السبة والعار[2].

وحكاها بعضهم[3] على وجه آخر قال: زعموا أن عبدالمطلب رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهلُ المشرق والمغرب يتعلّقون بها. فقصَّها، فعُبِّرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق، ويحمده أهل السماء، وأهل الأرض.

قصة الفيل

هي قصة مشهورة أرَّخ بها العرب لدلالتها على مزيد عناية الله تعالى ببيته، ذلك أن أبرهة الحبشي لما غلب على بلاد اليمن، ورأى الناس يقصدون

(١) أي بعث.
(٢) أي أخشى السبة والعار أو يمنعني.
(٣) هو علي القيرواني العابر في كتابه «البستان».

زرافات، ووحداناً، ورجالاً وركباناً ــ الكعبة البيت الحرام قال: إلامَ يقصدون؟ قالوا له: إلى الكعبة بمكة يحجون، قال: وما هو؟ قالوا له: بيت من الحجارة، قال: وما كسوته؟ قالوا: ما يأتي ههنا من الوصائل[1]، قال: لأبنينَّ خيراً منه.

فبنى لهم كنيسة بصنعاء تفنَّن في بنائها، وتزيينها، وسماها «القُلَّيْس»[2] قاصداً صَرْف العرب عن الكعبة، ولكن أعرابياً عمد إليها فتغوَّط فيها، فلما علم أبرهة استشاط غضباً، وعزم على هدم الكعبة، وسار في جيش لَجب لا قِبَل لأهل مكة والعرب به، وقد تعرض له في الطريق بعض قبائل العرب، ولكنه تغلب عليهم، وعند مشارف مكة وجدوا إبلاً لعبدالمطلب بن هاشم، فاستاقوها، فذهب عبدالمطلب إليه، وكان وسيماً جميلاً تعلوه المهابة والوقار، فاستعظمه أبرهة، وأكرمه، فلما كلَّمه في الإبل عجب وقال له: أتكلمني في الإبل، ولا تكلمني في بيت فيه عزك، وشرفك، وشرف آبائك؟! فقال عبدالمطلب هذه الكلمة التي سارت مسير الأمثال: «أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه»[3]!!

ثم رجع عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال:

لاهُمَّ[4] إنَّ المرء يمنع ... رَحْله فامنع رحالكْ
وانصر على آل الصليب ... وعابديه اليوم آلكْ
لا يغلبنَّ صليبُهم ... ومِحْالهم[5] أبداً مِحالكْ
إن كنت تاركهم وقبلتنا ... فأمْرٌ ما بَدَا لكْ

---

(١) الوصائل هي ثياب مخططة يمانية، كانت تكسى بها الكعبة.
(٢) بضم القاف وفتح اللام المشددة، وسكون الياء، وقيل: بفتح القاف وكسر اللام.
(٣) رب الإبل: صاحبها ومالكها.
(٤) أصلها اللهمَّ، حذفت الألف واللام منها، واكتفي بالباقي.
(٥) المحال ــ بكسر الميم ــ القوة والشدة.

ثم أرسل حلقة البيت وانطلق هو ومن معه من قريش إلى الجبال ينظرون ما أبرهة فاعل بالبيت، وكان في جيش أبرهة فيل عظيم، فصار كلما وجَّهوه إلى الطريق المؤدِّي إلى مكة أبَـى وبرك، وإذا وجَّهوه إلى غير طريق مكة سار وجرى، ومع هذه الآية أصر أبرهة وجيشه على هدم الكعبة، فما كان إلا أن أرسل الله عليهم طيراً أبابيل[1]، في مناقيرها وأرجلها حجارة صغار، فصارت ترميهم بهذه الحجارة، وليس كلهم أصابت، فكان من صادفه حجر تمزَّق جسمه ومات، وخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، ونكَّل الله بأبرهة وجيشه شر تنكيل، وقد ذكر الله سبحانه هذه القصة في سورة الفيل قال:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ [2] ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ [3] ۝٥ ﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلّط عليها رسوله والمؤمنين»[4].

فهي لـمَّا أراد بها أبرهة وجنده سوءاً أهلكهم الله، ولـمَّا أراد رسول الله ﷺ وأصحابه بفتحها خيراً أُعينوا ونُصروا، وقد كانت هذه الآية إرهاصاً بين يدي ميلاد نبينا محمد ﷺ، ودلالة على يُمْنه، وخيره، وبركته.

---

(١) جمع إبيل أو إبول أي جماعات جماعات، وقيل: لا واحد له من لفظه.
(٢) سجيِّل: الطين المحروق بالنار قيل: إنه فارسي معرب.
(٣) العصف المأكول: هشيم الزرع بعد ما يؤخذ منه الحب كالقمح مثلاً.
(٤) رواه الشيخان.

المشككون في القصة

ويشكك بعض المستشرقين[1] ومن نهج نهجهم من الكتاب المسلمين[2] في هذه القصة، مع ثبوتها بالتواتر المفيد للقطع واليقين بإجماع أهل الملل والعقول، ويقولون إن هلاك الجيش كان بسبب انتشار مرض الجدري في الجيش، واعتمدوا على خبر ذكره ابن إسحاق بعد ما ذكر القصة على ما وردت في الكتاب الكريم، قال: حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث: «أن أول ما رُئِيَتْ الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام»[3].

وليس فيما ذكره ما يدل على أن هلاكهم كان بهذا، وإلا لما ذكر ابن إسحاق القصة المعتمدة أولاً في بضع صفحات، ولم لا تكون الحصبة والجدري كانتا بسبب ما أصابهم من الجراح، والتنكيل، والقيح، والصديد في هذا الجزء من شبه الجزيرة، كما هو مشاهد ومعروف من انتشار بعض الأمراض والأوبئة عقب الحروب والجوائح؟! بل لم لا يكون هذا أمراً اتفاقياً حدث بعد حادث الفيل؟! ولو سلمنا بأن هذا رأي لقائله، فكيف يرجّح رأي ضعيف يعارض ظاهر القرآن على رأي صحيح يشهد له ظاهر القرآن؟!

الحق أن هذا التشكيك ليس له ما يبرره، أما إنكار ما قصه القرآن، وقد كان من المشهورات المسلمات عند العرب، واستعظامه على قدرة الله سبحانه وتعالى، فأثر من ضعف الإيمان واليقين، ولوثة سرت إلى البعض من المستشرقين والمبشّرين.

* * *

---

(١) حياة محمد لدرمنغم ص ٣٥ ترجمة د. عادل زعيتر.

(٢) حياة محمد ورسالته لمحمد علي ص ٥٦، ١٥٨ مع أنه ذكر السورة، ودائرة معارف القرن العشرين ج ٦، ص ٢٥٦ لفريد وجدي، فقد جوَّز حملها على غير ظاهرها، وأن المراد بها المجاز والتمثيل.

(٣) السيرة ج ١، ص ٥٤.

البَابُ الثَانِي
مِنَ المِيـلَادِ إِلَى البِعْثَـةِ النَّبَوِيَّةِ

الفصل الأول : الميلاد.
الفصل الثاني : الرضاع.
الفصل الثالث : النبيّ في كفالة أمه، ثم جده، ثم عمه.
الفصل الرابع : زواج النبي ﷺ بخديجة.
الفصل الخامس: تجديد قريش بنيان الكعبة.
الفصل السادس: حياة النبي ﷺ قبل البعثة.
الفصل السابع : حالة العالم قبل البعثة.
الفصل الثامن : البشارة بالنبيّ في الكتب السماوية السابقة.

الفَصل الأوّل
المِيـــلادُ

وتقدمت أشهر الحمل بالسيدة الشريفة آمنة بنت وهب، وهي تترقب الوليد الذي لم تجد في حمله وهنا، ولا ألماً، وهتف بها هاتف قائلاً: «إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع على الأرض فقولي:

«أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، وسميه محمداً».

وبلغ الكتابُ أجلَه، وبعد تسعة أشهر أذن الله للنور أن يسطع، وللجنين المستكن أن يظهر إلى الوجود، وللنسمة المباركة أن تخرج إلى الكون، لتؤدي أسمى وأعظم رسالة عرفتها الدنيا في عمرها الطويل.

ففي صبيحة اليوم الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل[1]، الموافق سنة سبعين وخمسمائة من ميلاد السيد المسيح، حيث بدأ الصبح يتنفس، وآذن نور الكون بالإشراق، افتر ثغر الدنيا عن مُصاصة البشر[2]، وسيد ولد آدم، وأكرم مخلوق على الله: سيدنا محمد بن عبدالله.

ولما وضعته السيدة والدته خرج معه نور أضاء ما بين المشرق والمغرب، حتى رأت منه قصور بصرى بالشام، ووقع جاثياً على ركبتيه، معتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها. روى

---

(١) هذا الذي ذكره ابن إسحاق وهو المشهور، وقيل: ولد لليلتين خَلَتا من ربيع الأول، وقيل: لتسع ليال، وكذلك اختلف في سنة ميلاده الميلادية فقيل ما ذكرنا، وقيل سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وهو الذي رجحه محمود باشا الفلكي.

(٢) يقال: فلان مُصاص قومه، إذا كان أخلصهم نسباً.

محمد بن سعد من حديث جماعة منهم: عطاء بن أبـي رباح، وابن عباس، أن آمنة بنت وَهْب قالت: «لما فَصَل مني ــ تعني النبـي ــ خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع على الأرض جاثياً على ركبتيه، معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب، فقبضها، ورفع رأسه إلى السماء»[1].

وروى الإمام الجليل أحمد بن حنبل، والبزار، والطبـراني، والحاكم، والبيهقي عن العرباض بن سارية السلمي ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: «إني عند الله لخاتم النبيين[2]، وإن آدم لمنجدلٌ في طينته، وسأخبركم عن ذلك: أنا دعوة أبـي إبراهيم، وبشـارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت[3]، وكذلك أمهات النبيين يرين»[4]، وإن أمَّ رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام، وفي رواية ابن إسحاق: «أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام».

موضع ولادته

وكانت ولادته ﷺ في دار أبـي طالب بشِعْب بني هاشم[5]، وكانت قابلته

---

(١) أما النور فنور النبوة والرسالة، وأما الجُثي على ركبتيه فإشارة إلى شدة تواضعه لربه، وتواضعه للخلق، وأما الاعتماد على يديه فإشارة إلى أنه لن ينشأ مدللاً كسلان كما هو شأن أبناء الملوك والأشراف، وإنما سيعتمد من صغره على الله ثم على نفسه، وأما أخذه قبضة من التراب فإشارة إلى أن الأرض منها البدء، وإليها الإعادة، ومنها الإخراج للبعث، وأنه سيغلب أهل الأرض، وأما رفع رأسه إلى السماء فإشارة إلى عظم توكله على ربه، وإلى ارتفاع شأنه وقدره، وسمو غايته وسؤدده، وأنه يسود الخلق أجمعين.

(٢) أي في علمه وتقديره الأزلي.

(٣) هذه الرؤية بصرية، وقد وردت بهذا المعنى في أفصح الكلام ومعجزه، وهي غير الرؤيا التي رأتها في مبدأ الحمل، فتلك كانت منامية (شرح المواهب، ج ١ ص ١٣٦).

(٤) قال الحافظ ابن حجر: وصحَّحه ابن حِبان والحاكم.

(٥) وقد صارت هذه الدار إلى محمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج، ذلك أن عقيل بن أبـي طالب باع دور من هاجر من بني هاشم، ومنها هذه الدار، وقد أدخلها محمد بن يوسف هذا في داره التي يقال لها: البيضاء، ولم تزل كذلك حتى حجت الخيزران أم الرشيد، فأفردت ذلك البيت وجعلته مسجداً، وقيل: إن التي بنته هي السيدة زبيدة =

الشفاء أم عبدالرحمن بن عوف، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه ﷺ، ولد مسروراً مختوناً[1]، واستدلوا على هذا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كرامتي على ربي أني ولدت مختوناً، ولم ير أحد سوأتي»[2] وورد عن ابن عمر أنه قال: «ولد النبي ﷺ مسروراً مختوناً»[3].

وقد ضعَّف جماعة من العلماء هذه الأحاديث كالعراقي، وابن القيم في «زاد المعاد» وقال: ليس هذا من خصائصه، لأن كثيراً من الناس ولد مختوناً، وقد عدهم صاحب المواهب.

ولقد نعمت الأم التي ترملت في شبابها بالوليد الجميل، المشرق الجبين، الذي ملأ البيت من حولها نوراً وسروراً، ورأت فيه السلوى عن الحبيب الغالي الذي تركه لها وديعة في ضمير الغيب ثم مات، وما إخالها إلا ذرفت الدمع سخيناً، أن لم ير الأب الشاب هذا الوليد الذي يملأ العيون جمالاً وبهاء، والقلوب محبة.

إخبار جده عبدالمطلب

وكان أول ما فعلته السيدة آمنة أن أرسلت إلى جده تبشره بميلاد الحفيد ابن الحبيب، وجاء الجد فرحاً مسروراً، وضمَّه إلى صدره ضمات خفق لها قلبه، وخفَّفت من لوعة الحزن على الحبيب المغيَّب في ثرى المدينة، وذهب به إلى الكعبة، فقام يدعو الله ويشكره على ما أنعم به عليه وأعطاه، وسماه (محمداً) ولم يكن هذا الاسم شائعاً عند العرب، ولا تسمَّى به إلا عدد جدُّ قليل، ولكن الله سبحانه ألهم جده ذلك إنفاذاً لأمره، وتحقيقاً لما قدَّره وذكره في الكتب

= زوجته حين حجَّت، وقد بقي هذا المسجد حتى هدم أخيراً وصار مكانه خالياً، وستقام فيه الآن مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم.

(١) مقطوع حبل السرة، ومقطوع القلفة.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم، وابن عساكر من طرق متعددة، وقد صححه الحافظ ضياءالدين المقدسي في كتابه «الأحاديث المختارة» مما ليس في الصحيحين، وتصحيحه أعلا من تصحيح الحاكم، وحسنَّه الحافظ مغلطاي.

(٣) رواه ابن عساكر.

السماوية التي بشرت به، ولما سئل جده عن سبب تسميته (محمداً) قال: أردت أن يحمده الله في السماء، ويحمده الناس في الأرض، ولعل السيدة آمنة أخبرت جده بما رأت في منامها فاتفق ما رأت وما رأى، ورجع شيخ مكة وشريفها، وهو يحمله بين يديه، لا تكاد تسعه نفسه من شدة الفرح فأسلمه إلى أمه.

احتفاء بني هاشم بالمولود

وفي اليوم السابع ــ كما هي عادة العرب ــ نحر الجدُّ الذبائح، وأقام الولائم شكراً لله، واحتفاءً بالوليد الذي رأى في حياته حياةً موصولة لابنه الغالي عبدالله، ومرآة صافية يرى في صفحتها المشرقة النيرة وجه عبدالله، كلما أهاجته الذكرى، وثار في نفسه الشَجَن، وقد شارك البيت الهاشمي في الغبطة بالوليد الجديد، فهذه ثُوَيْبة الأسلمية جارية أبـي لهب بن عبدالمطلب لما بشرت سيدها بميلاد ابن أخيه محمد أعتقها[1]، ورضي الله تبارك وتعالى عن سيدنا العباس فقد قال مادحاً النبـي:

وأنت لما ولدت أشرقت الأر ... ض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النـ ... ـور، وسبل الرشاد نخترق

ورحم الله أحمد شوقي أمير الشعراء في العصر الحديث حيث قال في همزيته:

ولد الهدى فالكائنات ضياءُ ... وفم الزمان تبسُّم وثناء
الروح، والملأ، الملائك حوله ... للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو، والحظيرة تزدهي ... والمنتهى والسِّدْرة العصماء
بك بشَّر الله السماء فزينت ... وتضوَّعت مِسْكاً بك الغبراء
يوم يتيه على الزمان صباحه ... ومساؤه بمحمد وضاء

---

(١) روي أن العباس بن عبدالمطلب رأى أخاه أبا لهب بعد موته بسنة، وذلك بعد بدر، فسأله عن حاله، فأجاب أبو لهب: في النار إلا أن العذاب خفف عني كل ليلة اثنين بماء أمصّه من بين أصبعي هاتين: السبابة والإبهام، وذلك أني أعتقت ثويبة حينما أخبرتني بولادة محمد.

ذعرت عروش الظالمين فزُلزلت وعلَت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم جمعت ذوائبها وغاض الماء
والآي تترى، والخوارق جمة جبـريـل روّاح بهـا غـدّاء

ما صاحب الميلاد من الآيات والعجائب

ومن الآيات والإرهاصات[1] التي صاحبت الميلاد ارتجاس إيوان كسرى، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته، فقد كان هذا إيذاناً بأنه لم يبق من ملوكهم إلا أربعة عشر[2]، وهذا ما كان، وصدَّقه التاريخ والواقع، وغاضت بحيرة ساوَه[3]، وخمدت نيران فارس التي كانوا يعبدونها، ولم تخمـد منـذ ألف عام[4].

وقد أسرف المؤلفون في السِيَر والمولـد والتاريخ في ذكر العجائب التي اقترنت بالميلاد، ومنها كلام الهواتف[5]، والجن، وفيها الكثير ممـا لم يصح، وما هو مختلَق، فأعرضت عن ذكر كل ذلك، واكتفيت بما هو ثابت، أو بعضه[6].

أسماء النبـي ﷺ

إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمَّى، ومبلغ تحلِّيه بالفضائل والآداب والخصائص والميزات، ولرسول الله صلوات الله وسلامه عليـه أسماء كثيـرة

(١) ما تقع بين يدي النبوة من الخوارق.
(٢) وقد ملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى سقوط دولتهم، وخضوعها للإسلام.
(٣) بسين مهملة بعدها ألف، وبعد الألف واو مفتوحة فهاء ساكنة: من بلاد فارس، كانت بحيرة كبيرة بين همذان وقم، وكانت ستة فراسخ طولاً وعرضاً، وتسير فيها السفن، ويسافر فيها الناس إلى ما حولها من البلدان. أما بحيرة طبرية فهي ببلاد الشام، وليست هي، وما قيل من أنها طبرية غير صحيح، فطبرية لا تزال إلى يومنا هذا، وما قيل: إنها نقص ماؤها ليلتئذ فهو تكلُّف.
(٤) رواه البيهقي، وأبو نعيم، والخرائطي في «الهواتف» وابن جرير، وابن عساكر كلهم من حديث مخزوم بن هانىء عن أبيه.
(٥) ما يسمع كلامه ولا يُرى.
(٦) انظر: شرح المواهب، ج ١ ص ١٤٢ وما بعدها.

أشهرها خمسة. ففي الصحيحين عن جُبير بن مُطْعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب».

وأشهر هذه الأسماء هما: محمد، وأحمد، وقد وردا في الكتاب الكريم قال تعالى:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾(1).

وقال:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴿١٤٤﴾ ﴾(2).

وقال عز شأنه:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴿٦﴾ ﴾(3).

ثم إن هذه الخمسة مما خُصّ به نبينا عليه الصلاة والسلام، وأما غيرها فقد يشاركه فيها غيره من الأنبياء، ومما وقع من أسمائه ﷺ في القرآن بالاتفاق: الشاهد، والمبشِّر، والنذير، والمبين، والداعي إلى الله، والسراج المنير، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾(4).

وفيه أيضاً: المذكرُ، والرحمة، والنعمة، والهادي، والشهيد، والأمين، والمزمِّل، والمدثِّر، والرؤوف، والرحيم.

---

(1) الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(2) الآية ١٤٤ من سورة آل عمران.

(3) الآية ٦ من سورة الصف.

(4) الآيتان ٤٥ ـ ٤٦ من سورة الأحزاب.

ومما وقع في الحديث الصحيح: «سميتك المتوكل، ليس بفظٍ، ولا غليظ؛ ولا جاف، ولا سخَّاب بالأسواق، ولا يقابل السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح»[1].

ومن أسمائه: المختار، والمصطفى، والشَفيع المُشَفَّع[2]، والصادق المصدوق[3]، وكان بعض صحابة رسول الله ﷺ إذا حدَّث عنه قال: «حدثني الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم» إلى غير ذلك من الأسماء الشريفة التي تدل على صفات جليلة وخصوصيات منيفة.

وقد قال الحافظ أبو الخطاب بن دِحْية في تصنيف له في «الأسماء النبوية»: «قال بعضهم: أسماء النبي صلى الله عليه وسلم تسعة وتسعون اسماً عدد أسماء الله الحسنى، ثم قال: ولو بحث عنها باحث لبلغت ثلاثمائة اسم»، وقد ذكر في كتابه المذكور أماكنها من القرآن والأخبار، وضبط ألفاظها وشرح معانيها، واستطرد ــ كما هي عادته ــ إلى فوائد كثيرة.

والحق ــ كما قال الحافظ الكبير ابن حجر ــ أن غالب الأسماء التي ذكروها هي أوصاف للنبي ﷺ، ولم يرد الكثير منها على سبيل التسمية، وذلك مثل عدهم: اللبنة، للحديث الصحيح المشهور في التعبير عنه باللبنة[4]، وعدهم الهادي، والمذكِّر، والمختار ونحوها.

أما (محمد) فاسم مفعول من التحميد للمبالغة يقال: حمَّده إذا نسبه إلى

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الشفيع: الذي يشفع لغيره، المشفَّع: الذي تقبل شفاعته.

(٣) الذي يصدقه من يسمعه لتوافر الدلائل على صدقه، وقد كان المشركون وغيرهم كما في كتب الحديث، والتفسير، والسير يكذبونه في الظاهر، ولكنهم فيما بينهم وفي أنفسهم يعلمون صدقه.

(٤) هو الحديث الذي رواه الشيخان عن النبي ﷺ قال: «إن مَثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون حول هذا البيت ويقولون: ما أحسن هذا البيت!! لولا هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم الأنبياء».

كثرة المحامد، والفضائل، أو هو الذي حُمد مرة بعد أخرى كالـمُـمَدَّح قال الأعشى:

إليكَ أَبيْتَ اللعنَ كان وجيفها ... إلى الماجد القَرْم الجواد المحمَّد

ورسولنا محمد ﷺ قد اجتمع فيه المعنيان، فقد تكاملت فيه الخصال المحمودة، والأخلاق الفاضلة العظيمة، ولا تنفك ألوف الألوف بل مئات ألوف الألوف، تلهج بحمده، والثناء عليه من لدن مبعثه إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، وفي المحشر حينما يشفع للناس، ويريحهم من هول الموقف يحمده الأولون والآخرون. وقد نوَّه الله سبحانه في الكتاب الكريم بهذه الفضيلة والخصيصة الظاهرة، فقال عز شأنه:

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾[1].

فمن ذا الذي يحصي ألوف ألوفِ الألوف الذين سيحمدونه في هذا المقام؟! وهذا الاسم الكريم هو أشهر الأسماء الخمسة، وأذكرها بين الناس.

ولم يكن هذا الاسم مشهوراً في الجاهلية، وإنما تسمَّى به بعض العرب قرب ميلاده لما سمعوا من الأحبار والرهبان من أهل الكتاب أن نبياً سيبعث آخر الزمان يسمى (محمداً)، فسموا أبناءهم بهذا رجاء ذلك، قال القاضي عياض: وهم ستة لا سابع لهم[2]، وقال السُّهَيلي في «الروض الأُنُف»: لا يعرف من

(١) الآية ٧٩ من سورة الإسراء.

(٢) هم:

١ ـ محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي.

٢ ـ ومحمد بن مسلمة الأنصاري.

٣ ـ ومحمد بن براء البكري.

٤ ـ ومحمد بن سفيان بن مجاشع.

٥ ـ ومحمد بن حمران الجعفي.

٦ ـ ومحمد بن خزاعي السلمي.

قال: لا سابع لهم، ويقال: أول من سمي محمداً محمد بن سفيان، واليمن تقول بل =

تسمَّى قبل النبي بهذا الاسم إلا ثلاثة[1]، والذي حققه الحافظ ابن حجر أنه تسمَّى بهذا الاسم خمسة عشر شخصاً[2]، فلما ولد النبي ﷺ ألهم الله جده بهذا الاسم تحقيقاً لما سبق به علم الله.

وأما (أحمد) فهو أفعل تفضيل أي أكثر الناس حمداً، فهو عَلَم منقول من صفة، وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه يُفتح عليه في المقام المحمود بمحامد لم يُفتح بها على أحد قبله، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام حمَّادون، وهو أحمدهم أي أكثرهم حمداً، أو أعظمهم في صفة الحمد، وهو صاحب لواء الحمد يوم القيامة، وهو ﷺ بلغ الغاية في الاتصاف بالمحامد والفضائل، والغاية في حمد الله والثناء عليه بما هو أهله، وشكره على نعمائه. وقد ورد هذا الاسم في القرآن مرة واحدة على لسان عيسى ــ عليه السلام ــ في التبشير به ﷺ.

وقد زعم بعض المبشرين وأعداء الإسلام أن المبشَّر به أحمد، ونبيكم محمد، وكأني برسول الله يرد عليهم حينما ألهمه الله سبحانه أن يقول هذا الحديث، إذ هو يقتلع الشبهة من أساسها فهو: محمد، وأحمد.

وأما الماحي فقد ورد تفسيره في الحديث عن النبي، وقد قيل إن المراد أنه الذي محا الله به الشرك والعقائد الوثنية من الجزيرة العربية. والذي أراه أن يترك الحديث على عمومه، فقد كان الكفر عند مبعثه يكاد يكون عاماً في الدنيا ولم يسلم من ذلك إلا القليلون كالحنيفيين، وأهل الأديان الذين لم يحرِّفوا،

= محمد بن اليحمد من الأزد (الشفا، ج ١ ص ١٩٠) وقد تعقب الحافظ ابن حجر القاضي عياضاً في عدِّه محمد بن مسلمة وقال: إنه غلط فإنه ولد بعد ميلاد النبي بمدة.

(١) هم:
١ ــ محمد بن سفيان بن مجاشع.
٢ ــ ومحمد بن أحيحة بن الجلاح.
٣ ــ ومحمد بن حمران بن ربيعة.
وكأنه لم يقف على كلام عياض.

(٢) فتح الباري، ج ٦ ص ٤٣٤، ٤٣٥ فقد عدهم وذكر أدلة ذلك، واستبعد من وقع فيه الوهم أو التكرار.

ولم يبدِّلوا، ويكون المراد أن الله محا به معظم أنواع الكفر، وأصبح معظم الناس مؤمنين موحِّدين، فإنه ﷺ لم يفارق الدنيا حتى صارت الجزيرة كلها مؤمنة موحِّدة وحمل أصحابه الرسالة من بعده، فلم يمض قرن من الزمان أو أقل حتى صار معظم الدنيا المعروفة آنئذ من المحيط إلى المحيط[1] يذكر على مآذنها توحيد الله في اليوم خمس مرات.

وأما الحاشر فقد فُسِّر أيضاً في الحديث. ومعنى على قدمي: أي على أثري، وهو يوافق قوله في الرواية الأخرى: «وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي» أي أنه أول من يحشر يوم القيامة، وفي الحديث الآخر: «أنا أول من تنشق عنه الأرض».

وأما العاقب فقد ورد تفسيره في الرواية الأخرى: «وأنا العاقب ما بعده نبي» فهو خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

النسب الزكي الشريف

وإليك نسب النبي الشريف المنيف، على ما ذكره الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه[2] قال:

محمد بن عبدالله، بن عبدالمطلب[3]، بن هاشم[4]، بن عبدمناف[5]، بن قصي[6]، بن كِلاب[7]، بن مرّة، بن كعب[8]،

---

(١) من المحيط الأطلسي غرباً، إلى المحيط الهادي شرقاً.

(٢) باب «مبعث النبي ﷺ».

(٣) اسمه شَيْبة قيل لشيبة كانت في رأسه، ويقال له: شيبة الحمد لجوده.

(٤) اسمه عمرو. ولقب بهاشم لكثرة ما هشم من الخبز لإطعام الناس.

(٥) اسمه: المغيرة.

(٦) بصيغة المصغر، اسمه زيد، وقد قدمنا سبب تسميته قصياً.

(٧) كلاب: اسمه حكيم، ولقب بكلاب لمحبته كلاب الصيد، فكان يجمعها فيمر المار فيعجب لكثرتها، فيسأل عنها: فيقال له: هذه كلاب ابن مرة فعرف بذلك.

(٨) وهو أول من جمع الناس يوم العروبة، وهو يوم الجمعة كان يسمى بذلك في الجاهلية، =

ابن لؤي، بن غالب، بن فِهْر(١)، بن مالك، بن النضر(٢)، ابن كنانة، بن خُزَيمة، بن مُدْركة، بن إلياس(٣)، بن مُضَر(٤)،

= وقيل: إنه أول من سماه الجمعة، فيكون الاسم على هذا جاهلياً، وقيل: إنه سمي بذلك في الإسلام، وهو الذي صححه ابن حزم، وكان يجمعهم في هذا اليوم، ويخطبهم، ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ، ويقول: إنه من ولده.

(١) اسمه قريش، وإليه تنسب قريش في قول جماعة منهم الإمام الزهري، فما كان فوق فهر فليس بقرشي، بل هو كناني على الصحيح.

(٢) لقب بالنضر لنضارة وجهه، قال ابن هشام: هو قريش، وبه قال الشافعي، وعزاه العراقي للأكثرين، وقال النووي: هو الصحيح، وصححه الحافظ صلاح الدين العلائي، ويستدلون له بحديث الأشعث بن قيس لما وفد على النبي في وفدِ كِندة، فقال: يا رسول الله ألستم منا؟ قال: لا، نحن بنو النضر بن كنانة» رواه ابن ماجه، وأبو نعيم، وابن عبدالبر.

وروى الحافظ البيهقي بسنده أنه بلغ النبي ﷺ أن رجالاً من كِندة يزعمون أنه منهم، وأنهم منه فقال: «إنما كان يقول ذلك العباس، وأبو سفيان بن حرب فيأمنا بذلك، وإنا لن ننتفي من آبائنا، نحن بنو النضر بن كنانة».

ومن العلماء من وفّق بين القولين بأن فِهْراً جِماع قريش، فأبوه مالك ما أعقب غيره، وكذلك النضر ليس له عقب إلا مالك فاتفق القولان، وقريش: تصغير قرش، وهي دابة ـ سمكة ـ في البحر عظيمة من أقوى دوابه، سميت بذلك لقوّتها، لأنها تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى، وقيل لأنهم كانوا يتجرون من قولهم: قرش الرجل يقرش كضرب يضرب إذا اتجر (شرح المواهب اللدنية، ج ١ مبحث نسب النبي).

(٣) بكسر الهمزة، وفتحها، وهمزته همزة وصل: ضد الرجاء. وهو أول من أهدى البدن ـ جمع بدنة ـ وهي الإبل ذكراً كانت أم أنثى، والتاء فيه للوحدة لا للتأنيث، وكانت العرب تعظمه كتعظيم أهل الحكمة كلقمان وأشباهه، وكان يدعى كبير قومه وسيد عشيرته، ولا يقطع أمر، ولا يقضى بينهم دونه.

(٤) بضم الميم، وفتح الضاد المعجمة، غير مصروف للعلمية والعدل، سمي به لأنه كان يحب شرب اللبن الماضر، وهو الحامض، قيل: اسمه عمرو، وكنيته أبو إلياس، وكان عاقلاً حكيماً، ومن حِكَمه: من يزرع شراً يحصد ندامة، وخير الخير أعجله، فاحملوا أنفسكم على مكروهها، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها، فليس بين الصلاح والفساد إلا فواق. أي شيء قليل.

ابن نزار[1]، بن مَعَدّ[2]، بن عدنان[3].

وهذا النسب الزكي متفق عليه بين علماء الأنساب إلى عدنان، قال الحافظ أبو الخطاب بن دِحْية: أجمع العلماء على أن رسول الله ﷺ إنما انتسب إلى عدنان ولم يجاوزه.

وأما من بعد عدنان فهم مختلف فيهم، وإن كان النسابون اتفقوا على أن عدنان ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ فهو جد النبي الأعلى، وقد انتقلت إليه منه بعض الصفات الجسمانية، ففي الحديث الصحيح لما ذكر إبراهيم قال: «وإنه لأشبه الناس بصاحبكم».

ولم يزل ﷺ يتنقل من أصلاب الآباء الطيبين، إلى أرحام الأمهات الطاهرات، لم يمسَّ نسبه من سفاح الجاهلية شيء، بل كان بنكاح صحيح على حسب ما تواضع عليه العرب الشرفاء، حتى خرج من بين أبويه الكريمين.

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «إن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كِنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». ورواه الترمذي في سننه بزيادة في أوله: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل...» والمراد بالاصطفاء تخيُّر الفروع الزكية من الأصول الكريمة تخيُّراً مبناه الأخلاق الكريمة، والفضائل الإنسانية السامية، والطباع الفطرية السليمة، وينضم إلى ذلك بالنسبة إلى إسماعيل والنبي اصطفاء النبوة والرسالة.

---

(1) بكسر النون، قيل: لما ولد فرح به أبوه فرحاً شديداً، ونحر، وأطعم، وقال: إن هذا كله نزر ـ أي قليل ـ لحقِّ هذا المولود، وبه جزم السهيلي، وقال أبو الفرج الأصبهاني: سمي بذلك لأنه كان فريد عصره، وعليه اقتصر صاحب الفتح، والإرشاد.

(2) معد بفتح الميم والعين وتشديد الدال.

(3) عدنان بوزن فعلان من العدن، وهو الإقامة، وحكى الزبير أن عدنان أول من وضع أنصبة الحرم، وأول من كسا الكعبة، أو كسيت في زمنه، وقال البلاذري: أول من كساها الأنطاع عدنان.

وروى البخاري في صحيحه بسنده عن النبي ﷺ قال: «بُعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه». وروى البيهقي أن النبي ﷺ خطب فقال: «أنا محمد بن عبدالله . . .» إلى آخر النسب الشريف ثم قال: «وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما، فأخرجت من بين أبوي، فلم يصبني شيء من عِهْر[1] الجاهلية، وخرجت من نكاح، ولم أخرج من سِفاح، من لَدُنْ آدم حتى انتهيت إلى أبـي، وأمي، فأنا خيركم نفساً، وخيركم أباً» وروى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن المطَّلب بن أبـي وَدَاعة قال: قال العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: «من أنا»؟ قالوا: أنت رسول الله، قال: «أنا محمد بن عبدالله، بن عبدالمطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل، فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً» إلى غير ذلك من الأحاديث[2].

وراثة الصفات والفضائل

وإذا كان الله سبحانه وتعالى جرت سنته أن لا يبعث نبياً إلا في وَسَطٍ من قومه شرفاً، ونسباً، ومَحْتِداً، فقد كان في الذروة من هذه نبينا محمد ﷺ، فما من آبائه إلا كان مَلِياً[3] بالفضائل، والمكارم، وقد علمت بعضاً منها آنفاً، وما من أم من أمهاته إلا وهي أفضل نساء قومها نسباً وموضعاً، ولم تزل هذه الفضائل والكمالات البشرية تنحدر من الأصول إلى الفروع حتى تجمعت كلها في سلالة ولد آدم، ومُصاصة بني إبراهيم وإسماعيل، سيدنا محمد بن عبدالله الأمين.

وليس من شك في أن النسب الكريم إذا زانه الحسب العريق، كان ذلك من أسباب الكمال. ووراثة الصفات الخَلْقية والخُلُقية، والخصائص النفسية، والعقلية أمر مقرر معلوم، وقد دلَّ على هذه الوراثة قوله ﷺ للرجل الذي جاء

(١) فجور ومفاسد.
(٢) البداية والنهاية ج ٢، ص ٢٧٧ ــ ٢٨٠.
(٣) أي غنياً.

يشتكي إلى النبـي أن ابنه جاء أسود، ولم يكن أحد من أبويه أسود فقال له: «هل لك من إبل»؟ قال: نعم قال: «ما ألوانها»؟ قال: حمر، قال: «هل فيها من أوْرَق»[1]؟ قال: نعم قال: «فأنَّى ذلك»؟ قال: لعله نزعه عرق[2] قال: «فلعل ابنك هذا نزعه عرق»[3]!

وقد شرح العلماء المُحْدَثُون قوانين الوراثة، وبيَّنوها غاية البيان، وقد قالوا: إن هناك وراثة نوعية عامة، وهي وراثة الصفات الجسمية والنفسية الثابتة الخاصة بالنوع الإنساني، فكل طفل يولد مزوداً بهذه الصفات عن طريق الوراثة النوعية.

ووراثة خاصة: وهي التي تنقل إلى الفرع صفات من أصوله الخاصة القريبة أو البعيدة، وهي لذلك تنتظم طائفتين:

١ ـ إحداهما: الوراثة الخاصة المباشرة، وتظهر فيها يرثه الطفل عن أصليه المباشرين: أبيه وأمه.

٢ ـ والثانية: الوراثة الخاصة غير المباشرة، وتظهر فيها يشبه فيه الطفل أحد أجداده، أو إحدى جداته من جهة الأب، أو الأم من الدرجة الأولى، أو من الدرجات التي تليها من صفات لم تظهر في أحد أبويه. ومن هذا النوع ما يسمونه «الوراثة الفرعية» أو «الوراثة بالواسطة» أو «الوراثة المشتركة» وهي التي تظهر فيها يشبه فيه الطفل أحد أعمامه، أو أخواله، أو إحدى عماته، أو خالاته من صفات لم تكن ظاهرة في أحد أبويه المباشرين، وذلك أن الطفل إذا أشبه عمه مثلاً في صفة ما، يرجع إلى أنه هو وعمه أخذا هذه الصفة عن جده القريب أو البعيد، أو من جدته القريبة، أو البعيدة من جهة الأب، والوراثة الخاصة غير المباشرة ترجع في التحليل الأخير إلى الوراثة الخاصة المباشرة.

---

(١) هو الذي يميل لونه إلى الغبرة والسواد.
(٢) العرق: هو الأصل أي جاء لأحد أصوله.
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الطلاق ـ باب إذا عرَّض بنفي الولد.

ثم إن كانت الوراثة في الصفات لأحد الأبوين «سميت وراثة بالتحيُّز» وإن كانت لأحدهما في بعض الصفات وللآخر في بعضها سميت «وراثة بالاقتران» باعتبار نوع الصفات.

وتنقسم الوراثة باعتبار نوع الصفات الموروثة عن الأصول الخاصة، أو عن القبيلة إلى ثلاثة أقسام:

(أ) وراثة جسمية كوراثة الطول والقصر وسِمات الوجه وغيرها.

(ب) وراثة عقلية كوراثة مظهر من مظاهر الإدراك أو الوجدان أو النزوع.

(ج) وراثة خُلقية كوراثة الصفات الاجتماعية المتعلقة بالخير والشر، والفضيلة والرذيلة، كالحلم والورع والتقوى(١).

وقد أفاد النبي ﷺ من الوراثتين: العامة، والخاصة بنوعيها، فكان فيه خير ما في صفات البشر والنوع الإنساني، وخير ما كان في آبائه وأمهاته من الفضائل والصفات. وقد انضم إلى ذلك كله أن الله سبحانه وتعالى تعهده من الصغر بالتربية المثلى، والتأديب البالغ، فلا تعجب إذا كان ﷺ المثل الكامل في جسمه، وفي عقله، وفي دينه، وفي خلقه، وفي نسبه، وحسبه «والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا»(٢).

الآبساء

ها أنت قد رأيت أن آباءه كلهم سادة، ورثوا المجد والشرف كابراً عن كابر، وأنهم ليس فيهم أحد يُغمص في خلق، أو يغمز في نسب أو شرف. فكان منهم الوسيم القسيم، ومنهم البطل الصنديد، ومنهم الجواد الكريم، ومنهم الحكيم الذي تتفجر الحكمة من قلبه وتجري على لسانه، وكان منهم التاجر الذي

---

(١) الوراثة والبيئة للدكتور علي عبدالواحد وافي ص ١٠، ١١.

(٢) رواه البخاري.

يُكْسب المعدوم، ومنهم البر الرحيم الوصول للرحم، ومنهم المتدين، والمتحنِّث[1]، والمتحنِّف[2].

وبحسب البيت الهاشمي شرفاً وكرماً أنهم كانوا سادة العرب جميعاً، لا ينازعهم في السيادة منازع، وأنه انتهت إليهم السقاية، والرفادة، مع أنهم لم يكونوا جميعاً من أهل الغنى والثراء. إنها ـ وايْمُ الحق ـ لمآثر وفضائل لا نجدها في أعرق الدول حضارة، ولم تصل إليها أغنى أمم الأرض اليوم.

الأمهـات

أما الأم المباشرة فهي السيدة الكريمة آمنة بنت وَهْب، بن عبدمناف، بن زُهْرة، بن كِلاب، فهي تجتمع مع عبدالله في جدهما الأعلى: كِلاب، وقد كان زُهْرة الولد البكر لكلاب بن مرة، والشقيق الأكبر لقصي الذي جمع قريشاً بعد تشتت، وصاحب المآثر والمفاخر التي ذكرناها فيما سبق، وقد عرف بنو زُهرة بالود الخالص لبني عبدمناف بن قصي، والانحياز إلى جانبهم في السلم والحرب، والأحلاف والعهود، وأما جدها عبدمناف فكان يقرن في الشرف بابن عمه: عبدمناف بن قصي، فيقال: المنافان، تعظيماً وتكريماً، وأما أبوها وَهْب فكان سيد بني زُهْرة.

وجدتها لأبيها عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية، إحدى النساء اللواتي اعتزَّ بهن الرسول فقال: «أنا ابن العواتك من سُلَيم»[3].

(١) المتعبد. (٢) الذي اتبع الحنيفية دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

(٣) في لسان العرب: مادة «عتك» بعدما ذكر هذا الحديث قال: «العواتك جمع عاتكة، وأصل العاتكة المتضمخة بالطيب... والعواتك من سُلَيم ثلاث: يعني جداته ﷺ وهن: عاتكة بنت هلال بن فالج بن ذكوان أم عبدمناف بن قصي أبي هاشم. وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم هاشم بن عبدمناف. وعاتكة بنت الأوقص بن مرّة بن هلال بن فالج بن ذكوان أمّ وهْب بن عبدمناف بن زهرة جد رسول الله ﷺ أبي أمه آمنة بنت وهب.
فالأولى من العواتك عمة الوسطى، والوسطى عمة الأخرى، وبنو سليم تفخر بهذه الولادة.. وسائر العواتك أمهات النبي ﷺ من غير بني سليم، قال ابن بري: =

ولم يكن نسب آمنة من جهة أمها دون ذلك عراقة وأصالة، فهي ابنة بَرَّة بنت عبدالعزى، بن عثمان، بن عبدالدار، بن قصي. وجدتها لأمها أم حبيب بنت أسد بن عبدالعزى، بن قصي بن كلاب، وهي سلالة عريقة أصيلة أنبتت آمنة بنت وَهْب لتضطلع بعبئها الجليل في أمومتها التاريخية، ولتنتظم بهذه الأمومة في سلك الأمهات المنجبات للرجال الذين صنعوا أمماً، وغيروا وجه التاريخ[1].

أمهات آبائه

أما أمّ أبيه فهي فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية، وبنو مخزوم في الذؤابة من قريش نسباً، وشرفاً، ومَحْتِداً، وأما أم جده عبدالمطلب فهي سلمى بنت عمرو النجارية، وكانت سلمى لشرفها في قومها، واعتزازها بنفسها لا تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، إذا كرهت رجلاً فارقته، وإن رضيته عاشرته، ولما خطبها هاشم من أبيها وزوجها منه اشترط عليه مقامها عنده، وقيل بل اشترط عليه أن لا تلد إلا عنده بالمدينة، فلما رجع من الشام بنى بها، وأخذها معه إلى مكة، فلما خرج في تجارة له إلى الشام أخذها معه وهي حبلى، فتركها بالمدينة، ودخل الشام فمات بغزة، فلما وضعت سلمى ولدها شيبة بقي عند أخواله سبع سنين، حتى جاء عمه المطلب فأخذه على ما ذكرناه سابقاً.

وأما أم جده هاشم فهي عاتكة بنت مرَّة بن هلال السلمية من بني سليم بن منصور، إحدى قبائل قيس عَيْلَان بن مضر، إحدى العواتك اللاتي اعتزَّ بهن الرسول.

وأما أم جده عبدمناف فهي حُبَّى بنت حليل الخزاعية من بني خزاعة بن

= والعواتك اللاتي ولدنه ﷺ اثنتا عشرة: اثنتان من قريش، وثلاث من سُلَيم، هن اللواتي أسميناهن، واثنتان من عدوان، وكنانية، وأسدية، وهذلية، وقضاعية، وأزدية» وهذا الذي ذكره صاحب اللسان يتفق هو وما ذكره غير ابن إسحاق في أم عبدمناف بن قصي. وقال السهيلي في الروض بعدما ذكر نحواً مما ذكره صاحب اللسان: وقيل في تأويل هذا الحديث إن ثلاث نسوة من سُلَيم أرضعنه كلهن تسمى عاتكة والأول أصح.

(١) أم النبي للدكتورة عائشة عبدالرحمن ص ٧٩.

عمرو إحدى قبائل قمعة بن إلياس بن مضر، وهم الذين كانوا يتولَّون البيت وإمارة مكة قبل قريش حتى انتزعها منهم قصي بن كلاب بن مرة مجمِّع قريش، وصاحب مفاخرها، وهذا قول ابن إسحاق؛ وقال غيره: بل أم عبدمناف عاتكة بنت هلال بن فالج بن ذكوان[1]، وأم قصي فاطمة بنت سعد، وهي يمانية من أزد شنوءة. وأم كلاب هند بنت سرير من بني فهر بن مالك. وأم مرة وحشية بنت شيبان من بني فهر أيضاً. وأم كعب ماوية بنت كعب من قضاعة. وأم لؤي سلمى بنت عمرو الخزاعية. وأم غالب ليلى بنت سعد من هذيل. وأم فهر جندلة بنت الحرث من جرهم. وأم مالك عاتكة بنت سعد بن الظرب من قيس عيلان. وأم النضر برة بنت مرار بن أد. وأم كنانة عوانة بنت سعد من قيس عيلان. وأم خزيمة سلمى بنت أسلم من قضاعة. وأم مدركة خندف المضروب بها المثل في الشرف والمنعة. وأم إلياس الرباب بنت جندة بن معد. وأم مضر سودة بنت عك. وأم نزار معانة بنت جوشم من جرهم[2].

ومن ثَمَّ نرى أنه لم يزل ـ ﷺ ـ يتنقل من الأصلاب الأصيلة إلى الأرحام الطاهرة، حتى خرج من بين أبويه الكريمين الشريفين.

* * *

(١) الروض الأنف ج ١، ص ٧٦.
(٢) البداية والنهاية ج ٢، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥؛ نور اليقين ص ٢، ٣.

الفَصْل الثَّاني
الرَّضَـــاعُ

إرضاع أمه له

وكانت أولى من أرضعته ﷺ هي أمه، قيل: أرضعته ثلاثة أيام، وقيل سبعا، وقيل تسعاً.

إرضاع ثُوَيبة[1]

ثم أرضعته ثويبة جارية عمه أبـي لهب بلبن ابنها مسروح بضعة أيام قبل قدوم حليمة عليه، وكذلك أرضعت عمه حمزة، وابن عمته أبا سلمة المخزومي، فكانوا أخوة من الرضاع. ولما قيل للنبـي عقب عمرة القضاء: ألا تتزوج ابنة حمزة ــ هي فاطمة ــ قال: «إنها ابنة أخي من الرضاع» ولما قالت له السيدة أم حبيبة إنا نُحدَّث أنك تريد أن تنكح بنت أبـي سلمة، وفي رواية: درة بنت أبـي سلمة قال: «بنت أبـي سلمة»؟! قالت: نعم، قال: «إنها لو لم تكن ربيبتي في حِجْري ما حلَّت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة[2]؛ أرضعتني وأبا سلمة ثُوَيبةُ، فلا تعرضنَّ علي بناتكن، ولا أخواتكن». رواه البخاري.

استرضاعه في بني سعد

وكان من عادة أشراف العرب أن يتلمَّسوا المراضع لأولادهم في البوادي ليكون ذلك أنجب للولد، وأصح للبدن، وأصفى للذهن، وأبعد عن الوخم،

---

(١) بضم الثاء، وفتح الواو، وسكون الياء، فباء موحدة، فتاء تأنيث، وقد اختلف في إسلامها، ولم يذكر إسلامها إلا ابن منده. وأما مسروح فقال البرهان: لا أعلم أحداً ذكره بإسلام.

(٢) أي اجتمع في تحريمها سببان. كونها ربيبة، وكونها ابنة أخيه من الرضاع.

والكسل. وكانوا يقولون: إن المربَّى في المدن يكون كليل الذهن، فاتر العزيمة، ضعيف البنية. هذا إلى ما في نشأتهم بين الأعراب من استقامة اللسان بالفصيح من الكلام، والسلامة من اللحن، والبراءة من الهجنة. ولما قال الصديق أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ للنبي ﷺ: «ما رأيت من هو أفصح منك يا رسول الله؟» فقال: «وما يمنعني، وأنا من قريش، وأرضعت في بني سعد».

فمن ثَمَّ كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة، ومن القبائل من كان لها في المراضع شهرة، وفي الفصاحة مكان، ومنها قبيلة بني سعد التي منها حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية مرضعة النبي، وقد مكث عندها سنتين، ثم عادت به كي تراه أمه، فما إن رأته، وملأت عينيها منه حتى احتضنته وقبلته، وسرها ما رأته عليه من علامات الصحة، والنضارة، والنمو، وتوسلت حليمة إلى أمه أن ترجعه معها حتى يكبر؛ فإنها تخشى عليه وباء مكة، وما زالت بها حتى قبلت، ثم عادت به بعد سنتين[1]، وهي بادية القلق، شديدة التخوف عليه، حتى أحسَّت ذلك منها السيدة آمنة، فسألتها عن سبب ذلك، فأنكرت أن يكون هناك شيء، ثم لم تلبث أن أخبرتها بقصة الملكين اللذين جاءا إليه وهو في غنم لهم مع أخيه السعدي، فشقَّا صدره، فطمأنتها أمّه أنه لا سبيل للشيطان عليه، وأنه سيكون له شأن، وقالت لها: دعيه عنك، وانطلقي راشدة.

وسأدع السيدة حليمة تقص القصة لما فيها من العبرة والروعة، ورعاية الله لنبيه من الصغر، قالت:

قدمتُ مكة في نسوة من بني سعد نلتمس الرضعاء[2] في سنة شهباء[3]،

---

(١) هذا هو الذي جزم به الحافظ زين الدين العراقي في نظم السيرة، والحافظ ابن حجر في سيرته، وهي صغيرة مفيدة التزم فيها الأصح، فقد قالا: إن شق الصدر كان في الرابعة، وكفى بهما إمامين حافظين، لا ما ذكره ابن إسحاق من أنه كان في أوائل الثالثة بعد شهرين أو ثلاثة من رجوع حليمة به.

(٢) جمع رضيع.

(٣) ذات جدب وقحط.

على أتان لي، ومعي صبي لنا[1]، وشارف لنا[2]، والله ما تَبِضُّ[3] بقطرة، وما ننام ليلنا ذلك مع صبينا ذاك، لا يجد في ثديي ما يغذيه[4]، ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة، فوالله ما عَلمتُ منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل إنه يتيم!! وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أب الصبي، فكنا نقول: يتيم ما عسى أن تصنع أمه؟ فكلنا نكرهه لذلك.

فوالله ما بقيتْ من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم أجد غيره قلت لزوجي[5]: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي عسى أن يجعل الله لنا فيه بركة، قالت: فذهبت إليه فإذا به مُدْرَج في ثوب من صوف أبيض من اللبن، يفوح منه المسك، وتحته حرير أخضر، راقد على قفاه يغط، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فدنوت منه رويداً[6]، فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكاً، وفتح عينيه لينظر إلي، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء، وأنا أنظر!! فقبلته بين عينيه، وأعطيته ثديي الأيمن، فأقبل عليه بما شاء من لبن[7]، فحوَّلته إلى الأيسر، فأبى، فكانت تلك حالته بعد[8].

---

(١) هو عبدالله بن الحارث الذي كانت ترضعه.

(٢) ناقة مسنة والشارف يطلق على الذكر والأنثى ولكن المراد هنا الأنثى.

(٣) بفتح التاء وكسر الباء أي تدر.

(٤) عند ابن إسحاق بالدال المهملة، وعند ابن هشام بالذال المعجمة، وهي أتم من الأولى لأن فيها الاقتصار على الغداء دون العشاء.

(٥) هو الحارث بن عبدالعزّى بن رفاعة السعدي، يكنى: أبا ذؤيب، أدرك الإسلام، وأسلم، وعدّه من الصحابة صاحب الإصابة، وهو الذي يقال له: أبو كبشة، وهو الذي عنته قريش لما قالوا: إن ابن أبي كبشة يزعم أنه يُكلَّم من السماء!!

(٦) بتؤدة وتمهل.

(٧) در الثدي لبناً كثيراً.

(٨) هذا من الصفات التي فطره الله عليها من الصغر من القناعة والعدل والبر، فقد ألهمه الله أن له شريكاً في اللبن، فأبى أن يتناول نصيبه.

فروي، وروي أخوه، ثم أخذته بما هو إلى أن جئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء الله من لبن، فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي، فقام صاحبي[1] إلى شارفنا تلك، فإذا بها لحافل[2]، فحلب لنا، فشرب، وشربت حتى روينا، وبتنا بخير ليلة.

فقال صاحبي: تعلّمي[3] يا حليمة، والله إني لأراك قد أخذت نَسَمةً مباركة، قلت: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا فركبت أنا أتاني[4]، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك ارفقي علينا[5]، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟! فأقول لهن: بلى ــ والله ــ إنها لهي هي!! فيقلن: والله إن لها لشأناً!!

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعاً لُبّناً[6] فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم[7]: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لُبّناً، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه، وفصلته، وكان يشب شباباً لا يشبُّه الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً[8].

قالت: فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه ها هنا، لما كنا

---

(١) تعني زوجها.
(٢) ممتلئة الضرع من اللبن.
(٣) أي اعلمي.
(٤) حمارتي.
(٥) انتظري وتمهلي.
(٦) جمع لبون.
(٧) جمع راع.
(٨) قوياً شديداً.

نرى من بركته، فكلَّمنا أمه، وقلت لها: لو تركت بنيَّ عندي حتى يغلظ[1]، فإني أخشى عليه وباء مكة[2] قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا[3].

مداعبة حليمة وابنتها للنبي

وكانت حليمة ــ رضي الله عنها ــ تداعب النبي، وترقِّصه، وتناغيه كما تفعل الأمهات مع الأبناء، فمن ذلك قولها:

يا ربِّ إذ أعطيته فأبقه   وأَعْلِهِ إلى العلا ورقِّه
وادحض أباطيل العدا بحقِّه

وكانت الشيماء[4]، أخته من الرضاعة، تقول:

هذا أخ لي لم تلده أمي   وليس من نسل أبي وعمي
فَديْتُه من مخول مُعِمِّي[5]   فأنْمِه[6] اللهُم فيما تنمي

وكانت تقول أيضاً:

يا رب أبق أخي محمداً   حتى أراه يافعاً وأمردا
ثم أراه سيداً مسوَّداً   واكبت أعاديه معاً والحسدا
وأعطه عزاً يدوم أبدا

---

(١) يقوى أكثر ويكبر.

(٢) بفتح الواو والمد أو القصر: الطاعون.

(٣) روى هذه القصة ابن إسحاق، وابن راهويه، وأبو يعلى، والطبراني، والبيهقي، وأبو نعيم، يزيد بعضهم عن بعض. انظر سيرة ابن هشام ج ١، ص ١٦٣، ١٦٤؛ شرح المواهب ج ١، ص ١٧١ ــ ١٧٤.

(٤) بفتح الشين وسكون الياء، ويقال: الشماء بلا ياء، وهي ابنة الحارث بن عبدالعزّى وابنة السيدة حليمة، اسمها جُدَامة ــ بضم الجيم وفتح الدال ــ وقيل: حذامة بضم الحاء المهملة وفتح الذال المعجمة، وقيل: خذامة بضم الخاء المعجمة.

(٥) كريم الأخوال والأعمام، والياء لضرورة الشعر.

(٦) نمى من باب رمى كثر وزاد ويتعدى بالهمزة، والتضعيف.

جميل بأجمل منه

وقد كان ﷺ أعرف الناس بالجميل وأشدهم مكافأة عليه، وقد قدم عليه بعد أن أظهر الله الإسلام أبواه من الرضاع فأكرمهما، وبسط لهما رداءه، ووصلهما، وكانت الشيماء وقعت في سبايا هوازن، فلما عرفها قال لها: «إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك، وترجعي إلى قومك فعلت»؟ فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي. فوصلها، وأكرمها، وردَّها إلى قومها، ويقال: إنه أعطاها غلاماً وجارية، فزوجتهما، وتناسلا.

قصة شق الصدر

قال ابن إسحاق[1]: قالت حليمة: فوالله إنه لبعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة[2] مع أخيه من الرضاعة لفي بَهْم[3] لنا خلف بيوتنا، جاء أخوه يشتدُّ[4] فقال: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه وشقَّا بطنه!!

فخرجت أنا وأبوه ـ يعني من الرضاعة ـ نشتد نحوه، فوجدناه قائماً مُنْتَقَعاً لونه، فاعتنقته، واعتنقه أبوه، وقال: أي بني ما شأنك؟! قال: «جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني، وشقَّا بطني، ثم استخرجا منه شيئاً لا أدري ما هو؟ فطرحاه، ثم ردَّاه كما كان»!!

قالت حليمة: فرجعناه معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب، فانطلقي بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف عليه، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر[5] وقد كنت

---

(١) تتمة قصة الرضاع.

(٢) شك من الراوي، وقد قدمت أن الصحيح أن شق الصدر كان في السنة الرابعة، وأن رجوعهما كان بعد الشق في أول الخامسة.

(٣) غنم.

(٤) يسعى ويجري.

(٥) الظئر: المرضعة الحانية على من ترضعه.

حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟! قالت: فقلت: قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي علي، وتخوَّفت الأحداث عليه، فأدَّيته إليك كما تحبين، قالت: ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك، قالت: فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟! قالت: قلت: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبنيَّ لشأناً، أفلا أخبرك خبره؟ قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بُصْرى[1] من أرض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف علي، ولا أيسر منه[2]، ووقع حين ولدته، وإنه لواضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك، وانطلقي راشدة[3].

رواية أُخرى لابن إسحاق

قال ابن إسحاق: وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم، ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعي، أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: «نعم أنا دعوة أبـي إبراهيم، وبُشرى أخي عيسى، ورأتْ أمي حين حملت بـي أنه خرج منها نور أضاءت لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بَهْماً لنا إذ أتاني رجلان[4] عليهما ثياب بيض بطَسْت من ذهب مملوءة ثلجاً، ثم أخذاني فشقَّا بطني، واستخرجا قلبـي فشقَّاه، فاستخرجا منه علقة سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبـي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زِنْه بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم[5]، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بهم، فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بهم،

(١) بضم الباء والقصر من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران.

(٢) عرفت ذلك من مقارنة حملها بحمل غيرها من النساء.

(٣) سيرة ابن هشام ج ١، ص ١٦٤، ١٦٥.

(٤) هما: جبريل، وميكائيل.

(٥) رجحت عليهم.

فوزنتهم، ثم قال: دَعْه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها»[١]. قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي.

رواية الإمام مسلم في صحيحه

وقد ثبت في صحيح مسلم من طريق حمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه فاستخرج القلب، واستخرج منه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يَسْعَون إلى أمه ـ يعني ظئره ـ فقالوا: إن محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»[٢].

رواية أبي يَعْلى وأبي نُعيم وابن عساكر

فقد رووا بأسانيدهم عن شدَّاد بن أوس، عن رجل من بني عامر[٣] أن رسول الله ﷺ قال: «كنت مُسْتَرْضِعاً[٤] في بني سعد بن بكر، فبينما أنا ذات يوم في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان إذ أنا برهط ثلاثة معهم طَسْت من ذهب، مليء ثلجاً، فأخذوني من بين أصحابي، وانطلق الصبيان هراباً مسرعين إلى الحي، فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض إضجاعاً لطيفاً، ثم شقَّ ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مسّاً، ثم غسلها بذلك الثلج...» على نحو ما ذكر ابن إسحاق غير أنه في هذه الرواية كانوا ثلاثة، وفي الأولى كانوا اثنين، فلعل من ولي عملية الشق هما الاثنان، فاقتصر عليهما في بعض الروايات دون بعض.

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٦.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٢، ص ٢١٦ ط حجازي.

(٣) لا يضر إبهام الصحابي، لأن الصحابة كلهم عدول ولا سيما هو من رواية صحابي عن صحابي.

(٤) على صيغة اسم الفاعل، وليس اسم مفعول لأن فعله لازم.

تكرار شق الصدر

وقد تكرر شق الصدر الشريف غير هذه المرة، فقد حصل مرة ثانية عند المبعث[1]. ومرة ثالثة عند الإسراء والمعراج، وهذه المرة ثابتة بالأحاديث الصحيحة من رواية الشيخين: البخاري ومسلم، وغيرهما[2].

أما المرة الأولى: فقد كانت لنزع العلقة السوداء التي هي حظ الشيطان من كل بشر، فخُلقت فيه ﷺ تكملة للخلق الإنساني، ثم إخراجها بعد خلقها كرامة ربانية، فهو أدل على مزيد الرفعة والكرامة من خلقه بدونها وبنزعها منه نشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، والاتصاف بصفات الرجولية من الصغر فلا لهو ولا عبث وإنما هو الكمال والجد.

وأما الثانية: فليتلقّى ما يوحى إليه من أمور الرسالة بقلب قوي وهو على أكمل الأحوال وأتم الاستعداد.

وأما الثالثة: فكانت استعداداً لما يُلقى إليه في هذه الليلة من أنواع الفيوضات الإلهية، وما سيريه ربُّه فيها من الآيات البينات، وإدراك مرامي المثل الرائعة التي ضربت له في مسراه وفي معراجه[3]، وكلها تحتاج إلى شرح الصدر، وثبات القلب.

المنكرون لشق الصدر، والمشككون فيه

وينكر «سيرموير» حادثة شق الصدر على معناها الظاهر، ويرى أن ما حدث إنما هي نوبة عصبية، ويجعلها «درمنغم» أسطورة، ويحملها على أنها أمر معنوي، يشير إلى مغزى فلسفي، فيقول: «إنها نشأت من قول الله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ وأن هذه العملية أمر باطني قام على تطهير ذلك القلب ليتلقى رسالة الله عن حسن نية، ويبلغها بإخلاص تام، وإن أسطورة شق

(١) رواه أبو نعيم في كتابه «دلائل النبوة» انظر المنتخب من السنة ج ١، ص ٦٤.
(٢) الإسراء والمعراج للمؤلف ص ٥٥ ــ ٦٦.
(٣) فتح الباري ج ٧، ص ١٦١؛ تفسير الآلوسي ج ٣٠، ص ١٦٦، ١٦٧.

الصدر ذات مغزى فلسفي لما تشير إليه تلك الدرنة السوداء من الخطيئة الأولى التي لم يعف منها غير مريم وعيسى!! ولما يدل عليه من معنى الورع الصوفي»[1].

وقد تأثر بهذا الرأي بعض الكاتبين في السيرة من المسلمين ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل ـ رحمه الله ـ، فقال: «لا يطمئن المستشرقون، ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه، ويرونها ضعيفة السند...»[2] إلى آخر ما قال.

وقد طعن في القصة بأنها ضعيفة السند، وأنها مرسلة، وأن القصة رواها طفل صغير في سن السنتين، وكان النبي في مثل هذه السن أيضاً، وهي سن لا يحصل فيها التمييز حتى يكون تحمُّل الراوي للقصة صحيحاً، كما ذكر مزاعم بعض المستشرقين.

وللرد على ما أثاره المستشرقون وغيرهم حول حادث شق الصدر أقول وبالله التوفيق:

١ ـ أما أن المستشرق «سيرموير» لم يرضَ أن يشير إلى قصة الملكين فثبوت القصة أو نفيها لا يتبع رضاه ولا عدم رضاه، وإنما المعوَّل عليه في هذا ثبوت الرواية أو عدم ثبوتها، ولا أدري كيف استراح الدكتور هيكل إلى زعم موير وتجويزه أن يكون النبي في طفولته أصابته نوبة عصبية، وقد تنبهت لها حليمة وزوجها، وأن هذه النوبة لم تؤثر في النبي لحسن تكوينه!!

وهو دس خبيث، وطعن مردود، وليس في القصة ما يدل عليه، ولماذا رجَّح ظنّ حليمة وزوجها وتخوّفها أن يكون أصاب النبيّ شيء، ولم يرجِّح قطع أمه السيدة آمنة في أنه ليس للشيطان عليه سبيل؟! والأم أعلم الناس بالابن، وآخر من يقتنع بزوال أثر المرض عن الابن، و«موير» لأجل أن ينكر الشق وقع فيما هو أشد نكراً، وهو أن النبي أصابته نوبة عصبية، حتى خُيِّل إليه

---

(١) حياة محمد لدرمنغم ص ٤٨.

(٢) حياة محمد لهيكل ص ١٠٩، ١١٠.

ما ليس بحاصل حاصلاً، وهي شنشنة تُعرف من أخزم؟

٢ ــ أما أن «درمنغم» يرى أن القصة لا تستند إلى شيء غير ما يفهم من الآية، وأن ما يشير إليه القرآن إنما هو عمل روحي بحت[1]، فنحن لم نقل: إن الآية هي الدليل، وإن كان البعض يقول: إنها تشير إلى ذلك، ولكن الدليل هو ما ثبت من الروايات التي سقناها.

٣ ــ أما أن ما يدعو المستشرقين والمفكرين من المسلمين إلى إنكار هذا الحادث: أن حياة النبي كانت كلها إنسانية سامية، فنحن نرى أن لا تنافي قط بين سمو الحياة الإنسانية، وثبوت الخوارق والمعجزات الحسية للأنبياء، وهل عيسى لما ولد بغير أب، وأجرى الله على يديه خوارق العادات لم تكن حياته إنسانية؟! وهل موسى عليه السلام لما أعطي الآيات التسع لم تكن حياته إنسانية؟!

الحق أنها لَوْثة حمل لواءها المستشرقون، وسَرَت عدواها إلى بعض الكتاب المسلمين المعاصرين.

٤ ــ ثم إن حادثة شق الصدر ليست مخالفة للعقل، لقد ظلم الدكتور هيكل العقل حين قال ذلك، وفرق كبير بين مخالفة العادة، ومخالفة العقل، ولو جاز هذا التشكيك في القصة في العصور الأولى فلن يجوز ذلك اليوم، وقد تقدم العلم والطب، وأصبحت تجرى فيه العمليات الخطيرة في القلب، وفي الكلى، وفي الرئتين، بل أنا أكتب هذا وتجري محاولات عدة لزرع بعض أجزاء إنسان في جسم إنسان آخر، فإذا جاز أن يقع هذا من البشر، أفنستبعد على قدرة الله، وملائكته المؤتمرين بأمره أن يشقُّوا صدر النبي، ثم يلتئم بلا آلة، ولا ألم، ولا سيلان دم؟!

ثم ما للمعجزات ولسنن الكون العادية، حتى نتعلل في إنكارها بأننا لن

---

(١) لئن جاز حمل الآية ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ على الشرح المعنوي بل لعله الأظهر، فبعيد جداً أن تحمل القصة على هذا، وإلا كان خروجاً بالألفاظ العربية عن ظاهرها من غير صارف لها عن هذا الظاهر.

نجد لسنة الله تبديلاً، وما المعجزات إلا أمور خارقة للمألوف من سنن الله في الكون!!

٥ ــ أما قول البعض: إن هذه القصة ضعيفة السند فنقد مجمل، وكنا نحب من الناقد أو المنكر، وقد عرض لإنكار أمر يقره جمهرة المسلمين وفيهم أئمة كبار لهم بَصَر بالنقد والتعديل والتجريح للــرواة، أن ينقد سند القصة نقداً تفصيلياً، أما وقد أتى به نقداً مجملاً فهو معارض بتوثيق أئمة كبار لسند هذه القصة، وقد سمعتَ آنفاً أن القصة رواها الإمام مسلم في صحيحه وإن كانت مجملة، وأن بعض أسانيد القصة إن لم تكن صحيحة فهي حسنة وجيدة وتصلح للاحتجاج بها، بل قصة الشق ليلة الإسراء والمعراج مروية في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث، بل قال بعض العلماء المحققين: إنها متواترة.

قال الحافظ ابن حجر بعد أن عرض لذكر الروايات الدالة على شق الصدر وتكرره: «وجميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له، دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك». وقال القرطبي في «المفهم»: «لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء والمعراج، لأن رواته ثقات مشاهير» وطبعي أن من صدق به ليلة الإسراء والمعراج يلزمه التصديق به في الصغر، وعند البعثة ما دام الأمران ثابتين بالروايات التي يحتج بها.

أما ما قيل: من أن ابن إسحاق رواها مرسلة عن رجل لم يُسَمَّ من الصحابة فلا ينهض للطعن، إذ المعروف في قواعد «أصول الحديث» أن الصحابة عدول، فلا تضر جهالة الصحابي.

٦ ــ أما قولهم: إن القصة رواها طفل صغير في سن ليست سن تمييز.. فهذا بَنَوْه على ما ذكره ابن إسحاق، وقد قدَّمتُ أن الصحيح الذي رجَّحه أئمة النقد والرواية أن الشق كان في السنة الرابعة، أو أوائل الخامسة، وهي سن تمييز، ولا سيما من مثل النبي وأخيه السَّعْدي. وأنا أذكر أحداثاً وقعتْ لي وأنا في الرابعة أو دونها، ولا أنساها أبداً، وكأنها ماثلة أمامي الآن،

وهي دون قصة الشق. والكثيرون من الناس يذكرون مثل ذلك. والمحققون من المحدثين على عدم تحديد سن التحمل بخمس سنين، بل قالوا: المعوَّل عليه التمييز، وقد يكون ابن أربع سنين وهو مميِّز أكثر من ابن خمس أو ست، وقد يكون ابن خمس مثلاً وتمييزه دون تمييز ابن أربع[1]، ومما ذكرناه يتبين الرد على من نقد متن القصة بأنها مخالفة لما روي أنه أقام في بني سعد إلى خمس سنوات. وأن النقد أصبح غير مقبول بعد أن بينت الرأي الصحيح الراجح.

خـاتم النبوة

قد وردت روايات عدة تفيد أنه ﷺ كان في جسده قطعة لحم ناتئة عليها شَعَر عند كتفه الأيسر كزرّ الحجلة[2]، كما في صحيح البخاري، ومسلم، أو كبيضة الحمامة كما في صحيح مسلم، وهي ما كان يعرف بخاتم النبوة. والروايات تدل على أن هذا الخاتم كان من علامات نبوته في الكتب السابقة، كما تدل على ذلك قصة بحيرى الراهب. فقد تحايل حتى رآه، ثم قال لعمه أبـي طالب ما قال.

والصحيح أن هذا الخاتم تكوَّن بعد الولادة، وأنه على الأصح كان بعد قصة شق الصدر، وأما القول بأنه ولد به أو ختم به عقب الولادة فضعيف[3].

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن السائب بن يزيد قال: ذهبتْ بـي خالتي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن ابن أختي وجع، فمسح رأسي، ودعا لي بالبركة، ثم توضأ فشربتُ من وضوئه، وقمت خلف ظهره، فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زرّ الحجلة. وروى مسلم بسنده عن جابر بن سمرة قال: «رأيت خاتماً في ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام»[4].



(١) علوم الحديث للمؤلف، ص ١٠.

(٢) الحجلة ـ بفتح الحاء والجيم ـ: الخيمة المزينة بالستور، وزرها هي البكرة التي تربط بها الحبال، وقيل: الحجلة طائر، وزرها بيضتها.

(٣) شرح المواهب، ج ١ ص ١٩٢.

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب المناقب ـ بـاب خاتم النبوة، وصحيح مسلم ـ كتـاب الفضائل ـ باب صفة خاتم النبوة.

الفصل الثالث
النبي عليه السلام
في كفالة أمه، ثم جده، ثم عمه

ها هو ذا النبي ﷺ قد عادت به حليمة بعد حادثة شق الصدر في مبتدأ سنته الخامسة، وقد شبَّ عن الطوق، وقوي جسمه، وغلظ عوده، وبلغ من النضرة وميعة الصبا ما لم يبلغه صبي في مثل عمره، وقد عاش في كنف الأم الحنون، وأضحى هو كل شيء في حياتها، إذ ليس هناك ما يشغلها أو يلهيها عنه، ودرج في كفالة جده الشيخ الذي كان يحنو عليه أكثر من حنوه على أبنائه، وقد وجد فيه عوضاً عن أحب أبنائه إليه.

الذهاب إلى المدينة

فلما بلغ النبي السادسة من عمره ارتأت أمُّه أن تذهب به إلى أخوال جده عبدالمطلب بالمدينة من بني النجار، ليرى مكانة هؤلاء الأخوال الكرام، وقد كان لهذه الخؤولة اعتبارها لمَّا هاجر فيما بعد إلى المدينة، وليقضيا حق الحبيب المغيَّب رَمْسه في تراب المدينة، وأغلب الظن أن تكون الأم حدَّثت ابنها بقصة أبيه، ومفارقته الدنيا وهو في شرخ شبابه، وأن الابن تاقت نفسه إلى البلد الذي ضم رُفات الأب.

وخرجت الأم والابن ومعهما أم أيمن بركة الحبشية جارية أبيه، ووصل الركب إلى المدينة. وكان المقام في دار النابغة من بني النجار، ومكثوا عندهم شهراً، وزاروا الحبيب الثاوي في قبره، وحرَّكت الزيارة لواعج الشوق والأحزان في نفس الأم والابن، وانطبع معنى اليتم في نفس النبي بعد أن كان لاهياً عنه.

وبعد أن قضوا حاجات النفس عاد الركب إلى مكة، وفي الطريق بين

المدينة ومكة مرضت الأم، وحُمَّ القضاء، ودفنت بقرية (الأبواء)[1]، وجلس الابن يذرف الدمع سخيناً على فراق أمه، التي كان يجد في كنفها الحب، والحنان، والسلوى، والعزاء عن فقد الأب، وهكذا شاء الله ـ سبحانه ـ للنبي ﷺ، ولما يجاوز السادسة، أن يذوق مرارة فقد الأبوين.

وكان النبي ﷺ يذكر أموراً في زَوْرته تلك، فقد نظر إلى دار بني النجار بعد الهجرة قائلاً: «هنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله، وأحسنت العَوْم في بئر بني عدي بن النجار»[2].

وكان النبي ﷺ كلما مرَّ بقبر أمه زاره، ويبكي، ويُبْكي من حوله، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: «زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، ثم قال: «استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور تذكركم الموت»[3].

وروى الإمام أحمد بسنده عن بُرَيدة قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا (بوَدَّان)[4] قال: «مكانكم حتى آتيكم» فانطلق، ثم جاءنا وهو ثقيل، فقال: «إني أتيت قبر أم محمد، فسألت ربي الشفاعة ـ يعني لها ـ فمنعنيها، وإني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». وروى البيهقي بسنده عن بُرَيدة قال: انتهى النبي ﷺ إلى رَسْم قبر فجلس، وجلس الناس حوله، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب، ثم بكى فاستقبله عمر، فقال: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «هذا قبر آمنة بنت وَهْب، استأذنت ربي في أن أزور قبرها، فأذن لي، واستأذنته الاستغفار لها فأبى علي، وأدركتني رقتها فبكيت». قال: فما رُئِيْت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة[5].

---

(١) قرية بين مكة والمدينة.

(٢) شرح المواهب، ج ١ ص ١٦٧، ١٦٨.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٧ ص ٤٦.

(٤) مكان قريب من الأبواء.

(٥) البداية والنهاية، ج ٢ ص ٢٠٣، ٢٠٤.

في كفالة جده عبدالمطلب

وبعد موت أم النبي ﷺ كفله جده عبدالمطلب، وضمَّه إليه، ورقَّ عليه رقَّة لم يرقَّها على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا، وإذا نام، ولا يأكل طعاماً إلا يقول: «عليَّ بِابْنِي» فيؤتى به إليه، وبذلك عوَّضه الله بحنان جده عن حنان الأبوين، وكانت حاضنته بعد وفاة أمه هي أم أيمن(١)، وكان النبي لما كبر يعرف لها ذلك ويقول: «هي أمي بعد أمي» وكان عبدالمطلب كثيراً ما يقول لها: يا بركة لا تغفلي عن ابني، فإني وجدته مع غلمان قريب من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا نبيّ هذه الأمة.

وكان الجد يسر لما يرى من مخايل الشرف والعزة على حفيده محمد، فقد كان لعبدالمطلب فراش يوضع في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان النبي ﷺ يأتي وهو غلام يافع فيجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبدالمطلب، والغبطة تملأ نفسه: «دَعُوا ابني، فوالله إن له لشأناً!!» ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيمينه، ويضمُّه إليه.

فلما حضرت عبدالمطلب الوفاة أوصى ابنه أبا طالب(٢) بكفالة النبي وحياطته، ثم مات عبدالمطلب، ودفن بالحجون، وكانت سن النبي ثماني سنين.

كفالة عمه أبي طالب له

ثم كفله عمه أبو طالب، ولم يكن أبو طالب بأكبر بني عبدالمطلب، ولا بأكثرهم مالاً، ولكنه كان أشرف قريش وأعظمها مكانة، وأكرمها نفساً، وقد أحب أبو طالب ابن أخيه محمداً حباً شديداً، لا يحبه أحداً من ولده، فكان

(١) هي بركة الحبشية بنت ثعلبة بن حصن كانت لأبيه، ثم انتقلت إليه، أسلمت قديماً، وهاجرت الهجرتين، وقد صح أنها ماتت بعده ﷺ بخمسة أشهر، وقيل بسنة، وقيل في خلافة عمر، وقيل في خلافة عثمان.

(٢) لأن أبا طالب كان أخاً شقيقاً لعبدالله.

لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وصَبَّ به صَبابة[1] لم يصبَّ مثلها بشيء قط.

وكان يخصه بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان إذا أراد أن يؤكلهم قال: كما أنتم حتى يأتي ولدي، فيأتي النبي فيأكل معهم، فكانوا يفضلون من طعامهم، فيعجب أبو طالب ويقول: إنك لمبارك.

وكان الصبيان يصبحون رُمْصاً شُعْثاً[2]، ويصبح محمد دهيناً كحيلاً. وقد زاده حباً في نفسه ما كان يتحلَّى به النبي في صباه من طيب الشمائل، وكريم الآداب في هيئة الأكل، والشرب، والجلوس، والكلام، مما يعز وجوده في هذه السن بين الصبيان، ويدل على أن الله سبحانه فطره من صغره على خير الخلال والآداب.

* * *

---

(١) أحبه حباً عظيماً.

(٢) جمع أرمص، والرمص قذر يكون في موق العين، وشعثاً: جمع أشعث أي ثائر شعر الرأس.

رعيــه الغــنم

وقد اشتغل النبي ﷺ في صباه برعي الغنم: رعاها لأهله، ورعاها لبعض أهل مكة، وبذلك ضرب مثلاً عالياً من صغره في اكتساب الرزق بالكد والتعب، وكان النبي ﷺ يذكر ذلك في كبره وهو مغتبط مسرور، روى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: «افتخر أهل الإبل والغنم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي: «الفخر والخيلاء في أهل الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم»، وقال: «بُعث موسى وهو يرعى غنماً لأهله، وبعثت أنا وأنا أرعى غنماً لأهلي بجياد»[1]، وقال: «ما بعث الله نبياً إلا وقد رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط[2] لأهل مكة»[3].

والحكمة في رعي الأنبياء الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم بالتمرن والتعود على رعايتها القدرة على رعاية أممهم، والقيام بشؤونهم، إذ في رَعْيها ما يحصل لهم الحلم، والشفقة والرحمة، ويعودهم من الصغر الصبر، وطول البال، والأناة والتريث، وزجر الباغي، وجبر كسر الضعيف، ويربِّي فيهم ملكة الحرص على المصلحة، ودفع المضرة، وحسن التعاهد، والرفق بمن تحت أيديهم، والسهر على مصلحتهم، وفي الحديث النبوي السابق الذي رواه أحمد ما يشير إلى هذه المعاني.

---

(١) مكان أسفل مكة.
(٢) قراريط جمع قيراط، وهو جزء من الدينار أو الدرهم، يعني يرعاها بأجر.
(٣) رواه البخاري.

هذا إلى ما في رعي الغنم من قضاء نهاره وبعض ليله في البادية، فيتمتع بالسماء الصافية، والشمس المشرقة، والهواء النقي، ويطيل التأمل والنظر في السماء ذات الأبراج، والأرض ذات الفجاج، والجبال ذات الألوان، وبذلك يصير التأمل والتدبر ملكة من ملكات النفس.

* * *

صحبته لعمه إلى الشام

ولما بلغت سنه ﷺ الثانية عشرة خرج عمه أبو طالب في تجارة له إلى الشام، فتعلقت نفس ابن أخيه به، ورغب في مصاحبته، فرقَّ له عمه، واستصحبه معه حتى وصل الركب إلى (بصرى) من بلاد الشام، وكان بها راهب يقال له (بَحِيرَى)[1] عنده علم بالكتب السماوية السابقة، وقد علم منها أنه قد آن مبعث نبـي آخر الزمان وأنه من العرب.

وقد جذب انتباهه إلى القافلة أنه رأى غمامة تظلل شخصاً منهم، فصنع لهم طعاماً على غير عادته ودعاهم إليه، وهنا تختلف الروايات: ففي بعضها أنهم حضروا بما فيهم النبي، وفي بعضها أنهم حضروا جميعاً وتركوا النبـي عند رحالهم تحت شجرة قريبة منهم، فلما حضروا تفرَّس فيهم فلم يجد صاحب الصفة التي يعرفها، فرغب في حضوره فأحضروه، فلما حضر صار يتفرَّس فيه ويتعرف على بعض صفاته، ثم تحايل حتى رأى خاتم النبوة بين كتفيه على صفته التي عندهم في الكتب، فأقبل على أبـي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون أبوه حياً!! قال أبو طالب: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه، وعرفوا ما عرفت لَيَبْغُنَّه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم.

---

(١) بحيرى: بفتح الباء وكسر الحاء مقصوراً هو من علماء النصارى، قيل: كان من نصارى عبدالقيس، وقال السهيلي وصاحب الإصابة: وقع في سيرة الزهري أن بحيرى كان حبراً من أحبار يهود تيماء.

وما إن فرغ أبو طالب من بيع تجارته حتى عاد به مسرعاً إلى مكة، وقد اشتد حرصه عليه وحبه له، ولم تذكر لنا الروايات أكثر مما سمعتَ ولم يسمع منه النبي شيئاً من علوم أهل الكتاب، ولا قرأ عليه بحيرى شيئاً من كتبهم، ولو حدث شيء من هذا لحدَّث به أفراد الركب ولا سيما بعد بعثته لما سبَّ آلهتهم، وسفَّه أحلامهم، وعاب دينهم.

حرب الفِجار[1]

ولما بلغ النبي ﷺ أربع عشرة سنة شهد حرب الفجار، وكانت بين قريش وغيرها من قبائل كنانة وأحلافها، وبين قيس وأحلافها، وسببها أن النعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة بعث بقافلة له إلى سوق عكاظ، وكان في حاجة إلى من يجيرها له، فجلس يوماً وعنده البَرَّاض بن قيس الكناني، وعروة بن عتبة الرَّحَّال، فقال: من يجير لي تجارتي حتى تبلغ عكاظ، فقال البرَّاض بن قيس: أنا أجيرها على بني كنانة، وكان البرَّاض فاتكاً خليعاً خلعه قومه لكثرة شره، فقال النعمان: أنا أريد من يجيرها على الناس كلهم.

فقال عروة: أبَيْتَ اللعن، أكلبٌ خليع يجيرها لك؟ يريد البراض، أنا أجيرها على أهل الشِيح والقَيْصوم[2] من أهل نجد وتهامة، فقال البَرَّاض: أتجيرها على كنانة يا عروة؟ قال: نعم، وعلى الناس كلهم!!

فأحفظ ذلك البرَّاض، فتربَّص بعروة حتى إذا خرج بالتجارة قتله غدراً وأخذ القافلة، وكانت قريش بعكاظ، فأتاهم آتٍ فأخبرهم بما كان من البرَّاض، فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم، فلما بلغ هوازن قتل عروة اتَّبعت قريشاً فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى لاذت قريش بالحرم، فتواعدوا العام المقبل بعكاظ، وقد دامت هذه الحرب أربع سنوات حتى ألهم الله سبحانه أحد عقلاء الفريقين فدعا إلى الصلح، فاستجابوا له بعد أن أنهكتهم الحرب على

---

(١) بكسر الفاء على وزن قتال سميت كذلك لوقوعها في الأشهر الحرم التي حرم الله فيها القتال.

(٢) نبتان من نبات البادية والمراد على أهل البادية كلهم.

أن يدفع من كان أقل قتلى دية من زاد من القتلى، فدفعت قريش لهوازن دية عشرين رجلاً.

وقد حضر النبي هذه الحرب مع أعمامه، قيل: كان يرمي معهم، وقيل كان يَنْبُل لهم[1]، ولـمّا ذُكر هذا اليوم بعد النبوة قال النبي ﷺ: «قد حضرته مع عمومتي، ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت»[2].

حلف الفضول

وكان حلف الفضول بعد حرب الفجار بأربعة أشهر، وكان أكرم حلف وأفضله في العرب في الجاهلية، وسببه أن رجلاً من قبيلة (زُبَيد) باليمن قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي وأبى أن يعطيه حقه، فاستعدى عليه الزُّبَيدي الأحلاف: عبدالدار، ومخزوماً، وجُمَحاً، وسَهْماً، وعديَّ بن كعب، فأبَوا أن يعينوه على العاص بن وائل وانتهروه، فلما رأى الزبيدي الشر صعد على جبل أبي قُبَيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فاستصرخهم لرد ظلامته قائلاً:

يا آلَ فِهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
إنَّ الحرامَ لمن تمت كرامتُه ... ولا حرامَ لثوب الفاجر الغَدِر

فقام الزبير بن عبدالمطلب فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم، وزُهرة، وبنو تَيْم بن مرة في دار عبدالله بن جُدْعان، فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونُنَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه ما بلَّ بحرٌ صوفة، وما بقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما[3].

فسمّت قريش هذا الحلف «حلف الفَضُول» وقالوا: لقد دخل هؤلاء في

---

(1) يجمع السهام التي ترمى بها هوازن ويناولها لأعمامه.
(2) الطبقات الكبرى، ج ١ ص ١٢٨.
(3) الكلمتان كنايتان عن التأبيد.

فضل من الأمر، ثم مَشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه. وقيل: إنما سمي حلف الفضول لأنه أشبهَ حلفاً تحالفته جرهم على هذا: من نصر المظلوم وردع الظالم، وكان دُعي إليه ثلاثة من أشرافهم اسم كل واحد منهم (فضل) وهم: الفضل بن فضالة، والفضل بن وداعة، والفضل بن الحارث فيما قال ابن قتيبة، وقال غيره: الفضل بن شراعة والفضل بن بضاعة، والفضل بن قضاعة، وفي هذا الحلف قال الزبير بن عبدالمطلب:

إن الفضول تعاقدوا، وتحالفوا ألاَّ يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتر[1] فيهم سالم

وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف الذي رفعوا به منار الحق، وهدموا صرح الظلم، وهو يعتبر من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان، وقد روي أن النبي ﷺ قال: «لقد شهدت بدار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحبُّ أن لي به حُمْر النَّعَم، ولو دُعيت لمثله في الإسلام لأجبت».

تجارة النبي لخديجة في مالها

كانت خديجة ــ رضي الله عنها ــ سيدة تاجرة ذات شرف، ومال، وتجارة تبعث بها إلى الشام. وكانت تستأجر الرجال، وتدفع إليهم المال مضاربة[2]. وكانت قريش قوماً تُجّاراً، ومن لم يكن تاجراً فليس عندهم بشيء.

وكان النبي قد ناهز العشرين من عمره المبارك، وأصبح شاباً جَلْداً قوياً، أعز الطالع، ميمون النقيبة، يزين شبابه الغض ما يتمتع به من حلو الشمائل، وكرم الأخلاق: من أمانة، وصدق حديث، وعفة، وعزوف عما ينغمس فيه أمثاله من الشباب من لهو ومجون، فكان ذلك مما وجَّه نفس السيدة خديجة إلى أن يعمل لها في تجارتها، فأرسلت إليه، فلما جاء إليها قالت له: دعاني إلى طلبك

(١) المعتر: الزائر من غير البلاد.
(٢) يعني يعملون لها في التجارة ولهم نصيب من الربح.

ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك، فذكر ذلك لعمه أبـي طالب، فقال له: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

وفي رواية أخرى أن أبا طالب هو الذي عرض على النبي أن يعمل لها في تجارتها، وأنها ــ ولا شك ــ ستفضله على غيره، وأن أبا طالب هو الذي سعى إليها، وقال لها: هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً ببَكْرين، ولن نرضى لمحمد إلا بأربعة أبكار، فقالت هذه الكلمة التي تنم عن تقدير صادق، وحس مرهف، وشعور يفيض بالحب والحنان: لو طلبتَ هذا لِبغيضٍ بعيدٍ لأجبتك، فكيف، وقد طلبته لحبيب قريب!!

فرجع الشيخ أبو طالب مغتبطاً، وحدَّث ابن أخيه بما سمع، ولا تَسَلْ عما كان لهذه الكلمات الصادقة من أثر في نفس النبي الشاب.

الخروج بالتجارة

ثم خرج النبي بتجارة خديجة إلى الشام وكانت سنّه تخطو إلى الخامسة والعشرين، وكان خروجه لأربع عشرة ليلة من ذي الحجة ومعه غلام خديجة (مَيْسَرة)، حتى وصل سوق (بصرى) في رواية، وسوق حُبَاشَة[1] في رواية أخرى بتهامة، فنزل تحت ظل شجرة في سوق بصرى قريباً من صومعة راهب يسمى (نسطورا)[2] فقال: يا مَيْسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال: رجل من قريش من أهل الحرم، فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة ــ وفي رواية بعد عيسى ــ إلا نَبِـيّ!!.

ولا تَسَلْ عما غمر نفس ميسرة من حب، وتقدير، وإكبار لسيده محمد، لقد رأى تظليل الغمام له في مسيره هذا، ولمس عن كثب الكثير من أخلاقه،

(١) بضم الحاء المهملة، وفتح الباء الموحدة، فألف، فشين معجمة، فتاء تأنيث، قال في الروض الأنف: سوق من أسواق العرب.
(٢) بفتح النون وسكون السين، وضم الطاء وألف مقصورة.

وبره، وعطفه، وحسن معاملته، وأمانته، وسمع من نسطورا ما سمع، فلا عجب إذا كان حدَّث سيدته بعد عودته بما رأى وما سمع، وما وجده منه من حسن الخلق.

وباع النبي التجارة وابتاع، وعاد بربح وفير، وعاد معه غلام خديجة، ووصل الركب في الظهيرة إلى مكة، وخديجة في عِلِّيَّة لها[1]، فرأت النبي تكسوه المهابة والجلال، فلما دخل عليها أخبرها بخبر التجارة وما ربحت، فسرت لذلك سروراً عظيماً، وخرج النبي، وترك ميسرة يقص على سيدته من شأن سيده محمد ما شاءت له نفسه أن يقص.

افتراءات المستشرقين ودسهم

قد سمعتَ آنفاً ما قاله الراهب (نسطورا) في شأن النبي، وما قاله من قبل (بَحِيرى) لعمه أبي طالب، ولم تذكر الروايات الموثوق بها شيئاً غير هذا، ولكن قد جرى بعض كتّاب السيرة من المستشرقين أو إن شئت فقل المبشِّرين ومتابعيهم من الكتاب المسلمين أن يحمِّلوا الروايات ما لا تتحمل، وأن يدسوا السم في الدسم، وأن يطلقوا لخيالهم الجامح العنان، كأنما يؤلفون رواية مسرحية، لا أعظم سيرة لنبي، توفر لها من دواعي الصدق، والثبوت، وتحرِّي الحقيقة ما لم تحظ به سيرة في الدنيا!!.

فزعموا أن النبي قابل في هاتين الرحلتين: رحلته مع عمه، ورحلته لخديجة بعض الرهبان وأخذ عنهم، وأنهم جادلوه، وجادلهم في أمر عيسى وأمر غيره، وغرضهم بهذا أن يلقوا في أوهام بعض القارئين أن النبي استفاد من هؤلاء، وانطبعت في ذهنه معارفهم، ثم فاض ذلك على لسانه فيما جاء به من قرآن، كي يصلوا إلى أن القرآن من عند النبي، وأن ما زعمه وحياً هو أمر نابع من نفسه، على ما يرون من فكرة الوحي النفسي[2].

وإذا جاز هذا التجني والدس من المبشرين والمستشرقين استجابة

(١) غرفة عالية. وهي بكسر العين ــ والضم لغة ــ وكسر اللام المشددة وفتح الياء المشددة.
(٢) سنعرض لإبطالها عند الحديث عن الوحي.

لعصبيتهم، وما رضعوه في ألبان أمهاتهم من صليبيتهم، فما كان ينبغي ولا يجوز أن يقلدهم في هذا بعض الكتاب المعاصرين من المسلمين!!.

وإليك ما ذكره الدكتور هيكل في كتابه: «خرج محمد مع مَيْسرة غلام خديجة بعد أن أوصاه أعمامه به، وانطلقت القافلة في طريق الصحراء إلى الشام مارة بوادي القُرى، ومَدْيَن، وديار ثمود، وبتلك البقاع التي مر بها مع أبي طالب، وهو في الثانية عشرة من عمره، فأحيت هذه الرحلة في نفسه ذكريات الرحلة الأولى، كما زادته تأملاً وتفكيراً في كل ما رأى وسمع من قبل سفره بالشام، أو بالأسواق المحيطة بمكة، فلما بلغ (بصرى) اتصل بنصرانية الشام، وتحدَّث إلى رهبانها وأحبارها، وتحدَّث إليه راهب نسطورا وسمع منه، ولعله أو لعل غيره من الرهبان قد جادل محمداً في دين عيسى، هذا الدين الذي انقسم يومئذ شيعاً وأحزاباً كما بسطنا من قبل»[1].

وهذا الكلام الذي ذكره هيكل الباحث المسلم، وهذه الفروض والتخمينات قد اتبع فيها (در منغم) حذوَ النعل بالنعل[2]، ولا أدري كيف غاب عنه أن مَدْين ليست في طريق الشام؟؟ ثم من هم نصارى الشام الذين تحدث إلى رهبانهم وأحبارهم؟ كنا نحب منه أن يؤيد ما يقول ويذكر لنا غير من جاءت بهم الرواية من (بحيرى) و(نسطورا)، وما القيمة العلمية لكلمة «لعل» و«الفروض» في مثل هذا البحث الذي يتصل بحياة أعظم إنسان عرفته الدنيا؟! ثم من قال: إن النبي كان عنده علم بمذاهب أهل الكتاب وعقائدهم قبل النبوة؟.

ولو أن النبي أخذ عنهم، واستفاد منهم كما زعموا لردُّوا عليه حينما عرض في صراحة لبطلان عقائدهم، وفساد مذاهبهم، ولقالوا له نحن الذين علمناك، فكيف تجحد فضلنا، وتطعن في ديننا؟.

ولا ندري أنصدق (درمنغم) ومتابعيه أم نصدق الحق تبارك وتعالى حيث قال:

---

(١) حياة محمد، لهيكل، ص ١١٣، ١١٤.

(٢) حياة محمد، لدر منغم، ص ١٢٥، ١٢٦.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا(1) مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾(2) ؟!.

ثم أي نصارى الذين أخذ عنهم النبي؟ النصارى المحرِّفون؟! أم النصارى المخرِّفون؟! وإليك صورة للنصرانية في هذا العهد بشهادة النصارى أنفسهم، يقول مولانا محمد علي: «ولكن كيف كانت حالة النصرانية في ذلك العهد؟ فلنرجع إلى شهادات الكُتّاب النصارى أنفسهم في هذا الموضوع، فقد رسم أحد الأساقفة صورة لتلك الأيام فقال: إن المملكة الإلهية كانت في اضطراب كلي، بل إن حالة جهنمية حقيقية كانت قد أقيمت على سطح الأرض نتيجة للفساد الداخلي، وقد عالج السير (وليم موير) هذا الموضوع فانتهى إلى النتيجة نفسها قال: «وفوق هذا فقد كانت نصرانية القرن السابع نفسها متداعية فاسدة، كانت معطلة بعدد من الهرطقات المتنازعة، وكانت قد استبدلت بإيمان العصور الأولى السمح صغارات الخرافة وصبياناتها».

تلك صورة للنصرانية تمثل وضعها العام آنذاك، كانت وحدة الذات الإلهية قد احتجبت منذ عهد بعيد، وكانت عقيدة التثليث قد أدت إلى نشوء تعقيدات متعددة، وتنافست الفرق والهرطقات المختلفة في قدح زناد الفكر لتفسير هذه العقيدة، وأدى ذلك إلى إنشاء جمهرة من المؤلفات أبعدت الإنسان عن هدف الدين الحقيقي»(3).

يتبين لك أيها القارىء المنصف أن ما ذكروه لا بد وأن يكون ظنوناً وتخمينات، وليس من البحث العلمي الصحيح في شيء.

* * *

---

(1) أي حياة لأنه تحيى به القلوب، وتصلح به النفوس.
(2) الآيتان ٥٢، ٥٣ من سورة الشورى.
(3) حياة محمد ورسالته، ص ١٠، ٢١.

الفَصْلُ الرَّابِعُ
زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ بِخَدِيجَة

حدثناك آنفاً عن سفر النبي بتجارة السيدة خديجة، وصحبته غلامها مَيْسرة، وطبعي أن ميسرة حدثها بكل ما رأى وما سمع، وكانت خديجة ابنة عم ورقة بن نوفل، وكان عنده علم بالكتب السابقة، فحدثته بما حدثها به غلامها، فقال لها: «إن كان هذا حقاً يا خديجة فإن محمداً نبيّ هذه الأمة»!!.

ورجعت بها الذاكرة إلى حادثة تركت في نفسها أثراً، فقد روى ابن إسحاق أنها كانت بين لِداتها القرشيات يوم عيد، فجاءهن يهودي، فقال: يا معشر نساء قريش، إنه يوشك فيكن نبيّ قَرُب وجوده، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل، فحصبه النساء، وأغلظن له، وعضّت خديجة على قوله، ووقع في نفسها ذلك، وكان لهذا وذلك أثره البالغ في نفس خديجة. وهفا القلب العفيف الطاهر إلى الشاب الأمين المأمون، ولكن ماذا تفعل؟ أتعرض نفسها عليه؟ أم ترسل له من تتحسس الأمر وتتعرف رغبته؟.

هنا تختلف الرواية، فمن قائل[1]: أنها أرسلت إليه، وقالت له: يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسِطَتك[2] في قومك، وأمانتك، وحسن

---

(١) هي رواية ابن إسحاق.
(٢) شرفك.

خلقك، ومن قائل[1]: إنها أرسلت إليه نُفَيْسة بنت مُنْية[2] ولعل هذا هو الأقرب، وسأدع نُفَيسَة تقص علينا القصة قالت:

كانت خديجة امرأة حازمة جَلْدة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكلُّ قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك. قد طلبوها، وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به»، قالت: فإن كُفيت ذلك، ودُعيت إلى المال، والجمال، والشرف، والكفاءة، ألا تجيب؟ قال: «فمن هي»؟ قالت: قلت: خديجة، قال: «وكيف لي بذلك؟»، قالت: قلت: علي، قال: «فأنا أفعل»، فأعلمت خديجة أهلها، فوجدت منهم قبولاً وترحيباً، وحدَّدت للنبي وأهله موعداً يحضرون فيه، وذكر النبي ذلك لأعمامه، فخرج معه عمَّاه: أبو طالب، وحمزة حتى جاؤوا بيت خديجة، فوجدوا عندها عمها عمرو بن أسد حاضراً، فخطبها منه أبو طالب لابن أخيه محمد، فوافق ورحَّب وقال: هذا الفَحْل لا يُقدع أنفه[3]، وخطب أبو طالب خطبة الإملاك[4]، وهي تنم عن فضائل النبي وخصائصه، وشرفه، وشرف آبائه، وهي قطعة من بليغ الكلام، وفصيح القول.

وهذا الذي ذكرناه من أن الذي ولي تزويجها هو عمها هو الذي عليه أكثر علماء السِيَر، وهو الصحيح كما قال السهيلي، فإن أباها كان قد مات قبل ذلك.

---

(١) هي رواية ابن سعد عن الواقدي.

(٢) نُفَيسة: بضم النون، وفتح الفاء على صورة المصغر. ومنية بضم الميم، وسكون النون، وفتح الياء المثناة، نسبة إلى أمها، وفي بعض الكتب: بنت أمية وهو أبوها، وهي أخت يَعْلَى الصحابي المشهور.

(٣) مثل يضرب للكفء الكريم، وأصل المثل: أن العرب كانوا إذا وجدوا الفحل ــ الذكر من الإبل ــ غير كريم ضربوا أنفه ومنعوه عن الناقة، فإن كان كريماً تركوه فذهب مثلاً في العرب.

(٤) إعلان الزواج.

قال الواقدي: الثَّبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها مات قبل حرب الفجار، وأن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها لمزيد حفظ الثبت وهو الزُّهْري، خصوصاً وقد رواه عن صحابي من السابقين[1]، وكذلك ذكر الطبري ــ وهو من ثقات المؤرخين ــ أن عمها عَمْراً هو الذي أنكحها رسول الله ﷺ، وأن خويلداً مات قبل الفجار[2]، ويرى ابن إسحاق أن أباها هو الذي زوجها وهو رأي ضعيف.

بطلان بعض المرويات

ومن ثَمَّ يتبين لنا تهافت ما روي أن أباها امتنع من تزويجها، وأنهم سقوه الخمر حتى ثَمِل فرضي، وأنهم ألبسوه المزعفر، فلما صحا من سكره أخبروه فأنكر عليهم ذلك، فما زالت به خديجة حتى رضي، وهي رواية باطلة مدسوسة لمخالفتها للنقل الصحيح على ما ذكرنا.

ثم هي مخالفة للواقع، وللظروف، والبيئة، فبنو هاشم في الذروة من قريش نسباً وشرفاً، وقد صدع بها أبو طالب في مجمع حافل بالسادات فما نازعه فيها منازع، ثم إن مثل النبي في شبابه الغض، ورجولته النادرة، وخلقه الكامل ممن تطَّاول إلى مصاهرته أعناق الأشراف، وهذا أبو سفيان بن حرب وهو من هو في عداوته للنبي وبني هاشم، لما بلغه أن النبي تزوج السيدة أم حبيبة ابنته، ولم يكن أسلم بَعْدُ قال: «هذا الفحل لا يُقدع أنفه».

دسّ المستشرقين

ومن العجيب حقاً أن رجلاً مثل (در منغم) لم يذكر في كتابه غير هذه الرواية المتهافتة، وقدَّم لذلك بكلام يشعر أن النبي في منزلة دون منزلة خديجة، وأن عشيرته دون عشيرة بني مخزوم (كذا)، وجعل النبي أجيراً لخديجة فلا يليق أن يكون زوجاً، إلى آخر ما تخيل من تخيلات، وافترض من تُرَّهات[3]، مع أنه

---

(١) شرح المواهب، ج ١.

(٢) تاريخ الطبري، ج ١.

(٣) حياة محمد، لدر منغم، ص ٦٨.

أنحى باللائمة في مقدمة كتابه على المتعصبين والمتغالين في نقد النبي، حتى كانت كتبهم عامل هدم، على الخصوص وأنه سلك مسلكاً وسطاً بين المتقدمين، ومغالاة بعض المستشرقين المغالين في النقد، وأنه سيعول في كتابه على المصادر القديمة والنقد الحديث[1]، وقد وقع فيها آخذ غيره عليه، وهل من التعويل على المصادر القديمة ذكر الضعيف المتهافت، وترك الصحيح؟! وهل من النقد الحديث تجاهل البيئة والظروف والأعراف التي كانت سائدة وتجاهل الواقع الملموس؟ الحق أن المستشرقين مهما ادّعوا الأنصاف فكتاباتهم تنقض ما يدَّعون.

خطبة أبـي طالب

قال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضىء معدّ، وعنصر مُضَر[2]، وجعلنا حَضَنة بيته[3]، وسُوَّاس حَرَمه[4]، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكّام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل من قريش شرفاً ونبلاً وفضلاً إلاّ رجح به، وهو وإن كان في المال قل[5]، فإن المال ظل زائل[6]، وأمر حائل[7]، وعارية[8] مسترجعة، ومحمد مَنْ عرفتم قرابته، وهو ــ والله ــ بَعْدَ هذا له نبأ[9] عظيم، وخطر جليل جسيم[10]، وله في خديجة بنت خويلد رغبة،

(١) المرجع السابق، ص ٨.

(٢) ضئضىء: أصل، وكذلك معنى عنصر. وغاير للتفنن والإضافة بيانية أي أصل هو معد، ومضر، وخصهما لشرفهما وشهرتهما، وقيل: الضئضىء: المعدن.

(٣) المنافحين عنه.

(٤) القائمين على شؤونه.

(٥) بضم القاف أي قلة.

(٦) سريع الزوال.

(٧) لا بقاء له.

(٨) عند هذا يوماً، وعند الآخر يوماً آخر.

(٩) نبأ: خبر، وهي النبوة.

(١٠) أثر جليل كبير، وهذا ما كان فقد كون أمة مثالية، وصنع التاريخ من جديد.

ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق[1] فعلي».

وقد أمهرها أبو طالب اثنتي عشرة أوقية ونَشّاً[2]، يعني خمسمائة درهم، وأصدقها رسول الله زيادة على ذلك عشرين بَكرة.

الوليمة والعرس

وبنى النبي بخديجة، وأولم عليها: نحر جزوراً أو جزورين، وأطعم الناس، وأمرت خديجة جواريها أن يُغنِّين، ويضربن بالدفوف، فقد بلغت مناها، وتم الفرح والسرور، ولله در البوصيري حيث قال:

ورأته خديجة والتقى والزهـــ ـــد فيه سجية والحياء
وأتاها أنَّ الغمامة والسَّرْحَ[3] أظلته منهما أفياء
وأحاديث أن وعد رسول اللّـــ ـــه بالبعث حان منه الوفاء
فدعته إلى الزواج وما أحسن أن يبلغ المنى الأذكياء

وكان عمر النبي حينئذ خمساً وعشرين سنة، وكان عمرها أربعين أو تزيد قليلاً، ونعمت خديجة بالزواج الذي لم تعرف له الدنيا مثيلاً في تاريخ الأزواج، ونعم النبي بهذا الزواج الميمون المبارك، فقد كانت خديجة حازمة، عاقلة، طاهرة، عَرُوباً لزوجها، وواست النبي بالنفس والمال، ورزقه الله سبحانه وتعالى منها البنين والبنات، فولدت له: القاسم وبه كان يكنى، وعبدالله[4]، وقيل: ثلاثة بزيادة الطيب، وقيل: أربعة بزيادة الطاهر. وولدت له زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة ـ رضي الله عنهن. أما الذكور فقد ماتوا في الجاهلية صغاراً، وأما الإناث فقد عِشْنَ حتى تزوجن، وكلهن متن في حياة النبي ما عدا فاطمة فقد توفيت بعده بستة أشهر، ومن ثَمَّ نرى أن النبي ﷺ ذاق مرارة فقد الأبناء، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين.

---

(١) المهر.
(٢) نصف أوقية من فضة والأوقية: أربعون درهماً.
(٣) السرح: الشجرة التي صارت أغصانها تتدلَّى عليه.
(٤) كان يلقب بالطيب والطاهر عند من يقول كان الذكور اثنين.

وقد شاء الله ــ وله الحكمة البالغة ــ أن لا يعيش له ﷺ أحد من الذكور حتى لا يكون ذلك مدعاة لافتتان بعض الناس بهم، وادِّعائهم لهم النبوة، فأعطاه الذكور تكميلاً لفطرته البشرية وقضاء لحاجات النفس الإنسانية، ولئلا يتنقَّص النبي في كمال رجولته شانىء، أو يتقوَّل عليه متقول، ثم أخذهم في الصغر، وأيضاً ليكون في ذلك عزاء وسلوى للذين لا يُرزقون البنين، أو يُرزقونهم ثم يموتون، كما أنه لون من ألوان الابتلاء، وأشد الناس بلاء الأنبياء، فالأمثل فالأمثل، وقد كان مما نبزه به سفهاء المشركين، أنهم قالوا فيه: إنه أبتر أي لا عقب له.

خديجة قبل النبي

وكانت السيدة خديجة تُدعى في الجاهلية الطاهرة لشدة عفافها وصيانتها وشرفها وكمالها، وقد تزوجها وهي بكر أبو هالة[1] بن زرارة التميمي فولدت له هِنْداً[2]، وقد أسلم وحسن إسلامه، وهو راوي حديث صفة النبي ﷺ، شهد بدراً وقيل وأحداً، وروى عنه الحسن بن علي فقال: حدثني خالي، لأنه أخو فاطمة لأمها، وكان ــ رضي الله عنه ــ فصيحاً، بليغاً، وصَّافاً، وكان يقول: «أنا أكرم الناس أباً، وأماً، وأخاً، وأختاً: أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]، وأمي خديجة، وأخي القاسم، وأختي فاطمة» قتل مع علي يوم الجمل.

وولدت له هالة[4]، قال ابن عبدالبر: له صحبة، وروي عن عائشة قالت: قدم ابن لخديجة يقال له هالة والنبي ﷺ قائل، فسمعه فقال: «هالة، هالة، هالة»!! وروى الطبراني بسنده عن هالة بن أبي هالة أنه دخل على

---

(١) قيل: اسمه مالك، وقيل: زرارة، وقيل: هند.

(٢) اسم رجل.

(٣) هو ربيب رسول الله، ولكنه جعله أباً له لحسن رعايته، وكريم معاملته، فوجد فيه عوضاً عن الأب ولأن رسول الله أبو المؤمنين.

(٤) اسم رجل وقد وهم من جعله أنثى.

النبـي ﷺ وهو راقد، فاستيقظ فضم هالة إلى صدره وقال: «هالة، هالة، هالة».

ثم بعد وفاة أبـي هالة تزوجها عتيق بن عابد[1] بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم المخزومي، فولدت له هنداً وهي أنثى، أسلمت وصحبت النبـي، ولم ترو شيئاً. قاله الدارقطني، وهي أم محمد بن صيفي المخزومي، ويقال لولد محمد هذا بنو الطاهرة، لمكان خديجة[2].

* * *

(١) بالعين المهملة، والباء الموحدة، والدال المهملة كما في الإكمال وغيره وهو الصواب ووقع في جامع ابن الأثير بالتحتانية، والذال المعجمة وهو غير صحيح.

(٢) هذا الذي اخترناه هو ما عليه الأكثر كما ذكر ابن عبدالبر، وقال آخرون: تزوجها أولاً عتيق بن عابد، ثم خلفه عليها أبو هالة، ثم أبو وهب بن عمرو المخزومي.

الفصل الخامس
تجديد قريش بنيان الكعبة

ولما بلغ ﷺ خمساً وثلاثين سنة جاء سيل عارم فصدع جدران الكعبة، وأوهن أساسها، وكان قد أصابها من قبل حريق بسبب امرأة كانت تجمِّرها، فأرادت قريش هدمها، ولكنهم تهيَّبوا ذلك لمكانتها في قلوبهم، وخوفهم أن يصيبهم الأذى، فقال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل الإصلاح، فقال: إن الله لا يهلك المصلحين، وأخذ المِعْول، وشرع يهدم، وتربص الناس تلك الليلة وقالوا: ننتظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء هدمنا، فقد رضي الله ما صنعنا.

فأصبح الوليد من ليلته عائداً إلى عمله، فهدم، وهدم الناس معه، حتى إذا انتهوا إلى أساس إبراهيم ــ عليه السلام ــ أفضَوا إلى حجارة خضر آخذ بعضها ببعض، فتركوا الأساس كما هو، وشرعوا في البناء، واتفقوا فيما بينهم بمشورة أحد أشرافهم أن لا يدخلوا في بنائها من كسبهم إلا طيباً، لا يدخل فيه **مَهْرُ بَغِيّ**[1]، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس[2].

وقد تجزَّأت قريش الكعبة، فكان جانب الباب لبني عبدمناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود واليماني لبني مخزوم، وقبائل من قريش انضموا

---

(١) أجر بغي، وهي المستعلنة بالزنا.

(٢) هذا يدل على أن العرب كان الكثيرون منهم يتحرون المكاسب الحلال وأن الربا كان طارئاً عليهم من اليهود.

إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جمح، وسَهْم، وكان جانب الحِجْر لبني عبدالدار، ولبني أسد بن عبدالعزَّى، ولبني عدي.

وقد شارك رسول الله ﷺ أعمامه في البناء، ونقل الحجارة. روى الشيخان في صحيحيهما عن جابر قال: «لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ والعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي: اجعل إزارك على رقبتك يَقِكَ الحجارة، ففعل، فخرَّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: «إزاري إزاري» فشدَّ عليه إزاره فما رؤي بعد ذلك عُرياناً»[١].

وكان الذي يلي البناء رجل رومي يسمَّى «باقوم» يقال: إنه كان في سفينة محملة بالخشب قاصدة اليمن لترميم كنيسة «القليس»، ولما كانت السفينة قبالة مكة هبَّ عليها إعصار فدمرها، فقصدت قريش إلى ساحل البحر، فاشترَوا بقايا السفينة وما كان فيها، واستصحبوا معهم باقوم، وهكذا أراد الله سبحانه أن تستعمل الأخشاب التي أرسلت للكنيسة في بناء الكعبة بيت الله الحرام!!

ولما وصلوا في البناء إلى موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يضعه؟ فكل قبيلة تريد أن تحظى بهذا الشرف حتى كادت الحرب تقع بينهم، وقرَّب بنوعبدالدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنوعدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسُمُّوا (لَعَقة الدم)، واستمروا على ذلك أربعَ ليالٍ أو خمساً.

عرض لحل المشكلة

ثم ألهم الله سبحانه أحد عقلائهم وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومي، والد السيدة أم سلمة، وكان عامئذ أسن رجل في قريش، فقال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد[٢]، فرضوا وقبلوا، فأشخصوا أبصارهم إلى باب المسجد، واشرأبت الأعناق إلى من يا ترى

---

(١) يعني كاشفاً عورته غير المغلظة كالفخذ مثلاً.

(٢) هو باب بني شيبة وهو يعرف اليوم بباب السلام.

يكون هذا الداخل، فإذا به الأمين محمد أرسلته العناية الإلهية ليخلص العرب من هذا الشر المستطير، فلما رأوه قالوا: «هذا الأمين رضيناه، هذا محمد!!».

العقــل الكبــير

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، فكَّر وقدَّر، ولم يلبث أن تفتَّق العقل الكبير ــ عقل النبي ــ عن هذا الحل البارع حقاً، فبسط رداءه، ثم أخذ الحجر ووضعه عليه، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بطرف» ثم أمرهم برفعه، فرفعوه جميعاً حتى وصلوا إلى مستوى وضعه، فأخذه بيده المباركة، ووضعه موضعه، وبنى عليه، وبهذا وقَى الله قريشاً شر حرب ربما أفنتهم، وقد ازداد النبي بهذا منزلة فوق منزلته، وقَدْراً إلى قدر، وأصبح أحدوثة العرب في كل نادٍ ومجلس.

ضيق النفقة بقريش

وكانت النفقة الطيبة قد ضاقت بقريش عن إتمام البيت على قواعد إبراهيم، فاضطروا إلى أن اقتطعوا منه قطعة من جهته الشمالية، وبَنوا على هذا الجزء الذي احتجزوه جداراً قصيراً للإعلام أنه من البيت وهو ما يعرف (بالحِجْر)[1]. وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لعائشة: «لولا أنَّ قومك حديثو عهد بالكفر لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم».

وكان الكعبة ارتفاعها تسعة أذرع على عهد إبراهيم وإسماعيل ــ عليهما السلام ــ وكان لها بابان: باب شرقي وبابٌ غربي ليدخل الداخل من باب، ويخرج من الآخر، فلما بنتها قريش زادوا في ارتفاعها تسعة أذرع أخرى، واقتصروا على باب واحد، ورفعوا بابها عن الأرض، فصار لا يصعد إليها إلا على درج أو سُلَّم ليدخلوا من يشاؤون، ويمنعوا من يشاؤون، ونقصوا من طولها مقدار الحجر.

---

(١) وهو من البيت ولذلك لا يصح الطواف إلا من وراء الجدار القصير، والحِجْر بكسر الحاء وسكون الجيم، سمي بذلك لأنه حُجر، أي اقتطع من الكعبة.

عمارة ابن الزبير

وقد استمرت الكعبة على هذا حتى كان عهد عبدالله بن الزبير، وحوصر من قبل يزيد بن معاوية، وأصيبت الكعبة بسبب الرمي بالمنجنيق، فهدمها ابن الزبير في مدة خلافته، وبناها على قواعد إبراهيم، وجعل ارتفاعها على ما هي عليه الآن وهو سبع وعشرون ذراعاً، وأدخل الحجر في البيت، وجعل لها باباً غربياً.

إعادة الحجاج لها على ما كانت في عهد قريش

فلما قتل عبدالله بن الزبير، واستتب الأمر لبني أمية، وكان عهد عبدالملك بن مروان، شاور الحجاج عبدالملك في نقض ما فعله ابن الزبير، فكتب إليه: أمَّا ما زاده في طولها[1] فأبْقِه، وأما ما زاده في الحِجْر فردّه إلى بنائه[2]، وسدَّ بابه الذي فتحه، ففعل ذلك، رواه مسلم في صحيحه عن عطاء. وذكر الفاكهي أن عبدالملك ندم على إذنه للحجّاج في هدمها، ولعن الحجّاج، وفي صحيح مسلم نحوه من وجه آخر وبذلك أعاد الحجاج الكعبة إلى ما كانت عليه في عهد قريش والنبي، واستمر إلى وقتنا هذا.

محاولة لبني العباس

وقد أراد الرشيد أو أبوه أن يعيد البيت على ما كان عليه في عهد ابن الزبير، فناشده الإمام مالك أن يكف عن ذلك، وقال له: أخشى أن يصير البيت ملعبة للملوك، ولم يحدث تغيير شيء مما كان في عهد عبدالملك بن مروان إلا في الميزاب[3]، والباب، وعتبته، وكذلك وقع الترميم في الجدران والسقف، وسلم السطح غير مرة، وجدد فيها الرخام، وقد قيل: إن أول من فرشها بالرخام الوليد بن عبدالملك، وسيبقى البيت محفوظاً بعناية الله إلى ما شاء الله.

---

(١) يعني ارتفاعها.

(٢) يعني الأول قبل الزيادة.

(٣) الميزاب: ما ينزل منه ماء المطر من على ظهر الكعبة، وهو يصب في الحجر، وميزاب الكعبة من الذهب، وهو يزن قرابة قنطار.

كفالة النبي لعلي

كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب، وما أراده الله له من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، ولم يكن على ثراء من المال، وإن كان ذا ثراء من الشرف والمكانة في قريش، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه ــ وكان من أيسر بني هاشم ــ: «يا عم إنَّ أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه واحداً، وتأخذ أنت واحداً»، فقال العباس: نعم.

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً، فاصنعا ما شئتما، فأخذ النبي علياً، فضمَّه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله، فكان من أوائل من آمن به وصدق، بل قيل: إنه أول من أسلم، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

ولقد كان لنشأة الفتى عليٌّ في بيت النبوة، وتعهد النبي له بالتربية والرعاية أكبر الأثر فيما كان يتمتع به من صفاء الروح، وقوة الجنان، وفصاحة اللسان، وبلاغة البيان، وغزارة العلم، والشجاعة والبطولة، إلى غير ذلك من الصفات والآداب.

أحداث في حياة الرسول

وعاش النبي هذه الفترة من حياته قبل النبوة، وهو في طمأنينة وراحة نفسية، وذلك بفضل السيدة الودود الولود خديجة رضي الله عنها، ورزقه الله منها البنين والبنات، لولا ما شاب هذه الفترة من حياتها من أحداث كان لبعضها وقع أليم في نفس النبي وزوجه.

فقد الأبناء

فقد مات ولداه: القاسم، وعبدالله وهما لا يزالان في المهد، وليس من شك في أن فقدهما ترك في نفس النبي وزوجه أسىً وحزناً.

زواج البنات

وقد تزوجت كبراهن زينب بابن خالتها أبي العاص بن الربيع من أشراف قريش وكبار تجارها، هذا إلى ما كان يتصف به من كريم الخلال مما حبَّبه إلى خالته خديجة، فأشارت على النبي بتزويج زينب منه، وسيأتيك من أخبار هذا الرجل شيء غير قليل.

وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجتا من ابني عمهما: عتبة، وعتيبة ابني أبي لهب، ولم يكونا بالزوجين الكريمين، فقد أمرهما أبوهما أبو لهب بعد أن نُبيء النبي بتسريحهما، كي يشغل النبي بمشاكل أسرته عن التفرغ لأداء رسالته، ففارقاهما، على حين أن أبا العاص لما كلمته قريش في تطليق زينب، وتزويجه أي فتاة يريد من بنات قريش أبى، وقال: والله ما أحب أن لي بها امرأة من قريش!! ثم كان من أمر رقية، وأم كلثوم أن تزوجهما ذو النورين عثمان بن عفان واحدة بعد الأخرى، ولم يعرف أن أحداً أرخى ستره على بنتي نبيٍّ غير عثمان، فمن ثَمَّ لقب بذي النورين.

وأما فاطمة فلم تكن إلا فتاة صغيرة، فبقيت في بيت أبيها، وشاهدت ما ناله من البلاء والأذى من قريش بعد النبوة، حتى بلغت المحيض، وصارت أهلاً للزواج، فتزوج بها فتى الفتيان علي بعد بدر، ورزقها الله منه البنين والبنات، ومن نسلها كانت العِتْرة الطيبة من آل النبي.

تبني زيد بن حارثة

هو زيد بن حارثة، بن شرحبيل، بن كعب، بن عبدالعزّى الكلبي، وكان زيد في سفر مع أمه، وهو طفل صغير، فأغار عليهما جماعة من الأعراب، فأسروا زيداً وباعوه، فاشتراه حكيم بن حزام فأهداه إلى عمته السيدة خديجة بعد زواجها من النبي بقليل، وكان عمر زيد إذ ذاك نحو عشرين سنة،

فاستوهبه النبي من زوجه خديجة، فوهبته له، فرعاه النبي وأحسن إليه غاية الإحسان، فلما علم أبوه به حضر وبعض أهله إلى مكة، وعرضوا على النبي ما يريد من الفداء، فقال النبي ﷺ:

«أوخير من ذلك»؟ قالوا: وما هو؟ قال: «خيِّروه، فإن اختاركم فهو لكم دون فداء، وإن اختارني فدعوه»، فخيروه فاختار النبي!! فجذبه عمه وقال له: يا زيد اخترت العبودية على أبيك وعمك؟! فقال: إي والله العبودية عند محمد أحبُّ إلي من أن أكون عندكم!! فقال النبي ﷺ عند ذلك: «يا معشر قريش، اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه» وطاف على حلق قريش يشهدهم على ذلك، فرضي أهله وانصرفوا، ومن ذلك الوقت أصبح يقال له زيد بن محمد حتى أبطل الإسلام التبني، وأمر أن ينسبوا إلى آبائهم فصار يسمَّى زيد بن حارثة.

وقد زوَّجه النبي من حاضنته أم أيمن. وكانت أكبر منه سناً، فأنجبت أسامة بن زيد: الحب ابن الحب[1] لشدة حب النبي لهما، وكان النبي يسوِّي بينه وبين الحسن ابن ابنته فاطمة، فيجلس الحسن على فخذه وأسامة على فخذ آخر، وقد استشهد زيد في غزوة «مؤتة» كما سيأتي.

* * *

(١) بكسر الحاء أي المحبوب بن المحبوب.

الفصل السادس
حياة النبي عليه السلام
قبل البعثة

كانت حياة النبي ﷺ قبل البعثة حياة فاضلة شريفة، لم تُعرف له فيها هفوة، ولم تُحْصَ عليه فيها زلَّة، لقد شبَّ رسول الله يحوطه الله سبحانه وتعالى بعنايته، ويحفظه من أقذار الجاهلية؛ لما يريده له من كرامته ورسالته، حتى صار أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزّهاً وتكرماً حتى صار معروفاً «بالأمين».

لقد كان في المجتمع العربي حنيفيون وحّدوا الله ودعَوا إلى توحيده، وكان هناك كرماء، وكان هناك أوفياء، وكان هناك أناس عرفوا بالعفة وطهارة الذيل، والبعد عن المآثم، والتنزُّه عن الفواحش، ولكن كان عزيزاً جداً أن تجد في هذه البيئة إنساناً جمع الله فيه كل هذه الصفات وغيرها مثل ما جمع الله ذلك في النبي محمد ﷺ.

لقد نشأ سليم العقيدة، صادق الإيمان، عميق التفكر، غير خاضع لِترّهات الجاهلية، فما عُرِف عنه أنه سجد لصنم قط، أو تمسح به، أو ذهب إلى عرّاف أو كاهن، بل بُغِّضت إليه عبادة الأصنام، والتمسح بها، ولما لقي «بَحِيرى» الراهب قال له: أسألك بحقِّ اللاّت والعُزّى إلاَّ أخبرتني عما أسألك عنه، وكان بَحِيرى سمع قومه يحلفون بهما، فقال له النبي: «لا تسألني بحق اللاّت والعُزّى شيئاً، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قط بغضهما[1]» وروى البيهقي

(١) البداية والنهاية ج ٢، ص ٢٨٤.

بسنده عن زيد بن حارثة قال: كان صنم من النحاس يقال له: إسَاف ونائلة يتمسح بهما المشركون إذا طافوا[1]، فطاف رسول الله وطفت معه، فلما مررت تمسحت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسّه» قال زيد: فطفنا فقلت في نفسي: لأمَسّنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْهَ» قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً قط حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه، وأنزل عليه[2].

وأما ما روي من أنه كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع مَلَكَين خلفه وأحدهما يقول لصاحبه: اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله ﷺ، قال: كيف نقوم خلفه، وإنما عهده باستلام الأصنام، قال: فلم يعد بعد ذلك يشهد مع المشركين مشاهدهم ــ فهو حديث منكر واه ساقط عن الاعتبار[3].

ومثل ذلك ما رُوي زوراً أنه تمسح «بالصفراء» كما ذكر هيكل[4]، أو أهدى إلى العزّى شاة بيضاء كما زعم «درمنغم»[5]، إلى غير ذلك من الروايات الباطلة المختلقة التي هي من وضع وتزوير أعداء النبي وأعداء الإسلام، وهي من البلايا والطامات التي اشتملت عليها بعض الكتب التي لا يعتمد عليها في الرواية، وجاء بعض المستشرقين والذين تابعوهم من الكتاب المسلمين فنقلوها في كتبهم من غير تمحيص، وتحقيق.

وكذلك بُغِّض إليه قول الشعر فلم يعرف عنه أنه قال شعراً، أو أنشأ قصيدة، أو حاول ذلك، لأن ذلك لا يتلاءم ومقام النبوة، فالشعر شيء، والنبوة شيء آخر، ولم يكن الشعراء بذوي الأخلاق والسير المرضية، فلا عجب أن

---

(١) يعني حول الكعبة.
(٢) البداية والنهاية ج ٢، ص ٢٨٨.
(٣) المرجع السابق.
(٤) الصفراء: هي صنم.
(٥) حياة محمد ص ٣٠.

نزَّهه الله سبحانه عن الشعر، والرسالة تقتضي انطلاقاً في الأسلوب والتعبير، والشعر تقيد والتزام، وصدق الله حيث يقول: ﴿وما علَّمناه الشعرَ وما ينبغي له﴾.

ومع هذا فقد كان يتذوق ما في الشعر من جمال وحكمة وروعة، ويستنشده أصحابه أحياناً، ولا عجب فهو القائل: «إنَّ من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحِكَماً» رواه البخاري.

ولم يشرب خمراً قط، ولا اقترف فاحشة، ولا انغمس فيما كان ينغمس فيه المجتمع العربي حينئذ من اللهو، واللعب، والميسر «القمار»، ومصاحبة الأشرار، ومعاشرة القيان، والجري وراء الغيد الكواعب[١]، على ما كان عليه من فتوة وشباب، وشرف نسب، وعزة قبيلة، وكمال وجمال وغيرها من وسائل الإغراء.

ولقد كان ﷺ يذكر ذلك وهو كبير، ويعدُّه من نعم الله عليه، وعصمته له، فقد روي عنه أنه قال: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمُّون به[٢] إلا مرتين، وكلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان قريش، ونحن في رعي غنم أهلها، قلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر[٣] فيها كما يسمُر الفتيان، فقال: نعم، فدخلت حتى جئت أول دار من مكة، فسمعت عزفاً بالغرابيل[٤]، والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ قلت: ما فعلتُ شيئاً! ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمُر ففعل، فدخلت، فلما جئتُ مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت،

---

(١) الغيد الكواعب: البنات الحسان اللاتي في سن البلوغ.

(٢) في رواية البيهقي: «يهمون به من النساء إلا ليلتين» والمراد مما يتعلق بالنساء كالعرس، فقد نصت الرواية على ذلك والقصة واحدة. أو لعلها السماع بدل النساء.

(٣) أي ألهو كما يلهو الشباب.

(٤) الدفوف.

فقيل: نكح فلان فلانة، فجلست أنظر، فضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت، ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته»[1].

حتى الأمور التي قد يتسامح فيها في عهد الطفولة أثناء اللعب قد صانه الله تعالى منها، قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ ـ فيما ذكر لي ـ يحدِّث عما كان الله يحفظه به في صغره أنه قال: «لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان، كلنا قد تعرَّى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شدَّ عليك إزارك، قال: فأخذته وشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي، وإزاري علي من بين أصحابي» وقد سمعت فيما سبق ما حدث له أثناء نقله الحجارة مع أعمامه في بناء الكعبة.

بل كان من توفيق الله له أنه كان يقف مع الناس بعرفات قبل أن يوحى إليه، ولا يصنع ما تصنع قريش من عدم وقوفها مع الناس بعرفات، ووقوفها بالمزدلفة، فعن جبير بن مُطْعِم قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه[2]، وإنه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفعَ معهم، توفيقاً من الله عز وجل له»[3]. رواه أحمد.

وكان النبي محل ثقة الناس وأماناتهم، لا يأتمنه أحد على وديعة من الودائع إلا أدَّاها له، ولا يأتمنه أحد على سر أو كلام إلا وجده عند حسن الظن به، فلا عجب أن كان معروفاً في قريش قبل النبوة «بالأمين».

وقد استمرت هذه الثقة إلى ما بعد النبوة، ولذلك لما هاجر ﷺ أبقى علياً

---

(١) الشفا بحقوق المصطفى ج ١ ص ١٠٦؛ والبداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٧.
(٢) أي الوحي.
(٣) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٩.

كي يردّ ودائع الناس التي كانت عنده، وكان لا يعاهده أحد عهداً إلا وجد عنده حسن الوفاء، ولا يَعِدُ وعداً إلا صدق فيه، وقد روي أنه عاهد رجلاً أن يلقاه في مكان كذا، فمكث ثلاثة أيام يذهب إلى هذا المكان، والرجل لا يذهب فقال له: «لقد شققتَ علي».

وكان الصدق من صفاته البارزة، شهد له بذلك العدو والصديق، ولما بعثه الله إلى الناس جميعاً وأمره أن ينذر عشيرته الأقربين صار ينادي بطون قريش، فلما حضروا قال لهم: «أرأيتُكم لو أخبرتُكم أن خيلاً وراء هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مُصَدِّقِيَّ»؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً قط. ولما قابل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب ــ وكان لم يزل مشركاً ــ قال له: هل جرَّبتم عليه كذباً؟ قال: لا، قال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس، ويكذب على الله!!

وكان النبي إلى ذلك كله وصولاً للرحم، عطوفاً على الفقراء وذوي الحاجة، ويقري الضيف، ويعين الضعيف، ويمسح بيديه بؤس البائسين، ويفرِّج كرب المكروبين، وقد وصفته بهذا السيدة العاقلة، الحازمة خديجة ــ وهي أعرف الناس به ــ في بدء النبوة، فقالت: «ما كان الله ليخزيك أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»[1]!!.



ومن هذا العرض الموجز نرى أن حياة النبي قبل البعثة كانت أمثل حياة وأكرمها، وأحفلها بمعاني الإنسانية والشرف، والكرامة، وعظمة النفس، ثم نبَّأه الله وبعثه، فنمت هذه الفضائل وترعرعت، وما زالت تسمو فروعها، وترسخ أصولها، وتتسع أفياؤها حتى أضحت فريدة في تاريخ الحيوات في هذه الدنيا.

إن هذه الحياة الفاضلة المثلى لمن أكبر الدلائل على ثبوت نبوته ﷺ، فما سمعنا في تاريخ الدنيا قديمها وحديثها أن حياة كلها فضل وكمال، وهدى ونور،

(١) صحيح البخاري ــ باب كيف كان بدء الوحي.

وحق وخير، كحياة نبينا محمد، ولم يُعهد في تاريخ البشر أن شخصاً يسمو على كل مجتمعه وهو يعيش فيه، وينشأ مبرءاً من كل نقائصه ومثالبه وهو نابع منه!! ولا أن نوراً ينبعث من وسط ظلمات، ولا طهارة تنبع من وسط أدناس وأرجاس، ولا أن علماً يكون من بين جهالات وخرافات، اللهم إلا إذا كان ذلك لحكمة، وأمراً جرى على غير المعهود والمألوف، وما ذلك إلا لإعداد النبي للنبوة، و﴿الله أعلمُ حيث يجعل رسالته﴾ وصدق الإمام البوصيري حيث يقول:

كفاك بالعلم في الأميِّ معجزة
في الجاهلية والتأديب في اليتم

لقد قرأنا سير الحكماء، والفلاسفة، والعباقرة والمصلحين، وأصحاب النحل والمذاهب قديماً وحديثاً، فما وجدنا حياة أحد منهم تخلو من الشذوذ عن الفطرة السليمة، والتفكير الصحيح، والخلق الرضي، إما من ناحية العقيدة والتفكير وإما من ناحية السلوك والأخلاق، وغاية ما يقال في أسماهم وأزكاهم: كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه!! حاشا الأنبياء والمرسلين، فقد نشَّأهم الله سبحانه على أكمل الأحوال، وعظيم الأخلاق، وقد بلغ الذروة في الكمال خاتمهم وسيد البشر كلهم نبينا محمد ﷺ.

* * *

الفصل السابع
حالة العالم قبل البعثة

لقد أتى على العالم حين من الدهر فسدت فيه العقائد، وانتشرت الوثنية، وانتكست فيه الأخلاق، وسادت فيه الجهالات والخرافات، وعم التقليد حتى كادت تتعطل فيه ملكة العقل والتفكير، وتغيَّرت فيه القيم الخلقية والمعاني الإنسانية، وأهدر فيه الكثير من حقوق الإنسان، وتغلبت فيه قوى الشر والبغي والضلال على دعاة الحق والخير والهدى، وساد العالم ألوان من الترف والإغراق في الملذات والشهوات، سواء في ذلك البيئات المتحضرة أم البدوية.

ذلكم الحين هي الفترة التي سبقت ميلاد نبينا محمد ﷺ وبعثته. فقد كانت أحوال العالم الدينية، والاجتماعية، والأخلاقية، والسياسية على أسوأ ما تكون، حتى إن أعظم المتفائلين كان يشك في أن يكون لهذا الفساد إصلاح!!

الأحوال الدينية

فمن وثنية في شبه الجزيرة العربية وغيرها، إلى عبادة للشمس والكواكب في بلاد سبأ، وبابل، وكلدانيا، وغيرها، ومن مجوسية في بلاد فارس وما جاورها، إلى ثنوية تقول بإله النور وإله الظلمة، إلى صابئة ليس لهم دين، ومن برهمية وعبادة للحيوان ولا سيما البقرة في بلاد الهند وما جاورها، إلى بوذية تقوم على تأليه بوذا وعبادته في بلاد الصين وما جاورها، ومن يهودية محرَّفة مبدلة يزعم أهلها أن عزيراً ابن الله، إلى نصرانية مثلَّثة[1] في بلاد الروم وغيرها، حتى بلاد

---

(١) كان النصارى فرقاً، ففرقة تقول: الله ثالث ثلاثة. قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة...﴾ الآية ٧٣ من سورة المائدة. =

اليونان، ومصر الفرعونية كانت تسودها الوثنية، وتعدد الألهة، وعبادة الحيوان مع أنها مهد الحضارة، وهكذا نرى أن توحيد الله وعبادته وحده أمر يكاد يكون معدوماً في الأرض. وإليك ما قاله مولانا محمد علي في كتابه «حياة محمد» عن النصرانية التي كانت أكثر الديانتين: اليهودية، والنصرانية انتشاراً في ذلك الوقت قال:

(وكان عيسى أقرب الأنبياء إلى الرسول محمد عليه السلام من وجهة النظر الزمنية، وطبعي أن يتوقع المرء أن يجد في الديار النصرانية على الأقلّ بعض آثار الفضيلة والأخلاق، ولكن كيف كانت حالة النصرانية في ذلك العهد؟ فلنرجع إلى شهادات الكتاب النصارى أنفسهم في هذا الموضوع، فقد رسم أحد الأساقفة صورة لتلك الأيام فقال: «إن المملكة الإلهية كانت في اضطراب كلي، بل إن حالة جهنمية حقيقية كانت قد أقيمت على سطح الأرض نتيجة للفساد الداخلي». وقد عالج السير (وليم موير) هذا الموضوع فانتهى إلى النتيجة نفسها، قال:

«وفوق هذا فقد كانت نصرانية القرن السابع نفسها متداعية فاسدة، كانت معطلة بعدد من الهرطقات المتنازعة، وكانت قد استبدلت بإيمان العصور الوسطى السمح صغارات الخرافة وصبياناتها» تلك صورة للنصرانية تمثل وضعها العام، كانت عقيدة وحدة الذات الإلهية قد احتجبت منذ عهد بعيد، وكانت عقيدة التثليث قد أدت إلى نشوء تعقيدات متعددة، وتنافست الفرق والهرطقات المختلفة في قدح زناد الفكر لتفسير هذه العقيدة، وأدَّى ذلك إلى إنشاء جمهرة من المؤلفات أبعدت الإنسان عن هدف الدين الحقيقي.

= وفرقة تقول إن الله هو عيسى ابن الله، قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم...﴾ الآية ١٧ من سورة المائدة.

وفرقة ثالثة تدَّعي ألوهية عبدالله عيسى وأمه مريم، قال تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عِيسى بنَ مريم أأنت قلتَ للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس بحق، إن كنت قلتُه فقدعلمته...﴾ الآية ١١٦ من سورة المائدة.

وتكاد تكون عقيدة التثليث اليوم هي السائدة بين المسيحيين.

والمؤرخ (جيبون) (Gibbon) في تعليقه على حادثة حرق مكتبة الإسكندرية الشهيرة من قبل المتعصبين من النصارى يبدي هذه الملاحظة الهامة: «ولكن إذا صحَّ أن ركام الجدل الآريوسي والقائل بطبيعة المسيح الواحدة قد أُحرق فعلاً في الحمامات العمومية، فإن في ميسور الفيلسوف أن يذهب إلى القول ــ في ابتسامة ــ بأن ذلك كان في مصلحة الجنس البشري.

وكانت الشرور التي سادت العالم المسيحي كالخمر، والميسر، والفسوق غالبة حتى في تلك الأيام، ويروي[1] دوزي (Dozy) عن الخليفة علي قوله في حق تَغْلِب وهي قبيلة نصرانية: «إن كل ما اقتبسته عن تلك الكنيسة هو معاقرة الخمر» وبكلمة مختصرة فإن النصرانية وهي آخر ديانات العالم المنزلة ــ كانت في ذلك الحين في حكم المفقودة، كانت قد فقدت كل قدرتها الدافعة التي تمكنها من إحداث إصلاح أخلاقي، وإلى هذا فإن الدَّرْك الذي تردَّى فيه المجتمع الإنساني كله في طول العالم وعرضه، ليقيم الدليل على صحة التوكيد القرآني)[2].

الأحوال الاجتماعية

ولم تكن الأوضاع الاجتماعية بأحسن حالاً من سابقتها، فهنالك كان أشراف وسُوقة: أشراف يعتقدون أنهم من طينة أخرى غير طينة البشر، وسوقة يضن عليهم بأدنى حقوق الإنسان، وسادة وعبيد: سادة يتمتعون بكل خيرات هذه الأرض وطيباتها، وعبيد يعاملون معاملة الحيوان، وليس لهم من كدِّهم وتعبهم إلا العرق والدماء، وما تجود به نفوس السادة عليهم من فتات الموائد.

وهنالك اعتزاز لا حدَّ له بالأنساب والأحساب، والتفاخر بهما، وإضاعة الوقت في الاشتغال بذلك، حتى بلغ من العرب أنهم كانوا حين يفرغون من موسم الحج يعقدون الندوات لذكر الآباء والأحساب. وخلاصة القول أنه كانت هناك فوارق طبقية، وعصبيات جنسية، ونسبية، ولونية، ولغوية، وسواء في

(١) الصحيح أن يقول: ويذكر دوزي، أو وينقل؛ لأن الرواية تقتضي المعاصرة والمشافهة واللقاء.

(٢) حياة محمد ورسالته، ص ٢٠، ٢١.

ذلك البيئات المتحضرة أم المتبدِّية، ولقد بلغ ببعض رجال الفلسفة اليونانية المشهورين أن قسم الناس إلى حرٍ بالطبع، وعبد بالطبع!!.

وكان هنالك إسراف في النكاح، وإسراف في الطلاق، وكانت المرأة ـ غالباً ـ مهضومة الحقوق، لا يقام لها وزن، ولا يُسمع لها رأي، وتورث كما يورث المتاع، كما كانوا يتزوجون نساء الآباء ويجمعون بين الأختين، بل قيل: إن اليهود بلغ من سفههم وبغيهم أنهم كانوا ينكحون المحارم، وكانت بعض القبائل تئد البنات خشية العار، وتقتل الأولاد خشية الفقر، حتى جاء الإسلام فقضى على كل هذه المساوىء الاجتماعية، وجعل الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربـي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

الأحوال الخلقية

أما الجانب الخلقي وما اعتراه من فساد وانحلال وانتكاس وتدلٍّ إلى الحضيض فحدِّث عن ذلك ولا حرج، فمن انتهاك للأعراض، وسطو على الأحرار، وإغراق في المباذل الخلقية، إلى معاقرة للخمر، واقتراف للآثام، ومن معاشرة للبغايا والقيان، إلى اتخاذ الأخدان، ومن استهانة بالدماء، واغتصاب للأموال إلى تعامل بالربا، وأكل أموال الناس بالباطل.

وكانت المباذل والمفاسد الخلقية أكثر ما تكون في بلاط الأكاسرة، وقصور القياصرة، والملوك والأمراء، وقد كانت هذه المفاسد الخلقية من أكبر الأسباب في انحلال الدولتين الكبيرتين آنذاك: فارس والروم، وأن سارع إليهما الهرم، فالفناء والزوال.

الأحـوال السياسية

وكان التعدِّي والإغارة على الغير أمراً يكاد يكون سائداً بين قبائـل العرب، وكانت تثور بينهم الحرب لأتفه الأسباب، من أجل ناقة، أو سباق فرس، فتستمر السنين، وتأكل الشباب والشيب، ولم تكن الحروب تفتر أيضاً بين الدولتين اللتين كانتا تقتسمان العالم في هذا الوقت: دولتي فارس والروم، وقد كان هذا من العوامل التي جعلتهما تهويان تحت ضربات الجيوش الإسلامية المظفَّرة، وقد زالت دول البغي والطغيان، وانتشرت شريعة السلام، والحق،

والخير، والرحمة بقيام دولة الإسلام، ولم تكن الحروب آنذاك حروباً مشروعة يقصد بها حماية دين، أو إقامة عدل، أو نصر فضيلة؛ وإنما كانت استجابة للأهواء، وحباً في الغلب، والتسلط، واستعباد الشعوب وإذلالهم!!.

ومن هذه الصورة المصغَّرة يتبين لنا أن العالم حينئذ كان عالماً مضطرباً لا أمان فيه، ولا سلام، وشمل الفساد جميع أحواله، ونواحيه، وحقت عليه كلمة الله:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[١].

حاجة العالم إلى مخلص ومنقذ

ترى ـ أيها القارىء ـ هل يترك الله سبحانه ـ وهو الرحمن الرحيم ـ العالم يتخبط في هذه الدياجير المظلمة، ووسط هذه الأمواج الهائجة، التي تتقاذفه ذات اليمين وذات الشمال، وهذه الأوضاع السيئة الجائرة التي ذكرنا لك ذرواً منها؟!!.

لا، ما كان الله ليدع العالم هكذا، فيا ترى من ذا الذي اختارته العناية الإلهية والرحمة الربانية ليخلص هذا العالم الحائر المضطرب المظلم، الخائف الذي أمسى على شفا جرف هار؟

إنه نبي التوحيد، ونبي البر، ونبي الرحمة، ونبي العدل، ونبي الملحمة، إنه نبينا محمد ﷺ.

لماذا اختار الله خاتم أنبيائه من العرب؟

قلت فيما سبق إن العرب هم أفضل الجنس السامي، وإن لغتهم هي أسمى اللغات السامية، وأثراها، وأكثرها خصائص، وأصلحها لأن ينزل بها كتاب معجز باق على وجه الدهر.

ولئن كان الفساد والاضطراب قد ساد العالم المعروف قبل البعثة المحمدية

---

(١) الآية ٤١ من سورة الروم.

ـ عرباً وغير عرب ـ، إلا أنه ـ والحق يقال ـ لم يكن هناك شعب من الشعوب له رصيد من الفضائل النفسية، والذاتية، والخصائص الجسدية، والعقلية، والأخلاقية مثل ما كان للشعب العربي، كالمحافظة على الأنساب، وسلامة اللغة، والذكاء، والفطنة، وصفاء النفس، وإرهاف الحس، والشجاعة، والمروءة، والنجدة، وحماية الجار، والعزة، والحرية، وإباء الضيم، والوفاء بالعهد، والقدرة على البيان، وفصاحة اللسان، وتملك نواصي فنون القول، والتأثر بالكلمة، والغَيْرة على الأعراض، والتضحية بالنفس والأهل والمال في سبيل ما يعتقد، أو يقتنع به، واقتحام المخاطر ومواطن الأهوال من غير تهيب ولا وجل، إلى غير ذلك من الصفات التي كانت متأصلة في العرب، وقد علمتَ فيما سبق عزم عبدالمطلب على ذبح أحب أبنائه إليه وفاء بنذره، وما كان من السموأل حينما ضحَّى بابنه وفاء بوعده، وما كان من النعمان بن المنذر حينما أنف ـ وهو التابع ـ أن يزوج ابنته من كسرى ـ وهو المتبوع الغالب ـ وتحمَّل في سبيل ذلك ما تحمل، إلى غير ذلك مما لا يتسع المقام لبسط القول فيه، وهي أحداث تدل على معان كبيرة، وعلى خصائص أصيلة لهذا الجنس العربي.

لهذا ـ ولغيره ـ اختار الله خاتم أنبيائه ورسله من العرب برسالة عامة خالدة، واستأهل العرب أن يكونوا أحق الشعوب بحمل هذه الرسالة، وتبليغها إلى الناس جميعاً، ولم يمض قرن من الزمان حتى بلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار، وامتدت دولته من المحيط إلى المحيط.

ومن هذا العرض الموجز نرى أن بعثة النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه كانت ضرورة بشرية لإنقاذ العالم مما تردَّى فيه من مهاوي الضلال، والمفاسد، والآثام، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1].

وها هو العالم اليوم في جاهلية دونها الجاهلية الأولى، ولا مخلِّص له مما يعانيه إلا اتباع شريعة الحق والعدل، والخير والسلام: شريعة الإسلام.

* * *

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

الفصل الثامن

البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم في الكتب السماوية السابقة

الرسل جميعاً إخوة لِعَلَّات[1]، تجمعهم عقيدة واحدة، ودين واحد، والأديان السماوية كلها تتفق في الأصول، وإن اختلفت في الشرائع والفروع، قال عز شأنه:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴿١٣﴾﴾[2].

وقال:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤٨﴾﴾[3].

فالآية الأولى في الأصول التي لا تختلف اختلاف العصور والأزمان، والثانية في الفروع التي تتغير بتغير الأزمنة والأحوال.

وقد أخذ الله العهد على الأنبياء إذا جاءهم رسول الله مصدِّق لما معهم أن يؤمنوا به ولا يكذبوه: قال عز شأنه:

---

(١) أولاد العلَّات الذين أبوهم واحد، وأمهاتهم شتى، وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد» وهومن التشبيهات النبوية الرائعة.

(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى.

(٣) الآية ٤٨ من سورة المائدة.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[1].

وإذا كان هذا حال الأنبياء بعضهم مع بعض فأحرى بالأقوام أن يكونوا أشد انقياداً للحق إذا ظهر، ومسارعة إلى الإيمان بالرسل متى قام الدليل، وظهرت الحجة.

وقد توافرت البراهين والآيات الدالة على نبوة خاتم الأنبياء ما لم تتوفر لغيره من الأنبياء، لأنه جاء بالدين العام الخالد، والشريعة التي لا تنسخها شريعة.

وبشَّر به وبرسالته من سبقه من الأنبياء ولا سيما موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، قال تعالى:

﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[2].

وقال تعالى مقيماً الحجة على النصارى الذين جحدوا رسالة خاتم الأنبياء:

---

(١) الآية ٨١ من سورة آل عمران.

(٢) الآيتان ١٥٦، ١٥٧ من سورة الأعراف.

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[1].

والقرآن الكريم هو الشاهد والمهيمن على الكتب السماوية السابقة، فما جاء به هو الحق، وما خالفه باطل.

ومع أن اليهود والنصارى قد حرَّفوا التوراة والإنجيل ولا سيما فيما يتصل بالنبـي من أوصاف وبشارة، فقد بقي من نصوصهما نبوءات تدل على البشارة بالنبـي، وبعضها يكاد يكون نصاً في هذا.

ففي التوراة وردت نبوءة على لسان موسى عليه السلام: «أقيم لهم نبياً من وسط إخـوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به»[2]. وهذا واضح وضوح الشمس في رابعة النهار أن المراد به نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وأن المراد بإخوتهم أبناء إسماعيل عليه السلام، وليس في الأنبياء الذين جاؤوا من بعد موسى في تعاقب مستمر، حتى ظهور عيسى من ادَّعى أنه النبـي الموعود في هذه النبوءة، ولا يمكن أن يحمل على أحد من خلفائه من أنبياء بني إسرائيل الذين جاؤوا لتنفيذ شريعته، لأنهم ليس فيهم أحد مثله، وقد نص في آخر سفر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبـي مثله.

وكان أمر النبوءة معروفاً لدى الخاصة والعامة من اليهود الذين انتظروا جيلاً بعد جيل ظهور نبـي مثل موسى، ويؤيد هذا تأييداً قوياً ذلك الحوار الذي دار بين يوحنا المعمدان[3] وأولئك الذين وفدوا عليه ليسألوه: من أنت؟ فاعترف ولم ينكر، وأقر أني لست المسيح، فسألوه: إذن ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست

---

(١) الآية ٦ من سورة الصف.

(٢) سفر تثنية الاشتراع الإصحاح ١٨ الفقرة ١٨.

(٣) هو يحيى عليه السلام.

أنا؟ ذلك النبـي أنت ؟ فأجاب: لا، فقالوا: ما بالك إذن تعمد إذ كنت لست إيليا، ولا المسيح، ولا النبـي[١].

فهذا النص يدل على نحو يقيني أن اليهود كانوا يترقبون ظهور ثلاثة أنبياء مختلفين: أولهم (إيليا) الذي اعتقدوا أنه سوف يظهر بشخصيته كرة أخرى على هذه الأرض، وثانيهم المسيح، وثالثهم نبـي ذو شهرة إلى درجة رأوا معها أنه ليس من الضروري نعته بأي وصف مميز، كأن قولهم: «ذلك النبـي» كافٍ للدلالة على ما يعنون، وبذلك تعيَّن أن يكون المراد بالنبـي هو نبينا محمداً ﷺ.

وإذا قلبنا صفحات التاريخ لم نجد أيما نبـي غير نبينا محمد أعلن أنه النبـي الذي بشر موسى بظهوره، ولم نجد أيما كتاب مقدس غير القرآن أشار إلى تحقيق النبوءة في شخص امرىء ما.

ثم إن الواقع يؤيد هذا، فقد كان موسى ـ عليه السلام ـ صاحب شريعة، وكذلك كان محمد عليه الصلاة والسلام صاحب شريعة مستقلة، وليس بين الأنبياء الإسرائيليين نبـي جاء قومه بشريعة جديدة، ومن هنا كان النبـي محمد بوصفه النبـي الوحيد الذي أعطي شريعة، هو وحده النبـي الذي هو مثل موسى.

وهناك نبوءة أخرى تكاد تكون صريحة أيضاً في البشارة بالنبـي، ففي التوراة: «جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران»[٢]، فالمجيء من سيناء يشير إلى ظهور موسى، والإشراق من ساعير إشارة إلى ظهور عيسى، وتلألئه من جبل فاران إشارة إلى ظهور نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، إذ إن التوراة تطلق فاران على أرض الحجاز (مكة) حيث ظهر نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

---

(١) سفر يوحنا الإصحاح الأول الفقرة ١٩ ــ ٢١.
(٢) تثنية الاشتراع الإصحاح ٣٣ الفقرة ١.

وثمة نبوءة رابعة تدل على أن أرض النبي الموعود هي بلاد العرب وهي: «وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر من بلاد العرب، تبيتين يا قوافل الددانيين، هاتوا ماء لملاقاة العطشان، يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزة، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا، من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدة الحرب»(١).

فكلمة بلاد العرب لها مغزى خاص كاف، والإشارة إلى من هاجر يلقي ضوءاً على من المراد بالنبوة، فتاريخ العالم لم يدوّن غير هجرة واحدة قُدِّر لها أن تكتسب الحدث الحاسم هي هجرة رسولنا محمد من مكة إلى المدينة، وفي هذه الكلمات «من أمام السيوف قد هربوا» لَشهادة أبلغ على أنه هو المقصود بالنبوءة، فقد تواطأت كتب الأحاديث والسير على أن النبي ليلة الهجرة كان محاطاً بأعدائه الشاهرين سيوفهم فعلاً، المتعطشين للدماء، المستعدين تمام الاستعداد للانقضاض عليه بجمعهم حينما يخرج من بيته، ويحسبنا هذه النبوءات الأربع من التوراة.

* * *

وكان اليهود قبل مجيء النبي ﷺ يبشرون به ويقولون لعرب المدينة إذا قاتلوهم: (لقد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، وسنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم)، فلما بُعث جحدوا رسالته، وحسدوه، وحاربوه قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾(٢).

وكذلك بشّر الإنجيل بالنبي، وهذه الأناجيل الموجودة اليوم وإن كانت

(١) أشعيا الإصحاح ٢ الفقرة ١٣ ــ ١٥.

(٢) الآية ٨٩ من سورة البقرة.

محرفة، كما أقر بذلك الأحرار المفكرون من علماء النصرانية، إلا أنها قد بقي فيها ما يدل على البشارة بالنبي ﷺ.

فمن ذلك ما جاء في إنجيل يوحنا، قال يسوع: «إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق، الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه، ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم فيكون فيكم»(١) ويقول: «وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم»(٢) ويقول: «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الله الآب ينبثق فهو يشهد لي»(٣).

ويقول: «لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله لكم»(٤) ويقول: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكنكم لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق»(٥) وهي بشارات تكاد تكون نصاً في الإخبار بنبوة خاتم الأنبياء، ومع وضوح هذه البشارات فقد أرهق اللاهوتيون النصارى أنفسهم ــ وما يزالون ــ ابتغاء العدول بها عن قصدها بحيث تنطبق على الروح القدس، وفي الحق أن صيغة النبوءة لا تجيز قط هذا الاستنتاج لقوله: «إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي» كلام من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تعليق(٦).

وقد كان في الأصل الأول للإنجيل التعبير في البشارات عن اسم النبي بكلمة «البارقليط» ولكنه لما ترجم إلى العربية فسرها بعضهم (بالمخلص)،

---

(١) يوحنا الإصحاح ١٤ الفقرة ١٥ ــ ١٧.
(٢) يوحنا ١٤: ٢٦.
(٣) يوحنا ١٥: ٢٦.
(٤) يوحنا ١٦: ٧.
(٥) يوحنا ١٦: ١٢، ١٣.
(٦) حياة محمد ورسالته من ص ٤٦ ــ ٥١؛ أدلة اليقين في الرد على مطاعن المبشرين من ص ٢٦٠ ــ ٣١٤؛ تفسير الألوسي ج ٢٨ ص ٨٧ ط منيرية.

وفسرها آخرون (بالمعزي)، وقد سأل المرحوم الأستاذ الشيخ عبدالوهاب النجار المستشرق الإيطالي (نلينو) ـ وهو حاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية، وكان يدرس في الجامعة المصرية القديمة ـ عن معنى (البارقليط) فقال: إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها المعزي، فقال له: أنا أسأل الدكتور (نلينو) الحاصل على الدكتوراه في الآداب اليونانية القديمة، ولا أسأل قسيساً!! فقال نلينو: معناها الذي له حمد كثير، فقال له: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حَمد؟ فقال: نعم[1] وصدق الله حيث قال: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وقد سبق المستشرق (نلينو) الإمام الألوسي فقد قال: إنه لفظ يؤذن بالحمد.

يقول العلامة الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه القيم «إظهار الحق»: «إنه قبل أن يقدِّم أوجه الاستدلال بهذه الفقرات ـ يريد الفقرات التي نقلها من الأناجيل للاستدلال بها على بشارة السيد المسيح بالنبي الخاتم محمد عليهما الصلاة والسلام ـ يود أن ينبه إلى أن السيد المسيح كان يتحدَّث باللغة الآرامية، وهي مشتقة من اللغة العبرية، وأنه مما لا شك فيه أن الإنجيل الرابع ـ إنجيل يوحنا ـ ترجم اسم المبشَّر به باللغة اليونانية حسب العادة، ثم جاء مترجمو اللغة العربية، فترجموا اللفظ اليوناني بـ «فارقليط»، وقد ذكرت من قبل تصرفهم في الأسماء، وقد حاول «آردو» صرف المسلمين عن الاستدلال بهذه البشارة، فذكر أن لفظ «فارقليط» معرب من اللفظ اليوناني ثم قال: فإن قلنا: إن هذا اللفظ اليوناني الأصل «باراكلي طوس» فيكون بمعنى المعزي والمعين والوكيل.

وإن قلنا: إن اللفظ الأصلي «بيركلي طوس» فيكون قريباً من معنى محمد، أو أحمد، ولكن الصحيح أن اللفظ «باراكلي طوس» وليس «بيركلي طوس».

وقد ردَّ عليه الشيخ رحمة الله الهندي، فقال: إنه من الواضح أن التفاوت بين اللفظين يسير جداً، وأن الحروف اليونانية كانت متشابهة، وأن استبدال

---

(١) قصص الأنبياء ـ مبحث بشارة عيسى بالنبي ص ٤٧٣ الطبعة الثانية.

«باراكلي طوس» بـ «بيركلي طوس» في بعض النسخ من الكاتب قريب القياس، ثم رجح أهل التثليث هذه النسخة على النسخ الأخرى.

أقول: وما دامت الكلمة محتملة لأن تكون «بيركلي طوس» وأن تكون «باراكلي طوس» فلنلجأ إلى الترجيح كما هي قواعد البحث العلمي الصحيح، وليس من شك في أن «بيركلي طوس» هي الراجحة لأنها يوافقها القرآن الكريم الذي هو الشاهد والمهيمن على الكتب السماوية، لأنه الكتاب السماوي الذي سلم من التحريف، والتبديل بإجماع المسلمين، وشهادة العقلاء وأحرار الفكر من المسيحيين، والله تبارك وتعالى يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

وقد ورد في «إنجيل برنابا» الذي كان في طي الخفاء وظهر منذ زمن قريب ما يدل على البشارة بالنبي صراحة، ولم يسع القسس إلا الطعن فيه، وقالوا: إنه من وضع العرب، وهي دعوى لم يقم عليها دليل، فقد أثبت بعض الباحثين أنه موجود من قبل ميلاد النبي ﷺ.

وقد تواترت الأخبار قبل النبوة المحمدية بقرب ظهور نبي من العرب بشَّرت به التوراة والإنجيل على لسان الأحبار والرهبان، وحدث سلمان الفارسي الصحابي الجليل أنه صحب قسيساً، فكان يقول له: «يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد من جبال تهامة(١)، علامته أن يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة» وكان هذا من أسباب إسلام سلمان لما بلغته الدعوة المحمدية.

وكان هذا أيضاً من أسباب مسارعة الأنصار إلى قبول الإسلام، ذلك أنهم لما عرض عليهم النبي الإسلام قال بعضهم لبعض: هذا الذي حدثتكم عنه يهود فلا يستبقنكم إليه!!

---

(١) أي مكة لأن تهامة تطلق عليها كما يطلق الحجاز على تهامة.

بين يدي النبوة

فترة الخلوة

وقبيل النبوة حُبِّب إلى رسول الله ﷺ الخلوة عن الخلق، والانصراف إلى الخالق، لما في الخلوة من صفاء النفس، وهدوء البال، والتفكر في ملكوت الله، وعظيم خلقه، وجليل قدرته، فكان يخلو بغار حراء[1] في رمضان من كل عام، ويطعم من جاءه من الفقراء والمساكين، فإذا قضى جواره من شهره كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً، أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، وكانت السيدة خديجة ــ رضي الله عنها ــ تعينه على هذه الخلوة وتعدُّ له الزاد والطعام، وكان رسول الله يرجع إليها في أثناء الخلوة ليتعهدها، ويأخذ زاده، وما زال يخلو ويتعبد[2] بهذا الغار حتى أكرمه الله بالنبوة، ونزل عليه الوحي.

غار حراء

وحراء جبل في أعلى مكة على ثلاثة أميال منها، عن يسار المار إلى منى، له قنة مشرفة على الكعبة منحنية. والغار في تلك الحنية. قال رؤبة بن العجاج:

فلا وَرَبِّ الآمنات القُطُنِ وَرَبِّ ركن من حراء منحني

وسمي الغار باسم هذا الجبل، وكان هذا الغار معروفاً عند العرب في الجاهلية، وكان بعضهم يخلو فيه ويتعبد، وقد ذكره أبو طالب في قصيدته المشهورة فقال:

وثور ومن أرسى ثبيراً[3] مكانه وراقٍ ليرقى في حراء ونازل

---

(١) حراء يمد ويقصر، ويصرف، ويمنع من الصرف.

(٢) وقد اختلف في تعبده ﷺ قبل النبوة: أكان على شرع أم لا؟ فقيل: كان يتعبد بالتفكر والتأمل في ملكوت الله، وبديع صنعه، وقيل: كان يتعبد بشرع من قبله، وقد اختلف في: على أي شرع كان يتعبد؟ والأصح أنه كان يتعبد على شريعة أبيه وأبي الأنبياء الخليل ــ عليه السلام ــ وكانت قد بقيت منها شرائع لا زالت مأثورة عند العرب.

(٣) هو جبل آخر بمكة.

وللغار مدخل يتسع للرجل البدين، ويقف فيه الرجل الفارع، ويتسع لبضعة رجال يصلون ويجلسون، وقد صعدت إليه وأنا في سن الشباب في أكثر من ساعة، وجلست فيه، وصليت ركعتين، فلله الحمد والمنة.

والغار في مكان يبعث على التأمل والتفكر، تنظر إلى منتهى الطرف فلا ترى إلا جبالاً كأنها ساجدة متطامنة لعظمة الله، وإلا سماء صافية الأديم، وقد يرى من يكون فيه مكة إذا كان حاد البصر.

بعض ما أكرم الله به نبيه قبيل النبوة[1]

فمن ذلك ما ذكره ابن إسحاق في سيرته بسنده عن أهل العلم الثقات أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته، وابتدأه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت[2]، ويفضي إلى شعاب[3] مكة، وبطون أوديتها، فلا يمر رسول الله بحجر، ولا شجر إلا قال: «السلام عليك يا رسول الله»[4] فيلتفت الرسول حوله، وعن يمينه، وعن شماله، فلا يرى إلا الشجر والحجارة، فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل ــ عليه السلام ــ بما جاءه من كرامة الله، ووحيه وهو بحراء في شهر رمضان. وفي صحيح مسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»[5].

* * *

(١) ذكر ابن الجوزي أن ذلك كان قبل النبوة بسنتين (شرح المواهب ج ١ ص ٢٠٤).

(٢) تبعد عنه ويبعد عنها.

(٣) الشعاب: جمع: شِعْب، وهي الطرق بين الجبال.

(٤) وذلك بأن يخلق الله فيها الكلام من غير حياة، ولا علم؛ أو بأن يخلق الله فيها الحياة والتمييز فتنطق وتتكلم: رأيان للعلماء، ولعل الأول هو الأولى.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٥ ص ٣٦.

الباب الثالث

من البعثة إلى الهجرة

الفصل الأول : النبوّة.

الفصل الثاني : أطوار الدعوة إلى الإسلام.

الفصل الثالث : الجهر بالدعوة وما صاحبه من إيذاء وإغراء.

الفصل الرابع : أحداث هامة في العهد المكيّ.

الفصل الخامس: الذهاب إلى الطائف.

الفصل السادس: الإسراء والمعراج.

الفصل السابع : عرض رسول الله نفسه على قبائل العرب في موسم الحج.

الفصل الثامن : الهجرة إلى المدينة.

الفَصْل الأوَّل
النُّبُوَّة

ولما بلغ رسول الله ﷺ الأربعين من عمره المبارك نبَّأه الله، وأوحى إليه، وكان ذلك في ربيع الأول. وكان أول ما بُدىء به النبي من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا تحقق صدقها، ورؤيا الأنبياء وحي، وقد مكث على هذه الحال ستة أشهر حتى نزل عليه جبريل الأمين بالوحي القرآني، وذلك في السابع عشر من رمضان من هذا العام على ما عليه المحققون من العلماء، قال تعالى:

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ (١) يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾(٢).

وكان التقاء الجمعين في بدر في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة بالإجماع.

ابتداء نزول القرآن

وقد كان أول ما نزل من القرآن في هذا اليوم المشهود الفذّ خمس آيات من صدر سورة اقرأ، وهي:

---

(١) الذي فرَّق الله به بين الحق والباطل. أي في مثل اليوم الذي التقى فيه الجمعان.

(٢) الآية ٤١ من سورة الأنفال.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾(١).

وكان ذلك في رمضان حسبما قال عز وجل:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴿١٨٥﴾ ﴾(٢).

وكان ذلك في ليلة القدر كما قال عز شأنه:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ . . . ﴾(٣).

وهي الليلة المباركة التي ذكرها الله في قوله:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾(٤).

وقد كانت طلائع الوحي الإلهي فيها إشادة بالقلم وخطره، وبالعلم ومنزلته في بناء الشعوب والأمم، فما أصدقها من طلائع تجعل العلم والمعرفة من أخص خصائص الإنسان.

---

(١) أي اقرأ مبتدئاً باسم الله، لا باسم أحد سواه، لأنه سبحانه هو الذي خلق هذا النوع الإنساني، وفضّله على كثير من خلقه، ثم بيّن لنبيه أن ربه الأكرم سيعلمه ما لم يكن يعلم، ولا تأس إن كنت أمياً فإن العلم علمان: علم كسبي وقد أشار الله له بقوله ﴿علم بالقلم﴾ وعلم وهبي ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ ومنه علم الأنبياء والمرسلين.

(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(٣) سورة القدر، وللعلماء في قوله: ﴿إنا أنزلناه﴾. قولان: الأول: المراد النزول جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزل على النبي مفرقاً في نيِّف وعشرين سنة، الثاني: أن المراد ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر وكان ذلك في رمضان والنبي يتعبد بغار حراء وتكون ليلة القدر في هذا العام ليلة السابع عشر من رمضان.

(٤) الآيات ٣ ـ ٥ من سورة الدخان.

رجوع النبي لخديجة

وبعد نزول هذه الآيات الخمس في قصة مثيرة التقت فيها البشرية بالملائكية على غير عهد سابق رجع النبي ﷺ وهو يرتعد من شدة الخوف، حتى أتى السيدة خديجة فأخبرها بما جرى، وقال لها: «لقد خشيتُ على نفسي» فطمأنته وأكدت له أنه ما كان الله ليخزيه أبداً، وقالت له: «أبشر يا ابن عم، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة»[1].

إلى ورَقَة بن نوفل

ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورَقَة بن نوفل، وكان ممن تنصَّر في الجاهلية، وعنده علم بالتوراة والإنجيل، وكان ممن يعبد الله ويوحده، فقص عليه النبي قصته فبشره بالنبوة، وقال له: هذا هو الناموس[2] الذي كان ينزل على موسى، وأخبره بما سيجده من قومه من عنت وأذى، وأنهم سيخرجونه من بلده مكة، وتمنى لو أدركته الرسالة لينصره نصراً مؤزراً، ولكن ورقة لم يلبث أن توفي بعد أن آمن بالنبي وصدق به.

قصة بدء الوحي كما رواها الشيخان

وإليك ما رواه الشيخان: البخاري ومسلم في صحيحيهما[3] بسندهما ــ واللفظ للبخاري ــ عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت:

«أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة[4] في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[5]، ثم حبِّب إليه الخلاء، وكان

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨.

(٢) الناموس: رسول الخير، والمراد به جبريل ــ عليه السلام ــ.

(٣) رواه البخاري في باب كيف كان بدء الوحي.. وفي كتاب التفسير «سورة اقرأ» وفي كتاب التعبير، ورواه مسلم في باب بدء الوحي إلى رسول الله.

(٤) في رواية «الصادقة» وهي التي ليس فيها أضغاث أحلام، وهما بمعنى بالنسبة لأمور الآخرة، وأما في شؤون الدنيا فقد تكون صالحة وهو الأكثر، وقد تكون غير صالحة كرؤياه قبيل أحد.

(٥) فلق الصبح: ضياؤه.

يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه ــ وهو التعبد ــ[1] الليالي ذوات العدد قبل أن يَنْزِع[2] إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارىء» قال: فأخذني، فغطّني[3]، حتى بلغ مني الجهد[4]، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارىء» فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارىء» فأخذني فغطّني الثالثة[5] ثم أرسلني، فقال:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده[6] فدخل على خديجة بنت خويلد ــ رضي الله عنها ــ فقال: زَمِّلوني[7]، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع[8]، فقال لخديجة ــ وأخبرها الخبر ــ: لقد خشيت على نفسي[9]، فقالت

---

(١) أصل التحنث ترك الحنث وهو الإثم ويلزمه التعبد، وهذا التفسير مدرج من الزهري راوي الحديث عن عروة عن عائشة.

(٢) يرجع وزناً ومعنى.

(٣) عصرني حتى كاد يكتم أنفاسي.

(٤) بفتح الجيم والنصب أي المشقة، وبضم الجيم والرفع أي غاية الوسع حتى بلغ مني الجهد مبلغه.

(٥) وإنما فعل به ذلك ليبلو صبره، ويختبر احتماله فيرتاض لاحتمال ما كلف به من أعباء النبوة، وأثقال الوحي، ولذلك كان ﷺ إذا أوحي إليه يثقل جسمه، ويغط كما يغط البكر، ويتصبب عرقه، وكأنه يقول له: استعد لما ينتظرك في تبليغ الرسالة من شدائد وآلام.

(٦) يضطرب من الخوف.

(٧) غطوني ولفوني بالثياب.

(٨) بفتح الراء: الخوف.

(٩) أي المرض أو الموت من شدة الضغط والضم، وقد كان ذلك قبل أن يحصل له العلم الضروري بأن الذي جاءه ملك من الله، ولا يصح تفسير الخشية بغير هذا، ولا تلتفت لما يوجد في بعض الكتب.

خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ[1]، وتَكسب المعدومَ[2] وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[3] ــ وفي بعض الروايات زيادة ــ وتصدق الحديث ــ وفي بعضها ــ وتؤدي الأمانة[4].

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزّى ابن عم خديجة، وكان امرءاً قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى[5]، يا ليتني فيها جذعاً[6]، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ : «أوَ مُخْرِجِيَّ هم»؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[7]. ثم لم يَنْشَب[8] ورقة أن توفي، وفتر الوحي.

رواية لابن إسحاق

وفي رواية ابن إسحاق عن عبيد بن عمير مرسلاً: قال النبي ﷺ:

---

(١) الضعيف.

(٢) بفتح التاء ونصب المعدوم أي تصيب من المال ما لا يصيب غيرك، وكانت العرب تتمادح بها، قال أعرابي يمدح رجلاً: كان أكسبهم لمعدوم، وأعطاهم لمحروم.

(٣) أحداث الزمان ونوازله.

(٤) وفي ذكر هذه الأوصاف ما يدل على كمال خلق النبي في الجاهلية، وأن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، كما يدل على كمال عقل السيدة خديجة، ووفور شفقتها، ومحبتها للنبي.

(٥) خصَّ موسى لأن شريعته كانت أعم وأوفى من شريعة عيسى.

(٦) أي شاباً. أي ليتني أكون فيها جذعاً.

(٧) قوياً صادقاً.

(٨) لم يلبث.

«جاءني جبريل، وأنا نائم بنمط من ديباج[1] فيه كتاب فقال: اقرأ... » الخ، فظاهر هذا أنه كان مناماً.

والمعوّل عليه ما في الصحيحين، وأن ذلك كان في اليقظة لا في المنام، وإن ثبت ما ذكره ابن إسحاق فيكون ما حدث في المنام كان قبل ذلك توطئة لما حدث في اليقظة، ففي مغازي موسى بن عقبة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيِّب أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «أرأيتك الذي كنت حدثتك أني رأيت في المنام، فإنه جبريل استعلن إلي، أرسله إلي ربي عز وجل وأخبَرها بالذي جاءه من الله، وما سمع منه، فقالت: أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً»[2].

فترة الوحي

وقد فتر الوحي بعد ذلك فترة، وقد اختلف في مقدارها فقيل: كانت أياماً، روى هذا ابن سعد في طبقاته عن ابن عباس، وروي أن أقصاها أربعون يوماً، وقيل: ستة أشهر، وقيل: سنتان ونصف، وقيل: ثلاث سنين، ونسب هذا إلى ابن إسحاق، والذي في السيرة لابن هشام عن ابن إسحاق عدم التحديد بمدة[3].

والذي أرجِّحه وأميل إليه هو الأول، وأن أقصاها أربعون يوماً، ويليه القول الثاني، وأما القولان الأخيران فإني أستبعدهما، فالفترة إنما كانت ليسترد النبي ﷺ أنفاسه مما حدث له من ضغط جبريل، وما عراه من الهول والفزع لأول لقاء بين بشر وملك، وليحصل للنبي الشوق إلى لقاء جبريل بعد هذه الفترة.

أما أن يقضي النبي ثلاث سنين أو سنتين ونصف سنة من عمر الدعوة الإسلامية من غير وحي ودعوة فهذا ما لا تقبله العقول، ولا يدل عليه نقل صحيح، وفي هذه الفترة كان النبي يداوم الذهاب إلى حراء، وإلى ما جاوره

---

(١) بقطعة من حرير فيها كتاب أي شيء مكتوب.

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣.

(٣) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٤١.

من الجبال عسى أن يجد هذا الذي جاءه بحراء حتى وصل جبريل ما انفصم، وعاد الوحي وتتابع.

رواية موهمــة

وفي بعض روايات صحيح البخاري[1]: «ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ ــ فيما بلغنا[2] ــ حزناً غدا منه مراراً كي يتردَّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفَى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدَّى له جبريل، فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدَّى له جبريل فقال له مثل ذلك».

وهذه الرواية ليست على شرط الصحيح لأنها من البلاغات، وهي من قبيل المنقطع، والمنقطع من أنواع الضعيف، والبخاري لا يخرج إلا الأحاديث المسندة المتصلة برواية العدول الضابطين، ولعل البخاري ذكرها لينبهنا إلى مخالفتها لما صح عنده من حديث بدء الوحي، الذي لم تذكر فيه هذه الزيادة.

ولو أن هذه الرواية كانت صحيحة لأوَّلناها تأويلاً مقبولاً، أما وهي على هذه الحالة فلا نكلف أنفسنا عناء البحث عن مخرج لها.

وأيضاً فإن ما استفاض من سيرته ﷺ يرد ذلك، فقد حدثت له حالات أثناء الدعوة إلى ربه أشد وأقسى من هذه الحالة، فما فكر في الانتحار بأن يلقي نفسه من شاهق جبل أو يبخع نفسه، وسترى فيما يأتي أنه لما عرض عليه عمه أن يكف عن قريش، ويبقي عليه وعلى نفسه، وكان عمه هو ناصره الوحيد من

---

(١) كتاب التعبير ــ باب أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة.

(٢) قال الحافظ في الفتح: «ثم إن القائل فيما بلغنا هو الزهري، ومعنى الكلام أن في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ في هذه القصة، وهو من بلاغات الزهري وليس موصولاً» قال الكرماني: وهذا هو الظاهر، ويحتمل أن يكون بلغه بالإسناد المذكور (فتح الباري ج ١٦ ص ١٢ ط الحلبي).

أهله قال هذه القولة: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ما تركته»!!

ونحن لا ننكر أنه ﷺ قد حصلت له حالة أسى وحزن عميقين على انقطاع الوحي خشية أن يكون ذلك عدم رضا من الله، وهو الذي كان يهون عليه كل شيء من لأواء الحياة وشدائدها ما دام ذلك في سبيل الله، وفيه رضا الله، وهو القائل في ساعة من ساعات الكرب، والضيق، والشدة، لما ناله ما ناله من سفهاء ثقيف مخاطباً ربه: «إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي!!».

كان يمكننا أن نقول: إنَّ ظن حدوث غضب الله وسخطه تجوَّز للمخلصين من عباد الله أن يهلكوا أنفسهم ويذهبوها ترضية لله، وخوفاً منه، ولكنا لا نرى هذا لأن حالة الرواية كما سمعت، ولأنها تخالف المعروف المشهور من سيرته ﷺ.

والتعليل الصحيح لكثرة غشيانه ﷺ في مدة الفترة رؤوس الجبال وشواهقها، أنّ الإنسان إذا حصل له خير أو نعمة في مكان ما فإنه يحب هذا المكان، ويتلمس فيه ما افتقده، فلما انقطع الوحي صار ﷺ يكثر من ارتياد قمم الجبال، ولا سيما حراء، رجاء أنه إن لم يجد جبريل في حراء، فليجده في غيره، فرآه راوي هذه الزيادة وهو يرتاد الجبال، فظن أنه يريد هذا، وقد أخطأ الراوي المجهول في ظنه قطعاً.

وليس أدل على ضعف هذه الزيادة وتهافتها من أن جبريل كان يقول للنبي كلما أوفى بذروة جبل: «يا محمد إنك رسول الله حقاً» وأنه كرر ذلك مراراً، ولو صح هذا لكانت مرة واحدة تكفي في تثبيت النبي وصرفه عما حدَّثته به نفسه كما زعموا، وقد نحا إلى ما نحوت بعض كتاب السيرة المحدثين المسلمين(١).

---

(١) حياة محمد ورسالته، ص ٧٠، ٧١.

الوحي وأنواعه

الوحي في اللغة: يطلق على الإعلام الخفي السريع وهو أعم من أن يكون بإشارة، أو كتابة، أو رسالة، أو إلهام غريزي أو غير غريزي، وهو بهذا المعنى اللغوي لا يختص بالأنبياء، ولا بكونه من عند الله سبحانه وتعالى[١].

وأما معناه الشرعي: فهو إعلام الله أنبيـاءه ورسله بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع، أو كتاب، بواسطة أو بغير واسطة[٢]، فهو أخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره ومورده[٣].

وقد يُعَرَّف بأنه (عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين أنه من عند الله)[٤].

وقد يُعَرَّف بأنه: (ما أنزله الله على أنبيائه، وعرفهم به من أنباء الغيب، والشرائع)[٥].

إمكان الوحي ووقوعه

مبنى الوحي ومداره على أمرين:

الأول: وجود موح وهو الله سبحانه وتعالى، ووجود الملك الذي يبلِّغ الوحي وينقله من الله إلى الأنبياء والرسل، والملك جسم نوراني لا يرى، ولكنه قادر على التشكل بالأشكال المختلفة الحسنة، والتنقل بالسرعة الفائقة، وقد يراه على حقيقته بعض أنبياء الله ورسله.

الثاني: وجود نفس بشرية صافية عندها استعداد خاص لتلقي الوحي من الله مباشرة، أو من الملك.

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص ٧٣؛ والوحي المحمدي، ص ٣٧.

(٢) وهو بهذا تعريف للوحي بمعناه المصدري.

(٣) مصدره: وهو كونه من الله، ومورده: وهم الأنبياء والرسل.

(٤) وهو تعريف للوحي بالمعنى الحاصل بالمصدر.

(٥) وهو تعريف للوحي بمعنى الموحى به.

أما الأول: فالله سبحانه وتعالى قام على وجوب وجوده الدلائل العقلية، والآفاقية، والأنفسية والتنزيلية.

وأما الملائكة فقد أخبر بوجودهم الأنبياء، وتواترت على ذلك الكتب السماوية كلها بما لا يدع مجالاً للشك في وجودهم، وأجمع على وجودهم أهل الأديان جميعاً.

والفلاسفة قديماً وحديثاً ــ إلا الشرذمة المادية ــ يقرون بوجود عالم غير محسوس وراء هذا العالم المحسوس، وأن الإنسان ليس جسماً مادياً فحسب، وإنما هو جسم وروح.

وإذا ثبت وجود عالم وراء هذا العالم المحسوس لم يبقَ مجال إذاً ــ وقد أخبر بوجودهم الأنبياء والرسل، والكتب السماوية ــ لإنكار وجود الملائكة.

وأما الثاني: وهو استعداد النبي أو الرسول للتلقِّي عن الله، أو عن الملك، فهو أمر ممكن؛ إذ الأنبياء والرسل لهم من سمو فطرتهم، وصفاء أرواحهم وإعداد الله سبحانه لهم إعداداً خاصاً: جسمانياً، وروحياً ما يؤهلهم لتلقي الوحي من الله، أو الملك الموكل بذلك، والفهم منه، وليس لنا في هذا أن نقيس الغائب على الشاهد، أو عالم الروح على عالم الحس والمادة، وإلا ضللنا عن الصراط المستقيم.

وإذا ثبت هذان الأمران فقد ثبت ــ ولا محالة ــ إمكان الوحي، وأنه لا استحالة فيه، ومن ادَّعى الاستحالة فعليه البيان، وأن يقيم على ذلك البرهان، ثم إن بعض المخترعات الحديثة، كاللاسلكي، والمذياع، والتليفزيون، ونحوها تمكن الإنسان بوساطتها أن يبلغ الكلام أو الصورة إلى من هو أبعد من مصدره بألوف الأميال، فإذا توصل الإنسان ــ على عجزه ــ إلى هذه الوسائل، أفنستبعد على خالق القوى والقدر، العليم الخبير، أن يبلِّغ رسله ما يريد بوساطة أو بغيرها؟! وأن يهيىء للموحى إليه من الوسائل ما يجعله مستعداً لتلقِّي الوحي؟!

وإذا ثبت أن الوحي ممكن، وأن كل ممكن أخبر بوقوعه الصادق المصدوق ﷺ فهو واقع كانت النتيجة: أن الوحي ثابت، وواقع لا محالة.

أقسام الوحي الشرعي

للوحي أنواع كثيرة أهمها:

١ ـ تكليم الله نبيه بما يريد من وراء حجاب، إما في اليقظة، وذلك مثل تكليم الله موسى عليه السلام، ومثل ما حدث لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء والمعراج. وإما في المنام كما في حديث ابن عباس ومعاذ عن النبي ﷺ قال: «أتاني ربي، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟...»[١] رواه أحمد في مسنده، والترمذي في سننه، وقال: حسن صحيح، وعبدالرزاق، والطبراني عن ابن عباس، والترمذي، وابن مردويه، والطبراني من حديث معاذ.

والذي عليه السلف الصالح من أهل السنة والجماعة أن نبي الله موسى، ونبينا محمداً عليهما الصلاة والسلام سمعا كلام الله الأزلي القديم الذي هو صفة من صفاته، وليس المسموع الكلام النفسي كما زعم الأشاعرة، وليس المسموع الكلام الذي خلقه الله في الشجرة كما زعم المعتزلة.

٢ ـ إعلام الله أنبياءه بوساطة جبريل، وهذا هو ما يعرف «بالوحي الجلي» ولذلك حالات:

(أ) أن يبدو جبريل في صورته التي خلقه الله عليها وهي حالة نادرة، ولم ير النبي ﷺ جبريل على هذه الحالة إلا مرتين: مرة وهو نازل بعد فترة الوحي من غار حراء، ومرة وهو في السماء ليلة الإسراء والمعراج.

(ب) أن يأتي جبريل في صورة رجل، وكان يأتي غالباً في صورة دحية الكلبيّ[٢]، ويراه الحاضرون، ويسمعون قوله، ولا يعرفون حقيقته، أو في صورة رجل غير معروف، وذلك كما في حديث جبريل المشهور في السؤال عن الإيمان، والإسلام، والإحسان رواه الشيخان وغيرهما.

---

(١) أتاني ربي: أي في المنام. الملأ الأعلى: هم الملائكة. انظر: تفسير ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ الآية ٦٩ من سورة ص.

(٢) رجل من الصحابة وكان جميل الصورة.

(ج) أن يأتي في صورته الملكية، وفي هذه الحالة لا يُرى، ولكن يصحب مجيئه صوت كصوت الجرس، أو كدوي النحل، وفي هذه الحالة يتحوَّل النبي من حالته البشرية الخالصة إلى حالة يحصل فيها استعداد للتلقي عن الملك، وهي أشد الحالات على النبي ﷺ[1]، فتأخذه حالة كحالة الرحضاء[2]، فيربدّ وجهه، ويغطُّ غطيط[3] النائم، ويتصبب عرقه، ويثقل جسمه، حتى إنه إن كان راكباً ناقة تزم من الثقل، وإن جاءت فخذه على فخذ إنسان تكاد ترضُّها.

٣ ـ القذف في القلب: بأن يلقي الله أو جبريل في قلب النبي ما يريد من الوحي مع تيقنه أن ما ألقي إليه من قبل الله تعالى، وذلك مثل ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن روح القدس[4] نفث في رُوعي[5]: لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنَّ أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «القناعة»، وابن ماجه، والحاكم في المستدرك وصححه، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية.

٤ ـ الإلهام: وهو العلم الذي يلقيه الله تعالى في قلب نبيه، وعلى لسانه عند الاجتهاد في الأحكام، ويدل عليه قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[6].

إذ المراد بالوحي في الآية الإلهام أو المنام لمقابلته للقسمين الآخرين:

(١) صحيح البخاري ـ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.
(٢) هي الحمى.
(٣) هو ما يحصل للنائم من شخير عند احتباس نفسه.
(٤) هو جبريل عليه السلام.
(٥) الروع بضم الراء: القلب، والنفث هو النفخ مع ريق قليل، والمراد هنا الإلقاء.
(٦) الآية ٥١ من سورة الشورى.

التكليم من وراء حجاب، أو بوساطة رسول وهوجبريل. وبالتأمل في الآية نرى أنها تدل على جميع الأنواع التي ذكرتها، والفرق بين إلهام الأنبياء وإلهام غيرهم، أن الأول يكون مصحوباً بالعلم أنه من عند الله، ولا كذلك غيرهم.

٥ ـ الرؤيا في المنام: ورؤيا الأنبياء وحي، وذلك مثل رؤيا الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه يذبح ولده إسماعيل، ورؤيا نبينا محمد ﷺ أنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين[١]، وفي حديث بدء الوحي السابق: «أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم».

والوحي بجميع أنواعه يصحبه علم يقيني ضروري من الموحَى إليه بأن ما أُلقي إليه حق من عند الله، ليس من خطرات النفس، ولا نزغات الشيطان، وهذا العلم اليقيني لا يحتاج إلى مقدمات، وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية كالجوع والعطش ونحوهما.

بطلان فكرة الوحي النفسي

لقد حاول الماديون الذين لا يؤمنون بوجود قوى روحية غيبية وراء المادة، ومن على شاكلتهم ممن يحملون الحقد والضغن للإسلام والنبي ﷺ أن يشككوا في الوحي المحمدي، فنفوا أن يكون وحياً من خارج نفس النبي، وقالوا: إنه وحي من داخل نفسه، وليس هناك ملك ألقى شيئاً من الله، فإن عالم الغيب الذي تقولون: إنه وراء عالم المادة والطبيعة لم يثبت عندنا وجوده، كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال، ونحن نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت، فهذا الوحي الذي أخبر به محمد إنما هو إلهام كان يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج.

ذلك أن منازع نفسه العالية، وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته، وترك ما سواها من عبادة وثنية، وتقاليد وراثية رديئة يكون لها في جملتها

(١) وقد ذكرت الرؤييان في القرآن الكريم.

من التأثير ما يتجلّى في ذهنه، ويحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية، فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء، وقد يسمعه يقول ذلك، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الـذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند الأنبياء، فكل ما يخبر به النبـي من كلام أُلقي في روعه، أو عن ملك ألقاه على سمعه فهو خبر صادق عنده، ولكن تفسيره عندنا ما ذكرنا من أن ما تخيله إنما هو نابع من نفسه ومن عقله الباطن.

ولأجل أن يؤيدوا فكرتهم الباطلة هذه ذكروا مقدِّمات زعموا أنها كانت أساس هذا العلم النفسي الباطني الذي فاض على لسان النبـي وقال إنه وحي، فزعموا أنه استفاد من رحلاته مع عمه أبـي طالب التي لقي فيها الأعراب وسمع منهم، وأحبار اليهود والنصارى وأخذه عنهم، وأنه استفاد أيضاً معلوماته عن اليهودية والنصرانية بسبب انتشار هاتين الديانتين في بلاد العرب، وما سمعه من متنصِّرة العرب: كقس، وأمية بن أبـي الصلت، وورقة بن نوفل، وأنه استفاد أيضاً من رحلتي الشتاء والصيف، ومن الخلوة بغار حراء، وانقطاعه إلى عبادة الله، والتأمل والتفكير في خلق السموات والأرض، حتى خُيِّل إليه أنه النبـي المنتظر الذي سيبعثه الله لهداية البشر، بل وسمع الكثير من القصص من اليهود والنصارى الذين كانوا يسكنون جزيرة العرب ولا سيما مكة التي كان فيها جالية كبيرة من النصارى، ولقد حاول درمنغم أن يثبت تعرّف النبـيّ بكثير من النصارى بمكة، حتى ليخيل لقارىء ما كتب أن النبـي كان يعيش في بيئة نصرانية(١).

تفنيد هذه الفكرة

أما هذه الأمور التي استندوا إليها فهي من خيالهم، وقد قدَّمت الرد عليهم في كثير من هذه الادعاءات، وأنهم تقوَّلوا على التاريخ وعلى الواقع حينما زعموا هذه المزاعم، وأن النبـي لم يأخذ عن أحد من أهل الكتاب، ولا عن متنصِّرة العرب شيئاً، وإلا لواجهوه بالحقيقة حينما جادلهم وفند مذاهبهم، وأبطل عقائدهم، ثم إن النصرانية كما شهد بذلك الأحرار من النصارى كانت فاسدة،

(١) حياة محمد، لدر منغم، ص ١٢٥ ــ ١٢٦.

محرَّفة، مبدَّلة، فغير معقول أن تكون مصدراً لما جاء به النبي ﷺ من عقيدة صحيحة، وتوحيد خالص لله.

والنصارى الذين كانوا في مكة كانوا خدماً أو صُنّاعاً، ولم يكونوا من أهل العلم والمعرفة حتى يأخذ النبي عنهم، ولما ادَّعى بعض المشركين مثل هذه الدعوى، وزعموا أن النبي تعلم من (جبر) الرومي النصراني رد الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نعلم أَنَّهم يَقُولُونَ: إنما يعلِّمه بشرٌ، لسانُ الذي يُلْحِدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين﴾[1].

وإذا ثبت بطلان المقدمات التي ذكروها ثبت بطلان ما أدَّت إليه من نتيجة.

ثم إنَّ فكرة الوحي النفسي كما صوَّروه مبنية على وجود معلومات وأفكار مدَّخرة في العقل الباطن وأنها تظهر في صورة رؤى، ثم تقوى فيخيَّل إلى صاحبها أنها حقائق خارجية، فهل كان الدين الذي جاء به نبينا محمد بعقائده وتشريعاته: في العبادات والمعاملات، والحدود والجنائيات، والاقتصاد والسياسة والأخلاق والآداب مركوزاً مدَّخراً في نفس النبي؟!.

هذا ما تنكره العقول بداهة لأن ما جاء به النبي في العقائد يعتبر مناقضاً لكل ما كان سائداً في العالم حينئذ من عقائد كالوثنية، والمجوسية، والثنوية[2]، والتأليه، والتثليث والصلب، وإنكار البعث واليوم الآخر، وكذلك جاء النبي بتشريعات لم تأت بها شريعة أخرى، واشتمل القرآن على أسرار في الكون والأنفس ما كانت تخطر على بال بشر قط، ولم يظهر تأويلها إلا بعد تقدم العلوم في العصر الحديث، فكيف تكون هذه الأسرار والعلوم من داخل نفس النبي ﷺ؟!

وأيضاً فإن الوحي قد انقطع فترة بعد نزول صدر سورة «اقرأ» فكيف سكت النبي طوال هذه المدة، وهو هو صاحب العقل الباطن المملوء بالمعارف، والوجدان الملتهب، والنفس المتوثبة للإصلاح؟!!

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة النحل.

(٢) الذين يقولون بإله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلمة.

ثم إن العقل الباطن ـ على ما يقول علماء النفس ـ إنما يفيض بما فيه في غفلة من العقل الظاهر، ولذلك لا يظهر ما فيه إلا عن طريق الرؤى والأحلام والأمراض كالحمَّى مثلاً، والقرآن الكريم نزل على النبـي ﷺ وهو في اليقظة، وفي اكتمال من عقله وبدنه، ولم ينزل منه شيء في الرؤى والنوم، وهكذا ترى أن ما استندوا إليه من فكرة العقل الباطن لا تساعدهم بل ترد عليهم.

بطلان ما زعموا أنه صرع

وقد أَسَفَّ بعض المبشِّرين والمستشرقين، فزعموا أن الحالة التي كانت تعتري النبـي عند تلقي الوحي من جبريل، وهو على حالته الملكية، وهي الحالة التي كان يغيب فيها النبـي عن الناس، وعما حوله، ويسمع له غطيط، ويتصبَّب عرقه، ويثقل جسمه ـ هي حالة صرع تتمخض عما يخبر به أنه وحي.

وإليك رد هذه الفرية لترى أنهم طعنوا في غير مطعن:

١ ـ إن النبـي ﷺ بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء كان أصح الناس بدناً، وأقواهم جسماً، وأوصافه التي تناقلها الرواة الثقات تدل على البطولة الجسمانية، وقد بلغ من قوته أنه صارع ركانة بن عبد يزيد فصرعه، وكان ركانة هذا مصارعاً ماهراً، ما قدر أحد أن يأتي بجانبه إلى الأرض، ولما عرض عليه النبـي الإسـلام قال: صـارِعْني فإن أنت غلبتني آمنت أنـك رسول الله، فتصارعا، فصرعه النبـي، فقيل: إنه أسلم عقب ذلك(١).

والمصاب بالصرع لا يكون على هذه القوة، وقد شهد للنبـي رجل غريب عن الإسلام، ولكنه منصف، قال الكاتب الأجنبـي (بودلي) في كتابه «الرسول، حياة محمد» مفنداً هذا الزعم: (لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي كان يتمتع بها محمد، حتى قبل وفاته بأسبوع واحد، وأن كل من تنتابه حالات الصرع كان يعتبر مجنوناً، ولو كـان هناك من يـوصف بالعقـل ورجاحتـه فهو محمد)!!

---

(١) الإصابة في تاريخ الصحابة، ج ١ ص ٢٠٥؛ والاستيعاب، ج ١ ص ٥٣١.

٢ ــ إن مريض الصرع يصاب بآلام حادة في كافة أعضاء جسمه، يحس بها إذا ما انتهت نوبة الصرع ويظل حزيناً كاسف البال بسببها، وكثيراً ما يحاول مرضى الصرع الانتحار من قسوة ما يعانون من آلام في النوبات، فلو كان ما يعتري النبي عند الوحي صرعاً لأسف لذلك وحزن لوقوعه، ولسعد بانقطاع هذه الحالة عنه، ولكن الأمر كان على خلاف ذلك.

لقد انقطع الوحي عن الرسول مدة فحزن لذلك حزناً شديداً، وكان يذهب إلى غار حراء وقمم الجبال عسى أن يعثر على الملك الذي جاءه بحراء، وبقي محزون النفس من هذه الحالة، حتى سرّى عنه ربه بوصل ما انفصم من الوحي، وعادت المياه إلى مجاريها.

٣ ــ إن الوحي لم يكن يأتي النبي ﷺ على هذه الحالة التي قالوا عنها إنها صرع إلا أحياناً، وأحياناً كان يأتيه وهو في حالته الطبيعية، فلا غيبوبة، ولا عرق، ولا غطيط، وذلك حينما كان يأتيه جبريل في صورة رجل، وذلك كما حدث في حديث جبريل المشهور.

ويدل على هاتين الحالتين الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟»، قال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»(١) قالت عائشة: «ولقد رأيته حين ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد(٢) عرقاً»(٣).

٤ ــ إن الثابت علمياً أن المصروع أثناء الصرع يتعطل تفكيره وإدراكه تعطلاً تاماً، فلا يدري المريض في نوبته شيئاً عما يدور حوله، ولا ما يجيش في

(١) ذكر النبي في هذا الحالتين اللتين كان يكثر مجيء الوحي عليهما، وفي بعض الأحيان كان يسمع عندما يأتيه الوحي دَويٌّ كدويّ النحل.

(٢) يسيل.

(٣) صحيح البخاري ــ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

نفسه، كما أنه يغيب عن صوابه وتعتريه تشنجات تتوقف فيها حركة الشعور، ويصبح المريض بلا إحساس.

ولكن النبي ﷺ كان بعد الوحي يتلو على الناس آيات بيِّنات، وتشريعات محكمات، وعظات بليغات، وأخلاقاً عالية، وكلاماً بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة، تحدَّى به الناس أن يأتوا بأقصر سورة منه فعجزوا وما استطاعوا، فهل يعقل من المصروع أن يأتي بشيء من هذا؟! اللهم إن هذا أمر لا يجوز إلا في عقول المجانين إن كانت لهم عقول!!

٥ ـ لما تقدَّمت وسائل الطب، واستخدمت الأجهزة والكهرباء في التشخيص والعلاج، إذا بالطب يقدِّم دليلاً لا ينقض، ويقيم حجة لا تحتاج إلى مناقشة على كذب فرية الصرع، ويؤكد أن ما كان يعتري رسول الله ﷺ إنما هو وحي من الله سبحانه وتعالى، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر، لقد ثبت أن نوبات الصرع ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضوية في المخ، والدليل على ذلك أنه أمكن تسجيل تغيرات كهربائية في المخ في أثناء النوبات الصرعية مهما كان مظهرها الخارجي، وعلى أية صورة كانت هذه النوبات، ومهما ضعفت حدة هذه النوبات، ولقد أثبت الطب الحديث أخيراً بعد الاستعانة بالأجهزة والرسم الكهربائي على أن هناك مظاهر عديدة ومختلفة للنوبات الصرعية، وذلك تبعاً لمراكز المخ التي تبدأ فيها التغيرات الكهربائية، وطريقة وسرعة انتشارها، وأهم أنواع الصرع ما يسمى بالنوبات الصرعية النفسية، وهو ما يشبه أن يكون النوع الذي افتراه الخصوم على الرسول بأنه مصاب به، وفي هذه الحالة تمر بذهن المريض ذكريات، أو أحلام مرئية، أو سمعية، أو الاثنان معاً، وتسمى «بالهلاوس»، وقد أثبت الطب أيضاً أن الذكريات التي تمر بالمريض لا بدَّ أن يكون قد عاش فيها المريض نفسه حتماً إذ أن النوبة الصرعية ما هي إلا تنبيه لصورة أو صوت مرَّ بالإنسان ثم احتفظ به في ثنايا المخ، وقد أمكن طبياً إجراء عملية التنبيه هذه بوساطة تيار كهربائي صناعي سُلِّط على جزء خاص في المخ، فشعر المريض بنفس «الهلاوس» التي تنتابه في أثناء نوبة الصرع، وكلما تكررت نوبة الصرع تكررت نفس الذكريات أو الهلاوس. فهذا مريض يسمع أغنية،

أو قطعة من شعر، أو حديثاً من أي نوع كان في نوبة صرعه، ويتكرر سماعه لها في كل نوبة، ولا بدَّ أن يكون ما سمعه من النوبة قد سمعه يوماً ما في طفولته، أو شبابه، أو قبل مرضه، وكذلك إذا كانت النوبة تثير منظراً لا بدَّ أن يكون قد مرَّ عليه.

وبتطبيق ما قرره الطب الحديث في حقائق الصرع على ما كان يعتري النبي ﷺ نجده يردِّد آياتٍ لا يمكن إطلاقاً أن يكون قد سمعها من قبل في حياته، فهي آيات واردة من عند الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعمر البشر الأرض، مثل قوله سبحانه:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[1].

وآيات أخرى فيها قول الله يوم القيامة مثل:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾[2].

وقوله سبحانه:

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾[3].

وكذلك الآيات التي تحكي عصور ما قبل الإسلام، والمقاولات، والمحاورات التي جرت بين أقوام عاشوا قبل الرسول بآلاف السنين وذلك مثل قوله سبحانه:

---

(١) الآيتان ٣٤، ٣٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٨٤ من سورة النمل.

(٣) الآية ١١٩ من سورة المائدة.

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

وقوله سبحانه:

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[2].

إلى غير ذلك من الآيات التي تحكي قصص الأولين، أو تصف أحوال القيامة واليوم الآخر.

ولما كانت هذه الأحاديث والأحوال لم تمر بالرسول قطعاً فهي لم تختزن بالتالي في المخ لتثيرها نوبات صرعية فيتذكرها، وبذلك يقرر الطب الحديث في أحدث اكتشافاته بالنسبة للصرع أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يكون هناك أدنى شبهة في إصابته بالصرع إطلاقاً، وأن ما كان إنما هي حالة نفسية وجسدية لتلقّي الوحي الإلهي، هذا الوحي الذي أخبر الله فيه عما مضى، وعما يستقبل[3].

٦ ـ ثم ما رأي هؤلاء الطاعنين، وفيهم من ينتمي إلى بعض الأديان في أنهم لا ينالون من نبي الله محمد وحده، وإنما ينالون من جميع أنبياء الله ورسله الذين كانت لهم كتب أو صحف أوحي بها من عند الله سبحانه!! فهل تطيب نفوسهم أن يخربوا بيوتهم قبل أن يخربوا بيوت غيرهم؟!! وما رأيهم فيما جاء في كتب العهد القديم والجديد من إيحاءات ونبوءات؟! وهل يقولون في وحي نبي الله موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ما يقولون في وحي خاتم الأنبياء محمد؟

---

(١) الآية ٣٧ من سورة آل عمران.

(٢) الآيتان ٢٤، ٢٥ من سورة المائدة.

(٣) من مقال للأستاذ عبدالرزاق نوفل نشر بمجلة «منبر الإسلام» العدد ٩ السنة ١٩ رمضان سنة ١٣٨١هـ فبراير ١٩٦٤م.

اللهم إن هذا الطعن لا يفوه به إلا أحد رجلين: إما رجل مادي مُخرِّف، وإما رجل مُخرِّب مدمر يريد هدم الأديان!!

إن الرسول ﷺ ليس ببدع من الرسل في باب الوحي، وإنه أوحي إليه كما أوحي إليهم، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول:

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ ﴾(1).

وقال:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾(2).

الرسالة

أول ما نزل بعد فترة الوحي

وفي أثناء فترة الوحي كان النبي يذهب إلى غار حراء، فيخلو فيه، ويتعبد به، وبينا هو نازل ذات يوم إذ سمع صوتاً من السماء، فرفع رأسه فإذا جبريل في صورته التي خلقه الله عليها ساداً ما بين الأفق، فرُعب منه ثم رجع

(1) الآيتان ١٦٣، ١٦٤ من سورة النساء.

(2) الآيات ٥١-٥٣ من سورة الشورى.

إلى السيدة خديجة ــ رضي الله عنها ــ فقال: «زملوني، زملوني» فزملوه فأنزل الله عليه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾[1].

فكانت أول آيات نزلت بعد فترة الوحي آمرة بالإنذار، وداعية إلى توحيد الله، وتعظيمه، وعبادته وحده وترك عبادة غيره.

يدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن جابر بن عبدالله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدِّث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ــ أي جهتها ــ فرفعت بصري قِبَل السماء، فإذا الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت[2] منه حتى هويت على الأرض، فجئت أهلي فقلت: «زملوني، زملوني، فزملوه، فأنزل الله تعالى: ﴿يأيها المدثر. قم فأنذر..﴾ إلى قوله: ﴿فاهجر﴾ ثم حمي الوحي وتتابع».

نزول سورة «الضحى»

ويرى ابن إسحاق أنه نزل بعد فترة الوحي سورة «والضحى»، قال في سيرته: ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة من ذلك حتى شقَّ ذلك عليه، فأحزنه، فجاءه جبريل بسورة الضحى، يقسم له ربه، وهو الذي أكرمه بما أكرمه به: ما ودَّعه ربه، وما قلاه، فقال تعالى:

---

(١) المدثر: لابس الدثار وهو ما فوق الشعار، والشعار: هو الثوب الذي يلي الجسد، ومنه قوله ﷺ: «الأنصار شعار، والناس دثار». والمزمل: المتلفف في ثيابه ومعناهما متقارب. الإنذار: التخويف والزجر أي حقِّقْ صفة الإنذار. وربك فكبر: عظم وخُصَّه بذلك. وثيابك فطهر: صُنْهَا عن الأقذار في الصلاة وغيرها، وقيل: المراد طهِّر نفسك مما يستقذر من الأفعال والأخلاق. والرجز فاهجر: الرجز: الأوثان، اهجر: اترك، والمراد به أمته فقد كان ﷺ منزهاً عن ذلك.

(٢) أي رعبت منه.

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ[1] ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾.

ما صرمك أي قطعك فتركك، وما أبغضك منذ أحبك:

﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ ﴾.

أي لما عندي في مرجعك إلي خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا:

﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ ﴾.

من الفَلْج[2] في الدنيا، والثواب في الآخرة:

﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ ﴾.

يعرِّفه الله ما ابتدأه به من كرامته في عاجل أمره، ومنّه عليه في يتمه، وعيلته[3]، وضلالته[4]، واستنقاذه من ذلك كله برحمته:

﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ ﴾.

أي لا تكن جباراً، ولا متكبراً، ولا فحاشاً فظاً على الضعفاء من عباد الله:

﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾.

---

(١) سجى: غطى كل شيء بظلمته، ومن اللطائف البلاغية القرآنية هذا التطابق البديع بين المقسَم به، والمقسَم عليه: فانقطاع الوحي ظلمة ورجوعه نور وضحى له ما بعده، وقدم الضحى ليكون أول ما يقرع الأسماع كلمة مبشرة، وللإشارة إلى أن الظلمة عارضة، والنور أصل، وكذلك انقطاع الوحي عارض واستمراره هو الأصل.

(٢) الغلب والنصر.

(٣) العيلة: الفقر.

(٤) يعني تحيره في هداية قومه، وقيل كان ضلَّ أي غاب عن أهله وهو صغير فهداه الله إليهم.

أي بما جاءك من الله من نعمته وكرامته من النبوة[1] أي اذكرها، وادع إليها، فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله[2].

وذكر الطبري في تفسيره نحو ذلك عن ابن عباس، وكذلك ذكر بعض كتاب السير قديماً وحديثاً، والحق أن أول ما نزل بعد فترة الوحي هي الآيات من صدر سورة «المدثر» كما ذكرنا أولاً، لأن ما في السيرة لا ينهض من جهة قوة السند لمقاومة ما في الصحيح، لأن هذه الروايات ـ كما قال الحافظ في الفتح ـ لا تثبت، وتكون سورة الضحى من أوائل ما نزل بعد فترة الوحي وليست أول ما نزل، والمؤلفون في علوم القرآن وترتيب السور في النزول لم يذكر أحد منهم أنها ثاني سورة نزلت من القرآن، وإنما قالوا: إنها من أوائل السور نزولاً[3].

والحق في سبب نزول «والضحى» هو ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن جُنْدُب[4] بن سفيان البجلي قال: «اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلة، أو ليلتين، أو ثلاثاً، فجاءت امرأة[5] فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك[6] منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿والضحى. والليل إذا سجى، ما ودَّعك رب وما قلى...﴾.

وعلى هذا فتكون السورة نزلت في فترة أخرى غير هذه الفترة التي كانت بعد ابتداء الوحي، فإن تلك دامت أكثر من ذلك كما ذكرت آنفاً، وأما هذه فلم تكن أكثر من ليلتين أو ثلاث، فاختلطتا واستبهمتا على بعض العلماء[7]، فكُنْ على بيِّنة من هذا التحقيق، وشدَّ عليه بيديك.

* * *

(١) هذا رأي ابن إسحاق، والذي أراه أن يكون المراد جميع النعم من النبوة وغيرها، أثناء الدعوة سرّاً وبعدها.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤١، ٢٤٣.

(٣) الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١٠.

(٤) بضم الجيم، وسكون النون، وضم الدال.

(٥) هي أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب.

(٦) بكسر الراء في الماضي، وفتحها في المضارع.

(٧) البداية والنهاية ج ٢ ص ١٧؛ فتح الباري ج ٨ «سورة الضحى».

الفصل الثاني
أطوار الدعوة إلى الإسلام

بدء الدعوة السرية

وبعد نزول آيات المدثر قام رسول الله ﷺ يدعو إلى الله وإلى الإسلام سراً، وكان طبعياً أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وألصق الناس به.

إسلام السيدة خديجة

وكان أول من آمن به من النساء، بل أول من آمن به على الإطلاق زوجه السيدة خديجة ــ رضي الله عنها ــ ومن تأمل في حديث بدء الوحي الذي سقته آنفاً لا يشك في هذا، وكانت وزيرة صدق للنبي، ومسرِّية عنه ما يجده من قومه، لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه، وتكذيب له، فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها، إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه، وتصدقه، وتهوِّن عليه أمر الناس، وهكذا كانت تصل إلى شغاف قلبه بعطفها، وحبها، وتزيل عنه آثار الأذى بيديها، وتمسح ما عسى أن يكون علق بنفسه من الناس بحديثها المؤمن العذب.

إسلام أبي بكر

وأول من آمن به من الرجال الأحرار، الأشراف، صديقه الحميم أبو بكر: عبدالله[1] بن عثمان ــ المعروف بأبي قحافة التَّيْمي ــ من بني تَيْم بن

(١) هذا اسمه على المشهور، ويقال كان اسمه: عبدالكعبة، وقيل: عبدرب الكعبة، فسماه رسول الله: عبدالله، وكان يلقب «بالعتيق» قيل لأن أمه ما كان يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به البيت، وقالت: اللهم هذا عتيقك من الموت، وقيل لحسن وجهه وصَبَاحته فيكون لقباً جاهلياً، وقيل لأن النبي بشره بأن الله أعتقه من النار فيكون لقباً إسلامياً.

مرة، شيخ الإسلام، والوزير الأول لرسول الله، والذي واساه بنفسه وماله، وأفضل الأمة الإسلامية بعد رسولها، وفيه قال رسول الله ﷺ: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كَبْوة، وتردد، ونظر، إلا أبا بكر، ما عَكَم[1] حين دعوته، ولا تردَّد فيه».

إسلام علـي

وأول من آمن به من الصبيان ابن عمه، والمتربـي في حجره علي بن أبـي طالب ـ رضي الله عنه ـ وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال، وهو قول الطبري وابن إسحاق، وقد صار فيما بعد خَتَن رسول الله على ابنته السيدة فاطمة الزهراء، وهو أبو الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ.

إسلام زيد بن حارثة

وأول من آمن به من الموالي[2] حِبُّه، ومولاه، ومتبنَّاه: زيد بن حارثة الكلبـي الذي آثر رسول الله ﷺ على والده وأهله.

إسلام بـلال

وأول من آمن به من العبيد[3] بلال بن رباح الحبشي مولى الطاغية أمية بن خلف، والذي صار فيما بعد مؤذن رسول الله ﷺ.

بنات النـبـي

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النبـي ﷺ، لأنه لا شك في تمسكهن قبل البعثة بما كان عليه أبوهن من الاستقامة وحسن السيرة، والتنزه عما كان يفعله أهل الجاهلية، من عبادة الأصنام والوقوع في الآثام، وفي اقتدائهن بأمهن في المسارعة إلى الإيمان، والبنت غالباً ما تتأثر بوالديها ولا سيما في مثل هذا السن، روى ابن إسحاق عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة، وبناته».

---

(١) ما تلبث بل سارع.

(٢) يطلق المولى على السيد، وعلى المملوك الذي أُعتق وهو المراد هنا.

(٣) أي المماليك الذين لم يُعتقوا.

أول من أسلم

وقد اختلف في أول من أسلم اختلافاً كثيراً، فقيل: خديجة، وقيل: أبو بكر، وقيل: علي، وقيل غير ذلك، وذهب إلى كلٍّ فريق، وقد آثرت عدم الإفاضة في هذا هنا، وفصّلت القول فيه في كتابي «علوم الحديث»[1].

وهذا الذي آثرته هنا في التوفيق بين الأقوال المتضاربة هو ما روي عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان «وهو توفيق حسن، وهو الذي عليه بعض المحققين كابن الصلاح، والنووي حيث قال: والأورع أن يقال: أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن الصبيان علي، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد، ومن العبيد بلال»[2].

السابقون الأولون

من أسلم من الصحابة بدعوة أبي بكر

وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ رجلاً مَأْلفاً[3] لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ميسوراً ذا خلق كريم، وصاحب معروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لهذه المعاني والصفات وغيرها.

ولم يكتف بالمسارعة إلى الإيمان والتصديق بالنبي، بل قام بالدعوة إلى الإسلام سراً، وكان له فضل كبير في إسلام كثير من أشراف قريش وكبرائها، فأسلم بدعوته جماعة منهم:

---

(١) القسم الرابع ص ٤٠، ٤٤.

(٢) مقدمة ابن الصلاح بشرحها للعراقي ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨؛ التدريب شرح التقريب ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٣) يألفه الناس.

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، بن عبدشمس بن عبدمناف بن قصي[١].

والزبير بن العوام بن خويلد، بن أسد، بن عبدالعزى، بن قُصي بن كلاب، ابن عمة النبي صفية.

وعبدالرحمن بن عوف بن عبدالحارث بن زُهْرة بن كلاب.

وسعد بن أبي وقاص واسمه: مالك بن أهيب[٢]، بن عبدمناف، بن زهرة بن كلاب.

وطلحة بن عبيدالله بن عثمان، بن عمرو، بن كعب، بن سعد، بن تَيْم، بن مرة.

فجاء بهم أبو بكر إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وأصبحوا من جنود الإسلام المخلصين لدعوته.

ولما أسلم الصديق وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية ــ وكان يدعى أسد قريش ــ فشدهما في وثاق[٣] واحد، ولم يمنعهما بنو تَيْم، فلذلك كان يقال لأبي بكر وطلحة «القرينان».

الرعيل الثاني

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح، بن هلال، بن أهيب، ابن ضبة، بن الحارث، بن فهر.

وأبو سلمة عبدالله بن عبدالأسد، بن هلال، بن عبدالله، بن عمرو،

---

(١) أمه أروى بنت كريز بن ربيعة، وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبدالمطلب عمة رسول الله.

(٢) أهيب هو عم السيدة آمنة بنت وهب والدة النبي، فأبو وقاص مالك ابن عمها، وابن العم كالأخ، فهذا هو السبب في تسمية سعد خال رسول الله لأن أباه بمنزلة الخال له.

(٣) أي حبل.

ابن مخزوم، بن يقظة، بن مرة، ابن عمة رسول الله ﷺ برة بنت عبدالمطلب وأخوه من الرضاع.

والأرقم بن أبي الأرقم، واسمه: عبد مناف، بن أسد، بن عبدالله، ابن عمر، بن مخزوم، بن يقظة، بن مرة، بن كعب، بن لؤي.

وعثمان بن مظعون، بن حبيب، بن وهب، بن حذافة، بن جمح، ابن عمرو، بن هُصَيص، بن كعب، بن لؤي، وأخواه: قدامة، وعبدالله، ابنا مظعون بن حبيب.

وعبيدة بن الحارث، بن المطلب، بن عبد مناف، بن قصي.

وسعيد بن زيد، بن عمرو، بن نفيل، بن عبدالعزّى، بن عبدالله، ابن قرط، بن رياح، بن رزاح، بن عدي، بن كعب، بن لؤي، وامرأته فاطمة بنت الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب، فهي ابنة عم أبيه.

وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وقد ذكر ابن إسحاق وغيره أختها عائشة أيضاً، وهو وهم، لأن عائشة لم تكن ولدت، فكيف تكون أسلمت؟! وكان مولدها سنة أربع، وقيل سنة خمس بعد النبوة.

وخباب بن الأرت[1] حليف بني زهرة، قال ابن هشام: خباب بن الأرت من بني تميم، ويقال: هو من خزاعة.

الرعيل الثالث

ثم أسلم عمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص.

وعبدالله بن مسعود، بن الحارث، بن شمخ، بن مخزوم، بن صاهلة، ابن كاهل ــ بفتح الهاء ــ، بن الحارث، بن تميم، بن سعد، بن هذيل.

ومسعود بن القاري، وهو مسعود بن ربيعة، بن عمرو، بن سعد، بن عبدالعزّى، بن حمالة من القارة[2].

---

(١) خباب بفتح الخاء وتشديد الباء، والأرت بفتح الهمزة والراء وتشديد التاء.

(٢) بتخفيف الراء قبيلة، وهم: عضل، والديش ابنا الهون بن خزيمة، وسموا قارة لاجتماعهم، وهم قوم مشهورون بالرماية، قال الشاعر: قد أنصف القارة من راماها.

وسليط بن عمرو، وأخوه حاطب بن عمرو، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلامة، وخنيس بن حذافة السهمي، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب، وعبدالله بن جحش وأخوه أبو أحمد: عبد بن جحش من بني أسد حليفا بني أمية بن عبد شمس، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه خطاب بن الحارث، وامرأته فكيهة بنت يسار، وأخوهما، معمر بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنحام بن عبدالله بن أسيد.

وعامر بن فُهيرة[1] مولى أبي بكر، وفهيرة أمه، وكان عبداً للطفيل بن الحارث بن سخبرة، فاشتراه الصديق وأعتقه، وخالد[2] بن سعيد بن العاص ابن أمية، بن عبد شمس، بن عبد مناف، بن قصي، وامرأته أمينة بنت خلف ويقال: همينة، وأبو حذيفة بن عتبة، بن ربيعة، بن عبد شمس، وواقد بن عبدالله بن عبدمناف، وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل، وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم بن يقظة، وقال ابن هشام: عَنْسي من مذحج.

وصهيب بن سنان أحد النمر بن قاسط حليف بني تَيْم بن مرة، ويقال: مولى عبدالله بن جدعان، فعلى أنه عربي يقال: إنه أسر وهو صغير، فنشأ ببلاد الروم، فصار ألكن[3]، فابتاعته منهم كَلْب ثم قدمت به مكة، فاشتراه عبدالله بن جدعان، ويقال: إنه رومي وقد جاء في الحديث: «صهيب سابق الروم».

---

(١) بضم الفاء على صيغة المصغر.
(٢) له قصة ذكرها البيهقي (البداية والنهاية، ج ٣ ص ٣).
(٣) لا يستقيم لسانه بالعربية.

ومن السابقين إلى الإسلام: أبو ذر الغفاري، وأخوه أنيس، وأمه، وقصة إسلامه مبسوطة في صحيح البخاري، وفي صحيح مسلم[1].

وهكذا نجد أنه دخل في الإسلام أرسال من الرجال والنساء حتى فشا الإسلام بمكة، وتحدث به الناس في كل مكان.

في دار الأرقم بن أبـي الأرقم

وكان الأرقم ــ رضي الله عنه ــ من السابقين الأولين كما رأيت، وكانت داره منتدى يجتمع فيه المسلمون، ويعبـدون الله سراً، ويلقنهم النبـي ﷺ الإسلام وأصوله، ويتعهّدهم بالتربية حتى كوَّن منهم أناساً يستهينون بكل الآلام والبلاء في سبيل دينهم وعقيدتهم، وكان من يريد الإسلام يأتي إليها مستخفياً خشية أن يناله أذى قريش، وكانت هذه الدار عند الصفا.

ومكث رسول الله ﷺ وأصحابه في هذه الدار حتى أسلم الفاروق عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فاستعلنوا بعبادتهم وراغموا أهل مكة، وأذلوهم، وقد أعطى رسول الله الأرقم داراً بالمدينة، ولعل هذا مكافأة له على ما أدته داره بمكة من خدمة جليلة للإسلام في أول عهده، فللّه هذه الدار التي فاقت أعظم مدارس العالم، وجامعات الدنيا، وخرَّجت أعظم رجال عرفهم التـاريخ، ولا تزال هذه الدار مفخرة خالدة للأرقم، وشذى يتضوَّع إلى يوم القيامة.

شجاعة للصديق ومحنة

وعرض الصدِّيق أبو بكر على رسول الله ﷺ ــ وقد وصل عدد المسلمين حوالي ثمانية وثلاثين رجلاً ــ أن يظهروا ويستعلنوا، فقال له: «يا أبا بكر إنا قليل» ولم يزل الصدِّيق برسول الله حتى أذن لهم في الخروج إلى المسجد الحرام، وتفرق المسلمون فيه كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله، وإلى رسول الله، وثار المشركون على أبـي بكر والمسلمين، فضُربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً،

---

(١) صحيح البخاري ــ كتاب فضائل الصحابة ــ باب إسلام أبـي ذر، صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل ــ باب فضل أبـي ذر.

ووطىء أبو بكر، وضرب ضرباً مبرِّحاً، وجعل عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرفهما لوجهه حتى فقد وعيه، فحمله بنو تَيْم إلى منزله، وقالوا: لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، وجعل أبو قحافة والد الصديق وقومه يكلمونه حتى أفاق، وأجاب آخر النهار[1].

فماذا كان من أبي بكر وقد أفاق؟ لقد كان أول ما قال: ما فعل رسول الله؟ فمسُّوه بألسنتهم وعذلوه، فلما خلت به أمه قال لها: ما فعل رسول الله؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ـ وكانت تخفي إسلامها ـ فذهبت إليها وقالت: إن أبا بكر يسألك عن صاحبه محمد بن عبدالله؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر، ولا محمد بن عبدالله!! وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت، قالت: نعم،فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً، دَنِفاً، فدنت منه أم جميل، وصاحت قائلة: والله إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله؟ قالت: هذه أمك تسمع؛ قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح! قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم، قال: فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعاماً، ولا أشرب شراباً، أو آتي رسول الله ﷺ.

فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل[2]، وسكن الناس خرجتا به يتكىء عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله، فأكب عليه رسول الله فقبله، وقبله المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال: بأبي أنت وأمي ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي بَرّة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادع لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الله، فأسلمت[3].

* * *

(١) في القاموس: النعل ذات الطراق، وكل طراق خصفة، وخصف النعل يخصفها خرزها، فهي إما مرقعة أو جعل جلدها طبقة فوق طبقة، فهي آلم وأوجع.
(٢) أي قلَّ السائرون في الطريق.
(٣) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٣٠.

الفصل الثالث

الجهر بالدعوة

وما صاحبه من إيذاء وإغراء

ثم أمر الله رسول الله ﷺ بأن يصدع بالدعوة إلى الله، وكان ذلك بعد مضي ثلاث سنين من عمر الدعوة، فأنزل الله تبارك وتعالى قوله:

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ(١) وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾(٢).

فجهر النبي بالدعوة، واستعلن بها هو وأصحابه، فلم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه، حتى عاب آلهتهم، وسفَّه أحلامهم، وبين لهم ما هم فيه من الضلالة والجهل والخرافات، فجاهروه وصحبه بالعداوة، وعزموا على مخالفته، عصبية وجهلاً، ولمَّا لم يمكنهم أن يقرعوا الحجة بالحجة، وأفحموا، لجأوا إلى السباب والشتم، والإيذاء، والتعذيب؛ ومن ثم بدأ دور المحنة والبلاء، وكان دوراً طويلاً شاقاً أوذي فيه النبي ﷺ على الرغم من حدب عمه أبي طالب عليه، ومنعه له، وأوذي المسلمون غاية الإيذاء، ولا سيما الأعبد والضعفاء.

دعوة النبي عشيرته الأقربين

ولما نزل قوله تعالى:

---

(١) اجهر بما تؤمر به وأظهره يقال: صدع بالحجة إذا تكلم جهاراً، من الصديع وهو الفجر، وقيل: افرق بين الحق والباطل لأن الصدع في الزجاجة الكسر والإبانة، وبما تؤمر: أي به من الشرائع، ومن لطائف التعبير البلاغية الإشارة إلى أن رؤوسهم في حاجة إلى كسر وتصحيحها من جديد، وقلوبهم في حاجة إلى صدع حتى يدخل فيها الدين الجديد.

(٢) الآية ٩٤ من سورة الحجر.

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[١].

صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي، يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما الأمر؟ فجاء أبو لهب، وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدِّقيَّ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً!! قال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً[٢] لك، ألهذا جمعتنا» فأنزل الله في الرد عليه:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾[٣].

عداوة أبي لهب وامرأته للنبي

ومن المفارقات العجيبة أن أبا لهب[٤] هذا عم النبي، وهو الذي أعتق جاريته (ثويبة) لما بشرته بميلاد ابن أخيه محمد، ومع هذا كان من أشد الناس عداوة له، وقد سمعت آنفاً ردَّه على النبي وسبه له، وكان من موجبات رعاية الرحم أن يسكت ولا يسب.

وكذلك كانت امرأته أم جميل[٥] من أشد الناس عداوة للنبي: كانت

---

(١) الآيات ٢١٤، ٢١٦ من سورة الشعراء.
(٢) أي هلاكاً.
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الشعراء، والجيد: العنق، والمسد ليف غليظ خشن، وقيل: سلسلة من حديد وهي أنكى في العذاب.
(٤) اسمه عبدالعزّى.
(٥) اسمها أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان.

تسعى بالإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه، والقذر على بابه، فينحيه ويقول: «أي جوار هذا يا بني عبد مناف»؟! فلا عجب إذا كان الله عز شأنه توعدها بالنار، كما توعد زوجها.

ولما سمعت امرأة أبي لهب ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر[1] من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن النبي، فلا ترى إلا أبا بكر!! فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مُذَمماً عَصَيْنا، وأمره أبينا، ودينه قلينا

وانصرفت.

فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: «ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني» وكانت قريش، إنما تسمي رسول الله ﷺ لشدة بغضهم له، وكراهيتهم ذكر اسمه على لسانهم: «مُذَمَّماً» بدل (محمد) ثم يسبون مذمماً، فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: «ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش، يسبون ويهجون مُذَمَّماً، وأنا محمد»!! ويعتبر هذا من منن الله عليه، وهكذا صرف الله عنه وصول السباب باللسان، كما صرف عنه وصول الأذى بالفعال، فسبحان الله الكبير المتعال.

إيغال أبي لهب في العداوة

وقد بلغ من أمر أبي لهب أنه كان يتبع رسول الله ﷺ في الأسواق، والمجامع، ومواسم الحج ويكذِّبه. روى الإمام أحمد في مسنده عن رجل[2] قال: «رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه

---

(١) حجر ملء الكف.

(٢) هو ربيعة بن عِباد كان جاهلياً فأسلم.

أحول ذو غديرتين[1] يقول: إنه صابىء[2] كاذب!! يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: عمه أبو لهب.

منع أبي طالب النبي وحبه له

وكان على الضد من ذلك عمه أبو طالب شيخ قريش، وسيدها، فقد كان ابن أخيه أحب الناس إليه طبعاً ورحماً، وكان يحنو عليه، ويحسن إليه في صغره، ويدافع عنه ويحامي في كبره، ويخالف قومه في ذلك مع أنه على دينهم، وقد كان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية؛ إذ لو كان أسلم لما كان له عند قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه، ويحترمونه، ولاجترأوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار، ويدبر الخلق على حسب الحكمة والمصلحة، وقد قسم خلقه أنواعاً وأجناساً فهذان أخوان كافران: أحدهما محب منافح، والآخر مبغض مؤذٍ مكابر.

وأيضاً فلو كان أسلم هذان الكبيران الشريفان من بني هاشم لقال المتقوِّلون ذوو العصبية: إن بني هاشم يريدون أن يستأثروا بالرئاسة والزعامة والملك، وربما ضرَّ هذا أكثر مما ينفع.

وقد شاء الله ــ وله الحكمة البالغة ــ أن يسارع أحد أعمامه وهو حمزة إلى الإسلام، وقد كان ذلك لمصلحة الدعوة كما سترى، وأن يتأخر إسلام الآخر وهو العباس إلى ليلة الفتح، وقد كان ذلك في مصلحة الدعوة أيضاً، فقد كان العباس ــ رضي الله عنه ــ بمثابة العين لرسول الله ﷺ على قريش.

من مساءات قريش للرسول

ومع منع أبي طالب لابن أخيه، وصدِّه عنه، وحمايته له لم يسلَم ﷺ من الإساءات والإيذاء، ومحاولة القتل، والسباب والفحش، والهزء والسخرية،

---

(١) ضفيرتين من الشعر.
(٢) خارج من دين قومه.

وابتلي في هذا أشد الابتلاء، ولكن كل ذلك لم ينل من نفسه، ولا وَهَن من عزيمته، وتصميمه على أداء رسالته، وتحمل في ذلك ما تنوء به الجبال الراسيات، فكان في ذلك القدوة الحسنة لأصحابه، والسلوى إذا حزبهم الأمر، واشتد بهم الكرب، وعظم البلاء.

قصة أبي جهل والفحل من الإبل

وقد حمل كِبْر هذا الإثم أبو جهل فرعون هذه الأمة، فقد قال: يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسبِّ آلهتنا، وإنِّي أعاهد الله لأجلسنَّ له غداً بحجر، فإذا سجد في صلاته فدخت به رأسه. فليصنع بنو عبد مناف ما بدا لهم.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً، ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا رسول الله يصلِّي بين الركنين: الأسود واليماني، وغدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه متلصصاً، حتى إذا دنا منه رجع منبهتاً، منتقعاً لونه، مرعوباً قد يبست يداه على حجره من الخوف حتى قذف الحجر من يده، فقام إليه رجال من قريش، فقالوا له: ما بك يا أبا الحكم؟! قال: قمت إليه لأفعل ما صممت عليه البارحة، فلما دنوت منه عَرَض لي فحلٌ من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته، ولا قَصَرته[1] ولا أنيابه لِفَحْل قط، فهمَّ أن يأكلني. قال ابن إسحاق: فذُكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «ذلك جبريل، ولو دنا منه لأخذه».

مرة أخرى: وفي مرة أخرى قال: إنَّ لله عليَّ إن رأيت محمداً ساجداً لأطأنَّ عنقه، ولأعفرنَّ وجهه بالتراب، فأتى رسول الله ليطأ رقبته، فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً، وأجنحة، فقال النبي ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة».

---

(١) القصرة: العنق.

مرة ثالثة: وفي مرة ثالثة مرَّ بالنبـي وهو يصلي، وقد جبن بعدما رأى من حماية الله لنبيه، فقال: ألم أنهك أن تصلي يا محمد؟ لقد علمت ما بها أكثر نادياً مني، ولكن النبـي انتهره، فرجع خاسئاً وهو حسير، وقد أنزل الله ــ عز شأنه ــ في أبـي جهل وسفاهاته ومساءاته قوله:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ (1) ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (2) ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (3) ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾(4).

أشقى القوم عقبة بن أبـي مُعَيط

وفي ذات يوم كان النبـي ﷺ يصلي عند الكعبة وصناديد قريش جلوس، فقال بعضهم: من ينطلق إلى سَلاَ(5) جزور بني فلان، فيأتي به فيضعه على ظهر محمد وهو ساجد؟ فذهب أشقى القوم عقبة بن أبـي مُعَيط، فجاء به ووضعه على ظهر رسول الله، وهم يتضاحكون، ويميل بعضهم على بعض، فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة، وهي فتاة صغيرة، فأخذته عن ظهره. ثم أقبلت عليهم فسبتهم ووبختهم، فدعا عليهم رسول الله قائلاً: «اللهمَّ عليك بهذا الملأ من قريش، اللهم عليك بعتبة بن ربيعة، اللهمَّ عليك بشيبة بن ربيعة، اللهمَّ عليك بأبـي جهل بن هشام، اللهمَّ عليك بعقبة بن أبـي مُعَيط، اللهمَّ عليك بأمية بن خلف»، وقد استجاب الله الدعاء فقتلوا جميعاً يوم بدر.

وبينما النبـي ﷺ يصلي في حِجْر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبـي معيط فوضع

---

(1) لنضربنه على ناصيته: كناية عن إذلاله وإهانته.
(2) أي أهل ناديه.
(3) الملائكة الموكلون بالعذاب.
(4) الآيات ٦ ــ ١٩ من سورة اقرأ.
(5) هو الذي يخرج منه ولد الناقة كالمشيمة لولد المرأة، ويكون به قذر ودماء.

ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ حتى أخذ بمنكب عقبة، ودفعه عن النبي ﷺ وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»(١).

وفي مرة ثالثة جاء عقبة هذا والنبي يصلي عند الكعبة، فوضع رجله على عنق رسول الله ــ عليه الصلاة والسلام ــ حتى كادت عيناه تندران(٢).

النضر بن الحارث

ومن كان شديد العداوة والإيذاء للرسول: النضر بن الحارث، وكان شيطاناً من شياطين قريش وسفهائهم، وكان قدم الحيرة وتعلَّم بها أحاديث ملوك فارس، وأحاديث رستم، واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكَّر فيه بالله، وحذَّر قومه أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله وعذابه، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلمَّ إلي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم قصص ملوك فارس، وأخبارهم، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟

عظمة شخصية النبي ﷺ

قد سمعت بعض ما نال رسول الله ﷺ من قومه من إيذاء، وعداوة رؤسائهم له، ولا سيما رأس الكفر أبو جهل، وقد كان فيما عصم الله به نبيه، وما رآه أبو جهل حينما همَّ بفدخ رأس النبي بحجر ما زرع في قلبه الخوف من النبي، وقد كان له ﷺ من الاكتمال الجسمي وعظمة الشخصية ما جعله مهيباً في نفوسهم على رغم عداوتهم له، وإليك ما يدل على ذلك:

قصة الإراشي

روى ابن إسحاق قال: قدم رجل من إراش(٣) بإبل له إلى مكة، فابتاعها

---

(١) صحيح البخاري باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة.
(٢) أي تخرجان من شدة الضغط.
(٣) بكسر الهمزة والشين المعجمة: اسم قبيلة.

ـ أي اشتراها ـ منه أبو جهل، فمطله بأثمانها، فأقبل الإراشي حتى وقف على نادي قريش، ورسول الله جالس في ناحية من المسجد، فقال يا معشر قريش، من رجل يعديني[1] على أبـي الحكم بن هشام؟ فإني غريب وابن سبيل، وقد غلبني على حقي، فقال أهل المجلس: ترى هذا؟ ـ وأشاروا إلى رسول الله ﷺ لما يعلمون ما بينه وبين أبـي جهل من العداوة ـ اذهب إليه، فهو يعديك عليه، يريدون الاستهزاء به، فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فقام معه، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه فانظر ما يصنع؟!

فخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: «محمد، فاخرج»، فخرج إليهم وما في وجهه قطرة دم، وقد انتقع لونه، فقال: «أعطِ هذا الرجل حقه» قال: لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل، فخرج إليه بحقه، فدفعه له، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وقال للإراشي: «الحق لشأنك»، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيراً، فقد أخذت الذي لي!!

ولما جاء الرجل الذي أرسلوه ليرى ما يصنع أبو جهل، قالوا له: ويحك ماذا رأيت؟ قال: عجباً من العجب! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه، فقال له: «أعطِ هذا الرجل حقه» فأعطاه!!

ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فلاموه، وقالوا ـ ساخرين منه ـ: فوالله ما رأينا مثل الذي فعلت!! فقال: ويحكم، ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابـي، وسمعت صوتاً فملئت رعباً! وإن فوق رأسه فَحْلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته، ولا قَصَرته، ولا أنيابه لِفَحْلٍ قط!! فوالله لو أبيت لأكلني!! وهكذا كانت صورة هذا الفحل من الإبل لا تبرح مخيلة أبـي جهل أبداً!!

قصة أخرى

ومرة أخرى اجتمع أشرافهم في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا:

---

(١) ينصرني ويأخذ لي بحقِّي.

ما رأينا مثل صبرنا على هذا الرجل قط: سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسب آلهتنا، وصرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم في ذلك طلع رسول الله، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت، فغمزوه ببعض القول، فعُرف ذلك في وجهه فمضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، ثم مرَّ بهم الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فأقبل عليهم قائلاً: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح»، فأخذت القومَ كلمتُه، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع، حتى إن أشدهم فيه وَصَاة بإيذائه ليرفؤه[1] ويلاطفه ويقول له: انصرف أبا القاسم راشداً، فما كنت بجهول!!

وهكذا كان الواحد منهم يأتي إليه قاصداً الشر، أو ينال منه بالسب، فإذا واجهه النبي اضطرب، وتلعثم، وخارت قواه[2].

إسلام حمزة بن عبدالمطلب[3]

وكان السبب في ذلك أن أبا جهل مرَّ برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، وكانت هناك مولاة لعبدالله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادٍ من قريش، فجلس معهم، فلم يلبث حمزة أن أقبل متوشحاً[4] قوسه راجعاً من قَنَص[5] له ــ وكان صاحب قَنَص يرميه، ويخرج له ــ وكان إذا رجع من قَنَصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم، وتحدث معهم، وكان أعزّ فتى في قريش، وأشدهم شكيمة، فلما مرَّ بالمولاة قالت له: يا أبا عمارة لو رأيتَ ما لقي ابن أخيك محمد

---

(١) ليهدئه ويسكنه.

(٢) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٨٩، ٣٨٩؛ والبداية والنهاية ج ٣ ص ٤٥، ٤٦.

(٣) قد اختلف في سنة إسلامه، فقيل: سنة ست، وقيل: في السنة الثانية من المبعث، وبه جزم الحافظ في الإصابة.

(٤) متقلداً.

(٥) بفتح القاف والنون: صَيْدٍ له.

آنفاً من أبـي الحكم بن هشام!! وجده هنا جالساً فآذاه وسبه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد.

من لحظات التجلِّي الإلهي

فاحتمل الغضبُ حمزةَ لما أراد الله كرامته، وأدركته لحظة من لحظات التجلِّي الإلهي، فانطلق يسعى مصمماً أنه إذا لقي أبا جهل بطش به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس، فضربه به، فشجَّه شجة منكرة، ثم قال له: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟! فرُدَّ علي ذلك إن استطعت، فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال لهم: دَعُوا أبا عمارة؛ فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.

وعاد حمزة إلى بيته وقد ساورته الوساوس الشيطانية، والهواجس النفسية، وكيف ترك دين قومه، واتبع دين ابن أخيه، ثم التمس التوفيق والرشد من الله فقال: اللهم إن كان هذا رشداً فاجعل تصديقه في قلبـي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً.

فبات بليلة لم يبت مثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إني قد وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه وإقامة مثلي على ما لا أدري: أرشد أم غي شديد[1]!! فحدثني حديثاً، فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدثني. فأقبل عليه النبـي بحديثه الذي ينير القلوب، ويطمئن النفوس، ويذهب ظلمات الشك والوساوس، فذكَّره وبشَّره، وأنذره، فثبت الله في قلبه الإيمان فقال: أشهد إنك لصادق، فأظهر دينك فوالله ما أحب أن لي ما أظلَّتـه السماء وأنا على ديني الأول. وقد اكتسب المسلمون بإسلامه عزة وقوة، وازداد به الرسول نصرة ومنعة.

---

(١) هذا يدل على حصافة في العقل، وأصالة في التفكير، واعتداد بالنفس، وأن القوم كانوا أصحاب عقول ومواهب، وأنهم كانوا أهلاً لكل توجيه نبوي كريم حتى صاروا خير أمة أخرجت للناس.

سعي قريش إلى أبـي طالب

قد علمتَ بعض ما نال رسول الله ﷺ من قريش، وما كان ذلك ليفتَّ في عضد رسول الله، فقد مضى لأمر الله مظهراً لدينه لا يرده عنه شيء، ورأوا عمه أبا طالب قد حدب عليه، وقام دونه، وانتصر له لمنزلة الرحم والقرابة.

سَعْي رجال من قريش إلى أبـي طالب في شأن الرسول

فسعى رجال منهم إلى أبـي طالب: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبدشمس، وأبو سفيان بن حرب بن أمية، وأبو البَخْتري العاص بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزى، وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، ونبيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج من بني سهم، والعاص بن وائل السهمي، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلِّي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردَّهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله، ويدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ومَضَوا هم لسبيلهم يؤلبون عليه، ويؤذونه وأصحابه، ويحض بعضهم بعضاً على عدم الاستماع إليه.

سعيهم إليه مرة أخرى

ثم سعَوا إلى أبـي طالب مرة أخرى فقالوا: يا أبا طالب إن لك سناً، وشرفاً، ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك[1] من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا ــ والله ــ لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، فإما أن تكفَّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه. فعظم على أبـي طالب فراق قومه، وعداوتهم له، ولم يطب نفساً بإسلام ابن أخيه لهم، ولا خذلانه.

---

(١) أي طلبنا منك أن تنهاه أن يعرض لنا ولآلهتنا.

طلب أبي طالب إلى النبي الكف عنهم

فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا كذا وكذا ــ الذي قالوه آنفاً ــ فأبْقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء[1]، وأنه خاذله ومسلمه إليهم، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه.

فماذا كان من النبي؟

وقفت الدنيا كلها مشدودة السمع إلى ما تفترُّ عنه شفتا النبي، وأصاخ الدهر لما يكون منه، ووقف التاريخ ينصت إلى الكلمة التي يتوقف عليها مصير البشرية، وتاريخ الحضارة الإنسانية، فقال الرسول العظيم هذه الكلمة الخالدة، الفاصلة:

«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري[2]، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته»!!

ثم استعبر رسول الله ﷺ وبكى، ثم قام وولَّى!!

يا لقوة الإيمان، ويا لعظمة النفس البشرية، ويا لجلال البطولة!!

رجل يظن أنه تخلَّى عنه ناصره الوحيد من أهله، وهو وأصحابه في غمرات متتابعة من الأذى والبلاء وتألب رؤساء الشرك عليه، والريح والقوة مع

---

(١) ظهر له أمر.

(٢) قال الإمام السهيلي في «الروض الأنف»: خصَّ الشمس باليمين لأنها الآية المبصرة، وخص القمر بالشمال لأنها الآية الممحوة، وقد قال عمر ــ رضي الله عنه ــ لرجل قال له: إني رأيت الشمس والقمر يقتتلان، ومع كل منهما نجوم، فقال عمر: مع أيهما كنت؟ قال: كنت مع القمر قال: كنت مع الآية الممحوة، اذهب فلا تعمل لي عملاً، وكان عاملاً له فعزله، وخص رسول الله ﷺ النيِّرين حين ضرب المثل بهما لأن نورهما محسوس، والنور الذي جاء به من عند الله معنوي. وأنا أقول: ولأنهما أعز وأمنع ما يطمع فيهما طامع، أو يرجو الحصول عليهما بشر في هذه الحياة، بل الحصول عليهما في اليدين من ضروب المستحيلات وبذلك بلغ غاية الإفصاح عن استحالة تركه الدعوة حتى يظهرها الله سبحانه، أو يموت دون ذلك.

أعدائه، ثم يقف هذا الموقف الفذ العظيم!!

إن هذا في منطق العقل يستحيل أن يكون مدعياً أو كاذباً أو بشراً من عامة البشر، ما هذا إلا نبـي كريم، ورجل بالغ أسمى درجات الثقة بالله رب العالمين!!

ولئن تخلَّى عنه الناس جميعاً فلن ينكص على عقبيه أو يفتر عن دعوته، لأنه يأوي إلى ركن شديد.

وماذا كان من أبـي طالب؟

وقف الشيخ الكبير أبو طالب مأخوذاً بما سمع وما رأى، فناداه قائلاً: أقبل يا ابن أخي، فأقبل، فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً!!.

مساومة حمقــاء

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبـى خذلان رسول الله ﷺ، وإسلامه لأحد، وإجماعه لفراقهم في ذلك، وعداوتهم، مشَوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد[1] فتى في قريش، وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي قد خالف دينك، ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله!!

فقال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني!! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟! هذا ــ والله ــ لن يكون أبداً.

فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبدمناف بن قصي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً!!

فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني

---

(١) أشد وأقوى.

ومظاهرة الناس علي، فاصنع ما بدا لك، ثم قال أبو طالب قصيدة يعرِّض فيها بالمطعم بن عدي، ومَنْ خَذَله من بني عبدمناف ومن عاداه من قبائل قريش، مطلعها[1]:

ألا قل لعمرو، والوليد، ومطعم   ألا ليتَ حظي من حياطتكم بكر[2]

فما كان بعد ذلك إلا أن اشتد الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وعظمت العداوة، واشتد الأذى للنبي والمسلمين.

مناصرة بني هاشم والمطلب لأبي طالب

ثم قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون بالمسلمين، في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب عم النبي، فقال أبو طالب في ذلك يمدحهم، ويحرضهم على ما وافقوه عليه من الحدب على رسول الله ﷺ، والنصرة له قصيدةً، منها:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر   فعبدمناف سرها، وصميمها
وإن حُصّلت أشراف عبد منافها   ففي هاشم أشرافها، وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً   هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها   علينا فلم تظفر، وطاشت حلومها

قصيدة أبي طالب اللامية

ولما رأى أبو طالب تواطؤ الملأ من قريش عليه وعلى النبي، وخشي أن تنابذه العرب كلها بالعداوة، قال قصيدته المشهورة التي تعوَّذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في شعره أنه غير مُسْلِم رسول الله ﷺ لهم، ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه هو وبنو هاشم فقال:

---

(١) السيرة ج ١ ص ٢٦٧.
(٢) يعني أن بكراً من الإبل أنفع لي منكم، فليته لي بدلاً منكم.

ولمـا رأيت القـوم لا وُدّ فيـهم	وقد قطعوا كل العـرى والوسـائل
وقـد صارحـونـا بـالعـداوة والأذى	وقـد طاوعـوا أمر العـدو المزايـل
وقـد حـالفـوا قـومـاً علينـا أظنـة	يعضـون غيـظاً خلفنـا بـالأنــامـل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة	وأبيض عضب من تراث المقاول[(١)]

ومنهـا:

أعوذ برب الناس من كل طـاعن	علينـا بسـوء أو مُلِحٍّ ببـاطـل
ومن كـاشـح يسعى لنـا بمعيبـة	ومن ملحق في الدين ما لم نحاول
وثَـوْر ومن أرسى ثبيـراً مكـانـه	وراقٍ ليـرقى في حـراء ونـازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة	وبـالله إن الله لـيس بـغـافـل
وبـالحجـر المسـود إذ يمسحـونـه	إذا اكتـنـفـوه بالضحى والأصائل
وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة	على قـدميه حـافياً غيـر ناعـل[(٢)]

ومنهـا:

كذبتم ـ وبيت الله ـ نترك مكة	ونـظعن إلا أمركم في بـلابـل[(٣)]
كذبتم ـ وبيت الله ـ نُبْزَى محمداً	ولمـا نـطاعن دونـه ونـاضـل[(٤)]

---

(١) المقاول: الملوك، يريد بهم آباءه، ولكن حديث أبي سفيان في الصحيح يدل على أنه لم يكن في آبائه من ملك، فإما أن يريد أنهم كالملوك، وإما أن يكون هذا السيف الذي ذكره أبو طالب من هبات الملوك لأبيه عبدالمطلب، فقد وهبه سيف بن ذي يزن الحميري لعبدالمطلب مع هبات جزيلة حين وفد عليه مع قريش يهنئه بظفره بالحبشة بعد الفيل بعامين.

(٢) مراده الحجر الذي قام عليه وهو يبني البيت، ناعل: أي منتعل.

(٣) جمع بلبال: وساوس الهموم.

(٤) نبزى محمداً بالبناء للمجهول أي نسلبه ونغلب عليه، وفي رواية يُبزى محمداً بالياء، وفي الكلام حذف لا، أي لا نسلمه، ولا نغلب عليه حتى يكون ما ذكره، نناضل: نترامى بالسهام.

ونسلمه حتى نُصَرَّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل[1]
وينهض قوم في الحديد إليكم ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل[2]

ومنها:

وما تَرْكُ قوم ـ لا أبا لك ـ سيداً ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل[3]
وأبيضَ يُستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل[4]

وهي قصيدة طويلة جداً قال فيها ابن كثير: هذه قصيدة بليغة جداً، لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعها[5].

الإغراء بدل الإيذاء (قصة عتبة بن ربيعة مع الرسول)

ورأت قريش ـ وقد عزَّ عليها أن يكف النبي عما يقول بالإيذاء والفتنة والسعي إلى عمه أبي طالب، بل والإيذان بالحرب والمنابذة ـ أن تلجأ إلى سياسة الملاينة، والإغراء بالمال، أو الجاه، أو الملك والسلطان ظناً منهم أنه ربما يغريه بريق هذه العروض.

روى ابن إسحاق في سيرته عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً حليماً ـ قال ذات يوم، وهو جالس في نادي قريش ورسول الله جالس وحده في المسجد الحرام: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا

---

(١) الحلائل: الزوجات.
(٢) الروايا: جمع راوية، وهي البعير الذي يحمل الماء، الصلاصل: المزادات التي لها صلصلة بالماء.
(٣) الذمار: ما يلزم حمايته، الذرب بسكون الراء: الفاحش المنطق، المواكل: الذي لا جد عنده.
(٤) يستسقى: يستنزل المطر بسبب دعائه، وقيل: إن أهل مكة كانوا أجدبوا بسبب عدم نزول الماء، فقام عبدالمطلب يحمل رسول الله ﷺ وهو صغير على عاتقه، ودعا الله فما لبثوا أن تفجرت السماء، وامتلأ الوادي بالماء.
(٥) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٧٢ ـ ٢٨٠؛ البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٣ ـ ٥٧.

فأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، ويكف عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِطَة[1] في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع».

قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً[2] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني» قال: أفعل، فقال:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ...﴾.

ومضى رسول الله يقرؤها، فلما سمعها عتبة أنصت إليها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»!!

---

(١) الخيار والوسط.
(٢) الرَّئِيّ كغني التابع من الجنّ.

وفي رواية للبيهقي، أن رسول الله ﷺ لما بلغ قوله تعالى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ...﴾.

أمسك عتبة بفيه، وناشده الله والرحمَ أن يكف عنه!!

ولا عجب فقد استولى على نفس عتبة ما سمعه من هذا الكلام الفصيح البليغ، حتى استند على يديه واستغرق في التأمل، وهو العربي الأصيل، وحتى خيل إليه حين سمع هذا الإنذار أن العذاب واقع به وبهم.

ما أشار به عتبة على قريش

وعندما سمع عتبة ما سمع قام ورجع إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به[1]، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً ـ والله ـ ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سَحَرك والله يا أبا الوليد بلسانه!! قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم.

وقد ظنوا إثماً وزوراً، فما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه طالب ملك، ولا راغباً في مال، ولا ناشداً جاهاً ولا سلطاناً، وإنما هو نبي يُوحى إليه من ربه، ومبلغ رسالة، ومنشىء أمة، ومنقذ البشرية من التردي في هوّة سحيقة، وصانع تاريخ، ومؤصل حضارة. إنها لَشهادة حقة، لأنها من عدو لم يؤمن بالقرآن، وإنما آمن بسلطان اللغة والبيان.

---

(١) هذا من بديع الكلام الدال على علم بالنفس البشرية، وظهور ما يكون بالنفس على قسمات الوجه، وأن العرب كانوا على علم ببعض قواعد علم النفس.

شهادة أخرى للقرآن من الوليد بن المغيرة

روي أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن[1]، فكأنما رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرضَ ما قِبَله!! قال: قد علمتْ قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل في القرآن قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إنَّ لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مُغْدق[2] أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى، وإنه ليحطِم ما تحته!!

فقال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: دعني حتى أفكر فيه، وبعد جهد جهيد، وصراع نفسي عنيف قال: إنْ هذا إلا سحر يؤثر، ألم تَرَوا أنه يفرِّق بين الرجل وأهله، والولد ووالده[3]!!

وفي رواية ابن إسحاق أن الوليد اجتمع هو ونفر من قريش ليجمعوا على رأي ليواجهوا به أهل الموسم فقد قرب، فقالوا: كاهن، فقال لهم: ما هو بزمزمة الكهان، فقالوا: نقول: مجنون، فقال: ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنون وعرفناه، فقالوا: شاعر، فقال: ما هو بشاعر، فقالوا ساحر فقال: ما هو بساحر، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ فقال مقالته الآنفة في مدح القرآن، ثم غلبت عليه شقوته فقال: إن أقرب القول أن نقول: إنه ساحر[4].

وفي الوليد هذا أنزل الله سبحانه قوله:

---

(١) في بعض الروايات أن النبي قرأ عليه قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي...﴾ الآية.

(٢) أي كثير الغدق أي الماء، والشجرة إذا كانت أصلها غدقاً كانت نامية مثمرة.

(٣) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٦٠.

(٤) السيرة، ج ١ ص ٢٧٠، ٢٧١.

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾
وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾
إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ
أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

تأثير إعجاز القرآن في نفوس العرب

وإنَّ لنا هنا لوقفة ترينا أن الوليد بن المغيرة كان يدرك بفطرته العربية أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر، وأن الرجل قد قال مقالته الأولى استجابة لحسّه البياني وذوقه الأدبي، ومن غير أن يكون لشيء ما سلطان عليه

---

(١) الآيات ١١ ــ ٣٠ من سورة المدثر. وكان الوليد يسمى وحيد قريش لشرفه ورياسته وغناه، فهو تهكم به، وقيل: وحيداً بلا مال، ولا ولد، فأنعمت عليه بهما ففيه تبكيت له.
ممدوداً: كثيراً ممتداً من الزروع والضروع.
شهوداً: يحضرون معه المشاهد والمحافل، قيل: كانوا عشرة وقيل: ثلاثة عشر أسلم بعضهم.
«ومهدت له تمهيداً»: أي بسطت له الجاه العريض، والرئاسة في قومه.
كلا: كلمة زجر وردع وقطع لرجائه وطمعه.
صعوداً: عذاباً شاقاً.
«فقتل كيف قدر»: تعجيب من تقديره الفاسد، ومقالته الشنعاء، وهو تهكم بهم وبإعجابهم بتقديره، واستعظامهم لقوله، تقول العرب: قاتله الله ما أشجعه، وأخزاه ما أشعره، وغرضهم الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد، ويدعو عليه حاسده بذلك.
عبس: قطّب وجهه.
بسر: أي زاد وجهه عبوساً وتقطيباً.
لواحة للبشر: تلفح الجلد لفحاً شديداً فتدعه أسود من السواد.
عليها تسعة عشر: يعني من الملائكة الأشداء، يجوز أن يراد حقيقة العدد، وأن يراد التكثير.

إلا فطرته وحسه، ولكن التقاليد المتسلطة، والعصبيات الموروثة، وإرضاء قومه غلبت عليه، فلم يقدر أن يتحرر منها، حتى جعلت الرجل يناقض نفسه بنفسه!!

وإن نظرة فاحصة في الآيات: ﴿إنه فكّر، وقدّر. فقتل كيف قدّر. ثم قتل كيف قدر، ثم نظر. ثم عبس وبسر.﴾ لتصور لنا تصويراً دقيقاً، بارعاً صادقاً ما حدث بين الرجل وبين نفسه من صراع عنيف، كأقوى ما يكون الصراع وأعنفه، ففطرته اللغوية، وحسه البياني، ووجدانه الأدبي، كلها تأبى عليه أن يقول غير ما قال أولاً، وإرضاء قومه، وخوفه من قالة السوء عنه، وحرصه على الزعامة والرياسة كلها تلح عليه إلحاحاً بالغاً في أن يقول قولاً منكراً في القرآن يخالف قوله الأول، وأخيراً وبعد نظر وعبوس وتقطيب للوجه ثم تقطيب تنم عن ضيقه النفسي بما سيقول، قال: ﴿إنْ هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر﴾! ولو أنك أتيت بأبرع الفنانين العالميين اليوم ليرسم للوليد صورة معبرة عن هذا الصراع النفسي الذي بدت آثاره على وجه الوليد وجبهته، لما بلغ ما بلغه القرآن الكريم في إبراز هذه الصورة بألفاظ متخيرة، وجرس معبر، لا بريشة وظلال، فللّه در التنزيل ما أفصحه وأبلغه!!

تهكم أبي جهل بالقرآن

ولما نزل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل: يا معشر قريش يزعم محمد أن جنوده الذين يعذبونكم في النار، ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً، وكثرة، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله سبحانه رداً عليه قوله:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾[1].

---

(١) الآية ٣١ من سورة المدثر.

استماع زعماء الشرك إلى القرآن سراً

روى ابن إسحاق في سيرته عن الزهري قال: حُدِّثت: أن أبا جهل، وأبا سفيان، والأخنس بن شَرِيق، خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل منهم مجلساً، فيستمع منه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا.

حتى إذا كان الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا!!

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا!!

فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حَنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها، فقال الأخنس: أنا والذي حلفت به كذلك!!

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، فما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطَوْا فأعطينا، حتى إذا تجاثَيْنا على الرُّكَب وكنّا كفرسَيْ رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ فوالله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه!!

وهذا يدل على استلذاذ العرب للاستماع للقرآن استجابة لفطرتهم العربية، وعلى ما كان للعصبية الجاهلية من أثر في عدم الإيمان بالنبي ﷺ.

تواصيهم بعدم استماع القرآن

وقد كان النبي حريصاً على استماعهم لما يعلم من قوة تأثيره في نفوسهم كما سمعت آنفاً، وكان المشركون يتواصَون بعدم الاستماع للقرآن كيلا يجذبهم بسحر بيانه، وقوه تأثيره، ويتواصَون باللغو فيه، وذلك بالتشويش على النبي حين قراءته، والصخب عليه، وإلقاء الشبه والأباطيل في القرآن. قال عز شأنه:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾(1).

فكان إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن يتفرقون عنه، ويأبون أن يستمعوا له، وبعضهم يشغب عليه، وبعضهم يغطي نفسه بثوبه كيلا يسمع. قال عز شأنه:

﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾(2).

وكان بعضهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله ما يتلو من القرآن استرق السمع فَرَقاً منهم، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع، ولذلك أمر الله نبيه أن لا يجهر بالقرآن، ولا يخافت به رعاية لهؤلاء النفر، قال ابن عباس: إنما أنزلت هذه الآية:

﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ ﴾(3).

من أجل ذلك النفر يعني: لا تجهر بصلاتك، فيتفرقوا عنك، ولا تخافت بها، فلا يسمعها من يحب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم، لعله يرعوي إلى

---

(1) الآية ٢٦ من سورة فصلت.

(2) الآية ٥ من سورة هود.

(3) الآية ١١٠ من سورة الإسراء.

بعض ما يستمع فينتفع به[1]، وكان بعضهم إذا سمع القرآن يقول ــ مكابرة ــ كما حكى الله عنهم:

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾[2].

أول من جهر بالقرآن من الصحابة

كان المشركون يؤذون من يجهر بالقرآن خشية تأثيره في نفوسهم، وكان أول من جهر به من الصحابة عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ فقد اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعتْ قريش هذا القرآنَ يجهر به قط، فمن الرجل يسمعهم إياه؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا!! قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله سيمنعني.

فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام، ثم قرأ:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ رافعاً بها صوته ﴿الرَّحْمٰنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. . . ﴾.

ثم استقبلها يقرؤها، فتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أمِّ عبدٍ؟! ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد! فقاموا إليه، فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشيناه عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً، قالوا: لا، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون.

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣١٤.

(٢) الآية ٥ من سورة فصلت.

محاولة أخرى للإغراء

قدَّمنا لك ما كان من شأن عتبة بن ربيعة وعرضه على رسول الله المال والملك والسؤدد، نظير أن يكف عنهم وعن آلهتهم، ورفض رسول الله جميع ما عرض عليه، فرأى أشرافهم أن يكرروا المحاولة، فجلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية ـ بعد الغروب عند الكعبة، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم وهو يظن أن قد بدا لهم في أمره شيء، وكان حريصاً على إيمانهم، يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، فعرضوا عليه مثل ما عرض عتبة فيما سبق، فلما فرغوا قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لهم: «ما تقولون؟ ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم»!!

أسئلة تعنتية

فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فَسَلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيِّر لنا هذه الجبال التي قد ضيِّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسأله عما تقول: أحق أم باطل؟ فإن فعلت ما سألناك، وصدَّقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»!!

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسَلْ ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق، وتلتمس المعايش كما نلتمس، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم: «ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا[1]، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم»!!

قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل[2]، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال: «ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك».

فقالوا: يا محمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدَّم إليك ويُعْلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة[3] يقال له: الرحمن، وإنا ــ والله ــ لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما ــ والله ــ لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك، أو تهلكنا!!

وقال قائل منهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله، وقال آخر: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً[4]، فيشهدون لك بصدق نبوتك.

مقالة عبدالله بن أبي أمية المخزومي

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ــ وهو ابن عمته: عاتكة بنت عبدالمطلب ــ فقال: يا محمد،

(١) لأنه لا يسأل هذا إلا من جهل رسالته، وجهل سنن ربه، ورسول الله بريء منهما.
(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء...﴾ الآية ٩ من سورة سبأ.
(٣) يريدون مسيلمة الكذاب.
(٤) جميعاً.

عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايْمُ الله لو فعلتَ ذلك لظننت أني لا أصدقك!! ثم انصرف عن رسول الله.

وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنتات والردّ عليها في قوله سبحانه:

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ[2] أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا[3] ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾[4].

(١) قطعاً جمع كسفة كقطعة.
(٢) ذهب.
(٣) لو كان يسكن الأرض ملائكة لأرسل الله لهم ملكاً رسولاً، ولكن الأرض يسكنها بشر، وغير معقول أن يجعل الله عند جميع البشر استعداداً لتلقي الوحي عن الملك. فكان المعقول أن ينزل الله وحيه على واحد مختار منهم وهو يقوم بتبليغهم.
(٤) الآيات ٩٠ ــ ٩٦ من سورة الإسراء.

وقال سبحانه حكاية لمقالتهم:

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ[1] يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[2].

وقد ردَّ الله عليهم بأن أكل الطعام والمشي في الأسواق والسعي على الرزق من سنن الأنبياء والرسل، فالنبي في هذا ليس ببدع، فقال سبحانه:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾[3].

كما بيَّن لهم أن الله لم يرسل رسولاً للبشر إلا منهم، ولم تجر سنته بأن يرسل للبشر ملائكة، فقال عز شأنه:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾[4].

وَقَالَ:

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا[5] عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾[6].

---

(١) حديقة.

(٢) الآيات ٧، ٩ من سورة الفرقان.

(٣) الآية ٢٠ من سورة الفرقان.

(٤) الآيتان ٧، ٨ من سورة الأنبياء.

(٥) لأن الملك لو نزل في صورة رجل لقالوا: هو رجل وليس بملك فالمجادلة بالباطل لا تنقطع.

(٦) الآية ٩ من سورة الأنعام.

إباء النبي ﷺ أن يكون له الصفا وغيره ذهباً

ولو أن النبي صلوات الله وسلامه عليه رغب في أن تكون له الصفا وبطحاء مكة ذهباً لأجابه الله سبحانه، ولكن من أدَّبه ربه فأحسن تأديبه وكمَّله عقلاً وخلقاً، واصطفاه رحمة للعالمين، ما هو بالذي يسأل هذا، وإنما يسأله الحمقى والجهلاء، وحاشاه منهما، وقد رغب ﷺ عن زخارف الحياة، وزهد في الدنيا زهد القادر عليها، لا زهد العاجز عنها، أو المحروم منها، ليكون في ذلك القدوة الحسنة للحكام، وولاة الأمور، الذين يكتنزون الأموال ورعاياهم جائعة عارية محرومة، وقد روى أبو أمامة عن النبي ﷺ قال: «عرض علي ربي ـ عز وجل ـ أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: يا رب، أشبع يوماً، وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعتُ إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»، رواه أحمد ـ وهذا لفظه ـ والترمذي وقال: هذا حديث حسن.

الحكمة في أنهم لم يجابوا لما طلبوا

والله سبحانه وتعالى لم يجبهم على ما سألوا ـ وهو القادر على كل شيء ـ لأنهم لم يسألوا مسترشدين وجادين، وإنما سألوا متعنتين ومستهزئين، وقد علم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما طلبوا لما آمنوا، وللجُّوا في طغيانهم يعمهون، ولظلوا في غيهم وضلالهم يترددون، قال سبحانه:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ[1] ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[2].

---

(١) لا: زائدة.

(٢) الآيات ١٠٩ ـ ١١١ من سورة الأنعام.

وقال سبحانه:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾[1].

ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية والرحمة الربانية ألا يجابوا على ما سألوا، لأن سنته سبحانه أنه إذا طلب قوم آيات فأجيبوا، ثم لم يؤمنوا عذَّبهم عذاب الاستئصال، كما فعل بعاد وثمود وقوم فرعون، قال عز شأنه:

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾[3].

فلو أعطيت قريش ما سألوا من الآيات الحسية التي اقترحوها ثم لم يؤمنوا لأهلكوا، ولكن الله ـ جلَّت حكمته ـ رفع عن هذه الأمة عذاب الاستئصال بفضل نبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فقد بعثه رحمة ولم يبعثه نقمة، وصدق الله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

فهو رحمة للبر والفاجر: رحمة للبر في الدنيا والآخرة، وللفاجر في الدنيا، فقد أمنوا من الخسف والغرق، وإرسال حاصب من السماء، وأيضاً فقد استفاد الناس جميعاً بالرسالة المحمدية، فلولاها لما تحررت النفوس من رق التقليد، والشرك، والخرافات، ولا العقول من الجهل والضلال، ولا المجتمعات من

(١) الآية ٧ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ٥٩ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ٨ من سورة الأنعام.

الظلـم والجور والمفاسد الخلقية، ولما فتحت للبشرية هذه الآفاق الواسعة من العلم والمعرفة اللذين عادا على البشر بالخير والنفع.

وليس أدل على هذه الرحمة المحمدية مما رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحّي عنهم الجبال فيزدرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم الأمم، فقال: «بل أستأني بهم» ورواه النسائي أيضاً من حديث ابن جرير.

وفي رواية أخرى للإمام أحمد عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: «قالت قريش للنبـي صلى الله عليه وسلم: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، ونؤمن بك، قال: «وتفعلوا؟» قالوا: نعم، قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة قال: «بل التوبة والرحمة»[1].

القرآن معجزة المعجزات

وليس أدل على أن القوم كانوا متعنتين وساخرين، ومعوِّقين لا جادين من أن عندهم القرآن وهو آية الآيات، وبينة البينات؛ ولذلك لما سألوا ما اقترحوا من هذه الآيات وغيرها ردَّ عليهم سبحانه بقوله:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[2].

---

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٥٢.

(٢) الآيات ٥٠ ــ ٥٢ من سورة العنكبوت.

وَقَالَ تعالى:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾[1].

ولما سأله قومه لأنفسهم تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وبَعْث من مضى من آبائهم قال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ[2] بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾[3].

من تخرصاتهم على النبـي والقرآن

وكان رسول الله ﷺ يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له: جبر، عبد لبني الحضرمي كان يصنع السيوف، وقيل لغلام نصراني يسمى: يسار، وكان قَيْناً[4] أيضاً، فكانوا يزعمون أن النبـي ﷺ يتعلم القرآن ويتلقاه من هذين الغلامين أو أحدهما، وكانت معلوماتهما عن التوراة والإنجيل ـ كما هو الشأن في أمثالهما ـ لا تعدو أن تكون معلومات مبتسرة خاطئة، كما كان لسانهما تغلب عليه الرطانة الأعجمية، وقد ردَّ الله سبحانه عليهم رداً مفحماً، قال سبحانه:

---

(١) الآية ١٣٣ من سورة طه.

(٢) يعني لو أن هناك قرآناً بهذه المثابة لكان هذا القرآن الكريم، فهو ليس له مثيل لا من قبل ولا من بعد، فجواب «لـو» محذوف دلَّ عليه المقام.

(٣) الآية ٣١ من سورة الرعد.

(٤) أي حداداً.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[2].

تهكم المشركين بضعفاء المسلمين

وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خبَّاب، وعمَّار، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، وأبو فُكَيهة يسار مولى صفوان بن أمية، وأضرابهم ممن لهم جاه عريض عند الله، وإن لم يكن لهم جاه عند الناس ــ استهزأ بهم المشركون، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون!! أهؤلاء الذين منّ الله عليهم منْ بيننا بالهدى والحق؟! ولو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا.

وقد ردَّ الله عليهم مبيِّناً فضلهم ومنزلتهم فقال سبحانه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[3].

وقــوله:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[4].

ومن قبل ذلك قال قوم نوح لنوح نحو ذلك قال تعالى:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ

---

(١) يميلون عن الحق إليه، ومنه الملحد لأنه مال عن الاستقامة والدين الحق إلى غيره.
(٢) الآية ١٠٣ من سورة النحل.
(٣) الآية ٥٣ من سورة الأنعام.
(٤) الآية ١١ من سورة الأحقاف.

اتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

إلى قوله:

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[1].

سعي المشركين إلى إبعاد ضعفاء المؤمنين

ثم سعى رؤساء المشركين إلى رسول الله ﷺ أن ينحي هؤلاء الضعفاء والأعبد عن مجلسه، كي يجلسوا إليه. فقالوا: لو طردت عنا هؤلاء الأعبد فإنه يؤذينا أرواح جبابهم جلسنا إليك وحادثناك، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما أنا بطارد المؤمنين».

فقالوا: فأقمهم عنا إذا جئنا، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت، قال: «نعم» طمعاً في إيمانهم، فقد كان ﷺ حريصاً على ذلك غاية الحرص، حتى همّ الرسول أن يكتب لهم بذلك كتاباً.

عتاب الله لنبيه

فأنزل الله عتاباً لنبيه هذه الآيات التي تدل على منزلة هؤلاء الفقراء والأعبد، وجاههم عند ربهم، قال سبحانه:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[2].

---

(١) الآيات ٢٧ ــ ٣١ من سورة هود.

(٢) الآية ٥٢ من سورة الأنعام.

فكان رسول الله ﷺ إذا لقيهم عانقهم، وقال: «أهلاً بمن عاتبني الله فيهم» وكان إذا جلس معهم يدنو منهم حتى تمس ركبته ركبهم، فإذا أراد القيام قام عنهم وتركهم، فأنزل الله سبحانه قوله:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

فترك رسول الله ﷺ القيام عنهم إلى أن يقوموا عنه، وقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع أقوام من أمتي، معكم المحيا، ومعكم الممات».

عتاب آخر بشأن ابن أم مكتوم

وأتى رسول الله ﷺ عبدالله بن أم مكتوم[2]، وكان أعمى، وعند رسول الله ﷺ صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبدالمطلب، وأمية بن خَلَف، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يسلم بإسلامهم كثيرون، فقال: يا رسول الله أقرئني، وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله بالقوم، فكره رسول الله قطعه لكلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فأنزل الله تعالى:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الكهف.

(٢) قال ابن هشام: ابن أم مكتوم: أحد بني عامر بن لؤي، واسمه عبدالله، وقيل: عمرو، وأم مكتوم: أمه، واسمها: عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وأبوه: قيس بن زائدة على الأشهر.

وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

فكان رسول الله يكرمه ويقول له: «أهلاً ومرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ويقول له: «هل لك من حاجة؟» وقد استخلفه النبي على المدينة مرتين، وكانت وفاته بالقادسيّة، وقيل: عاد منها ثم توفي بالمدينة.

حجة وبرهان على أن القرآن ليس من عند النبي

وأحب من الذين يزعمون أن القرآن من عند النبي ﷺ من المبشرين والمستشرقين ومن تابعهم أن يتأملوا في هذه القصة، والتي قبلها، ليروا أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند النبي، فما عهدنا أن بشراً مهما كان يؤاخذ نفسه في كتاب من عند نفسه هذه المؤاخذة، اللهم إلا إذا أنكرنا عقولنا، وأنكرنا الفطرة البشرية، والطبيعة الإنسانية، وهذه كتب الفلاسفة والمصلحين قديماً وحديثاً، ما وجدنا فيها شيئاً من هذا، بل رأينا أن أي بشر مهما بلغ يحاول إخفاء ما يؤاخذ به ما استطاع، فهذه المعاتبات أو إن شئت فسمِّها المؤاخذات الرفيعة من أقوى الأدلة على أن القرآن ليس من عند بشر، وإنما هو من عند خالق القوى والقدر، الذي لا يداهن، ولا يحابي، وقد فطن إلى هذا المعنى أحد السلف ــ رضي الله عنهم ــ فقال: «لو كان النبي ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذا»[2].

سؤال المشركين النبي عن أهل الكهف، وذي القرنين، والروح، واستعانتهم باليهود

وبعثت قريش اثنين من أشد الناس عداوة للرسول، وهما: النضر بن الحارث، بن كلدة، بن علقمة، بن عبد مناف، بن عبدالدار، بن قصي[3]،

(١) الآيات ١ ــ ١٦ من سورة عبس. والسفرة: جمع سافر، والمراد بهم الملائكة.
(٢) تفسير ابن جرير عند تفسير هذه السورة.
(٣) قال ابن هشام: ويقال: النضر بن الحارث، بن علقمة، بن كلدة، بن عبد مناف.

وعقبة بن أبي مُعَيط إلى أحبار يهود المدينة، وقالوا لهما: سَلاَهم عن محمد، وصِفا لهم وصفه، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقال لهم أحبار اليهود، سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل، فَروا فيه[1] رَأْيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم أمر عجيب، وسلوه عن رجل طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبراهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غداً بما سألتم عنه» ولم يقل: «إن شاء الله» فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله إليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل، حتى أَرْجَفَ أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، حتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاء جبريل ــ عليه السلام ــ من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظناً» فقال له جبريل: «وما نتنزّل إلا بأمر ربك، له ما بين أيدينا، وما خلفنا، وما بين ذلك، وما كان ربك نسياً».

وقد افتتح السورة سبحانه وتعالى بحمده وذكر نبوة رسوله، وبذكر آيته

---

(١) «فروا» فعل أمر من رأى، أُسند لواو الجماعة.

العظمى، وهو القرآن الكريم آية بينة مستقيمة لا عوج فيه، ولا اختلاف، ولا تناقض، أنزله لإنذار الكافرين والعاصين، وتبشير المؤمنين الصالحين، فقال سبحانه: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾[1] ثم أشفق عليه لحزنه على عدم إيمان قومه حزناً يكاد يذهب بنفسه، فقال:

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

ثم شرع سبحانه وتعالى في الإجابة عن قصة من سألوه عنهم من شأن الفتية الذين كانوا في الزمن الأول، فقال:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا... ﴿٩﴾﴾

إلى آخر القصة[2]، وذكر في أثنائها تعليمه للنبي ذكر المشيئة في كلامه فيما يستقبل، فقال: ﴿ولا تقولنَّ لشيء إني فاعل ذلك غداً. إلا أن يشاء الله﴾.

ثم ذكر شأن الرجل الطواف فقال:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

إلى آخر القصة[3].

وكذلك أنزل الله في سؤالهم عن الروح قوله:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[4].

---

(١) الآيات ١ ــ ٥ من سورة الكهف. (٢) الآيات ٩ ــ ٢٧ من سورة الكهف.
(٣) الآيات ٨٣ ــ ٩٨ من سورة الكهف.
(٤) الآية ٨٥ من سورة الإسراء. يعني أن الروح خلق عجيب من خلقه، وأمر من أمره سبحانه، لا يعلم حقيقتها إلا الله، وأما أنتم فبحسبكم من العلم بالروح معرفة آثارها التي تترتب عليها من الحياة، والحس، والتمييز، لأنكم مهما أوتيتم من علم فهو قليل بجانب علم الله.

آية الروح مكية أم مدنية؟

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق في سيرته يوافقه ما رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه، وقال: إنه صحيح وهو يتفق وكون الآية مكية.

ولكن روى البخاري في صحيحه عن ابن مسعود أنه كان مع النبـي وقد مرَّ على اليهود، وهو متكىء على عسيب نخل، فقال اليهود بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فسكت فلم يرد عليهم، ثم أقام ساعة ينظر قال ابن مسعود: فظننت أنه يوحى إليه، فلما سُرّي عنه قال: «ويسألونك عن الروح...» الآية، وهذا يقتضي أن السائل اليهود، وأن الآية مدنية، فمن ثمَّ رجَّح بعض العلماء ما في الصحيح وقالوا: إن الآية مدنية وبعض السور المكية فيها بعض الآيات المدنية وبالعكس.

وذهب بعض العلماء ومنهم ابن كثير إلى تعدد النزول بأن تكون نزلت في مكة بسبب سؤال المشركين له بعد استشارتهم اليهود، ثم نزلت في المدينة بَعْدُ لما مر النبـي ﷺ على اليهود وسألوه، ولا مانع ـ كما قال الزركشي وغيره ـ من تكرر نزول بعض آي القرآن تعظيماً لشأنها، وتذكيراً بها[1].

مجادلة يهود المدينة في آية الروح

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال أحبار يهود: يا محمد أرأيت قولك: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» أإيانا تريد، أم قومك؟! قال: «كُلًّا عنيت» قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك، إنا أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء! فقال ﷺ: «إنها في علم الله قليل، وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه، فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك قوله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾[2] أي أن التوراة وغيرها من علم الله شيء قليل»[3].

---

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٥٢، ٥٣؛ المدخل لدراسة القرآن الكريم، للمؤلف، ص ١٠٩، ١١٢.

(٢) الآية ٢٧ من سورة لقمان.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣٠٨.

خصومات، ومجادلات، وتهكمات

جلس رسول الله ذات يوم مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس وفيه غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله حتى أفحمه، ثم تلا عليهم قول الله تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ(١) جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾(٢).

مقالة ابن الزبعرَى وما أنزل الله فيه

ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبدالله بن الزبعرَى السهمي حتى جلس؛ فقال الوليد بن المغيرة لعبدالله بن الزبعرى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبدالمطلب آنفاً وما قعد(٣)، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حَصَب جهنم، فقال عبدالله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعرى! فقال النبي: «إن كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أَمَرَتْهم بعبادته». وهو جواب محكم دقيق(٤)، فأنزل الله تصديقاً لنبيه في ذلك:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا

---

(١) الحصب كالحطب وزناً ومعنى أي وقودها.

(٢) الآيات ٩٨ ـ ١٠٠ من سورة الأنبياء.

(٣) كناية عن خذلانه في المجادلة، أو عدم انتصابه لحجاج النبي.

(٤) ما يذكر في بعض كتب التفسير من أن النبي قال له: «ما أجهلك بلغة قومك، إنه قال: ما ـ وهي لغير العاقل ـ ولم يقل من» غير صحيح، وأثر الوضع بادٍ عليه.

يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا[1] وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[2].

يعني عيسى ابن مريم، وعزيراً، ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله. فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، أولئك عن النار مبعدون لا يدخلونها أبداً.

ونزل فيما ذكره ابن الزبعرى من أمر عيسى، وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ[3] ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

أي شديدو اللجاجة في الخصومة، ثم بيَّن حقيقة أمر عيسى فقال:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[4].

الأخنس بن شَريق

الأخنس بن شَريق، بن عمرو، بن وَهْب الثقفي حليف بني زهرة. وكان من أشراف القوم، وممن يستمع منه. وكان يصيب من رسول الله ﷺ، ويجادله، ويرد عليه[5]. فأنزل الله فيه:

---

(١) صوتها. (٢) الآيات ١٠١ ـ ١٠٣ من سورة الأنبياء.

(٣) يصدون: يعجبون.

(٤) الآيات ٥٧ ـ ٦١ من سورة الزخرف. (٥) السيرة ج ١ ص ٣٦٠.

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ ﴾[1].

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في أبي جهل، وقيل: في الأسود بن عبديغوث.

الوليد بن المغيرة

وكان ممن يجادل رسول الله ﷺ وينال منه الوليد بن المغيرة، وكان يقول: أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين؟! فأنزل الله تعالى حكاية لأقوالهم ورداً عليهم قوله:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا[3] ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢ ﴾[4].

تهكم أبي جهل بالقرآن والنبي:

ومن تهكمات أبي جهل وجهالاته أنه لما ذكر الله عز وجل شجرة الزقوم تخويفاً لهم قال: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد، والله لو استمكنا منها لنتزقمنها تزقماً[5] فأنزل الله تعالى فيه قوله:

---

(١) الآيات ١٠ ــ ١٣ من سورة ن. والعتل: الغليظ الجافي، والزنيم: الدعي في القوم وليس منهم، وقد كان من ثقيف، وعداده في زهرة.

(٢) القريتين: مكة، والطائف.

(٣) ليسخّر الغني الفقير.

(٤) الآيتان ٣١، ٣٢ من سورة الزخرف.

(٥) لنبتلعنها ابتلاعاً.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ[1] يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾[2].

وشجرة الزقوم هي التي ذكرها الله في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ[3] فِي ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾[4].

إنذار أبي جهل رسول الله بسبِّ الله

ولقي أبو جهل رسول الله ﷺ فقال له: «والله يا محمد لتتركنَّ سبَّ آلهتنا أو لنسبنَّ إلهك الذي تعبد» فأنزل الله تعالى على نبيه قوله:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . ﴾[5].

فكف رسول الله ﷺ عن سب آلهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله تعالى.

تهكم العاص بن وائل برسول الله

كان خباب بن الأرت صاحب رسول الله قَيْناً بمكة يعمل السيوف، وكان قد باع للعاص بن وائل السهمي سيوفاً عملها له حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال له: يا خباب أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب، أو فضة، أو ثياب، أو خدم؟! قال

---

(١) المهل: كل شيء أذبته بالنار من نحاس أو رصاص أو ما أشبههما.
(٢) الآيات ٤٣ ــ ٤٦ من سورة الدخان، والحميم: الماء الشديد الحرارة.
(٣) أي الملعون آكلها.
(٤) الآية ٦٠ من سورة الإسراء.
(٥) الآية ١٠٨ من سورة الأنعام.

خباب: بلى. قال: فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقَّك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله مني، ولا أعظم حقاً في ذلك، فأنزل الله تعالى رداً عليه، وتبكيتاً له، وزجراً له وردعاً قوله:

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠ ﴾[١].

مجادلة أبيّ بن خَلَف

ومشى أبيّ بن خَلَف إلى رسول الله ﷺ بعَظْم بالٍ[٢] قد أرمَّت، فقال يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم[٣]، ثم فتَّه بيده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله، فقال له: «نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار» فأنزل الله تعالى فيه قوله:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا[٤] فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣ ﴾[٥].

---

(١) الآيات ٧٧ ــ ٨٠ من سورة مريم.
(٢) تحطم وتكسر.
(٣) بلي وتفتت وصار رميماً.
(٤) قيل: هما المرخ والعفار من شجر البادية إذا احتك أحدهما بالآخر أوقد ناراً.
(٥) الآيات ٧٨ ــ ٨٣ من سورة يس.

من أماني المشركين الباطلة

واعترض رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة الأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزَّى، والوليدُ بن المغيرة، وأميةُ بن خلف، والعاصُ بن وائل السهمي، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: (يا محمد، هَلُمَّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه).

وهو عرض خبيث ماكر يدل على حيلة واسعة، ولباقة في حسن العرض، وهو يدل على ما كان يتمتع به القوم من ذكاء، وفطنة، وعقل، ولكن حجبتها العقائد الموروثة، والأوهام الفاسدة، والتقليد لما عليه الأباء، عن الإذعان للحق والخضوع له.

وما كانت هذه الحيلة الماكرة لتجوز على النبي، فقد رفضها واستنكرها، فأنزل الله سبحانه تأييساً لهم، وقطعاً لأطماعهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[1].

عود إلى سياسة الإيذاء والاستهزاء

ولما رأى المشركون أن سياسة الإغراء والملاينة، والمجادلة، والمغالطة لم تُجْدِ مع رسول الله ﷺ ـ وقد حدَّثناك عن بعضها ـ عادوا إلى سياسة الإيذاء.

فمن ذلك ما كان يؤذي به رسول الله النَّضْرُ بن الحارث، وكان من شياطين قريش، وينصب لرسول الله بالعداوة، وكان من أمره ما ذكرنا فيما سبق

(١) النفي في الفقرتين الأوليين يتعلق بالزمن الحاضر، وفي الفقرتين الأخريين يتعلق بالمستقبل، وذلك لقطع أطماعهم فيه، في الحاضر، والمستقبل، ثم أكد النفي بقوله: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾.

من معارضة ما يذكره النبي من قصص الأنبياء والأمم؛ بما كان معه من أساطير تعلمها من بلاد الحيرة عن ملوك فارس، وأحاديث رستم، واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله مجلساً يعلِّم ويذكِّر، خَلَفه في مجلسه فحدثهم بما معه، ثم يقول: ما محمد بأحسن حديثاً مني، أنا ـ والله ـ يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها، وقد أنزل الله في مقالته والرد عليه قوله سبحانه:

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ[1] ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦ ﴾[2].

وقال:

﴿ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥ ﴾[3].

وقال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ[4] فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٧ ﴾[5].

موقف للنضر يكون فيه منصفاً للرسول

ومن العجيب حقاً أن ابن إسحاق روى عن هذا الشيطان والمتمرد على النبوة أنه قال لقريش: «يا معشر قريش إنه ـ والله ـ قد نزل بكم أمر ما أتيتم

(١) جمع أسطورة أو إسطارة: الخرافات والأباطيل.
(٢) الآيتان ٥ ـ ٦ من سورة الفرقان.
(٣) الآية ١٥ من سورة ن.
(٤) صمماً.
(٥) الآيتان ٦ ـ ٧ من سورة لقمان.

له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر!! لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السَحَرة: نَفْثَهم وعقدهم[1] وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، وقد رأينا الكَهَنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر؛ وقد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها هَزَجه ورَجَزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخَنْقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه ــ والله ــ قد نزل بكم أمر عظيم[2].

وكأنه كان يرى هذا ويعتقده، ثم انجرف في تيار معاداة الرسول، وغلبت عليه شقوته، فصار يتعقَّب الرسول ويقول فيه ما قال!!

أمية بن خلف وهمزه للرسول

وكان أمية بن خَلَف بن وهب بن حذافة السهمي إذا رأى رسول الله ﷺ همزه، ولمزه، فأنزل الله تعالى فيه:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ[3] ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ[4] ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ[5] ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾[6].

---

(١) النفث النفخ مع ريق قليل، وعقدهم: بفتح العين وسكون القاف، أو بضم العين وفتح القاف جمع عقدة وهي التي يعقد الساحر في الخيط، وينفث فيها بشيء يقوله، وفي الكتاب الكريم: ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ أي السواحر.

(٢) السيرة ج ١ ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠.

(٣) همزة، لمزة: بضم أولها وفتح ثانيها: كثير الهمز واللمز، وهو الذي يعيب الناس، ويغتابهم، ويؤذيهم بلسانه وجوارحه.

(٤) سميت النار حطمة: لأنها تحطم وتأتي على كل ما فيها.

(٥) تطَّلع: تظهر وتعلو على القلوب باتقادها وشدة لهبها.

(٦) جعلها كالسرادق المقام على عمد قوية، المطبق على من فيه، فلا يستطيعون منه هرباً ولا خروجاً.

إغراء أبيّ بن خَلَف لعقبة بالنيل من الرسول

وكان أبيّ بن خَلَف، والشقي عُقْبة بن أبي مُعَيط متصافيين حَسَناً ما بينهما، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فبلغ ذلك أبياً، فأتى عقبة فقال له: ألم يبلغني أنك جالست محمداً وسمعت منه؟! وجهي من وجهك حرام أن أكلمك ــ واستغلظ من اليمين ــ إن أنت جلستَ إليه، أو سمعت منه، أو لم تأته فتتفل في وجهه، ففعل ذلك السفيه الشقي عقبة(١)، فأنزل الله تعالى فيهما قوله:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾(٢).

رمي العاص بن وائل الرسول بأنه أبتر

وقد بلغ البغض والسَّفَه ببعض المشركين أن عابوا على رسول الله ﷺ ما لا خيرة لـه فيه من مـوت أولاده الذكـور، ولا يُخِلُّ بـدين، ولا مروءة، ولا رجولة، فمن هؤلاء العاص بن وائل السهمي، كان إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه؛ فإنما هو أبتر لا عقب له، لو مات لا نقطع ذكره، واسترحتم منه، فأنزل الله تعالى سورة الكوثر بياناً لبعض ما رفع الله به ذكر رسوله، وأن شانئه هو الأبتر، قال سبحانه:

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾(٣).

---

(١) السيرة ج ١ ص ٣٦١.

(٢) الآيات ٢٧ ــ ٢٩ من سورة الفرقان.

(٣) الكوثر: فَوْعَل من الكثرة، وهو الخير الكثير الذي يشمل النبوة وعموم الرسالة، وكثرة الخصائص والفضائل. ومنه الكوثر النهر الذي في الجنة، وبعضهم خصَّه به، والأول هو الأولى. انحر: اذبح نسكك. شانئك: مبغضك. الأبتر: الناقص الذي لا عقب =

استهزاؤهم بالرسول

ومر رسول الله ﷺ بالوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وأبي جهل بن هشام، فهمزوه واستهزؤوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله عليه مسلياً ومواسياً، ومنذداً بهم ومنذراً قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

ولم يعبأ رسول الله ﷺ بكل هذا، بل مضى إلى سبيله يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وما زاده الإسراف في الإيذاء والاستهزاء إلا إصراراً على الدعوة.

ما نزل بالمسلمين ولا سيما المستضعفين من البلاء والفتنة

لا يكاد التاريخ يعرف قوماً ابتلوا بألوان البلاء، وفتنوا أشد الفتنة مثل ما عرف ذلك لأصحاب نبينا محمد ﷺ، فقد عُذِّبوا عذاباً تنوء به الجبال، وأوذوا في سبيل عقيدتهم ودينهم أشد الإيذاء، ولا سيما الأعبد والضعفاء منهم، وليس هذا بعجيب من قوم خالطت قلوبَهم بشاشةُ الإيمان، من أول يوم اعتنقوا فيه الإسلام، وتوالت عليهم آيات الوحي والمواعظ النبوية صباح مساء، وأخذهم النبي ﷺ بأساليبه الحكيمة في التربية والتهذيب، وكان لهم القدوة الحسنة في الثبات والصبر، والتحمل، والاستهانة بكل لأواء الحياة، وآلامها، ومرِّها، في سبيل العقيدة والغاية الشريفة.

ولم يكن هؤلاء السادة يبغون من إيمانهم ملكاً، أو جاهاً، أو مالاً،

= له، وقد ردَّ الله على العاص مقالته، أي هو الأبتر، لا أنت يا رسول الله؛ لأن كل من يولد إلى يوم القيامة فهم أولادك، وأعقابك، وأنت أب لهم، وذكرك مرفوع على المنابر والمآذن، وعلى لسان كل عالم، ومصلٍّ، وذاكرٍ إلى آخر الدهر، ذلك وفي الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف، وإنما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة.

(١) الآية ١٠ من سورة الأنعام.

أو سمعة، وإنما كان همهم أن يقوم هذا الدين وينتشر، وتسود العالم شريعة الحق، والعدل، والمساواة، واحترام حقوق الإنسان.

ولئن كان وجد في الأمم السابقة من ضربوا مُثُلاً عالية في التضحية والصبر والتحمل في سبيل الإيمان والدين، إلا أنهم لم يكونوا في الكثرة مثل ما كان ذلك في الإسلام، ولم يكن لهم من قوة الإيمان وصلابة الاعتقاد مثل ما كان لأصحاب نبينا محمد.

وليس أدل على هذا من أن الحواريين الذين كانوا أخلص الخلصاء لعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ خانه بعضهم وهو يهوذا الأسخريوطي ـ كما ذكرته كتبهم ـ ودل عليه اليهود الذين كانوا يطلبونه لقتله، لولا أن رفعه الله إليه وعصمه منهم، ولن تجد مثالاً واحداً لهذا في الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على كثرتهم الكاثرة على أصحاب عيسى ـ عليه السلام ـ بل كانوا يفدونه بأنفسهم وأهليهم وأموالهم.

وقد كان أبو جهل الفاسق الباغي إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنَّبه وأخزاه، وقال له: تركت دينَ أبيك وهو خير منك، لنسفهنَّ حِلمك، ولنفيِّلنَّ[1] رأيك، ولنضعنَّ شرفك. وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدنَّ تجارتك، ولنهلكنَّ مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه، وأغرى به.

وإن في هذه الرواية التي رواها ابن إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ما يعطينا صورة مؤلمة غاية الألم لما كان ينالهم من العذاب، قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم، والله إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه، ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا

---

(١) لنخطئن، ففي القاموس: فال رأيه، يفيل فيولة، وفيلة: أخطأ وضعف، وفيَّل رأيه: قبحه وخطأه.

له: اللات والعزّى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجُعَل[1] ليمر بهم، فيقولون له: أهذا إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده.

شكاتهم إلى رسول الله ما يلاقون

وفي بعض ساعات الضعف الإنساني كانوا يأتون إلى النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ شاكين ما يجدون من شدائد وتعذيب، فيضرب لهم الأمثال، ويعظهم ويذكرهم، فيرجعون راضين مطمئنين صابرين على البلاء. روي عن خباب بن الأرتّ أنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد، وهو محمرّ وجهه، وقال: «قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه!! وليتمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله ـ عز وجل ـ والذئب على غنمه» وفي رواية: «ولكنكم تستعجلون» رواه البخاري ومسلم.

إنَّ ما وعاه التاريخ الصادق مما كان يلاقيه المسلمون الأوائل من صنوف البلاء والعذاب قد بلغ من الروعة، والجلال، وعزة النظير ما يعتبر عند بعض الناس ضروباً من الخيال، ولكنها الحقيقة التي لا ريب فيها، إن الإنسان ليغضُّ الطرف حياء، ويحمر وجهه خجلاً حينما يستعرض هذه المواقف البطولية الفذة التي سَمَت بأصحابها إلى درجات سامقة من السمو الديني والخلقي والنفسي، وإليك طرفاً من حديث هؤلاء القوم.

المعذَّبون في الله

فمن هؤلاء السادة الأبطال: بلال بن رباح الحبشي، وكان اسم أمه حمامة، وكان مولاه أمية بن خَلَف الجمحي قاسيَ الكبد، غليظ القلب؛ لا ينبض قلبه بقطرة من الرحمة الإنسانية. كان يخرجه إلى بطحاء مكة إذا حميت الشمس في الظهيرة، والرمضاء في هذا الوقت تكاد تنضج اللحم الطري، ثم

---

(١) الجعل: بضم الجيم وفتح العين دويبة من دواب الأرض.

يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا ـ والله ـ لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى.

ولكن بلالاً لا يعبأ بالآلام ولا بالبلاء، ويأبى إلا أن يعلن عن صادق إيمانه، فلا ينفك يردد ويقول: «أحد. أحد» فتمتزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان!! فإذا حلاوة الإيمان تطغى على مرارة العذاب، وكان يقول: «لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها» وقد هانت نفس بلال عليه في الله، فتحمل ما تحمل بقلب مؤمن، ونفس راضية مطمئنة، حتى صار مثلاً يحتذى، كلما ذكر المجاهدون والمعذبون.

وهان هو على مواليه فكانوا يجعلون في عنقه حبلاً، ويدفعون به إلى الصبيان يلعبون به، حتى أثر الحبل في عنقه، فما صرفه ذلك عن دينه، ويسرف أمية بن خَلَف الطاغية في التنكيل ببلال وسومه سوء العذاب، ويزداد بلال إيماناً واستعذاباً لألوان العذاب، حتى مر به الصِّديق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟![1] فقال له: أنت الذي أفسدته، فأنقذه مما ترى، فقال الصِّديق: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به، قال: قد قبلت، فقال: هو لك، فأعطاه سيدنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ غلامه ذلك، وأخذ بلالاً فأعتقه لوجه الله!!

وهذه الأسرة الياسرية: عمار بن ياسر، وأبوه ياسر، وأمه سمية بنت خباط[2] مولاة أبي حذيفة بن المغيرة، وكان ياسر حليفاً له فزوَّجه سمية، فولدت له عماراً، فأعتقه، وكان بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، ويلبسونهم دروع الحديد المحماة بالنار، فما وهنوا ولا استكانوا، وكان يمر بهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون، فما يملك لهم إلا أن يحثهم على الثبات والصبر، فيقول: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة». ولما اشتكى له عمار قائلاً: يا رسول الله بلغ منا العذاب كل مبلغ، فقال له:

(١) يعني إلى أي وقت يدوم هذا العذاب؟!
(٢) بضم الخاء، وباء موحدة مشددة، ويقال بمثناة تحتية، وهي غير سميّة أم زياد.

«اصبر أبا اليقظان، اللهم لا تعذب من آل ياسر أحداً بالنار». ومرَّ أبو جهل اللعين بسمية، وهي تعذب في الله، فطعنها بحربة في ملمس العفة منها، فماتت، فكانت أول شهيدة في الإسلام! ثم لم يلبث أبوه أن توفي تحت وطأة العذاب!!

ويطول العذاب بعمار حتى كان لا يدري ما يقول، فيظهر كلمة الكفر على لسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ويجيء عمار ـ وهو يبكي ـ إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «ما وراءك»؟ قال: شر يا رسول الله: نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير، قال: «كيف وجدت قلبك»؟ قال: «مطمئناً بالإيمان»، فجعل النبي يمسح عينيه بيده، ويقول له: «إن عادوا لك فعُدْ لهم بما قلت»!!

ولهج بعض الناس بأن عماراً كفر، ولكن رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى صدع بالحق فقال: «كلا، إن عماراً ملىء إيماناً من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»!!

ثم ينزل الوحي بشهادة السماء على صدق إيمان عمار، قال تعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾[1]

فكانت الآية إعذاراً لهؤلاء المعذبين في الله بأن لا حرج عليهم إن جاروا الكفار بطرف اللسان، ما دام القلب عامراً بالإيمان، ورخصة يترخص بها من خاف على نفسه الهلاك.

ومن المعذبين في الله عامر بن فُهَيْرة[2]، أسلم قديماً، وصحب النبي والصدِّيق في الهجرة يخدمها، وشهد بدراً وأحداً، وقتل يوم بئر معونة شهيداً.

---

(١) الآية ١٠٦ من سورة النحل.

(٢) بضم الفاء وفتح الهاء وإسكان الياء وهي أمه.

ومنهم أبو فُكَيهة، ذكر ابن إسحاق أنه أسلم يوم أسلم بلال، فعذبه أمية بن خَلَف حتى اشتراه أبو بكر فأعتقه.

* * *

ومن المعذَّبات في الله، وأظهرن صبراً، وتجلداً، وبطوله: زِنِّيرة[1] الرومية أمة عمر بن الخطاب، أسلمت قبله، فكان يضربها حتى يفتر، ويشاركه في ضربها أبو جهل، فلا يزيدها ذلك إلا إصراراً على الإسلام، ولما أسلمت أصيب بصرها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزَّى، فقالت: كذبوا ــ وبيت الله ــ ما تضر اللات والعزى، وما تنفعان، ولكن هذا أمر من السماء، وربـي قادر على أن يرد عليّ بصري!! فرد الله بصرها، فقالت قريش: هذا من سحر محمد.

وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون إلى هؤلاء وأتباعهم، لو كان ما أتى محمد خيراً وحقاً ما سبقونا إليـه، أفتسبقنا زنِّيـرة إلى رشد!!

نعم، نعم، يا أبا جهلٍ ــ ولا كرامة لك ــ لقد سبقتك زنيرة إلى الرشد؟! وبقي لها الذكر والترضي عليها ما بقي مسلم على وجه الأرض، وبقي لك اللعن على كل لسان إلى ما شاء الله، لقد ذهبت الأحساب والأنساب، وبقيت التقوى، قال تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقاكُمْ﴾.

ومنهن أم عُنَيْس[2] أمة لبني زهرة، وكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها، فما استطاع أن يفتنها عن دينها.

---

(١) بكسر الزاي، وتشديد النون المكسورة، فتحتية، فراء كسكِّينة كما في القاموس وكذلك قال في الإصابة، ويقال: زنبرة بفتح الزاي وسكون النون فموحدة كما في الاستيعاب (شرح المواهب، ج ١ ص ٣٢٠).

(٢) أم عنيس: بعين مهملة مضمومة فنون فياء على صيغة المصغر، وقيل: بباء موحدة، فتحتية، فسين مهملة.

وحَمامة[1] أم بلال بن رباح كانت تعذب في الله، وجارية بني المؤمل[2] وهم من بني عدي بن كعب، وكانت قد أسلمت، فكان عمر بن الخطاب يعذبها ويضربها حتى إذا ملَّ قال: إني أعتذر إليك بأني لم أتركك إلا ملالة!! فتقول: كذلك فعل الله بك.

والنهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبدالدار[3].

ولعلك ــ أيها القارىء الكريم ــ آمنت معي بعدما سمعت هذه النماذج البشرية العالية أن التاريخ لا يكاد يعرف قوماً استعذبوا العذاب في سبيل الإيمان والعقيدة، وهانت عليهم نفوسهم في الله مثل ما عرف ذلك لأصحاب خاتم الأنبياء محمد، وأني لم أكن مسرفاً، ولا مبالغاً حينما قلت هذا القول، وأن هؤلاء الرجال والنساء خَطّوا صحائف مشرقة في تاريخ الإيمان، والبطولة، والتضحية.

فللَّه هذه النفوس المؤمنة، ما أزكاها، وما أشرفها، وما أخلدها على الدهر.

واهب الحريات

أما واهب الحريات ومحرر العبيد فهو شيخ الإسلام الوقور، الذي عرف بين قومه بأنه يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب[4] الحق، لم ينغمس في إثم في جاهليته، أليف مألوف، يسيل قلبه رقة ورحمة على الضعفاء والأرقاء، أنفق جزءاً كبيراً من ماله في شراء العبيد، وعَتَقهم لله وفي الله، قبل أن تنزل التشريعات الإسلامية المحببة في العتق، والواعدة عليه أجزل الثواب، ذلكم المحرر للعبيد هو صدِّيق هذه

---

(١) بفتح الحاء المهملة، وتخفيف الميم.

(٢) قال في الإصابة: وردت في غالب الروايات غير مسماة، وسماها البلاذري لبينة بضم اللام وموحدة تصغير لبنة.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣١٧ ــ ٣٢٠؛ شرح المواهب، ج ١ ص ٣٢٠ ــ ٣٢٥.

(٤) هكذا وصف ابن الدغنّة سيد قبيلة القارة أبا بكر ــ رضي الله عنه ــ ومن قبل وصفت السيدة الجليلة المهيبة خديجة رسول الله بهذه الأوصاف، فانظر يا قارئي كيف تطابق وصف الصادق، ووصف الصديق.

الأمة، والوزير الأول لرسول الله أبو بكر بن أبي قحافة ــ رضي الله عنه وأرضاه ــ ومن هؤلاء السادة الذين أعتقهم:

بلال بن رباح: وقد قدَّمنا طرفاً من قصته، وإذا علمت أن الغلام الذي أعطاه سيدنا أبو بكر كان يسمى: (نسطاس) ويقال: كان صاحب عشرة آلاف دينار، وغلمان، وجوار، ومواش ــ أدركت عظم الفداء الذي فَدى به الصديق أبو بكر بلالاً، ولا تعجب إذا كان الفاروق عمر قال هذه القولة التي تدل على عظم منزلة الفادي والمفدى: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا» يريد بلالاً، رواه البخاري في صحيحه.

ومن موالي الصديق: أبو فُكَيهة اشتراه وأعتقه، وعامر بن فُهيرة اشتراه وأعتقه لوجه الله.

ومن الإماء اللاتي اشتراهنَّ وأعتقهن لله: حمامة أم بلال، وأم عنيس وزنِّيرة، وجارية بني المؤمل، والنهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبدالدار، فمر بهما، وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها[1] وهي تقول: والله لا أعتقكما أبداً، وتتوعدهما، فقال الصدِّيق: حل[2] يا أم فلان، فقالت حل. أنت أفسدتهما، فأعتقهما، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا. قال قد أخذتهما وهما حرتان، أرجعا إليها طحينها، قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر، ثم نرده إليها؟ قال: وذلك إن شئتمـا.

وإن لنا هنا لوقفة ترينا كيف سوى الإسلام بين الصدِّيق والجاريتين حتى خاطبتاه خطاب الند للند، لا خطاب المسود للسيد، وتقبَّل الصديق ــ على شرفه وجلالته في الجاهلية والإسلام ــ منهما ذلك، مع أن له يداً عليهما بالعتق، وكيف صقل الإسلام الجاريتين حتى تخلقتا بهذا الخلق الكريم، وكان يمكنهما وقد أعتقتا وتحررتا من الظلم أن تدعا لها طحينها يذهب أدراج الرياح، أو يأكله

---

(١) بحب ليطحن.

(٢) أي تحللي من يمينك واستثني فيه، وأكثر ما تقوله العرب بالفتح.

الحيوان والطير، ولكنهما أبتا ـ تفضّلاً ـ إلا أن تفرغا منه، وترداه إليها!!

إنما أريد وجه الله

ولم يكن الصدِّيق يقصد بعمله محمدة، ولا جاهاً، ولا دنيا، وإنما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام، لقد قال له أبوه ذات يوم: «يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلتَ أعتقتَ رجالاً جُلْداً يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبتِ إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل، فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل في شأن الصديق قرآناً يتلى إلى يوم الدين[1]، قال سبحانه:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

فللّه أنت أيها الصدِّيق العظيم، فقد حررت العبيد قبل أن يعرف العالم الحديث ذلك ببضعة عشر قرناً!!

* * *

(١) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣١٩؛ وتفسير ابن كثير والبغوي، ج ٩ ص ٢٢٦؛ وتفسير الألوسي، ج ٣٠ ص ١٥٢.

(٢) الآيات ٥ ـ ٢١ من سورة الليل، وتأمل في قول الله تعالى لنبيه ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وقوله في شأن الصديق ﴿ولسوف يرضى﴾ لترى كيف كان الله تبارك وتعالى حفياً بالنبي، وبالصدِّيق!!

الفَصْل الرَّابِع
أَحْدَاثٌ هَامَّة فِي العَهْدِ المَكِّيّ

هجرة الحبشة

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما كان ينالهم من التعذيب والإهانة ـ وقد ذكرتُ لك ذَرْواً منه آنفاً ـ وأنه لا يقدر على أن يمنع عنهم ما يصيبهم قال لهم:

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صِدْق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة فراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، وقد روى الواقدي أن خروجهم إليها كان في رجب سنة خمس من البعثة.

فكان أول من خرج عثمان بن عفان ومعه زوجه رقية بنت رسول الله، ولما بلغ رسول الله ذلك قال: «صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام».

ثم خرج أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل بن عمرو، فولدت له بالحبشة محمد بن أبي حذيفة، وخرج الزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو سَلَمة بن عبدالأسد المخزومي وزوجه أم سَلَمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، وولدت له بها زينب، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب وزوجه ليلى بنت أبي حَثْمة، وأبو سَبْرة بن أبي رهم، ويقال: بل أبو حاطب بن عمرو،

ابن عبد شمس، بن عبد ود، بن مالك، بن حسل، بن عامر، بن لؤي، ويقال: إنه أول من قدمها، وسهيل بن بيضاء، فكانوا عشرة رجال، وأربع نسوة، وقيل: وخمس نسوة بزيادة أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو زوج أبـي سبرة[1].

ثم خرجوا ما بين ماش وراكب حتى انتهوا إلى البحر، فاستأجروا سفينة حملتهم إلى الحبشة بنصف دينار، وخرجت قريش في آثارهم فلم يدركوا منهم أحداً.

ويقال: إن قريشاً أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا وتحف إلى النجاشي ليردهم إلى قومهم فأبـى، وردهما خائبين. وأما بعد هجرة الحبشة الثانية فقد أرسلت عَمراً وعبدالله بن أبي ربيعة، والمحققون على أن الإرسال إنما كان بعد الهجرة الثانية وهو الصحيح[2]، فقد كان المتكلم عن المهاجرين جعفر بن أبـي طالب، والصحيح أنه لم يهاجر إلا في الثانية، وسنذكر ــ إن شاء الله تعالى ــ ما كان من رسولَيْ قريش، وما كان من سيدنا جعفر بين يدي النجاشي في موضعه.

* * *

(١) السيرة، ج ١ ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣؛ شرح المواهب، ج ١ ص ٣٢٦.
(٢) شرح المواهب، ج ١ ص ٣٢٧، ٣٢٨.

إسلام عمر بن الخطاب[1]

هو عمر بن الخطاب، بن نُفَيل، بن عبد العزّى، بن رياح، بن عبدالله، ابن قرط، بن رزاح[2]، بن عدي، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، يجتمع مع النبي ﷺ في كعب، وأمه حنتمة بنت هاشم[3] بن المغيرة، ابنة عم أبي جهل وأخيه الحارث بن هشام.

وكان عمر في جاهليته من أشد الناس إيذاءً للمسلمين، وكان رسول الله ﷺ يرى أن في إسلامه أو إسلام أبي جهل كسباً كبيراً للإسلام والمسلمين، فلذلك كان يدعو الله أن يهدي أي الرجلين إلى الإسلام. روى الترمذي وغيره عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «اللهمَّ أعزَّ الإسلام بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب» ورواه أحمد والترمذي وابن سعد وغيرهم عن ابن عمر عن النبي ﷺ بلفظ: «اللهم أعزّ الإسلام بأحب الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب» وقد استجاب الله الدعاء، فكان أحب الرجلين عمر بن الخطاب.

بين يدي إسلام عمر

وقد سبقت إسلام عمر مبشرات كانت تشير إلى أن الرجل يفكر في الإسلام، وأن مآله سيكون إليه، فقد روى ابن إسحاق عن أم عبدالله بنت أبي حَثْمة زوج الصحابي الجليل عامر بن ربيعة، قالت: إنا لنترحل إلى أرض

(١) اختلفت الروايات في وقت إسلامه، فقال ابن إسحاق: أسلم عقب الهجرة الأولى إلى الحبشة، فعلى هذا يكون سنة خمس من المبعث، وقيل: سنة ست في ذي الحجة.

(٢) رياح بكسر الراء والتحتانية، وقيل بكسر وموحدة، قرط: بضمّ القاف وإسكان الراء، رزاح: بفتح الراء والزاي، وقيل بكسر الراء.

(٣) وقع في بعض الكتب هشام وهو تصحيف كما نبه عليه ابن عبدالبر وغيره.

الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركه، قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا، فقال: إنَّه للانطلاق يا أم عبدالله؟ قالت: فقلت: نعم، والله لنخرجنَّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً ومخرجاً، فقال: صحبكم الله!

قالت: ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف، وقد أحزنه فيما أرى خروجنا. قالت: فجاء عامر، فقلت له: يا أبا عبدالله، لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا، قال: أطمعتِ في إسلامه؟ قالت: نعم، فقال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب!! وذلك لما كان يرى من غلظته وقسوته.

سماعه للقرآن

وقد كان للقرآن الكريم، وإعجازه، وأسلوبه، وحسن تأليفه، وإحكام معناه أكبر الأثر في إسلامه، ومثل عمر في ذوقه الأدبي، وعلمه باللغة وأساليبها، وتذوقه للجيد من الكلام ممن تأسره بلاغة القرآن وأسرار الإعجاز، روى الإمام أحمد في مسنده عن عمر قال: خرجت أتعرَّض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن!! فقلت: هو شاعر كما قالت قريش[1]، فقرأ:

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

فقلت: كاهن علم ما في نفسي، فقرأ:

﴿ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ . . . ﴾.

إلى آخر السورة، قال عمر: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع[2].

كما تذكر بعض الروايات أنه جاء ذات يوم يريد جلساءه فلم يجد أحداً، فقال: لو أني ذهبت إلى فلان الخمار لعلي أجد عنده خمراً فأشرب، فلم يجده،

(١) تأمل لترى أنه قال ذلك متابعة لا عن يقين وعلم من نفسه.
(٢) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ٨ ص ٤٧٢.

ثم قال: لو أني جئت الكعبة فطفت بالبيت سبعاً، فذهب يطوف، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي فقال: لو أني استمعت إلى محمد الليلة حتى أسمع ما يقول، فاستخفى وراء ستر الكعبة، وما زال يتحرك من وراء الكسوة حتى صار قريباً من النبي قبل قبلته ما يواريه إلا ثياب الكعبة، قال: فلما سمعت القرآن رقَّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني هذا حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف[1].

إسلام أخته فاطمة وزوجها

وكانت أخته فاطمة بنت الخطاب قد سبقته إلى الإسلام هي وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وهو ابن ابن عمها، وكانا يخفيان إسلامهما، وكان خبَّاب بن الأرت من قدماء المسلمين يختلف إلى فاطمة وزوجها يقرئهما القرآن.

قصده رسول الله لقتله

وفي ثورة من ثورات النفس المضطربة، المتحيرة، الناقمة على من يخالفها خرج عمر يوماً متوشحاً سيفه، يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، منهم الصدِّيق، وعلي، وحمزة في آخرين آثروا المقام مع رسول الله، ولم يخرجوا إلى الحبشة، فلقيه نُعَيم بن عبدالله النحَّام من بني عدي بن كعب، وكان يخفي إسلامه، فقال: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمداً هذا الصابىء الذي فرَّق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله!!

فقال له نعيم: لقد غرَّتك نفسك يا عمر!! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال خَتَنك، وابن عمك سعيد بن زيد[2]، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد ــ والله ــ أسلما.

فرجع عمر عامداً إلى أخته وزوجها، وعندهما خباب بن الأرت معه

---

(١) السيرة، ج ١ ص ٣٤٧.

(٢) الخَتَن زوج البنت أو الأخت، وهو ابن ابن عمه، ففي قوله وابن عمك تجوز.

صحيفة فيها صدر سورة (طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا صوت عمر اختفى خباب في البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة، فوضعتها تحت فخذها، وكان عمر قد سمع حينما قرب من البيت قراءة خباب عليهما، فقال: ما هذه الهينمة[1] التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً. قال: بلى ــ والله ــ لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد وبرك عليه، فقامت أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها حتى سال منها الدم، فلما فعل ذلك قالا له: نعم قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك!!

من لحظات التجلِّي الإلهي

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، وارعوى، وأدركته لحظة من لحظات التجلِّي الإلهي على خلقه فخشع قلبه، وسكنت جوارحه، وهدأت نفسه، وتحوَّلت العرامة والشراسة إلى هدوء وسكينة، فقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأونها آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ــ وكان عمر قارئاً كاتباً ــ فلما قال ذلك قالت له أخته: إنما نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها ليردَّنها إليها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها:

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ [2]﴾

ويروى أنه قال: لما قرأت «بسم الله الرحمن الرحيم» ذُعرت، ورميت بالصحيفة من يدي، ثم رجعت إلي نفسي فأخذت الصحيفة، وأنه كلما مر باسم من أسماء الله ذعر!!

---

(١) صوت الكلام الذي لا يتبين.

(٢) صدر سورة طه، ويروى أنه كان بالصحيفة أيضاً صدر سورة الحديد، وسورة التكوير.

فلما قرأ صدراً منها حتى بلغ قوله تعالى:

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ ﴾.

فقال: ما ينبغي لمن يقول هذا الكلام أن يعبد معه غيره، ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!!

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر ــ والله ــ إني لأرجو أن يكون الله خصَّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب» فالله الله يا عمر، فقال له: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خَلَل(١) الباب، فرآه متوشحاً السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبدالمطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله ﷺ: «ائذن له» فأذن له الرجل، ونهض له رسول الله حتى لقيه، فأخذ بمجامع حُجْزته(٢)، أو بمجمع ردائه، ثم جَبَذه(٣) به جبذة ارتعد منها عمر وجلس، وفي رواية: فما تمالك أن وقع على ركبتيه(٤)، وقال له: «ما جاء بك يا ابن الخطاب»؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة»(٥) فقال عمر: يا رسول الله جئت لأؤمن بالله ورسوله، وبما جاء من عند

---

(١) شق الباب.

(٢) موضع شد الإزار.

(٣) جذبه.

(٤) هذا يدل على ما كان يمتاز به رسول الله ﷺ من القوة البدنية، وعظمة الشخصية، فضلاً عن القوة العقلية والنفسية.

(٥) داهية.

الله، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم، وكبر المسلمون تكبيرة علم منها أهل مكة أن عمر قد أسلم[1].

استعلان المسلمين بدينهم

ولما أسلم عمر قال: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم، وإن حييتم» فقلت: ففيم الخفاء يا رسول الله، علام نخفي ديننا ونحن على الحق، وهم على الباطل؟! فقال: «يا عمر إنا قليل، قد رأيت ما لقينا» فقال: والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان.

ثم خرج النبي ﷺ هو والمسلمون في صفين: عمر في أحدهما، وحمزة في الآخر، قال حتى دخلنا المسجد الحرام، فنظرت قريش إلينا، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها قط، فسماه رسول الله ﷺ يومئذ (الفاروق) لأنه فرق بين الحق والباطل.

عزَّة المسلمين

وبإسلام عمر ــ رضي الله عنه ــ عز الإسلام والمسلمون، وصاروا يغشَون الكعبة ويطوفون حولها، ويصلُّون لا يخافون قريشاً. روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن مسعود قال: «ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمر بن الخطاب»[2] وروى زياد البكّائي بسنده عن عبدالله بن مسعود قال: «إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر[3]، فلما أسلم قاتل حتى صلّى عند الكعبة وصلَّينا معه».

---

(١) السيرة، ج ١ ص ٣٤٢ ــ ٣٥٠؛ شرح المواهب، ج ١ ص ٣٢٨ ــ ٣٣٢.
(٢) صحيح البخاري ــ باب إسلام عمر.
(٣) يريد الضعفاء منهم، وإلا فقد كان رسول الله، وأبو بكر، وحمزة، وأمثالهم يصلون عند الكعبة على ما كان ينالهم.

إخباره لأبي جهل بإسلامه

ولما أسلم عمر فكر فيمن هو أشد أهل مكة عداوة لرسول الله ﷺ، فرأى ذلك أبا جهل، قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه، قال: فخرج إلي أبو جهل فقال: مرحباً وأهلاً بابن أختي[1]، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدَّقت بما جاء به، قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبَّحك الله وقبَّح ما جئت به.

تحدي عمر لقريش

وأراد عمر أن يفي بما وعد رسول الله ﷺ من أنه لا يبقى مجلس جلس فيه بالكفر إلا جلس فيه بالإيمان، وأن يناله في الله ما نال المسلمين، فسأل: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن مَعْمر الجمحي، فغدا عليه وغدا ابنه عبدالله بن عمر وراءه، وهو غلام يعقل كل ما يرى لينظر ما يفعل، حتي جاءه، فقال له: أعلمتَ يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟! قال ابن عمر: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتَّبعه عمر، واتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش ــ وهم في أنديتهم حول الكعبة ــ ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ!! وعمر من خلفه يقول: كذب، ولكني أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، ونال منه الإعياء فقعد، وأقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، وأحلف بالله لو قد كنَّا ثلاثمائة رجل تركناها لكم، أو تركتموها لنا.

إجارة العاص بن وائل السهمي له

وقد عزَّ على قريش أن يجاهرها عمر بالإسلام، ويغشى نواديهم متحدياً،

---

(١) أم عمر هي ابنة عم أبي جهل، لأنها حنتمة بنت هاشم، وهو عمرو بن هشام، لا أخته كما زعم ابن إسحاق (السيرة ج ١ ص ٣٥٠). ولعل الوهم جاء من تسميته بابن أخته، والعرب قد يطلقون على بنت العم أختاً، وعلى ابنها ابن الأخت، ولا يزال هذا العرف جارياً عندنا بمصر.

فاجتمعوا إلى داره من كل صوب يريدون قتله، حتى أجاره العاص بن وائل السهمي، روى البخاري في صحيحه بسنده عن عبدالله بن عمر، قال: «بينما هو ـ أي عمر ـ في الدار خائف، إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو، وعليه حلة حِبَر[1]، وقميص مكفوف بالحرير، وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية، فقال: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني أن أسلمت!! قال: لا سبيل إليك، بعد أن أمنت[2]، فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟! قالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ، قال: لا سبيل إليه، فكرَّ الناس ـ وفي رواية أخرى ـ قال: فأنا له جار، فرأيت الناس تصدَّعوا عنه، فقلت[3] من هذا؟ قالوا العاص بن وائل السهمي، فعجبت من عزته».

* * *

(١) جمع حِبَرة: بُرْد مخطط موشىً من التحبير وهو التزيين.

(٢) يعني بعد أن قالها أمنت.

(٣) القائل هو عبدالله بن عمر.

الصحيفة الظالمة

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد كثروا وعزُّوا بعد إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما، وأن المهاجرين إلى الحبشة قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، ورأوا الإسلام يفشو في القبائل أجمعوا على أن يقتلوا النبي ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب، فأمرهم فأدخلوا رسول الله ﷺ شِعْبهم: شِعْب بني هاشم[1]، ومنعوه ممن أرادوا قتله، فأجابوه لذلك حتى كفارهم، فعلوا ذلك حمية للرحم والقرابة على عادة أهل الجاهلية في ذلك، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا أبو لهب بن عبدالمطلب، فقد انحاز إلى قريش وظاهرهم.

فلما رأت قريش ذلك وأجمعوا أمرهم، وائتمروا فيما بينهم على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم والمطَّلب: أن لا ينكحوا إليهم[2]، ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوا منهم شيئاً، ولا يبتاعوا، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً حتى يسلموا رسول الله ﷺ إليهم ليقتلوه. وكتبوه في صحيفة بخط منصور ابن عكرمة في رواية ابن إسحاق، وقال ابن سعد: بخط بغيض بن عامر، وقال ابن هشام: بخط النضر بن الحارث، فدعا رسول الله ﷺ على كاتبها، فشلَّت يمينه، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبع من النبوة.

---

(١) ويعرف بشعب ابن يوسف، والشِعْب: الطريق في الجبل، وما انفرج بين جبلين.

(٢) يعني لا يتزوجوا منهم.

الواصلون لبني هاشم

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سراً مستخفياً ممّن أراد صلتهم من قريش، وكان ممن يصلهم حكيم بن حزام ابن أخي السيدة خديجة رضي الله عنها، وهشام بن عمرو العامري وكان أوصلهم لبني هاشم، وذلك أنه ابن أخي نَضْلة بن هاشم بن عبدمناف لأمه، ولذلك كان هشام لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه، فكان يأتي بالبعير وبنو هاشم وبنو المطّلب في الشعب ليلاً، قد أوقره طعاماً، حتى إذا بلغ فم الشعب خلع خطامه من رأسه، ثم يضرب على جنبيه، ثم يأتي به قد أوقر براً فيفعل به مثل ذلك.

بين حكيم وأبي جهل

وفي ذات يوم كان حكيم بن حزام معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته السيدة خديجة رضي الله عنها، وهي عند رسول الله ﷺ ومعه في الشعب، فقابله أبو جهل فتعلّق به، وقال له: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟! فوالله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فاتفق مجيء أبي البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فقال لأبي جهل: مالك وله؟!

فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم!! فقال له أبو البختري: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟! خلِّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من الآخر، فأخذ أبو البختري لِحْي[1] بعير فضربه به فشجّه، ووطئه وطئاً شديداً، وحمزة بن عبدالمطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، فيشمتوا بهم، ومع كل هذا فقد كان رسول الله ﷺ يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهراً، لا يتقي في ذلك أحداً من الناس.

رجوع مهاجري الحبشة

وقد كان لما أسلم عمر وأعزّ الله به الإسلام، وتمكن المسلمون من أداء

---

(١) اللحي بكسر اللام عظم الفك.

صلاتهم بالمسجد الحرام حصلت مهادنة بين قريش والمسلمين، ثم لم تلبث قريش أن جن جنونها لما رأت تزايد المسلمين كل يوم وثباتهم على دينهم وعقيدتهم، فعادت إلى ما كانت أولاً من ابتلاء للمسلمين وتعذيبهم.

وكان نُمي إلى المسلمين بالحبشة خبر هذه المهادنة، كما بلغهم إسلام عمر رضي الله تعالى عنه، هذا إلى أنه كانت قد قامت ثورة ضد النجاشي في ملكه[1]، فخشي المسلمون أن يصاب بهزيمة، وربما يأتي ملك لا يعرف للمسلمين حقهم كما كان النجاشي أصحمة يعرف ذلك.

لذلك رأى مهاجرة الحبشة، أو معظمهم الرجوع إلى موطنهم «مكة»[2]، فلما وصلوا وجدوا الأمر على غير ما سمعوا، وأن البلاء ما زال قائماً، بل وعادت الفتنة إلى أشد مما كانت، فدخل من دخل منهم مكة بجوار أو مستخفياً، ومنهم من عاد من حيث أتى.

من دخل في جِوار

وكان ممن دخل في جوار عثمانُ بن مظعون رضي الله تعالى عنه، فقد دخل في جوار الوليد بن المغيرة، ولما رأى عثمان ما فيه أصحاب رسول الله من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان الوليد تألَّم وأسف، ولم يسعه ضميره أن يعيش آمناً في جوار رجل مشرك وأهل دينه يلقَون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبه، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبدشمس، وفَّت ذمتك قد رددتُ إليك جوارك، قال له: لم يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟ قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره.

قال: فانطلق إلى المسجد فارْدُدْ إليّ جواري علانية كما أجرتك علانية،

---

(١) انظر أخبار هذه الثورة وما جرى فيها من حروب في السيرة لابن هشام جزء ١ من ص ٣٢٨ ــ ٣٤١.

(٢) قيل: كان ذلك في شوال سنة خمس من النبوة، وقيل كان في السنة السادسة، وذلك على حسب الخلاف في إسلام سيدنا عمر، فإن الراجح أن إسلامه كان من الأسباب القوية لعودتهم.

فانطلقا حتى أتيا المسجد الحرام، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يردُّ عليّ جواري. قال: صدق. قد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره.

ثم انصرف عثمان إلى مجلس من قريش ينشدهم فيه لبيد بن ربيعة الشاعر، فقال لبيد[1]: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» فقال عثمان: صدقت، قال لبيد: «وكل نعيم لا محالة زائل» قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، فقال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذَى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا تجدنَّ في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان، فقام إليه هذا الرجل السفيه فلطم عينه فخضَّرها[2].

وكان الوليد قريباً منهما فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية!! لقد كنت في ذمة منيعة، فقال عثمان: والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله!! فقال له الوليد: هلمّ فعد إلى جوارك إن شئت، فقال: لا، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبدشمس.

أبو سلمة بن عبدالأسد

ودخل أبو سلمة بن عبدالأسد رضي الله عنه في جوار خاله أبي طالب، فسعى إليه جماعة من بني مخزوم فقالوا له: يا أبا طالب لقد منعتَ ابن أخيك محمداً، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا؟ قال: إنه استجار بي وهو ابن أختي، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي، فقام أبو لهب غاضباً وقال: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على الشيخ، ما تزالون تتواثبون عليه في

---

(١) هو لبيد بن ربيعة، بن عامر، بن مالك، بن جعفر، بن كلاب، يكنى أبا عقيل، وقد أسلم، وذكره في الصحابة البخاري وابن أبي خيثمة وغيرهما، ولما سأله سيدنا عمر عما قاله من الشعر في الجاهلية قال: قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة، ثم سكن الكوفة ومات بها في خلافة عثمان، وعاش ١٢٠ سنة، وقيل: أكثر؛ وهو القائل:

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس: كيف لبيد

(٢) أي سوَّدها من شدة الضربة.

جواره من بين قومه!! والله لتنتهن عنه، أو لنقومنَّ معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد!! قالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ـ وكان لهم ولياً مناصراً على رسول الله ـ فأبقَوا على ذلك، فلما سمع أبو طالب منه ذلك طمع فيه، ورجا أن يقوم معه في شأن رسول الله ﷺ، وقال قصيدة يحرِّض فيها أبا لهب على نصرته، ونصرة النبي مطلعها:

إنَّ امرءاً أبو عتيبة عمه ... لفي روضة ما إن يسام المظالما

ومنها:

ولا تقبلنَّ الدهر ما عشت خطة ... تُسَبُّ بها إما هبطت المواسما

وولِّ سبيل العجز غيرك منهم ... فإنك لم تخلق على العجز لازما

وحارب فإن الحرب نصف ولن ترى ... أخا الحرب يعطي الخَسْف حتى يسالما

ولكنه لم يستجب لأخيه الشيخ أبي طالب، وسار في ركب قريش.

* * *

(١) السيرة ج ١ ص ٣٧١.

قصة الغرانيق

وقد ذكر بعض كتاب السيرة وبعض المفسرين ـ الذين لا تحقيق عندهم للروايات، ولا يعنون بالتمييز بين الصحيح والضعيف، والغث من السمين عنايتهم بحشد الروايات والإكثار منها ـ في سبب رجوع مهاجري الحبشة قصة باطلة مختلقة تعرف بقصة الغرانيق، وأنه نزل بسببها قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ... ﴾ الآيات[1].

وقد انتصر لهذه القصة وطبَّل لها وزمَّر «السير موير» وغيره من المبشرين والمستشرقين، وإليك ما روي في هذا قال الحافظ ابن حجر وتبعه السيوطي: أخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عن شُعبة عن أبي بِشر، عن سعيد بن جبير قال: قرأ النبي ﷺ بمكة «والنجم»، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللاَّت والعزَّى. ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان على لسانه «تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى» فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجدوا وسجد، فنزلت «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته..» الآية وأخرجه البزار

(١) الآيات ٥٢ ـ ٥٤ من سورة الحج.

وابن مردويه من طريق آخر عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ــ فيما أحسب[1].

وقال البزار لا يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد، وبعد أن ذكر الحافظ من خرَّج هذه القصة ومنهم ابن إسحاق في سيرته عن محمد بن كعب، وموسى بن عقبة عن ابن شهاب... قال: وكلها إما ضعيفة أو منقطعة سوى طريق سعيد بن جبير الأولى. وهذا الطريق وطريقان آخران مرسلان أخرجهما ابن جرير هي معتمد القائلين بأن للقصة أصلاً كابن حجر والسيوطي[2].

بطلان القصة من جهة النقل والعقل

وهذه القصة باطلة نقلاً وعقلاً.

أما نقلاً فقد طعن فيها كثيرون من المحدثين ومن المحققين الذين جمعوا بين المعقول والمنقول. قال الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة[3] ــ وقد سئل عن هذه القصة ــ: إنها من وضع الزنادقة، وصنف في ذلك كتاباً، وقال الإمام البيهقي ــ وهو من كبار رجالات السنة، وصاحب السنن الكبرى ــ: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل.

وقال الإمام القاضي عياض في الشفا: «إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم، ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية.. إلى آخر ما قال[4].

---

(١) أي أظن، والشك في وصل الحديث عن ابن عباس، وهو يقلِّل الثقة بالرواية.

(٢) فتح الباري ج ٨ ص ٣٥٤، ٣٥٥؛ أسباب النزول للسيوطي على هامش الجلالين ج ٢ ص ١٥، ١٦ ط الحلبي.

(٣) كان يقال له: إمام الأئمة في الحديث توفي سنة ٣١١.

(٤) الشفا ج ٢ ص ١١٧ وما بعدها ط عثمانية.

وكذا أنكر القصة القاضي أبو بكر بن العربي، وطعن فيها من جهة النقل وأنكرها أيضاً الإمام أبو منصور الماتريدي حيث قال: (الصواب أن قوله «تلك الغرانيق العلا» من جملة إيحاء الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة، حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين ليرتابوا في صحة الدين).

وقال الحافظ المفسر ابن كثير في تفسيره: قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم[1].

اضطراب الرواية

ومما يقلل الثقة بالقصة المزعومة اضطراب الروايات اضطراباً فاحشاً، فقائل يقول: كان خارج الصلاة، ومن قائل: إنه كان في الصلاة، وآخر يقول: بل حدَّث نفسه فسها، ومن قائل: إن الشيطان قالها على لسان النبي، ومن قائل: أعلمهم الشيطان أن النبي قرأها، ومن قائل: إن النبي قال هذا وهو ناعس، ومن قائل: إن الشيطان انتهز سكتة من سكتات النبي في القراءة فقرأها حاكياً صوت النبي. كما رويت «تلك الغرانيق العلا» بألفاظ مختلفة، وليس من شك في أن الاضطراب مما يذهب الثقة بالرواية ويوهنها كما هو مقرر في علم «أصول الحديث» والحق أبلج، والباطل لجلج.

القصة لم يخرجها أصحاب الكتب الصحاح

والقصة لم يخرجها أحد من أصحاب الصحاح ولا أحد من أصحاب الكتب المعتمدة كالسنن الأربعة ومسند الإمام أحمد، والذي رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ قرأ النجم وهو بمكة، فسجد معه المسلمون والمشركون، والجن، والإنس».

وفي رواية ابن مسعود «أول سورة أنزلت فيها سجدة «والنجم» قال:

(١) تفسير ابن كثير والبغوي ج ٦ ص ٦٠٠ وما بعدها.

فسجد رسول الله ﷺ، وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً»[1]، فقد اقتصر البخاري على هذا الجزء الصحيح من القصة، وهو لا يدل على ما زادوه، أما سجود المسلمين فاتِّباعاً لأمر الله، وائتساء برسول الله، وأما سجود المشركين؛ فلما سمعوه من أسرار البلاغة الفائقة، والفصاحة البالغة، وعيون الكلم الجوامع لأنواع من الوعيد والإنكار، والتهديد والإنذار، وقد كان العربي يسمع القرآن فيخر له ساجداً، وقد حدثناك عن بعض آثار القرآن في نفوس المنكرين فضلاً عن المصدقين، هذا إلى ما فيه من موافقة الجماعة، والشخص إذا كان في جماعة يندفع إلى موافقتها من غير ما شعور، وقد يكون الأمر على خلاف ما يهوى ويريد، كما تدل على ذلك قواعد علم النفس.

اللغة تنكر القصة أيضاً

ومما يدل على افتعال القصة أيضاً ما ذكره الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في رد هذه الفرية: وهو أن وصف العرب لآلهتهم «بالغرانيق» لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم إلا ما جاء في «معجم ياقوت» من غير سند، ولا معروف بطريق صحيح، والذي تعرفه اللغة أن الغُرْنوق، والغِرْنوق، والغُرْنيق، والغِرْنيق اسم لطائر مائي أسود أو أبيض، ومن معانيه الشاب الأبيض الجميل، ويطلق على غير ذلك[2]، ولا شيء من معانيه اللغوية يلائم معنى الإلهية والأصنام حتى يطلق عليهما في فصيح الكلام الذي يُعرض على أمراء الفصاحة والبيان.

تأويل المثبتين للقصة لها

وقد حَكَمت الصنعة الحديثية والقواعد الاصطلاحية على بعض العلماء كالحافظ ابن حجر ومن تبعه كالسيوطي وغيره على أن يقول إن القصة، وإن لم تكن كل طرقها صحيحة، لكن كثرة الطرق تدل على أن لها أصلاً، وأوَّلوها

---

(١) صحيح البخاري ــ كتاب التفسير ــ باب سورة «والنجم».

(٢) انظر القاموس مادة «غرنوق».

بما يتفق هو وعصمة النبـي ﷺ، إذ الكل مجمعون على أن ذلك لا يجوز أن يجري على لسان النبـي لا عمداً ولا سهواً، وقد نقل الحافظ ابن حجر في ذلك وجوهاً من التأويلات، ذكر معظمها وردَّها كما ردَّها من سبقه، ولم يرتض منها إلا هذا التأويل: وهو أن النبـي ﷺ كان يرتل القرآن ترتيلاً، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات، ونطق بتلك الكلمات محاكياً نغمته، فسمعها من دنا، فظنه من قوله، وأشاعها بين الناس قال: وهو الذي ارتضاه عياض وأبو بكر بن العربـي واستحسناه[1].

وفي الحق أن الإمامين عياضاً وابن العربـي ينكران القصة نقلاً وعقلاً، وإنما ارتضيا هذا التأويل على فرض تسليم الصحة، وهو لون من ألوان الحجاج والتنزل مع الخصم، ومن ثم نرى أنه لا يوجد من علماء الإسلام من يقول بظاهر القصة، وأن القائلين بأن لها أصلاً أوّلوها بما يوافق مقام النبوة.

ردّي على المثبتين للقصة

وإني لأجيب على ما ذكره الحافظ ابن حجر في «الفتح» وتابعه عليه السيوطي وغيره بما يأتي:

١ ــ إن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل، وجعلوه من قسم الضعيف لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابـي، وحينئذ يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة، وعلى الثاني فلا يؤمن أن يكون كذاباً، وقد قرر الإمام مسلم هذه الحقيقة في مقدمة صحيحه فقال: «والمرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة» وقال ابن الصلاح في مقدمته: «وما ذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه هو الذي استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث وتداولوه في تصانيفهم، والاحتجاج به مذهب مالك وأبـي حنيفة وأصحابهما ــ رحمهم الله ــ في طائفة[2]، أما الشافعي فيحتج به بشروط ذكرها في رسالته، وقد نقلها العراقي في شرح ألفيته وغيره.

---

(١) فتح الباري ج ٨ ص ٣٥٥.

(٢) مقدمة ابن الصلاح، ص ٥٨، ط العلمية بحلب.

٢ ـ الاحتجاج بالمرسل إنما هو في فروع الدين التي يكتفى فيها بالظن، أما الاحتجاج به على شيء يصادم العقيدة وينافي دليل العصمة فغير مسلَّم، وقد قال علماء التوحيد: إن خبر الواحد لو كان صحيحاً لا يؤخذ به في العقائد لأنه لا يكتفى فيها إلا بما يفيد اليقين، فما بالك بالضعيف أو المختلف فيه.

٣ ـ هذا التأويل الذي ارتضاه الحافظ وغيره ممن تابعه قديماً وحديثاً ما أضعفه عند النظر والتأمل، فهو يوقع القائل به فيما فرَّ منه، وهو تسلط الشيطان على النبـي، فالتسلط عليه بالمحاكاة، كالتسلط عليه بالإجراء على لسانه كلاهما لا يجوز، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات الإلهية.

وإذا سلَّمنا أن الشيطان هو الذي نطق بهذا المنكر من القول في أثناء سكوت النبـي فكيف لم يسمع ما حكاه الشيطان؟! وإذا كان سمعه فلِمَ لمْ يبادر إلى الإنكار، والبيان في مثل هذا واجب على الفور؟!

وإذا لم يسمع النبـي ألم يسمع أصحابه؟ وإذا سمعوا فلـم لم يبادروا إلى تنبيه الرسول؟! وأهون من هذا في الإبطال وأشد في الاستغراب مـا ذكره موسى بن عقبة في مغازيه من أن المسلمين ما سمعوها، وإنما ألقى الشيطان بهذه المقالة في أسماع المشركين!! فهل كان الشيطان يسر بها في آذان المشركين دون المسلمين؟ ثم كيف يتفق هذا الذي اختاروه وما روي من أن النبـي حزن حزناً شديداً، وأن جبريل قال له: ما جئتك بهذا؟!

الحق أن نسج القصة مهما تأول فيه المتأولون وحاولوا إثبات أن لها أصلاً مهلهل متداع لا يثبت أمام البحث، وأن أغلب البلاء دخل على الإسلام من المنقطعات والمراسيل.

مصادمة القصة للقرآن

ثم إن هذه القصة الباطلة مخالفة لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَـاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

---

(١) الآية ٤٢ من سورة الحجر.

ومن أحق بهذه العبودية من الأنبياء بَلْه رسول الله، وقال تعالى:

﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[1].

وأي بشر أصدق إيماناً وأشد توكلاً على الله من الأنبياء ولا سيما خاتمهم ﷺ، وقد أقر رئيس الشياطين بأنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين، فقال كما حكاه الله عنه في قوله عز وجل:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2].

ومن أحق من الأنبياء بالاصطفاء؟ أو من أشد إخلاصاً منهم لله؟ ونبينا محمد على رأس المصطفين الأخيار، وفي الذروة منهم إخلاصاً لله.

فهؤلاء الزنادقة الحاقدون على الإسلام ونبيه نسبوا إلى الشيطان ما أقر هو بأنه لا قبل له به، ووضعوا هذه الروايات الباطلة التي تصادم نص القرآن الذي لا ريب فيه.

بطلان القصة من جهة العقل والنظر

وأما بطلان القصة من جهة العقل والنظر فقد قام الدليل العقلي القطعي وأجمعت الأمة على عصمته عليه الصلاة والسلام من مثل هذا، وكل ما جاءت به الروايات الباطلة ممتنع في حقه أن يقوله من قبل نفسه عمداً أو سهواً، وهو في اليقظة أو هو وسنان لمكان العصمة منه، قال القاضي عياض: «وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمداً ولا سهواً، أو أن يتشبَّه عليه ما يلقيه الملك بما يلقيه الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقوَّل على الله لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه قال الله تعالى:

---

(١) الآية ٩٩ من سورة النحل.

(٢) الآيتان ٨٢، ٨٣ من سورة ص. وقد قرىء «المخلصين» بفتح اللام بمعنى استخلصهم واصطفاهم لنفسه، وبكسر اللام أي أخلصوا لله العبادة والتوحيد وهما قراءتان سبعيتان.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾(٣)

ولو جوَّزنا شيئاً من ذلك لذهبت الثقة بالأنبياء، ووجد المارقون سبيلاً للتشكيك في الأديان. ووجه آخر لفساد هذه القصة وهو أن الله تعالى ذم الأصنام في سورة النجم، وأنكر على عابديها وجعلها أسماء لا مسمى لها، وأن التمسك بعبادتها أوهام وظنون قال تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾(٤).

فقد جاءت الآيات على هذا الأسلوب الإنكاري، التوبيخي، التهكمي بالأصنام وعابديها، وقال بعد الموضع الذي زعموا أنه ذكرت فيه الفِرْيَة:

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فلو أن القصة صحيحة لما كان هناك تناسب بينها وبين ما قبلها

---

(١) الوتين: عرق متصل بالقلب إذا قطع مات الإنسان.

(٢) الآيات ٤٤ ـ ٤٧ من سورة الحاقة.

(٣) كتاب الشفا، ج ٢ ص ١١٩، والآية ٧٥ من سورة الإسراء.

(٤) أي جائرة في منطق العقل السليم والنقل الصحيح، وقد جاء اللفظ هكذا خارجاً عن المعهود في الفصحى ولا سيما الكتاب المعجز ليحصل التطابق بين اللفظ والمعنى، وهو من خصائص العربية.

وما بعدها، ولكان النظم مفككاً، والكلام متناقضاً، وكيف يطمئن إلى هذا التناقض السامعون وهم أهل اللَّسَن والفصاحة، وأصحاب عقول لا يخفى عليها مثل هذا، ولا سيما أعداؤه الذين يتلمسون له العثرات والزلات، فلو أن ما روي كان واقعاً لشغب عليه المعادون له، ولارتد الضعفاء من المؤمنين، ولثارت ثائرة مكة، ولاتخذ منه اليهود بعد الهجرة متكأ يستندون إليه في الطعن على النبي ﷺ والتشكيك في عصمته، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن.

ووجه ثالث: وهو أن بعض الروايات ذكرت أن فيها نزل قوله تعالى:

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾[1].

وهاتان الآيتان تردَّان الخبر الذي رووْه لأن الله ذكر أنهم كادوا يفتنونه، ولولا أن ثبَّته لكاد أن يركن إليهم، ومفاده أن الفتنة لم تقع وأن الله عصمه وثبته حتى لم يكد يركن إليهم، فقد انتفى قرب الركون فضلاً عن الركون، فالأسلوب القرآني جاء على أبلغ ما يكون في تنزيه ساحته ﷺ عن ذلك، وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون، بل افترى بمدح آلهتهم، وهذا ينافي ما تدل عليه الآية، وهو توهين للخبر لو صح، فكيف ولا صحة له؟ ولقد طالبته ﷺ ثقيف وقريش إذا مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها، ووعدوه الإيمان به إن فعل، فما فعل، وما كان ليفعل.

وإذا كانت القصة غير ثابتة من جهة النقل، وهي مخالفة للقرآن، ولما قام عليه الدليل العقلي، فلا جرم أن التحقيق يدعونا إلى أن نصدع بأن حديث الغرانيق مكذوب اختلقه الزنادقة الذين يريدون إفساد الدين، والطعن في سيد الأنبياء وإمام المخلصين.

---

(١) الآيتان ٧٣، ٧٤ من سورة الإسراء.

وإذ قد انتهينا إلى هذه النتيجة الممحَّصة فما معنى آية الحج إذاً؟ وللإجابة على ذلك أقول:

إن للآية تفسيرين: الأول: أن التمني المذكور في الآية المراد به تشهِّي حصول الأمر المرغوب فيه، ومن هذا المعنى: الأمنية، وما من نبي أو رسول إلا وغاية مقصوده، وجل أمانيه أن يؤمن قومه، وكان نبينا ﷺ من ذلك في المقام الأعلى، قال تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾[1].

وَقَالَ:

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴿٨﴾ ﴾[2].

وَقَالَ:

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[3].

وعلى هذا يكون معنى الآية: وما أرسلنا من قبلك رسولاً بشرع جديد كإبراهيم وموسى وعيسى، أو نبياً جاء مجدداً لشرع جاء به رسول الله قبله كأنبياء بني إسرائيل الذين جاؤوا بعد موسى، مثل يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا وحزقيل، إلا إذا تمنى هداية قومه وإيمانهم ألقى الشيطان في سبيل أمنيته هذه العقبات، ووسوس في صدور الناس، فثاروا في وجهه وجادلوه حيناً، وحاربوه حيناً آخر، حتى إذا ما أراد الله هدايتهم أزال تلك الوساوس التي ألقاها الشيطان في نفوسهم ووفقهم لإدراك الحق وإجابة داعي الله، وبذلك ينسخ الله ما ألقى الشيطان من الشبهات والعقبات، ويحكم آياته بنصر الحق وأهله على الباطل وحزبه، وينشىء من ضعف أنصاره قوة، ومن ذلهم عزاً، وتكون كلمة الله هي

---

(١) الآية ٦ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٨ من سورة فاطر.

(٣) الآية ١٠٣ من سورة يوسف.

العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ليجعل ما يلقي الشيطان في سبيل دعوات الأنبياء فتنة لضعفاء الإيمان، ومرضى النفوس، وقساة القلوب الذين لا يعتبرون ولا يتعظون وهم المجاهرون بالكفر، أو ليعلم الذين أوتوا العلم وكشف الله الحجب عن بصائرهم أن ما جاء به الرسل هو الحق من ربهم فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم.

الثاني: أن المراد بالتمني القراءة(1)، ولكن الإلقاء ليس بالمعنى الذي أراده المبطلون مما رووه وهو إجراء الشيطان الباطل على لسان النبـي، ولكن الإلقاء بمعنى إلقاء الأباطيل والشبه فيما يتلوه عليهم النبـي مما يحتمله الكلام، ولا يكون مراداً للمتكلم، أو لا يحتمله، ولكن يدَّعي أن ذلك يؤدي إليها، وذلك من شأن المعاجزين الذين دأبهم محاربة الحق يتبعون الشبهة، ويسعَون وراء الريبة، ونسبة الإلقاء للشيطان على هذا بمعنى أنه المتسبب والملقي لهذه الشبهات في نفوس أتباعه، ويكون المعنى: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبـي إلا إذا حـدَّث قومه عن ربه، أو تلا عليهم وحياً أنزله الله لهدايتهم قام في وجهه مشاغبون يتقوَّلون عليه ما لم يقله، ويحرفون الكلم عن مواضعه، وينشرون ذلك بين الناس، ولا يزال الأنبياء والمرسلون يجالدونهم ويجاهدون في سبيل الحق حتى ينتصر، فينسخ الله ما يلقي الشيطان من شبه، ويثبت الحق، وقد وضع الله هذه السنة في الخلق ليتميز الخبيث من الطيب، فيفتتن ضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض، ويتمحص الحق عند أهله وهم الذين أوتوا العلم فيعلموا أنه الحق، وتخبت له قلوبهم، ويستمر عليه سلوكهم وعملهم.

وقد ذكر البخاري في صحيحه هذين المعنيين للتمني، وبدأ بالأول، وثنَّى بالثاني، بـل ذكره بصيغـة التضعيف(2)، ونقل الأول عن تـرجمان القـرآن ابن عباس، وعلى تفسيره للتمني فالآية لا تمت بصلة ما إلى ما رواه المبطلون، وقد بيَّنا على التفسير الثاني أنها لا تدل أيضاً على ما ذكروه.

* * *

(1) ومما يدل على هذا قول حسان في عثمان:

تمـنَّى كـتـاب الله أول لـيـلة ... تمني داود الـزبـور عـلى رسـل

(2) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ باب تفسير سورة الحج.

هجرة الحبشة الثانية

لما رأى المسلمون العائدون من الحبشة بعد الهجرة الأولى أن الأذى لا يزال مستمراً، والبلاء لا يزال قائماً، بل اشتد أكثر من ذي قبل بعد المهادنة التي أعقبت إسلام الفاروق عمر ــ رضي الله عنه ــ خرجوا إلى الحبشة مرة أخرى، وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم، وعدتهم ــ كما قال ابن إسحاق وغيره ــ ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان عمار بن ياسر فيهم، واثنان وثمانون رجلاً إن لم يكن فيهم، قال السهيلي: وهو الأصح عند أهل السِيَر كالواقدي، وابن عقبة وغيرهما[1]، وثماني عشرة امرأة: إحدى عشرة قرشيات، وسبع غير قرشيات، وذلك عدا أبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً، ثم الذين ولدوا لهم فيها.

وقد عدَّ ابن إسحاق منهم: جعفر بن أبـي طالب، وزوجته أسماء بنت عُميس، وقد ولدت له بها ابنها عبدالله، وعبدالله بن مسعود، والمقداد بن عمرو المعروف بابن الأسود، وعامر بن أبـي وقاص، وخنيس بن حذافة السهمي، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، والسكران بن عمرو، ومعه امرأته سودة بنت زمعة، وأبو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح، وعبيدالله بن جحش، ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبـي سفيان بن حرب، وقد كانت عاقبة أمره خُسْراً، فقد افتتن هناك وتنصَّر وأكبَّ على شرب الخمر حتى مات، فصارت امرأته ــ رضي الله عنها ــ أيِّماً، وفي غربة من وطنها ومن أهلها، وتحمَّلت كل ذلك في سبيل عقيدتها ودينها، فلما انتهت عدتها أرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشي ليعقد له

---

(١) شرح المواهب، ج ١ ص ٣٤٦.

عليها، ففعل، وأمهرها أربعمائة دينار، وبذلك صارت من أمهات المؤمنين يجلُّونها، ويكرمونها، وينزلونها من أنفسهم منزلة الأم، وكان عملاً جد كريم، من نبـي كريم، يواسي بنفسه فضلاً عن ماله، ولما علم بذلك أبوها أبو سفيان، وكان من زعماء الشرك قال: هذا الفحل لا يقدع أنفه[١].

وقد بقيت بالحبشة حتى كانت سنة سبع، فقدمت فيمن قدم مع جعفر بن أبـي طالب عقب خيبر، وقد تكفل ابن إسحاق وغيره بسرد أسمائهم، ومن ولدلهم، فمن أراد استقصاءً فليرجع إلى الكتب التي تكفلت بذلك[٢]، وقد أقام المهاجرون بخير دار إلى خير جار آمنين على أنفسهم ودينهم حتى أراد الله لهم الأوبة.

وَهَم لابن إسحاق وغيره

وقد عدَّ ابن إسحاق وغيره كأبـي نُعيـم والبيهقي أبا موسى الأشعري فيمن هاجر من مكة إلى الحبشة، وهو وَهَم من بعض الرواة، والصحيح أنه خرج في آخرين راكبين البحر قاصدين مكة، فألقت بهم السفينة إلى الحبشة. روى البخاري في صحيحه بسنده عن أبـي موسى الأشعري قال: «بلغنا مخرجُ النبـي ﷺ، فركبنا سفينة، فألقتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبـي طالب، فأقمنا معه حتى قدمنا، فوافينا النبـي ﷺ حين افتتح خيبر، فقال النبـي ﷺ: لكم أهل السفينة هجرتان»[٣] وهكذا رواه مسلم.

سعي قريش إلى النجاشي في ردّ المهاجرين

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا، واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً واستقراراً، وحسن جوار من النجاشي، وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد، ولا يسمعون شيئاً يكرهونه ـ ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي رجلين منهم جَلْدين، وأن يرسلوا معهما للنجاشي هدايا

---

(١) هذا مثل يضرب للكريم الكفء يتزوج بالكريمة الأصيلة.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣٢٢ ـ ٣٣٠؛ البداية والنهاية، ج ٣ ص ٦٦ ـ ٦٩.

(٣) المراد هجرتهم من اليمن إلى الحبشة، وهجرتهم من الحبشة إلى المدينة.

مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم[1]، فجمعوا له أدماً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدَوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق[2] هديته قبل أن تتكلموا في شأنهم، ثم ادفعوا إليه هداياه، فإن استطعتم أن يردهم عليكم قبل أن يكلمهم فافعلوا.

فقدما عليهم، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا قدموا له هدية، وقالوا له: إنا قدمنا على هذا الملك في سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومنا ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، ثم قدَّموا إلى النجاشي هداياه، وكان من أحب ما يهدى إليه الأدم، وذكر موسى بن عقبة في «مغازيه» أنهم أهدَوا إليه فرساً وجبّة ديباج، فقالوا له: أيها الملك، إن فتية منا سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، جاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجأوا إلى بلادك، وقد بعثنا إليك فيهم عشائرهم: آباؤهم، وأعمامهم، وقومهم لتردهم عليهم، فإنهم أعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، فقال بطارقته: صدقا أيها الملك، قومهم أعلم بهم، فأسلمهم إليهما.

فغضب النجاشي ثم قال: لا، لَعَمْر الله، لا أردهم عليهم حتى أدعوهم فأكلمهم، فأنظر ما أمرهم؟ قوم لجأوا إلى بلادي، واختاروا جواري على جوار غيري، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني!!

إحضار النجاشي للمسلمين وسؤالهم

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فلما جاءهم رسوله قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا ــ وقد

---

(١) الجلود، وهو بفتح الهمزة والدال، أو ضمهما، جمع أديم.

(٢) البطريق: القائد العظيم الذي يلي عشرة آلاف فما فوق.

استدعى النجاشي أساقفته[1]، فنشروا مصاحفهم[2] حوله ـ سألهم، فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تـدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟!.

فتولى الكلام عنهم سيدنا جعفر بن أبـي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال له: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله، لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانـة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة، والزكاة.. وعدَّد عليه أمور الإسلام.

فصدَّقناه، وآمنا به، واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعَدَا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك!!

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي، فاقرأه علي، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى اخضلَّت[3] لحيته، وبكى أساقفته حتى أخْضَلُوا لحاهم حين

---

(١) جمع أسقف بضم الهمزة، وسكون السين، وتخفيف الفاء وتشديدها. وهم علماء النصارى الذين يقيمون لهم دينهم.
(٢) أي أناجيلهم، وكانوا يسمونها مصاحف.
(٣) ابتلت بالدموع.

سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة[1] واحدة، انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

محاولة أخرى للوقيعة بين المهاجرين والنجاشي

فلما خرجا من عند النجاشي قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم[2]، فقال له عبدالله بن أبي ربيعة: لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنَّه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

ثم غدا عليه من الغد، فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم ليسألهم عما يقولون فيه، فلما جاء الرسول قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول ــ والله ــ ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن!!

فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، نقول: هو عبدالله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا[3] عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود!!

فتناخرت[4] بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم[5] بأرضي، من سبكم غرم (ثلاثاً)، ما أحب أن لي دَبْراً[6]

---

(١) المشكاة الكوة غير النافذة، وهي محط المصابيح غالباً، والمراد أن القرآن والإنجيل من مصدر واحد، وهو الوحي الإلهي.

(٢) شجرتهم التي تفرّعوا منها.

(٣) ما جاوز أمر عيسى بن مريم.

(٤) تزاوموا لعدم الرضا.

(٥) السيوم: الآمنون، وفي السيرة: شيوم وفسره بالآمنين.

(٦) الدبر بلسان الحبشة: الجبل.

من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم، ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فخرجا من عنده مقبوحين، مذمومين مدحورين، وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار، مع خير جار، حتى قدم منهم من قدم على رسول الله ﷺ بمكة بعد، وبقي من بقي حتى قدموا عقب خيبر سنة سبع.

وهكذا نرى من هذه القصة أن من يصدق الله يصدقه، وينصره على من يريد به سوءاً، ويجعل له من ضيقه وأزماته فرجاً ومخرجاً، وعسى أن يكون فيها عبرة للذين يتصدَّون للدعوة الإسلامية، وذلك بأن يلتزموا جانب الحق والصدق في دعوتهم، وأن لا يحرِّفوا فيها، أو يغيروا، أو يداهنوا تبعاً للأهواء السياسية وغيرها، وليجاهروا بالحقائق الإسلامية، وليكن في ذلك ما هو كائن.

إســـلام النجاشيّ

وقد أسلم النجاشي، وصدَّق بنبوة النبـي ﷺ، وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه؛ لما علمـه فيهم من الثبات على الباطل، والجمود على العقائد الموروثة وإن صادمت العقل والنقل. وقد رُوي في الصحيحين عن أبـي هريرة، رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلَّى، فصفَّ بهم، وكبَّر أربع تكبيرات».

وقد روي أيضاً أن اسمه (أصحمة)، فقد روى البخاري عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أَصْحَمَة»[1] وروي هذا عن غير واحد من الصحابة[2].

جواز الصلاة على الغائب

وقد استدل بما صحَّ من صلاة النبـي والمسلمين على النجاشي على جواز الصلاة على الغائب، وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء سلفاً وخَلَفاً، وصار شرعاً متبعاً إلى يوم القيامة.

* * *

---

(١) بفتح الهمزة، وسكون الصاد، وفتح الحاء والميم كما في القاموس.

(٢) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٧٧. وانظر صحيح البخاري ومسلم ــ كتاب الجنائز.

خروج الصديق مهاجراً إلى الحبشة

وكان ممن ابتلي في الله، وأوذي لمنافحته عن الرسول وعن الدعوة الصدِّيقُ أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ وقد بدا له أن يهاجر إلى الحبشة ليلحق بإخوانه، ولكن أحد أشراف العرب أجاره وأرجعه. روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: «لم أعقل أبويَّ إلا وهما يدينان الدين ــ أي الإسلام ــ ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو الحبشة، حتى بلغ بَرْكَ الغِمَاد(١)، لقيه ابن الدُغُنَّة(٢) وهو سيد القَارَة(٣)، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض، وأعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج، ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق(٤)، فأنا لك جار ارجع فاعبد ربك ببلدك.

---

(١) بفتح الباء وسكون الراء، بعدها كاف، والغماد بكسر الغين وقد تضم وبتخفيف الميم: موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن.

(٢) بضم الدال والغين، وتشديد النون المفتوحة عند أهل اللغة، وعند المحدثين بفتح الدال وكسر الغين وتخفيف النون، وقد روي بالوجهين.

(٣) بفتح القاف وتخفيف الراء قبيلة كبيرة من بني الهون ــ بضم الهاء ــ ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر كانت تشتهر بالرمي.

(٤) قد مضى شرح هذه الفقرات في حديث بدء الوحي، ولكن الذي يستحق النظر أن هذه الأوصاف هي التي وصفت بها السيدة خديجة رسول الله، مما يدل على ائتلاف الروحين، وتوافق المزاجين، والخلقين، عند الصادق والصدِّيق.

فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله، ولا يُخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟! فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا له: مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصلِّ فيها، وليقرأ ما يشاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا!!

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره.

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقذَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكَّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن.

وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدُّغُنَّة، فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، وأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسَلْه أن يرد إليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك[1]، ولسنا مقرِّين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمتَ الذي عاقدت عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجعَ إليَّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل[2].

---

(١) أخفر بالألف نقض العهد، وخفر وفى به.

(٢) صحيح البخاري ـ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

وهذه القصة تدل دلالة واضحة على تأثير القرآن وإعجازه البياني والبلاغي في نفوس العرب الخلَّص، وسواء في ذلك الرجال والنساء، بل والصبيان.

وقد مر بك من قرب ما كان من أثر القرآن الكريم وإعجازه في إسلام الفاروق عمر، وما كان من استماع زعماء الشرك أبي جهل، وأبي سفيان بن حرب، والأخنس بن شريق إلى قراءة النبي ﷺ سراً، وكل منهم يخفي أمره على الآخر، حتى إذا رجعوا، وتلاقوا في الطريق صدفة تلاوموا وأوصى بعضهم بعضاً بعدم المعاودة، حتى تكرر ذلك ثلاث ليال، وقد روى الإمام أحمد في «مسنده» بسنده عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق: «أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، قال: حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها» وروي أن أعرابياً سمع هاتين الآيتين من النبي ﷺ فذهب وهو يقول: ذرة، ذرة، فقال النبي ﷺ: «لقد فقه الرجل»!!

* * *

نقض الصحيفة الظالمة

مكث بنو هاشم وبنو المطَّلب بالشِّعْب ثلاث سنين، حتى بلغ منهم الجهد مبلغه، فقيَّض الله سبحانه وتعالى لنقض الصحيفة أناساً من أشراف قريش، وكان الفضل الأول في ذلك لهشام بن عمرو[1]، فقد مشى إلى زهير بن أبـي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب. وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟! لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبـي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل مادعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا، قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟! إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: أبغنا ثالثاً.

فذهب إلى المُطْعِم بن عدي فقال له: يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبدمناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنَّهم إليها منكم سراعاً، قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدتَ لك ثانياً، قال: من؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: من؟ قال: زهير بن أبـي أمية، فقال أبغنا رابعاً، فذهب إلى أبـي البختري بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم بن عدي، فقال

(١) هو هشام بن عمرو بن الحارث، بن حبيب، بن نصر، بن مالك، بن حسل، بن عامر، بن لـؤي، ابن أخي نضلة بن هاشم، لأمه، وكان هشام هذا لبني هاشم واصلاً أثناء القطيعة.

له: ويحك وهل نجد أحداً يعين على ذلك؛ قال نعم: زهير بن أبـي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا، فقال: أبغنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابته وحقَّهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد،قال: نعم، ثم سمَّى له القوم.

فاتَّعدوا خطم الحَجون[1] ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غداً إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبـي أمية عليه حلّة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق، فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت!! فقال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها،ولا نُقِرّ به، فقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمـر قُضي بليل، تُشوور فيه في غير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأَرَضَة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم»، وذكر ابن هشام أن رسول الله ﷺ قال لأبـي طـالب: «يا عم إن الله قد سلَّط الأَرَضَة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم، والقطيعة والبهتان، فقال: أربُّك أخبرك بهذا! قال: «نعم» قال: فوالله ما يدخل أحد، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي قد أخبرني بكذا وكذا، فهلمَّ صحيفتكم، فإن

(١) الحجون: موضع بأعلى مكة، وخطمه: مقدمه.

كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عنها، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: قد رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً، ونسوا ما تعاقدوا عليه، فعند ذلك صنع هذا النفر من قريش ما صنعوا، ولما مزقت قال أبو طالب في شأن هؤلاء الذين تسببوا في نقضها قصيدة يمدحهم فيها، مطلعها[1]:

ألاهل أتى بَحْرِيِّنا[2] صنع ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود[3]
فيخبرهم أن الصحيفة مُزِّقت ... وأن كل ما لم يرضه الله مفسد

ومنها:

فمن ينش[4] من حُضَّار مكة عزة ... فعزتنا في بطن مكة أتلد
نشأنا بها والناس فيها قلائل ... فلم ننفكك نزداد خيراً ونُحْمَد

ومنها:

جزى الله رهطاً بالحجون تجمعوا ... على ملإ يهدي لحزم ويُرْشد
قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم ... مَقاولة بل هم أعز وأمجد

ومنها:

متى شُرِّك الأقوام في جل أمرنا ... وكنا قديماً قبلها نُتَوَدَّد!
وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... وندرك ما شئنا ولا نتشدد
فيا لقصي هل لكم في نفوسكم ... وهل لكم فيما يجيء به غد!
فإني وإياكم كما قال قائل ... لديك البيان لو تكلمت أسود[5]

---

(١) السيرة ج ١ ص ٣٧٤ ـ ٣٨٠؛ البداية والنهاية ج ٣ ص ٩٦، ٩٧.
(٢) قال السهيلي: يعني الذين بأرض الحبشة نسبهم إلى البحر لركوبهم إليه.
(٣) أرفق.
(٤) أصلها ينشأ بالهمزة فحذفت.
(٥) أسود: اسم جبل كان قد قتل فيه قتيل، فلم يعرف قاتله، فقال أولياء المقتول هذه المقالة، فذهب مثلاً.

حسن تدبير العرب وإحكام تصرفهم

وإنا لنا هنا لوقفة ترينا ما كان عليه العرب من الكياسة، وحسن التدبير، وإحكام الأمر، وما كانوا عليه من الذكاء والفطنة وبعد النظر، وإن كان بعضهم استغلوا هذه المواهب في محاربة الدعوة الإسلامية استجابة للأهواء، ولتحكم العصبية الجاهلية فيهم.

ولولا أن العرب كانوا على درجة من الذكاء والفطنة، والاستعداد لفهم ما يلقى إليهم، وإدراك مغزاه، لما كانوا أهلاً لأن يخاطبهم الله سبحانه بهذا القرآن البالغ الغاية في الفصاحة والبلاغة، وروعة الأسلوب، وإحكام السبك، وجلال المعنى، وسمو الغاية، ودقة المغزى.

وقد كان لهذه الصفات والمواهب أثرها البعيد حين اعتنقوا الإسلام عن عقيدة ويقين في تدبير أمور الحرب، والمعاهدات، والصلح، والزكانة والكياسة الفائقتين في سياسة الشعوب، والأجناس المتباينة التي استظلت بلواء الإسلام، وكفى شاهداً لهذا ما قام به النبي والخلفاء الراشدون ومن سار على دربهم في الإمامة والسياسة، وما قام به السادة الأجلاء: خالد بن الوليد، وأبو عبيدة بن الجراح، والمثنى بن حارثة، وعكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، والقعقاع بن عمرو، وأمثالهم في الحروب والفتوحات، والصلح والمعاهدات.

اللهمَّ سبع كسبع يوسف

ثم إن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ، وأبطأوا عن الإسلام، وأوغلوا في عداوة النبي وإيذائه وإيذاء أصحابه، دعا عليهم فقال: «اللهمَّ أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف» فأصابتهم سَنَة[1] حتى أكلوا الجيف والميتة، والعظام، وحتى كان الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، ثم جاء إليه أبو سفيان في ناس من قومه، فقالوا: يا محمد إنك تزعم أنك قد بُعثت رحمة، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، فدعا لهم الرؤوف

(١) بفتح السين: جدب وقحط.

الرحيم، فكشف الله عنهم ما هم فيه، فسقوا الغيث، وأطبقت عليهم سبعاً، فشكا الناس كثرة المطر، فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا» فانجاب السحاب عنهم فسقى الناس حولهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا في قوله[1]:

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ ﴾[2].

فعادوا كما كانوا، وأوغلوا في كفرهم، فأوعدهم الله الانتقام الأكبر قال تعالى:

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ﴾[3].

وهذه البطشة هي إما ما جرى لهم يوم بدر، وإمّا ما سينزل بهم من العذاب يوم القيامة[4].

* * *

(١) وهذا أحد تفسيري الآية، فقد قيل: إن ذلك كان في الدنيا في العهد النبوي، وذهب آخرون إلى أن ذلك سيكون قبيل يوم القيامة من علاماتها.
(٢) الآيات ١٠ ـــ ١٥ من سورة الدخان.
(٣) الآية ١٦ من سورة الدخان.
(٤) تفسير ابن كثير والبغوي ج ٧ ص ٤٢٠، ٤٢١.

قصة فارس والروم

وقد حدث قبل الهجرة أن تحاربت فارس والروم، فغلبت فارس الروم، ففرح بذلك المشركون، وكانوا يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان مثلهم، وساء ذلك المسلمين؛ لأنهم كانوا يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب مثلهم، ولقي المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم، فأنزل الله تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾(1).

فخرج أبو بكر إلى الكفار، فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟! فلا تفرحوا، ولا يقرنَّ الله أعينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ.

---

(1) الروم: الآيات ١ ـ ٧.

فقام إليه أبـي بن خَلَف، فقال: كذبت يا أبا فصيل[1]، فقال له أبو بكر أنت أكذب يا عدو الله، فقال: أناحبك[2]: عشر قلائص[3] مني، وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس على الروم غرمت ــ إلى ثلاث سنين، فرجع الصديق أبو بكر إلى النبـي ﷺ فأخبره، فقال: «ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر[4] ومادَّه في الأجل» فخرج أبو بكر فلقي أبياً فقال له: لعلك نـدمت؟ فقال الصديق: لا، تعالَ أزايدك في الخطر، وأمادُّك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين، قال: قد فعلت.

فظهرت الروم على فارس قبل التسع، ففرح بذلك المسلمون، أن جاء الواقع على ما أخبر القرآن، وصدقت نبوءة النبـي ﷺ، وأن نصر الله الروم أهل الكتاب على الفرس المجوس، وقد اختلف في هذا النصر متى كان؟ فقيل بعد بدر، وقيل: بل كان ذلك عام الحديبية، وهو الأولى والأصح.

* * *

(١) الفصيل: البكر الصغير، يريد التهكم بالصديق.
(٢) أي أراهنك، وقد كان هذا قبل تحريم الرهان في الإسلام.
(٣) جمع قلوص وهي الفتية القوية من الإبل.
(٤) الرهان.

موت أبـي طالب وخديجة

أولاً: موت أبـي طالب

لقد انجابت الغمة، وأزال الله الكربة عن بني هاشم والمطّلب والرسول والمؤمنين بشق الصحيفة الظالمة، وعادت الأمور كما كانت، ولكن حدث حادثان سبّبا للنبـي ﷺ غاية الحزن:

أحدهما: موت عم النبـي وناصره، ومانعه من قريش أبـي طالب بن عبدالمطلب[1]، ولما اشتكى أبو طالب، وثَقُل به مرضه مشى إليه أشراف من قريش: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل، وأمية بن خَلَف، وأبو سفيان بن حرب في آخرين، فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخُذْ له منا، وخُذْ لنا منه؛ ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه.

فبعث إليه أبو طالب، فجاءه فقال: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ: «نعم كلمة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم»، فقال أبو جهل: نعم ـ وأبيك ـ وعشر كلمات، قال: «تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه» فصفّقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لعجب!!

---

(١) اسمه: عبدمناف، وأما ما قيل من أن اسمه عمران فباطل كما قال ابن تيمية.

ثم قال بعضهم لبعض: إنه ـ والله ـ ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا، فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً!! فأنزل الله في ذلك قوله:

﴿ صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ (٢) كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ (٣) وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ (٥) وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ (٧) أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ (٨) ﴾[1].

عرض رسول الله الإيمان على أبي طالب

وكان رسول الله ﷺ حريصاً جدّ الحرص على إيمان عمه، وأن يختم له بهذه الخاتمة السعيدة، ولكن شياطين الإنس من قريش وعنجهية الجاهلية حالت بينه وبين ذلك. روى البخاري في صحيحه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: «أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله» وفي رواية: «أشهد لك بها عند الله» فقال أبو جهل، وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملَّة عبدالمطلب! فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: هو[2] على ملَّة عبدالمطلب، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أنهَ عنك» فنزلت:

---

(١) الآيات ١ ـ ٨ من سورة ص.

(٢) عبر الراوي بضمير الغيبة تنزهاً من نسبة الشرك إلى نفسه ولو تلفظاً، ولكن أبا طالب نطق بضمير المتكلم.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

وَنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[1].

وقد علّق على ذلك الحافظ ابن حجر في «الفتح» فقال: أما نزول هذه الثانية فواضح في قصة أبي طالب، وأما نزول التي قبلها ففيه نظر[2]، ويظهر أن المراد أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة، وهي عامة في حقه، وفي حق غيره، ويوضح ذلك ما سيأتي في «التفسير»[3] بلفظ «فأنزل الله بعد ذلك ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا..﴾ الآية، وأنزل في أبي طالب ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ولأحمد من طريق أبي حازم عن أبي هريرة في قصة أبي طالب قال: فأنزل الله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، وهذا كله ظاهر في أنه مات على غير الإسلام، ويضعف ما ذكره السهيلي أنه رأى في بعض كتب المسعودي أنه أسلم، لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيح[4].

وأما الإمام الزرقاني في شرح «المواهب اللدنية» فقد نحا منحى آخر، فجعل الآية مكية وتكون مستثناة من كون سورة براءة مدنية حيث قال: «ولا يشكل بأن براءة من أواخر ما نزل بالمدينة، وهذه القصة قبل الهجرة بثلاث سنين؛ لأن هذه الآية مستثناة من كون السورة مدنية كما نقله في الإتقان عن بعضهم وأقره، فلا حاجة إلى تجويز أنه كان يستغفر له إلى نزولها، لأن التشديد مع الكفار إنما ظهر في هذه السورة..

قال وأما قول السيوطي في «التوشيح»: المعروف أنها نزلت لما زار ﷺ قبر

---

(١) صحيح البخاري ــ باب قصة أبي طالب.

(٢) لأن قصة أبي طالب كانت بمكة، وآية ﴿ما كان للنبي..﴾ من سورة براءة وهي من أواخر السور المدنية نزولاً، فمن ثَمّ أول الحافظ الرواية هذا التأويل.

(٣) يعني كتاب «التفسير» من صحيح البخاري.

(٤) فتح الباري ج ٦ ص ١٥٣.

أمه، واستأذن ربه في الاستغفار لها ــ كما روى الحاكم وغيره ــ فتساهل لا يليق بمثله، فإنها لا تعادل رواية الصحيح، وقد رد الإمام الذهبي في «مختصر المستدرك» تصحيح الحاكم؛ لأن في إسناده أبا رزين هانىء وقد ضعّفه ابن معين، وله علّة ثانية وهي مخالفته للمقطوع بصحته في البخاري من نزولها عقب موت أبي طالب، وهو كلام حسن. ولعل تأويل الزرقاني أولى وأقرب من تأويل الحافظ ابن حجر؛ لأنه يبعد أن يستمر النبي بضع سنوات يستغفر لعمه حتى نهي بعد.

رواية لابن إسحاق

وروى ابن إسحاق أن النبي ﷺ لما قال له: «قل كلمة أستحلُّ لك بها الشفاعة يوم القيامة» ورأى حرص رسول الله قال: «ابن أخي، والله لولا مخافة السبَّة عليك، وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها» قال الراوي: فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه، فأصغى إليه بأذنه، فقال: يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، فقال رسول الله ﷺ: «لم أسمع».

وهي رواية ضعيفة؛ لأن فيها من لم يُسمَّ(١)، فأحد رواتها مجهول، ولعل البلاء منه، ولو أن العباس ــ رضي الله عنه ــ شهد بذلك بعد ما أسلم لقبلت روايته، أما وقد ذكر ذلك عنه قبل إسلامه فهي رواية غير مقبولة، لأن السند إليها لا يثبت كما قلنا، وأيضاً فهي تعارض ما روي في الصحيحين وغيرهما.

فالصحيح أن أبا طالب مات على دين قومه، وهو الذي دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة التي رواها الشيخان وغيرهما، وأما ما روي من أنه أسلم فهي روايات ضعيفة وموضوعة، وقد عرض لها الحافظ ابن حجر في الإصابة فليرجع إليها من يشاء.

---

(١) قال ابن إسحاق: حدثني العباس بن عبدالله بن معبد بن عباس عن بعض أهله عن ابن عباس. . . ومثل هذا السند لا يعتبر صحيحاً عند أئمة الحديث والرواية.

وأحب أن أقول للشيعة الإمامية: إننا كنا نحب من صميم قلوبنا لو أن شيخ قريش، أبا طالب أسلم؛ لأننا نعلم أن ذلك كان يحبه رسول الله ويهواه، وما يحبه رسول الله ويهواه فنحن ـ ولا شك ـ نحبه ونهواه، ولكن ماذا نصنع وقد سبق القدر بما قد كان؟! ولم نجد من الأدلة الصحيحة ما يجعلنا نقول بذلك، والإمام الآلوسي ـ وهو من محبي آل علي والمنتسبين إليهم ـ اعتبر الأدلة الدالة على إسلام أبي طالب أوهى من بيت العنكبوت!!

كما أقول أيضاً: إن موت أبي طالب على الكفر لا يخل بمنزلة الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ ولا بثبات قدمه في الإسلام، ولا بمواقفه البطولية المشهورة، ولا بعلمه الواسع الغزير، ولا بفصاحته وبلاغته المأثورتين، ولا بفقهه وأقضيته التي تخرَّج بها العلماء والقضاة والفقهاء ووو. . .

وإن في الأنبياء من مات أبوه على غير الدين الحق كآزر أبي خليل الرحمن، على ما بذل ورغب في هدايته ابنُه إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ!! وما أخلَّ ذلك بقدر أبي الأنبياء.

ونحن ـ معاشر أهل السنة والجماعـة ـ نجل آل رسول الله ﷺ، ونحبهم حباً جما، لأن حبهم من حبه، وتكريمهم من تكريمه ﷺ، ولكن لا ينبغي أن يعمينا الحب ويصمنا عن الحق ودلائله، والحق أحق أن يتبع، والله هو الهادي لمن يشاء.

على أن الخلاف في الرأي لا ينبغي أن يحول بيننا وبين أن نكون إخواناً متحابين، ومتعاونين لا متدابرين، وأن نوحِّد جهودنا للإسلام، وفي سبيل رفعته وسيادته.

تخفيف العذاب على أبي طالب

وقد ورد في الصحيحين وغيرهما أن الله سبحانه وتعالى سيخفف العذاب عن أبي طالب، لمناصرته لرسول الله، وتأييده له في الدعوة إلى الإسلام، روى الإمام البخاري في صحيحه، بسنده عن العباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال

للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك؟ فوالله كان يحوطك، ويغضب لك، قال: «هو في ضَحْضاح[1] من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[2].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أنه ﷺ قال ـ وذكر عنده عمه أبو طالب ـ: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، فيغلي منه دماغه» وهي نوع من شفاعاته ﷺ بتخفيف العذاب عمن يستحقه، ولو كان من المخلَّدين فيه.

نيل المشركين من الرسول بعد وفاة أبي طالب

ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً، فدخل رسول الله بيته، والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تزيل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: «لا تبكي يا بنية؛ فإن الله مانع أباك».

وكان يقول: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب» بل كان بعض جيرانه من ذوي رحمه يأتي بالقذر فيطرحه في برمته، أو في فناء داره، فيأخذه على العود فيقف به على بابه، ثم يقول: «يا بني عبد مناف أي جوار هذا»؟! ثم يلقيه في الطريق.

ومع كل هذا فقد مضى رسول الله ﷺ لدعوته لا يلوي على شيء، ولا يصده إيذاء مهما بلغ، وكان يمكنه أن يدعو عليهم، فيهلكهم الله، ولكن كان كثيراً ما يقول: «اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون».

ثانياً: موت السيدة خديجة رضي الله عنها

أما الحادث الثاني الذي ترك حزناً عميقاً في نفس النبي فهو موت السيدة الجليلة المهيبة في قومها خديجة بنت خُوَيلد بن أسد بن عبدالعزَّى، وكانت له

---

(١) الضحضاح من الماء: ما يبلغ الكعبين، وقد استعير للقليل من النار.
(٢) صحيح البخاري ـ باب ما ورد في أبي طالب.

وزيرة صدق، كما كانت نعم الزوجة الصالحة العاقلة، يجد فيها سكن النفس وطمأنينة القلب وراحة الروح، فكان كلما ناله من قريش أذى عاد إليها فتزيل عنه آثار الأذى بيديها، وتسرِّي عن نفسه بقلبها وحنانها وحديثها المؤمن المستطاب.

وكانت وفاة أبي طالب في السنة العاشرة من النبوة، وتوفيت بعده في شهر رمضان بقليل، قيل بأيام، وقيل بشهر، فلا عجب وقد فجع الرسول بهاتين الفجيعتين إذا كان سمي هذا العام «عام الحزن».

ولما قالت له خولة بنت حكيم: يا رسول الله كأني أراك قد دخلتك خَلَّة[1] لفقد خديجة قال: «أجل، كانت أم العيال، وربة البيت» وكانت إقامتها معه خمساً وعشرين سنة على الصحيح، وقد أفنى زهرة الشباب، ومَيْعة الكهولة، ولم يشأ أن يتزوج عليها؛ وفاء لها وتقديراً لخدماتها، وحرصاً على عدم تكدير خاطرها، وإيلام نفسها بإدخال ضرَّة عليها مهما كانت، فقد هيأت له ﷺ كل أسباب الراحة النفسية، والبدنية، والمالية، والمعيشية، فكان صنع رسول الله معها رداً للجميل بمثله أو بأكثر منه.

فضلها رضي الله عنها

لا خلاف بين علماء الأمة ـ إذا استثنينا السيدة فاطمة بنت الرسول ـ في أن أفضل نساء هذه الأمة أزواج النبي ﷺ قال تعالى:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ ﴾[2].

وأن أفضل أزواجه خديجة وعائشة، وقد اختلفوا في التفضيل بينهما، فمنهم من فضَّل خديجة، ومنهم من فضَّل عائشة، ومنهم من توقف في التفضيل

---

(١) حاجة وحزن بسبب الفراغ الذي تركته خديجة بموتها.

(٢) الآية ٣٢ من سورة الأحزاب.

بينهما، وليس هنا مجال تفصيل القول في هذا، والذي اختاره الإمام السبكي في «الحلبيات»، تفضيل خديجة ثم عائشة، ثم حفصة، ثم الباقيات سواء، والذي أميل إليه ما ذهب إليه السبكي من تفضيل خديجة ـ رضي الله عنها ـ لأنها أول من آمن بالنبـي على الإطلاق، وواسته بنفسها ومالها، ووفرت له كل وسائل الراحة التي أعانته على تأدية رسالة ربه.

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» أي كل منهما خير نساء زمانها، ورويا أيضاً بسندهما عن أبـي هريرة قال: «أتى جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، ومني وبشِّرها ببيت في الجنة من قَصَب(1)، لا صخب فيه ولا نصب» فقد أقرأها ربها السلام، ولم يثبت ذلك لأحد من نساء النبـي، وكل ما ثبت للسيدة عائشة إقراء جبريل عليه السلام لها، وقد وفرت السيدة الفاضلة خديجة للنبـي ﷺ كل وسائل الراحة في دنياها، فكان جزاءً وفاقاً أن يوفر الله سبحانه لها كل وسائل الراحة والنعيم في أخراها.

وقد زاد الطبراني في رواية الصحيحين السابقة أنها قالت لما بلغها النبـي عن جبريل سلام ربها: «هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام»، وفي رواية النسائي بزيادة: «وعليك يا رسول الله السلام، ورحمة الله وبركاته» وهذا الجواب يدل على فقهها، ووفور عقلها، وحسن أدبها، رضي الله عنها.

وأصرح من ذلك في الدلالة على تفضيلها على عائشة ما رواه ابن مردويه في تفسيره بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون،

---

(1) القصب: اللؤلؤ المجوف، وفي اختيار هذا اللفظ إيماء إلى أنها حازت قصب السبق بإيمانها وفضائلها.

وخديجة بنت خويلد[1]، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد[2] على سائر الطعام».

وفاء الرسول لها بعد وفاتها

وإذا كان الرسول الكريم قد وفى لها في حياتها بحسن العشرة، وكريم الصحبة، والحرص على تطييب نفسها بعدم الزواج عليها، فقد وفَى لها بعد وفاتها، فقد كان دائم الذكر لها، والإشادة بفضائلها والترحم عليها، والإحسان إلى صديقاتها، وإكرام كل من يمت بسبب إليها[3]، وإذا جاز أن يضيع المعروف عند الناس فهو لا يضيع قط عند معلِّم الناس الخير، وصانع المعروف، وهو القائل: «من أسدَى إليكم معروفاً فكافئوه، وإلا فادعُوا له»[4] وإذا كان رسول الله وفى لمن لم يستحق الوفاء، فكيف بمن هي أهل للوفاء؟! فلا عجب إذا كان وفاؤه للسيدة خديجة منقطع النظير.

ففي غزوة بدر الكبرى أُسر السيد الجليل أبو العاص بن الربيع صهر الرسول، وزوج ابنته السيدة زينب رضي الله عنها، فأرسلت السيدة الوفية زوجته فداء له، وفيه قلادة كانت قلَّدتها بها والدتها السيدة خديجة ليلة زفافها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وقال لأصحابه «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها قلادتها فافعلوا»، فما كان من أصحابه إلا أن استجابوا، وكيف لا يستجيبون إلى نداء القلب المشوق، الذي أهاجته الذكرى وهم ذوو الحس المرهف، والشعور الرقيق والأدب العالي!!.

---

(١) من الموافقات اللطيفة التي جمعت الثلاث في نسق واحد أن كل واحدة منهن كفلت نبياً مرسلاً، واحسنت صحبته، وآمنت به، فآسية ربَّت موسى، وأحسنت إليه، وصدَّقت به حين بعث، ومريم كفلت عيسى وربّته وصدّقت به حين أُرسل، وخديجة رغبت في النبيّ وواسته بنفسها ومالها، وأحسنت صحبته، وكانت أول من صدَّقه حين نزل عليه الوحي.

(٢) الثريد: الفت باللحم وكان عند العرب من أطيب الأطعمة.

(٣) بقرابة.

(٤) رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح بلفظ «من صنع».

وقد كان ذكره ﷺ الدائم لخديجة، وثناؤه عليها يثير غريزة الغَيْرة في نفس عائشة، فتنال منها، ولكن رسول الله كان يقسو عليها في الرد، مما جعلها تؤلي على نفسها ألا تعود. روى الإمام أحمد والطبراني بسندهما عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: (كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام، فأخذتني الغَيْرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها، فغضب ثم قال: «والله ما أبدلني خيراً منها، آمنت بـي إذ كفر الناس، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها»، قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بعدها بسبة أبداً)!! وروى نحوه البخاري.

ولم يقف الوفاء عند ذكرها، بل كان يحب حبيباتها، ويصلهن، فكان يذبح الشاة، ويقطِّعها، ويقول: «أرسلوا إلى صديقات خديجة» رواه البخاري.

وكانت تستأذن عليه هالة بنت خويلد أخت خديجة فيذكره صوتها بصوت خديجة، وحديثها العذب، وأيامها الحلوة، فيهش لها، وترتاح نفسه لذلك، وتشرق أسارير وجهه[1].

وجاءته ذات يوم امرأة عجوز من صويحباتها فأحسن لقاءها، وصار يسأل عن أحوالها، وما صارت إليه، فقالت عائشة لما خرجت: تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال: «إنها كانت تأتينا زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان» رواه الحاكم، والبيهقي في الشُعَب. فلِلَّه هذه السيدة العاقلة الطاهرة، التي لها دَيْن كبير في عنق كل مسلم ومسلمة.

* * *

(١) صحيح البخاري . كتاب ــ الفضائل باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها.

الفَصْلُ الخَامِسُ
الذّهَابُ إلى الطّائِفِ

ها هي مكة قد وقفت عقبة كأداء في سبيل الدعوة الإسلامية، وها هم سفهاء قريش قد أسرفوا في إيذاء النبي، والصد عن سبيله بعد موت عمه أبي طالب وزوجه خديجة، فلا عجب إذا أضحت مكة على سعتها أضيق من كِفَّة الحابل في عين النبي ﷺ، فيمّم وجهه جهة الطائف حيث توجد ثقيف عسى أن يجد منهم من ينصر الإسلام، ويحمي الدعوة.

فخرج إليها في شوال في السنة العاشرة من النبوة، ومعه مولاه زيد بن حارثة، فأقام بها مدة يدعو ثقيفاً إلى سبيل الله تعالى، فلم يجد آذاناً صاغية، وكان ممن قابلهم ثلاثة من أشرافهم: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير، وكانوا سادة ثقيف وأشرافها، وكانت عند أحدهم صفية بنت معمر القرشي الجمحي، فجلس إليهم، وكلمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه.

فقال أحدهم: هو يمرط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الثاني: أما وجد الله أحداً غيرك يرسله، وأما الثالث فكان أعقل منهما فقال: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسول الله لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من مناصرتهم له، وقال لهم: «إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني» كراهة أن يبلغ قومه عنه مجيئه لهم،

---

(١) ينزعها ويرمي بها.

فيزدادوا إيذاء له ولأصحابه، وكان القوم لئاماً فلم يفعلوا، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمون عراقيبه بالحجارة، حتى دميت عقباه، وتلطَّخت نعلاه، وسال دمه الزكي على أرض الطائف وزيد بن حارثة مولاه يدرأ عنه ويدفع حتى أصيب في وجهه بشجاج، وما زالوا بهما حتى ألجأوهما إلى حائط ـ بستان ـ لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فكره مكانهما لعداوتهما الله ورسوله، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه هو وصاحبه زيد، ريثما يستريحا من عنائهما، وما أصابهما، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، ولم يحركا ساكناً، ولعلهما كانا يتلذذان من هذا المشهد الذي شفى نفوسهما من الرسول، ولقي رسول الله المرأة القرشية التي من بني جمح، فقال لها: «ماذا لقينا من أحمائك»[1]؟!

تضـــرع ودعـــاء

وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن، والآلام النفسية والجسمانية توجه الرسول ﷺ إلى ربه بهذا الدعاء الذي يفيض إيماناً ويقيناً، ورضىً بما ناله في الله، واسترضاء لله، والذي لم أقف على مثيل له فيما قرأت، قال:

«اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟! أم إلى عدو ملَّكته أمري؟! إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك. لك العُتْبى[2] حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله» رواه ابن إسحاق.

---

(١) أهل الزوج وأقاربه وهو جمع حمو.

(٢) العتبى: الاسترضاء.

قصة عدَّاس النصراني

فلما رأى ابنا ربيعة ما لقي النبي ـ ولعلهما سمعا دعاءه ـ تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى هذا الرجل فقل له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: «بسم الله» وفي رواية: «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم أكل، فنظر عدَّاس في وجهه مستغرباً، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد!! فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أي البلاد أنت يا عدَّاس، وما دينك»؟ قال: نصراني، وأنا من أهل نينَوى، فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً، وأنا نبي».

فأكب عدَّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه، ويديه، وقدميه!! فقال أحد ابني ربيعة لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل، ويديه وقدميه؟! قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا!! لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عدَّاس، لا يصرفنَّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

الأوبة إلى مكة

ثم غادر رسول الله ﷺ الطائف، وهو مهموم النفس مكلوم الفؤاد، فلم يستفق إلا وهو «بقَرْنِ الثعالب[1]» فرفع رأسه فإذا هو بسحابة قد أظلته، فنظر فإذا فيها جبريل، قال: «فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال[2] لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال، وسلّم علي، ثم قال يا محمد إن الله قد بعثني إليك، وأنا

(١) بفتح القاف وسكون الراء، وفتحها غلط، والقرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير.

(٢) أي الموكل بها.

ملك الجبال لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبَيْن[1]؟ فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولايشرك به شيئاً»[2]!! وفي بعض الروايات: فقال له ملك الجبال: أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم.

أمر الجن الذين استمعوا إلى النبي وآمنوا به

وفي الطريق إلى مكة، ورسول الله ﷺ بنَخْلة[3] قام من جوف الليل يصلي متهجداً، فمر به نفر من الجن، وكانوا سبعة من جن نصيبين[4]، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، وقد قصَّ الله خبرهم عليه ﷺ، فقال عز شأنه:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ [5] مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[6].

دخول النبي مكة في جوار الـمُطْعِم بن عدي

ولما وصل ﷺ مكة أبى عليه قومها أن يدخلها حَنَقاً عليه وغيظاً أن ذهب يستنصر عليهم بثقيف، وتوجَّس رسول الله منهم بشر، فبعث رسول الله

---

(١) جبلا مكة: أبو قبيس، والذي يقابله وهو قعيقعان.
(٢) رواه الشيخان، واللفظ لمسلم.
(٣) أحد واديين على ليلة من مكة يقال لأحدهما: نخلة الشامية، وللآخر: نخلة اليمانية.
(٤) من أرض الجزيرة بين العراق والشام.
(٥) خصوا موسى لاشتهار رسالته أكثر من عيسى عليهما الصلاة والسلام.
(٦) الآيات ٢٩ ـ ٣٢ من سورة الأحقاف.

عبدالله بن الأريقط إلى الأخنس بن شريق أن يجيره، فقال:

أنا حليف قريش، والحليف لا يجير على صميمها، فبعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره، فقال: إن بني عامر لا تجير على بني كعب بن لؤي، فبعثه إلى المطعم بن عدي ليجيره، فقال: نعم، قل له فليأت، فذهب إليه رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة. فلما أصبح خرج هو وبنوه ستة أو سبعة متقلدي السيوف جميعاً، فدخلوا المسجد، وقال لرسول الله: طُفْ، واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف، فأقبل أبو سفيان بن حرب إلى المطعم، فقال: أمجير أم تابع؟ قال: بل مجير، قال: إذاً لا نخفر ذمتك[1]، فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه، وقد حفظ النبي ﷺ للمطعم بن عدي هذه اليد، ولذلك لما جاءه ابنه جبير ليكلمه في أسارى بدر قال له: «لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له».

ولما مات المطعم بعد هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة رثاه حسان بن ثابت بقصيدة مجازاة له على ما صنعه مع رسول الله.

* * *

---

(١) لا نغدر بجوارك وعهدك.

الفصل السادس
الإسراء والمعراج

في الإسراء والمعراج تسرية عن نفس النبي

قد علمتَ آنفاً ما وجد النبي من ثقيف لما ذهب إليهم داعياً إلى الله، وما صنعوه معه من الأذى حتى أدمَوا عقبيه، وكيف عاد النبي من الطائف مهموم النفس، جريح الفؤاد، لا لما ناله من الأذى فذلك أمر يهون، ولكن خوفاً على الدعوة أن لا تجد مكاناً صالحاً لانتشارها، فقد كان ﷺ يرجو من وراء رحلته المضنية إلى الطائف خيراً للدعوة، ومؤازرة لها، ولكنه وجد أهلها أسوأ من أهل مكة، وأجهل وأسفه، وكيف حال مشركو مكة بينه وبين دخول بلده لولا أن أجاره المطعِم بن عدي سيد من سادات قريش، فتمكن من دخولها، والطواف حول الكعبة.

وفي هذه الغمرة من المآسي والأحزان، وصدود القوم عن الإيمان، ومحاربة الدعوة الإسلامية بكل الوسائل والطرق، وبعد هذه الشدائد المتلاحقة؛ كان من رحمة الله بعبده وحبيبه محمد صلوات الله وسلامه عليه أن يسرِّي عن نفسه الجريحة، وفؤاده المحزون، فكان الإسراء والمعراج.

فقد شاهد من آيات ربه الكبرى ما شاهد، وعاين من أمارات العناية الإلٓهية به وبدعوته ما زاده يقيناً إلى يقين بإنجاح دعوته، وتبليغ رسالة ربِّه، ونصره على أعدائه، وأطلعه الله سبحانه من ملكوته العظيم على ما أطلعه عليه مما ملأ نفس الرسول رضى عن الله، وقلبه نوراً وطمأنينة، وصدره ثلجاً وانشراحاً.

ما هو الإسراء وما هو المعراج[1]؟

الإسراء: هو إذهاب الله نبيه محمداً ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بإيلياء ــ مدينة القدس ــ في جزء من الليل، ثم رجوعه من ليلته.

المعراج: هو إصعاده ﷺ من بيت المقدس إلى السموات السبع، وما فوق السبع، حيث فرضت الصلوات الخمس، ثم رجوعه إلى بيت المقدس في جزء من الليل.

ثبوت الإسراء والمعراج

الإسراء ثابت بالقرآن المتواتر، والأحاديث الصحيحة المتكاثرة.

أما القرآن ففي قوله سبحانه:

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾[2].

---

(١) الإسراء في اللغة: مصدر أسرى: وهو سير عامة الليل، ويقال: أسراه، وأسرى به، وعلى الثانية جاء القرآن الكريم، وجمهور اللغويين على أن سرى وأسرى بمعنى واحد، وبعضهم يفرق بينهما فيقول: أسرى سار من أول الليل، وسرى: سار من آخره.
والمعراج بكسر الميم، قال ابن الأثير: المعراج بالكسر شبه السُّلَّم مفعال، من العروج أي الصعود كأنه آلة له، مأخوذ من عرج يعرج عروجاً إذا صعد، والظاهر أن المراد به العروج استعمالاً لاسم الآلة في المعنى المصدري وهو العروج.

(٢) الآية ١ من سورة الإسراء، وقد بدأ الآية بلفظ «سبحان» لأن من قدر على هذا فهو مستحق للتنزيه والتقديس، وفيها معنى التعجب وما أجدر الإسراء بأن يتعجب منه.
وفي ذكر العبد في مثل هذا تشريف، وفيه أيضاً تحذير أن يتخذ من الإسراء ذريعة لرفع الرسول من مقام العبودية إلى مقام الألوهية.
وذكر لفظ «ليلاً» مع أنه لا يكون إلا ليلاً للإشارة إلى أنه في جزء منه. والمسجد الحرام بمكة، وسمي حراماً لحرمته. والمسجد الأقصى هو مسجد القدس، وسمي الأقصى لبعده من المسجد الحرام. ومعنى باركنا حوله، البركات الدينية والدنيوية: أما بركاته الدينية فلكونه مقر الأنبياء، ومهاجر الكثيرين منهم، وقبلتهم، ومهبط الملائكة، وهو أحد =

وأما الأحاديث فسنذكر بعضها فيما بعد.

وأما المعراج فهو ثابت بالأحاديث الصحيحة التي رواها الثقات العدول، وتلقتها الأمة بالقبول، ولو لم يكن إلا اتفاق صاحبي الصحيحين: البخاري ومسلم على تخريجها في صحيحيهما لكفى، فما بالك وقد خرَّجها غيرهما من أصحاب كتب الحديث المعتمدة، وكتب السِيَر المشهورة، وكتب التفاسير المأثورة.

ويرى بعض العلماء أن المعراج وإن لم يثبت بالقرآن الكريم صراحة، ولكنه أشير إليه في سورة النجم في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

فقد روي عن ابن مسعود والسيدة عائشة ــ رضي الله عنهما ــ أن المرئي هو جبريل[2]، رآه رسول الله ﷺ على هيئته التي خُلق عليها، ولم يره على هذه الحالة إلا مرتين: الأولى وهو نازل من غار حراء، والثانية ليلة المعراج.

= المساجد الثلاثة المشرفة التي تشدُّ إليها الرحال: المسجد الحرام، والمسجد النبوي بالمدينة، ومسجد بيت المقدس. وأما الدنيوية فلما يحيط به من الأنهار الجارية، والزروع والبساتين.

«لنريه من آياتنا» هي ما أراه الله لنبيه في هذه الليلة من مخلوقات الله وجلاله وسعة ملكه، وعجائب صنعه، وما أفاض به على قلبه من فيوضات ربانية، وعبَّر «بمن» لأن الله أرى نبيه بعض آياته لا كلها، إذ آيات الله لا تنتهي، ولا يحيط بها قلب بشر «إنه هو السميع البصير» عِدَة للمؤمنين بالإسراء بالثواب الجزيل، ووعيد للمنكرين والمشككين.

(١) الآيات ١٣ ـ ١٨ من سورة النجم.

(٢) وروي عن ابن عباس أن المرئي هو الله سبحانه وتعالى؛ والأول هو الصحيح المعتمد، وعلى رأي ابن عباس فالآية دالة أيضاً على المعراج، لأنه يرى أن ذلك كان ليلة المعراج.

قال الإمام ابن كثير في تفسيره[1] ما خلاصته مع التوضيح: وقد رأى النبي ﷺ جبريل ــ عليه السلام ــ على صورته التي خلقه الله عليها مرتين: الأولى عقب فترة الوحي، والنبي ﷺ نازل من غار حراء، فرآه على صورته له ستمائة جناح قد سدَّ عظمُ خلقه الأفق، فاقترب منه، وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أوحى، وإليه أشار الله بقوله:

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾[2].

والثانية: ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى، وهي المشار إليها في هذه السورة «النجم» بقوله: «ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى».

الإسراء والمعراج بالجسد والروح

جمهور العلماء ــ سلفاً وخلفاً ــ على أن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة، وأنهما كانا في اليقظة بجسده وروحه ﷺ، وهذا هو الذي يدل عليه قوله تعالى في مفتتح سورة الإسراء «بعبده»، إذ ليس ذلك إلا الروح والجسد.

وقد تواردت على ذلك الأخبار الصحيحة المتكاثرة، والنصوص على ظواهرها ما لم يقم دليل على صرفها عن ظاهرها، وأنَّى هو؟

وفي الأحاديث الصحيحة أنه شق صدره الشريف، وركب البراق، وعرج به إلى السماء، ولاقى الأنبياء، وفرضت عليه الصلوات الخمس، وأن الله كلمه، وأنه صار يرجع بين موسى ــ عليه السلام ــ وبين ربه عز وجل، مما يؤكد أنهما كانا بجسده الشريف وروحه، وينفي ما عدا ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوي ج ٨ ص ٩٦ وما بعدها ط المنار.

(٢) الآيات ٥ ـ ١٠ من سورة النجم، والضمير في قوله: «فأوحى» عائد على جبريل وهو الظاهر المقبول، لأنه المتحدث عنه قبل، وقيل: عائد على الحق تبارك وتعالى، وهو بعيد مردود لما فيه من تفكيك النظم الكريم، وأما الضمير في «عبده» فهو راجع إلى الله سبحانه فحسب، أي فأوحى جبريل إلى عبدالله محمد ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بوساطة جبريل.

القائلون بأنهما كانا بالروح

وذهب بعض أهل العلم إلى أنهما كانا بروحه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونسب القول به إلى السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وسيدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ ورووا في هذا عن السيدة عائشة أنها قالت: «ما فقدت[1] جسد رسول الله ﷺ، ولكن أسري بروحه» وهو حديث غير ثابت، وهّنه القاضي عياض في «الشفا»[2] سنداً ومتناً، وحكم عليه الحافظ ابن دحية بالوضع، ومما يضعف هذا الأثر ويرده أن السيدة عائشة لم تكن حينئذ قد دخل بها النبي، فإن من المتفق عليه أن رسول الله ﷺ لم يبْنِ بها إلا بعد الهجرة، وإن خطبها قبلها بسنة، وقيل بسنتين، ويرد ذلك أيضاً أن الثابت عنها أنها كانت تنكر على من يقول: أن محمداً رأى ربه ليلة المعراج، وتستدل بآيات من الكتاب الكريم على حسب اجتهادها وفهمها، فلو كانت ترى هذا الرأي الذي نسبوه إليها زوراً لكان أقرب شيء في ردها على من يقول بالرؤية أن تحتج عليهم بأن المعراج لم يكن بجسده، ولكن لم ينقل عنها أنها احتجت بذلك.

وأيضاً فإن ما روي عن معاوية غير صحيح، وهو حين الإسراء والمعراج لم يكن أسلم بعد، ولو سلمنا ما نسب إليهما ـ جدلاً ـ فظواهر القرآن والسنة الصحيحة ترده.

القائلون بأنهما كانا مناماً

وأبعد من هذا القول قول من ذهب إلى أنهما كانا في المنام، ويستدلون لذلك بقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ . . .﴾[3].

---

(١) روي «فقدت» مبنياً للمعلوم، وهي أدل على الوضع، وروي «فقد» بالمبني للمجهول.

(٢) ج ١ ص ١٥٦، ١٥٧ ط عثمانية.

(٣) الآية ٦٠ من سورة الإسراء.

وقالوا: إن الآية تشير إلى الإسراء والمعراج، والرؤيا إنما تطلق على المنامية لا البصرية.

وليس أدل على ردِّ استدلالهم بهذه الآية من قول ابن عباس في تفسيرها: «هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة شجرة الزقّوم» رواه البخاري في صحيحه(١)، والترمذي، والنسائي في سننهما. ومراد ابن عباس ــ برؤيا العين ــ جميع ما عاينه ﷺ ليلة أسري به من العجائب السماوية والأرضية.

وابن عباس هو حبر الأمة، وترجمان القرآن، ومن أعلم الناس بالعربية، وكان إذا سئل عن لفظ من القرآن ذكر له شاهداً من كلام العرب، فكلامه حجة في هذا، والرؤيا كما تطلق على المنامية تطلق على البصرية أيضاً.

ومن شواهد ذلك من كلام العرب الذين يحتج بكلامهم قول الراعي يصف صائداً:

وكبَّـر للرؤيـا وهشَّ فؤاده ... وبشَّر قلباً كان جماً بـلابله

على أن بعض المفسرين يرى أن الآية نزلت عام الحديبية بسبب رؤيا رسول الله ﷺ أنه دخل المسجد الحرام، وعلى هذا فلا تكون الآية دليلاً لهم قط، ولكن الصحيح هو الأول.

وأيضاً لو كان الإسراء والمعراج في المنام لم يكن فيهما شيء يُستعظم، ولما بادر كفار قريش إلى تكذيب الرسول والتعجب مما قال، ولما ارتد بعض ضعفاء الإيمان(٢). إذ كثير من الناس يرون في منامهم مثل ذلك، فيرى الرائي أنه ذهب إلى أقصى المعمورة، أو صعد إلى السماء، فاستبعادهم لذلك ومسارعتهم إلى تكذيب النبي عقب إخباره لهم من أظهر الأدلة على أنهم فهموا من إخبار النبي ﷺ أنهما كانا في اليقظة لا في المنام.

---

(١) صحيح البخاري ــ كتاب التفسير ــ سورة بني إسرائيل (الإسراء) ــ باب وما جعلنا الرؤيا...

(٢) قلت: لم يثبت.

الفرق بين كونهما بالروح، وكونهما مناماً

ومما ينبغي أن يعلم أن بعض الكاتبين في معجزتي الإسراء والمعراج يخلط بين قول من يقول: كانا مناماً، وقول من يقول: كانا بالروح، وبينهما فرق، فمن قال كانا بالروح أراد أن الروح بما لها من قدرة على التصرف والانتقال هي التي انتقلت وجالت في هذه المعاني المقدسة في الأرض والسماء، وأما من قال في المنام فإنما أراد حدوث صور وانكشافات للروح فيما وراء الحسّ من عالم الغيب من غير انتقال، ومفارقة للبدن، وقد نبه إلى هذا الفرق وبسطه، الإمام ابن القيم في كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد»[1]، فليرجع إليه من يشاء الاستزادة.

الإسراء والمعراج ووحدة الوجود

ولا يفوتني وقد عرضت للآراء في الإسراء والمعراج، وبينت المقبول منها من المردود أن أعرج على رأي ساقه الدكتور محمد حسين هيكل ــ رحمه الله ــ في كتابه «حياة محمد»، وهو تصوير الإسراء والمعراج تصويراً روحياً مبنياً على فكرة «وحدة الوجود».

وإليك ما ذكره في كتابه بعد أن عرض عرضاً موجزاً لخلاف العلماء في الإسراء والمعراج: أهما بالجسد أم بالروح؟ قال: «ففي الإسراء والمعراج في حياة «محمد» الروحية معنى سام غاية السمو، معنى أكبر من هذا الذي يصورون، والذي قد يشوب بعضه من خيال المتكلمين حظ غير قليل، فهذا الروح القوي قد اجتمعت فيه في ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها، لم يقف أمام ذهن محمد وروحه في تلك الساعة حجاب من الزمان، أو المكان، أو غيرهما من الحجب التي تجعل حكمنا نحن في الحياة نسبياً محدوداً بحدود قوانا المحسة، والمدبرة، والعاقلة.

تداعت في هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد، واجتمع الكون كله في روحه، فوعاه منذ أزله إلى أبده، وصوره في تطور وحدته إلى الكمال عن

(١) ج ٢ ص ١٢٨، ١٢٩ ط أنصار السنة المحمدية.

طريق الخير والفضل والجمال والحق في مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص، والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة.

وليس بمستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانية، فإذا جاء بعد ذلك ممن اتبعوا محمداً من عجز عن متابعته في سمو فكرته، وقوة إحاطته بوحدة الكون في كماله، وفي جهاده لبلوغ هذا الكمال فلا عجب في ذلك، ولا عيب فيه، والممتازون من الناس، والموهوبون منهم درجات، وبلوغنا الحقيقة معرض دائماً لهذه الحدود التي تعجز قوانا عن تخطيها. . .

«والإسراء بالروح هو في معناه كالإسراء والمعراج بالروح جميعاً سمواً وجمالاً، وجلالاً، فهو تصوير قوي للوحدة الروحية من أزل الوجود إلى أبده، فهذا التعريج على جبل سيناء حيث كلَّم الله موسى تكليماً، وعلى بيت لحم حيث ولد عيسى، وهذا الاجتماع الروحي ضمت الصلاة فيه محمداً، وعيسى، وموسى، وإبراهيم مظهر قوي لوحدة الحياة الدينية على أنها من قوام وحدة الكون في مَوْره الدائم إلى الكمال. . .» إلى آخر ما قال[1].

مناقشة للدكتور هيكل

إن فكرة وحدة الوجود فكرة خاطئة وافدة إلى الإسلام فيما وفد إليه من آراء فاسدة لا يشهد لها عقل ولا نقل، وهي من مخلَّفات الفلسفات القديمة، وفيها ما فيها من أخطاء وأباطيل، وقد انتصر لها وتشيع بعض المتصوفة الذين ينتسبون إلى الإسلام، وكتبوا فيها فكان عاقبتهم الإلحاد في الله وصفاته.

وقد أبان بطلانها كثير من علماء الأمة الراسخين في العلم، المتثبتين في العقيدة، والقول بها يؤدي إلى القول بالطبيعة، وقدم العالم، وإنكار الألوهية، وهدم الشرائع السماوية التي قامت على أساس التفرقة بين الخالق والمخلوق، وبين وجود الرب، ووجود العبد، وتكليف الخالق للخلق بما يحقق لهم السعادة، ومقتضى هذا المذهب أن الوجود واحد، فليس هناك خالق ومخلوق، ولا عابد

(١) «حياة محمد» ص ١٨٩، ١٩٠ ط ثانية.

ومعبود، ولا قديم وحادث، وعابـدو الأصنام والكواكب والحيوانات حين عبدوها إنما عبدوا الحق، لأن وجودها الحق، إلى آخر خرافاتهم التي ضلُّوا بسببها وأضلوا غيرهم، والتي أضرت بالمسلمين، وجعلتهم شيعاً وأحزاباً، ولقد بلغ من بعضهم أنه قال: إن النصارى ضلُّوا لأنهم اقتصروا على عبادة ثلاثة، ولو أنهم عبدوا الوجود كله لكانوا راشدين، وقال بعض المعتنقين لهذه الفكرة:

العبـد حق، والـرب حق   يا ليت شعري من المكلَّف؟
إن قلت: عبـد فـذاك رب   أو قلت: رب أنَّى يكلف؟

قال الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني في بعض كتبه بعد أن ذكر الفناء المحمود، والفناء المذموم: «ولهذا لما سلك ابن عربي، وابن سبعين وغيرهما هذه الطرق الفاسدة أورثهم ذلك «الفناء» عن وجود السوى فجعلوا الموجود واحداً، ووجود كل مخلوق هو عين وجود الحق، وحقيقة الفناء عندهم أن لا يرى إلا الحق، وهو الرائي والمرئي، والعابد والمعبود، والذاكر والمذكور، والناكح والمنكوح، والآمر الخالق هو المأمور المخلوق، وهو المتصف بكل ما يوصف به الوجود من مدح وذم، وعبَّاد الأصنام ما عبدوا غيره، وما ثمَّ موجود مغاير له البتة عندهم، وهذا منتهى سلوك هؤلاء الملحدين!!

وأكثر هؤلاء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود يقولون: فرعون أكمل من موسى، وإن فرعون صادق في قوله: «أنا ربكم الأعلى» لأن الوجود فاضل ومفضول والفاضل يستحق أن يكون رب المفضول، ومنهم من يقول: إنه مات مؤمناً، وأن تغريقه كان ليغتسل غسل الإسلام»[1].

فالحق أن فكرة وحدة الوجـود فكرة زائفـة، تصادم نصـوص الدين القطعية، ولا يدل عليها شيء من قرآن أو سنة، وأن العقيدة الإسلامية السمحة براء من مذهب «وحدة الوجود».

---

(1) الرد على المنطقيين ص ٥٢١ ط الهند.

تفسير الإسراء والمعراج بهذا يلزم منه إنكار النصوص أو تحريفها

ثم إن تفسير الإسراء والمعراج بهذه الفكرة، وتصويرهما هذا التصوير الذي ارتضاه «هيكل» يقتضي إنكارها على حسب ما جاء به القرآن القطعي، والسنة الصحيحة المشهورة، فليس ثمة إسراء حقيقة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بذات النبي ﷺ، وليس هناك عروج بالنبي من بيت المقدس إلى السماوات السبع وما فوقهن، ولا صلاة بالأنبياء، ولا لقاء ولا تسليم، ولا تكليم الله لنبيه، وإنما كل ذلك تمثيل وتقريب.

وما الداعي إلى ذلك ما دام الكون كله قد اجتمع في روح النبي كما قال صاحب الرأي: فالمسجد الحرام في روحه، والأقصى في روحه، والسماوات وما فيهن في روحه، ووجودها في وجوده!!

إغراب وتشويش

ثم ما الداعي إلى كل هذا التكلُّف والإغراب من الدكتور هيكل في فهم نصوص صريحة جاءت بلسان عربي مبين؟! وما الذي حدا به إلى أن «يشطح» هذه «الشطحات» التي لا داعي إليها.

إن الإسراء والمعراج كما جاء بهما القرآن والأحاديث الصحاح أقرب منالاً، وأشد استساغة لعقول الناس مما ذهب هو إليه، ولو جلست زماناً لتفهم رجلاً أمياً أو متعلماً، بالإسراء والمعراج على ما رأى الدكتور ما أنت بمستطيع إفهامه هذه الألغاز والطلاسم التي حاول بها إحداث رأي جديد لا يدري أسبق إليه أم لا!

وهل تصوير الإسراء والمعراج بهذا التصوير إلا إشكال على عقول الكثرة من الناس، ومخاطبة لهم بما لا تبلغه عقولهم ومداركهم، وقد أُمرنا أن نحدِّث الناس بما يعقلون وأن ندع ما ينكرون، وفي الحكم الذهبية عن الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم»[1].

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

الحق أن الإغراب على القراء بمثل هذه الأفكار المسمومة، والآراء الشاذة الغريبة تشكيك لهم في عقائدهم الصحيحة، وتسميم لعقولهم، وانحراف بهم عن فطرتهم السليمة، والحق أبلج لا يحتاج إلى تكلف، وتعمُّل وتفلسف من غير داع «وما أنا من المتكلِّفين» كما أنه أثر من آثار مجاراة المستشرقين ومتابعتهم في أفكارهم.

متى كان الإسراء والمعراج؟

يكاد يجمع العلماء المحققون على أن الإسراء والمعراج كانا بعد البعثة المحمدية، وأنهما كانا في اليقظة لا في المنام، وقد تظاهرت على ذلك الروايات المتكاثرة في كتب الحديث المشهورة، وكتب السير الموثوق بها.

وأما ما روي من أنهما كانا مناماً كما في حديث شريك بن عبدالله[١] عن أنس فهو غلط من شريك، وقد خالف فيه شَريك أصحاب أنس[٢] في إسناده ومتنه بالتقديم والتأخير والزيادة المنكرة، وأشد أوهامه ـ أغلاطه ـ قوله: سمعت أنس بن مالك يقول: «ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أن جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه».

والإمام البخاري قد أخرج في صحيحه الرواية التي اتفق عليها الرواة عن أنس ـ ما عدا شريك ـ في عدة مواضع من كتابه، وهي الرواية الصحيحة، وذكر أيضاً الرواية التي وقع فيها الغلط من شريك، ولعل ذلك لينبهنا إلى ما فيها من غلط، وللإمام البخاري في سَوْق الروايات والمتون المكررة شفوف نظر، ومقاصد دقيقة لا يقف عليها إلا من أطال النظر في هذا الكتاب الجليل.

وقد نبه على غلط شَريك بن عبدالله في روايته الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه، فقد قال بعد ذكر سند رواية شريك: «وساق الحديث بقصته نحو حديث ثابت البُناني، وقدّم فيه شيئاً وأخّر وزاد ونقص»[٣].

---

(١) شريك بن عبدالله بن أبي نمر تابعي مدني، وهو أكبر من شريك بن عبدالله النخعي التابعي.

(٢) يعني الرواة الذين عرفوا بالرواية عن أنس.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ٢١٧.

وأنكر ما في حديث شريك من أوهام أيضاً الأئمة: الخطابي، وابن حزم، والقاضي عياض، والنووي وغيرهم[1].

وقد اختلف في أي سنة كانا؟ وفي أي شهر؟

فذهب البعض إلى أنهما كانا قبل الهجرة بسنة، وإلى هذا ذهب الزهري وعروة بن الزبير وابن سعد، وادعى ابن حزم الإجماع على هذا، وقيل قبل الهجرة بسنتين، وقيل بثلاث.

والذي عليه الأكثرون والمحققون من العلماء أنهما كانا في شهر ربيع الأول، وقيل في ربيع الآخر، وقيل في رجب، وهو المشهور بين الناس اليوم، والذي تركن إليه النفس بعد البحث والتأمل أنهما كانا في شهر ربيع الأول في ليلة الثاني عشر منه أو السابع عشر منه.

وقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» أثراً عن جابر وابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ يشهد لذلك، قالا:

«ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر» ثم قال: «وقد اختاره الحافظ عبدالغني بن سرور المقدسي في سيرته، وقد أورد هنا حديثاً لا يصح سنده ذكرناه في فضائل شهر رجب: أن الإسراء كان ليلة السابع والعشرين منه والله أعلم».

شبه المنكرين للإسراء والمعراج، والرد عليها

تكاد تنحصر شبه المخالفين في الإسراء والمعراج بالجسد في استبعاد الذهاب من مكة إلى بيت المقدس، ثم الصعود إلى السماوات العلا، ثم الرجوع من حيث أتى في جزء من الليل.

وفي أن القرآن الكريم لم يذكر المعراج كما ذكر الإسراء، وفي أن المعراج يترتب عليه الخرق والالتئام في الأفلاك والسماوات وذلك مستحيل.

---

(١) الإسراء والمعراج للمؤلف ص ٤٨، ٤٩.

وفي أن الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية محدودة بثلاثمائة كيلومتراً تقريباً، فمن جاوزها صار عرضة للموت المحقق لعدم وجود الهواء الذي لا بدَّ منه للحياة.

وهي شبه لا تثبت أمام البحث العلمي الصحيح.

فالإسراء والمعراج أمران ممكنان عقلاً أخبر بهما الصادق المصدوق ﷺ في القرآن الكريم المتواتر، وفي الأحاديث الصحيحة المشهورة، فوجب التصديق بوقوعهما، ومن ادَّعى استحالتهما فعليه البيان وهيهات ذلك، وكونهما مستبعدين عادة لا ينهض دليلاً ولا شبه دليل على الاستحالة، وهل المعجزات إلا أمور خارقة للعادة كما قال العلماء؟ ولو أن كل أمر لا يجري على سنن العادة مَئِنَّة للإنكار لما ثبت معجزة نبي من الأنبياء.

ثم ما قول المنكرين لمثل هاتين المعجزتين فيما صنعه البشر من طائرات نفاثة، وصواريخ جبارة تقطع آلاف الأميال في زمن قليل؟ فإذا كانت قدرة البشر استطاعت ذلك أفيستبعدون على مبدع البشر وخالق القوى والقدر أن يسخر لنبيه «براقاً» يقطع هذه المسافة في زمن أقل من القليل؟! ولست أقصد بهذا أن الإسراء والمعراج من جنس ما يقدر عليه الناس، فحاشا لله أن أريد ذلك، وإنما أردت تقريبهما لعقول من ينكرونهما بما هو مشاهد ملموس، فمهما تقدمت العلوم وغزو الفضاء فلا يزال الإسراء والمعراج آيتين ظاهرتين للنبي ﷺ.

وأما شبهة أن المعراج لم يذكر في القرآن كما ذكر الإسراء فيدفعها ما قدمته من أن المعراج وإن لم يذكر في القرآن صراحة فقد أشير إليه فيه، ولو سلمنا عدم ثبوته بالقرآن فلا ينبغي أن يكون ذلك سبباً للإنكار، فما الأحاديث إلا مبينة للقرآن، وشارحة له، ومتممة له، وهي الأصل الثاني من أصول التشريع في الإسلام، ومعرفة الحلال والحرام، والحق من الباطل، والهدى من الضلال، وإثبات الآيات والمعجزات، ولو أننا قَصَرنا الدين ومسائله على القرآن الكريم فحسب لفرَّطنا في كثير من الأحكام والآداب، والآيات، والمعجزات الدالة على نبوة النبـي ﷺ.

وأما شبهة أن المعراج يترتب عليه الخرق والالتئام ـ وهو مستحيل ـ ففكرة قديمة عَفَى عليها الزمان، وأبطلتها النظريات العلمية الحديثة، فقد انتهى بحث العلماء إلى أن الكون في أصله كان قطعة واحدة، ثم تناثرت أجزاؤه، وانفصل بعضها عن بعض حتى غدا من ذلك العالم كله: علويه وسفليه.

وأعتقد أن هذه الشبهة أضحت غير ذات موضوع بعد التقدم العظيم، والخطوات الواسعة التي خطاها العلماء الكونيون في غزو الفضاء، والتنقل بين الأجواء، والدوران حول الأرض والقمر، وها هم اليوم جادون في الوصول إلى إنزال إنسان على وجه القمر، ومن يدري؟ فلعلهم بعد الوصول إلى القمر يفكرون في الوصول إلى غيره من الكواكب السيارة، ولا ندري ماذا سيتمخض عنه الغد إن شاء الله تعالى.

وإني لأنتهز هذه المناسبة لأؤكد أننا معشر علماء الإسلام الفاهمين للإسلام، والواعين لأصْلَيه: القرآن والسنة، نرحب بتقدم العلوم والمعارف الكونية، وأننا ندعو إلى الازدياد من هذه العلوم، لأننا على يقين أن تقدم العلوم والكشوف الكونية لا يزيد الإسلام إلا قوة، والقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة إلا ثباتاً ورسوخاً، واقتناعاً للعقل والعلم بهما.

وكيف لا نرحب ولا ندعو وهذا قول الحق تبارك وتعالى نقرؤه صباح مساء، ونعتقد صدقه وحقيّته، قال عز شأنه:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾(١).

بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

وإذا جاز لأناس عاشوا في أزمان ماضية لم تتقدم فيها العلوم الفلكية والكونية استبعاد الإسراء والمعراج، فلا يجوز ذلك قط ممن عاش في عصرنا،

---

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت.

ورأى وسمع عن المخترعات والمستكشفات التي كانت تعد فيما مضى ضرباً من الخيال والمحال.

وأما شبهة أن الهواء ينعدم على بعد خاص فهي لا تبرر الإنكار، فها هم الغواصون يمكثون تحت أعماق الماء الساعات الطوال اكتفاء بما معهم من هواء مخزون يتنفسون منه، وها هم رواد سفن الفضاء قد تغلبوا على هذه المشكلة ـ إن صح أن تسمى اليوم مشكلة ـ بل وعلى ما هو أشكل منها، وأعظم خطراً، ويختزنون معهم من الهواء ما يكفيهم للتنفس، ويحفظ عليهم حياتهم أياماً لا ساعات.

فإذا تمكن الإنسان على عجزه وقدرته المحدودة أن يتغلب على ذلك، أفنستبعد على قدرة الله أن يحفظ حياة نبيه في الطبقات التي ينعدم فيها الهواء بأية وسيلة من الوسائل؟؟ لا، إنه على كل شيء قدير.

ومن بعد ذلك كله نقول كلمة الحق والإيمان:

إن الله سبحانه وتعالى ـ الذي خلق السماوات، والأرضين معلَّقات في الفضاء بلا عمد، وأمسكهما أن تزولا وتسقطا على عِظَم أجرامهما، ودقة مساراتهما، وأبدعهما أيما إبداع، وربط الأسباب بالمسببات، وأوجد للكائنات نواميس خاصة بها، وعلَّم ما يحتاج إليه كل كائن حي من إنسان، أو حيوان، أو نبات، وقدَّر لكل ما يحفظ له حياته ـ لقادر أن يسري بنبيه من مكة إلى بيت المقدس، ثم يعرج به إلى سدرة المنتهى في جزء من الليل، وأن يحفظ عليه حياته في عروجه من الأرض إلى السموات السبع وما فوقهن.

الأحاديث الواردة في الإسراء والمعراج

لقد روى أحاديث الإسراء والمعراج كثير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وتلقَّاها عنهم الرواة العُدول الضابطون، وخرَّجها أئمة الحديث والتفسير بالمأثور في كتبهم، كالأئمة: البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنَسائي، والبيهقي، وابن جرير الطبري، وغيرهم، وذكرها الإمامان محمد بن إسحاق، وعبدالملك بن هشام في سيرتيهما.

قال العلاَّمة ابن كثير في تفسيره: «قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» بعد أن ذكر حديث الإسراء والمعراج من طريق أنس بن مالك، وتكلم عليه فأفاد وأجاد:

وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صَعْصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وابن عباس، وشدَّاد بن أوس، وأبيّ بن كعب، وعبدالرحمن بن قرظ، وأبي حبة[1]، وأبي ليلى الأنصاريين، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب الأنصاري، وأبي أُمامة، وسَمُرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانىء بنت أبي طالب، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع من المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحيح، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة، والملحدون يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون»[2].

رواية البخاري ومسلم في صحيحيهما

وسأكتفي بذكر أوثق الروايات وأصحها، وهي التي اتفق عليها الإمامان الجليلان: البخاري ومسلم في صحيحيهما، ومن أراد استيفاء الروايات في الصحيحين فليرجع إلى رسالة «الإسراء والمعراج»[3].

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما[4] عن قتادة، عن أنس بن مالك،

---

(١) أبو حبة: بفتح الحاء، وبالباء المشددة على المشهور، وعند القابسي بمثناة تحتانية وغلط في ذلك وذكره الواقدي بالنون.

(٢) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ٥ ص ٦٦، ط المنار.

(٣) الإسراء والمعراج للمؤلف، ص ٥٧ ــ ٦٧.

(٤) صحيح البخاري ــ باب المعراج، ج ٥ ص ٦٦؛ صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢ ص ٢٢٣ ــ ٢٢٥.

عن مالك بن صعصعة ــ واللفظ للبخاري ــ أن رسول الله ﷺ حدَّثهم عن ليلة أُسري به قال:

«بينما أنا في الحَطيم، وربما قال: في الحِجْر[1] مضطجعاً إذ أتاني آتٍ، فَقَدَّ[2] قال ــ أي قتادة ــ: وسمعته يقول: فشقَّ ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود[3]: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى ثنته[4]، فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً وحكمة[5]، فغسل قلبي، ثم حُشي ثم أعيد، ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض. فقال له الجارود: هو البراق[6] يا أبا حمزة ــ كنية أنس ــ؟ قال أنس: نعم، يضع خطوه عند أقصى طرفه[7]، فحُملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح[8]، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أُرسل إليه؟[9] قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء[10] جاء، ففتح».

---

(١) الحطيم: هو الحِجْر على الصحيح، والراوي لمَّا لم يتأكد من اللفظ الذي سمعه ذكرهما على صيغة الشك، وهي أمانة في النقل من المحدِّثين مشكورة.

(٢) القد: هو القطع.

(٣) لعله الجارود بن أبي سبرة البصري صاحب أنس وأحد الرواة عنه.

(٤) الثغرة: المكان المنخفض بين الترقوتين، والثنة بضم الثاء وتشديد النون: ما تحت السرة.

(٥) يعني مملوءة بشيء يترتب على الغسل به زيادة الإيمان، وكمال الحكمة.

(٦) بضم الباء، وتخفيف الراء مشتق من البرق، لأن سرعته في سيره مثل سرعة البرق في لمعانه.

(٧) يعني عند منتهى بصره، وما أشد سرعة من كان على هذا الحال.

(٨) طلب الفتح، ولله ملائكة موكلون بكل ما خلق، وله الحكمة البالغة.

(٩) قال العلماء: يعني أنه قد أرسل إليه للعروج إلى السماء، وأما أصل بعثته فمشهورة عند الملأ الأعلى معروفة لهم.

(١٠) قيل المخصوص بالمدح محذوف وفيه تقديم وتأخير، والتقدير جاء فنعم المجيء مجيئه، وقال ابن مالك: المخصوص بالمدح محذوف وجاء صلته أو صفة والتقدير نعم المجيء =

فلما خلصت فإذا فيها آدم(١) عليه الصلاة والسلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبـي الصالح(٢).

ثم صعد بـي حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يحيـى وعيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وهما ابنا الخالة(٣)، قال: هذا يحيـى وعيسى فسلِّم عليهما، فسلَّمت، فردا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبـي الصالح.

ثم صعد بـي إلى السماء الثالثة، فاستفتح، قيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا أخوك يوسف فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالـح، والنبـي الصالح.

ثم صعد بـي إلى السماء الرابعة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبـي الصالح.

= الذي جاءه أو نعم المجيء جاءه، وكونه موصولاً أولى لأنه مخبر عنه، والمخبر عنه إذا كان معرفة أولى من كونه نكرة.

(١) إما أن يكون بعث من قبره استعداداً للقادم الكريم في هذه الليلة، أو تكون روحه تمثلت في جسده من غير بعث، ولعله الأولى والأقرب، وكذلك يقال في جميع الأنبياء الذين تشرفوا بلقائه هذه الليلة ما عدا عيسى عليه السلام.

(٢) اقتصر الأنبياء الذين لقيهم في السماء على وصفه ﷺ بصفة الصلاح لأن فيها جماع الخير كله، والصالح هو الطيب في نفسه، الذي يقوم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد.

(٣) وهذا على أن مريم وإيشاع أم يحيـى بن زكريا أختان، وقيل: إن إيشاع خالة مريم، فيكون في العبارة تسامح، ولا يزال العرف عندنا في مصر يعتبر خالة الأم خالة للابن.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فردَّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: مايبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً[1] بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلون من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلِّم عليه، قال: فسلَّمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم رفعت إلى سِدْرة المنتهى[2]، فإذا نبقها مثل قلال هجر[3]، وإذا ورقها كآذان الفِيَلة[4]، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان،

---

(١) لم يرد موسى ــ عليه السلام ــ التقليل من شأن النبي ﷺ، وحاشا لله أن يريد ذلك، وإنما أراد صغر سنه لمن كان أكبر منه سناً من الأنبياء، وإذا قسنا عمر النبي بأعمار نوح، وإبراهيم، وموسى وجدناه أقل منهم بكثير، ومع هذا فقد أعطاه الله على صغر سنه، وقصر مدته ما لم يعط أحداً ممن هو أسن منه، وأطول زمناً، وتبعه على دينه الحق من غير تحريف ولا تبديل ما لم يتبع أحداً من الأنبياء.

(٢) سميت بذلك لأنها ينتهي إليها علم كل نبي مرسل، وكل ملك مقرَّب، ولم يجاوزها أحد إلا نبينا ﷺ.

(٣) جمع قلة وهي الجرة، والنبق الثمر يعني أن ثمرها في الكبر مثل القلال، وكانت قلال هجر معروفة عند المخاطبين، وهجر: بفتح الهاء والجيم: بلد بقرب المدينة.

(٤) يعني في الشكل والكبر.

ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنـان فنهران في الجنة[1]، وأما الظاهران فالنيل والفرات[2].

ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال[3]: هي الفطرة[4] التي أنت عليها وأمتك.

ثم فرضت عليّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت، فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً. فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأُمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أُمرت؟ قال بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربـي حتى

---

(١) هما: الكوثر والسلسبيل.

(٢) أي مثالها أو عنصرهما وإلا فهما ينبعان من الأرض، وقد فهم النبـي من تمثيلهما له أن دينه سيبلغ هذين النهرين المشهورين وما وراءهما، وهذا ما كان، وبهذا التفسير يظهر لك أن الحديث لا يخالف المشاهدة كما أرجف المرجفون.

(٣) القائل هو جبريل.

(٤) عبر عن اللبن بالفطرة؛ لأنه أول ما يدخل بطن المولود ويشق أمعاءه، وهو الغذاء الذي لم يكن يصنعه صانع غير الله، والغذاء الكامل المستوفي للعناصر التي يحتاج إليها الجسم في بنائه ونموه، مع كونه طيباً سائغاً للشاربين، وقد تكرر هذا العرض مرتين، مرة بعد الصلاة في بيت المقدس ــ كما في صحيح مسلم ــ ومرة في السماء كما في هذا الحديث المتفق عليه.

استحييت، ولكن أرضى وأسلِّم، قال: فلما جاوزت ناداني منادٍ[1]: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي».

* * *

وقد تكفَّلت بعض روايات الإمام مسلم في صحيحه[2] ببيان مجيء النبي بيت المقدس، ودخوله به، وصلاته فيه ركعتين، وعرض جبريل عليه بعد خروجه إناءين: إناء من خمر، وإناء من لبن، فاختار اللبن.

وأن الله تبارك وتعالى قال: «يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر ـ يعني حسنات ـ فذلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة».

وكذلك تكفَّلت بعض الكتب الحديثية الأخرى ببيان ما رآه النبي في مسراه من مكة إلى بيت المقدس، حيث ضربت له الأمثال لبعض الفضائل والرذائل، وصلاته ﷺ ركعتين بطور سيناء، وببيت لحم وبالمدينة، وصلاته بالأنبياء في بيت المقدس، وثناء الأنبياء على ربِّهم، وثناء النبي على ربه، وقد ذكر الكثير من هذه الروايات الدالة على ذلك ابن كثير في تفسيره[3]، والحافظ ابن حجر في «الفتح»[4]، وقد ذكرتُ كل هذا وغيره كرؤية النبي ﷺ لربه، وأهي بعيني بصره؟ أم بعيني قلبه وبصيرته؟! إلى غير ذلك من المباحث المحرَّرة الشيقة في كتابي «الإسراء والمعراج» فليرجع إليه من يشاء التزيد من روايات الإسراء والمعراج.

وقد رويت روايات أخرى في الإسراء والمعراج حصلت فيها بعض

---

(١) المنادي هو الله سبحانه وتعالى إذ هذا الكلام لا يصدر إلا منه سبحانه، وهذا من أقوى الأدلة على أن الله سبحانه وتعالى كلّم نبيه ليلة المعراج بغير وساطة.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢ ص ٢٠٩ ـ ٢١٥.

(٣) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ٥ ص ١٠٧ ـ ١٣٠.

(٤) فتح الباري، ج ٧ ص ١٥٩ ـ ١٧٢.

التزيدات، وأطلق بعض رواتها لأنفسهم فيها عنان الخيال، وأُلحق فيها من هنا وهناك بعض القصص، حتى غدا فيها تخليط وتزيدات كثيرة، وليس فيها من الحقيقة إلا شيء يسير، وذلك مثل الحديث الطويل الذي رواه ابن جرير في تفسيره عن أبي هريرة، وهي رواية مطوَّلة جداً وفيها غرابة، وقد ذكرها ابن كثير في تفسيره[1]، وأشار إلى أنها رويت أيضاً من طريق أبي جعفر الرازي ثم قال ابن كثير:

«وأبو جعفر الرازي قال فيه الحافظ أبو زرعة: الرازي يَهِمُ في الحديث كثيراً، وقد ضعَّفه غيره أيضاً، ووثَّقه بعضهم، والظاهر أنه سيء الحفظ، ففيما تفرّد به نظر، وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابة، ونكارة شديدة، وفيه شيء من حديث المنام برواية سَمُرة بن جندب في المنام الطويل عند البخاري، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى أو مناماً، أو قصة أخرى غير الإسراء».

* * *

(١) تفسير ابن كثير، ج ٥ ص ١٣١ ــ ١٣٧.

الفصل السابع

عرض رسول الله نفسه

على قبائل العرب في موسم الحج

لم يكن بدٌّ لرسول الله ﷺ ـ وقد استحكمت العداوة بينه، وبين قريش، وإصرارهم على خلافه، وإباء أهل الطائف نصرته، والدخول في دعوته، وإيذاؤهم له ـ من أن يُيَمِّمَ وجهه قبائل العرب الأخرى في مواسم الحج، وأسواق التجارة، وقد روى أبو نُعيم بسنده عن العباس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا أرى عندك، ولا عند أخيك ـ يريد أبا لهب ـ مَنَعةً، فهل أنتم مخرجيّ إلى السوق غداً حتى نقر في منازل قبائل الناس» وكان مجمع العرب، فخرج رسول الله ﷺ، ومعه الصديق أبو بكر رضي الله عنه، فعرض نفسه على قبائل العرب وبطونها قائلاً:

«يا بني فلان إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دون الله من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بي، وتمنعوني حتى أبلِّغ رسالة ربي»؟ ويقول: «من يحملني حتى أبلِّغ رسالة ربي» ويقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، وخلفه عمه أبو لهب عبدالعزى بن عبدالمطلب يقول: لا يغرّنكم هذا عن دينكم، ودين آبائكم، إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزَّى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن، إلى ما جاء به من البدعة، والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا له!!

وقد كان من لا يعرف أبا لهب يتعجّب ويقول: من هذا الرجل الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟! فيقال له: هذا عمه أبو لهب!!

فأتى بني كندة في منازلهم، ودعاهم إلى الله فأبَوا عليه، وأتى كَلْباً في

منازلهم فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم، وأتى بني حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم، وأتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له بيحرة[1] بن فراس، والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؛ فقال له رسول الله: «الأمر لله يضعه حيث شاء»، فقال الرجل: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك.

فلما صَدَر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم مجرب كان قد أدركه السن، فحدثوه بخبر رسول الله ﷺ وما قالوه له، فوضع يده على رأسه متأسفاً على ما فاتهم من فضل اتباعه وإيوائه، وأقسم لهم بأنه ما تقوَّلها[2] إسماعيلي قط، يعني أحد من ولد إسماعيل[3].

من دلائل النبوة

وما كان لنا أن نمر بهذه القصة دون أن نعلِّق عليها ففيها دلالة قوية على صدقه ﷺ، فلو كان طالب ملك، أو جاه، أو يتجر بالمبادىء يصنع كما يصنع دهاقين السياسة في القديم والحديث من استمالة الناس بالأحاديث الكاذبة والوعود الخادعة البراقة، ويمنِّيهم الأماني الفارغة حتى إذا تم له ما أراد نسي ما قال، ورجع في وعوده، بل قد يتنكر لهم، ويسفِّه عليهم، وينكل بهم، وهذا فرق ما بين النبوة وغيرها، وما بين الداعي إلى الحق وطالب الدنيا.

استمرار الرسول في العرض

ولم ييأس النبي ﷺ، وما كان له أن ييأس، واستمر يغشَى القبائل

---

(١) هكذا في السيرة بباء مفتوحة، وياء ساكنة، وفي البداية والنهاية نقلاً عن ابن إسحاق بحيرة.

(٢) ما تقوَّلها: يعني النبوة.

(٣) السيرة ج ١ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٥؛ البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٨ ـ ١٤٠.

والبطون في المواسم، والمجامع، والمنازل، ويكلم أشراف كل قوم، لا يسألهم مع ذلك شيئاً إلا أن يؤووه ويمنعوه، وكان يقول لهم: «لا أكره أحداً منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، وإنما أريد أن تحرزوني[1] فيما يراد لي من القتل حتى أبلِّغ رسالة ربي، وحتى يقضي الله لي، ولمن صحبني بما شاء» فلم يقبل أحد منهم، وما يأتي أحداً من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلاً يصلحنا، وقد أفسد قومه، ولفظوه؟!

وقد شاء الله تعالى أن يدخر فضل الاتباع والنصرة للأنصار ـ رضي الله عنهم ـ.

ترصد الأشراف القادمين إلى مكة

ولجأ رسول الله ﷺ إلى وسيلة أخرى عسى أن يكون من ورائها خير للدعوة، فكان لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف إلا تصدَّى له، ودعاه إلى الله تعالى وعرض عليه ما جاء به من الهدى والحق.

إسلام سُوَيد بن الصامت

فقدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجاً أو معتمراً، وكان سويد يسميه قومه فيهم الكامل، لجَلَده، وشِعْره، وشرفه، ونسبه، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك»؟ قال: مجلة[2] لقمان، فقال له رسول الله: «اعرضها علي» فعرضها عليه فقال: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا: قرآن أنزله الله علي، هو هدى ونور» فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعُد منه، وقال: إن هذا القول حسن. ثم انصرف عنه فقدم المدينة

---

(١) تحفظوني وتحرسوني ففي القاموس: «وحرزه: حفظه، أو هو إبدال، والأصل حرسه».
(٢) المجلة: الصحيفة، وتطلق على الحكمة أي حكمة لقمان.

على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج، وقد كان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قتل وهو مسلم، وكان قتل قبل يوم بُعَاث.

إسلام إياس بن معاذ

لما قدم أبو الحَيْسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبدالأشهل فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم، فقال: «هل لكم في خير مما جئتم له»؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليَّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ ــ وكان غلاماً حدَثاً ــ: هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر كفاً من تراب، وضرب به وجهه، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس.

وقام رسول الله عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، وقد روى من حضره من قومه أنه ما زال يهلّل الله ويكبره، ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

يوم بُعاث(١)

وهو يوم كانت فيه موقعة عظيمة بين الأوس والخزرج، وقُتل فيه خلق كثير من أشرافهم وكبرائهم، ولم يَبْقَ فيه من شيوخهم إلا القليل، وقد كان الغلب فيه للأوس على الخزرج.

وقد شاء الله سبحانه أن تكون هذه الوقعة العظيمة قبيل مَقْدم النبي ﷺ المدينة لتتهيّأ النفوس لقبول الإسلام والإيمان بالنبي، وليظهر فضل الإسلام

---

(١) بعاث على وزن غراب وهو بالعين المهملة: موضع بقرب المدينة، وصحفه بعضهم فجعله بالغين المعجمة.

على الأنصار؛ فقد جمعهم بعد الفرقة، وغرس في قلوبهم المحبة بعد العداوة، والوئام بعد الشقاق، روى البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: «كان يوم بُعاث يوماً قدَّمه الله لرسوله، قدم رسول الله ﷺ المدينة، وقد افترق ملأهم[1]، وقُتل سَرَاتهم»[2].

* * *

(١) الملأ: رؤساء الناس ومقدّموهم الذين يرجع إلى قولهم.

(٢) ساداتهم وأشرافهم.

طلائع النور من جهة المدينة

بدء إسلام الأنصار

لما أراد الله سبحانه إظهار دينه وإعزاز نبيه، وإنجاز وعده له خرج رسول الله ﷺ في موسم الحج، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة ساق الله نفراً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، فكانوا طلائع هذا النور الذي أبى الله إلا أن يكون من المدينة.

فقال لهم: «من أنتم»؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: «أمن موالي اليهود»[1]! قالوا: نعم. قال: «أفلا تجلسون إليَّ أكلمكم»! قالوا: بلى، فجلسوا إليه، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان من أسباب مسارعتهم إلى قبول دعوة الإسلام أن يهود كانوا يساكنونهم في المدينة، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك، وأصحاب أوثان. وكانت تقع بين اليهود وبين الأوس والخزرج وقائع وحروب، وكانت الغلبة تكون للعرب، فكان إذا وقع شيء منها قالوا لهم: «إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظلَّ[2] زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عادٍ وإرم» فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله تهامسوا وقال بعضهم لبعض: تعلمون[3] ــ والله ــ أنه النبي الذي توعَّدكم به يهود، فلا يسبقنَّكم إليه.

---

(١) أي حلفائهم.

(٢) قرب.

(٣) تعلمون: أي اعلموا.

فلا عجب أن أسرعوا إلى إجابته، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، وسنقدم عليهم، وندعوهم إلى الإسلام ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك. ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم بعد أن آمنوا وأسلموا، وكانوا ستة نفر ــ فيما ذكر ابن إسحاق ــ وهم:

(١) أسعد بن زُرارة من بني النجار، وقال أبو نعيم: إنه أول من أسلم من الأنصار من الخزرج. (٢) وعوف بن الحارث بن رفاعة من بني النجار، وهو ابن عفراء بنت عبيد النجارية، وهي أم معاذ، ومعوذ، وإليها ينسبون. (٣) ورافع بن مالك بن العجلان الزرقي. (٤) وقطبة بن عامر من بني سَلِمة[١]. (٥) وعقبة بن عامر بن نابي السلمي أيضاً، ثم من حَرَام. (٦) وجابر بن عبدالله بن رياب[٢] السلمي، ثم من بني عبيد.

وذكر موسى بن عقبة في مغازيه أنهم كانوا ثمانية، منهم من ذكره ابن إسحاق، وبعضهم لم يذكره وهم:

(١) أسعد بن زرارة. (٢) ورافع بن مالك. (٣) ومعاذ بن عفراء. (٤) ويزيد بن ثعلبة. (٥) وأبو الهيثم بن التّيِّهان. (٦) وعُويم بن ساعدة. (٧) وعبادة بن الصامت. (٨) وذكوان.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم أمر رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى

---

(١) بفتح السين وكسر اللام، وتفتح عند النسب.

(٢) بكسر الراء، وفتح الياء الخفيفة، فألف، فموحدة، وهو غير جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري الصحابي ابن الصحابي، وقد تسمى بجابر بن عبدالله خمسة: هذان، وجابر بن عبدالله العبدي، وجابر بن عبدالله الراسبي، وجابر بن عبدالله الأنصاري استصغره النبي ﷺ يوم أحد فرده، وليس بجابر بن عبدالله المشهور (شرح المواهب ج ١ ص ٣٧٥).

الإسلام حتى فشا فيهم، ولم تبق دار من دور الأنصار حتى كان فيها ذكر لرسول الله والإسلام.

بيعة العقبة الأولى[1]

حتى إذا كان العام المقبل قدم على النبي ﷺ اثنا عشر رجلاً، فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ، منهم خمسة من الستة الذين أسلموا أولاً، وهم:

(١) أسعد بن زرارة. (٢) وعوف بن عفراء. (٣) ورافع بن مالك. (٤) وقطبة بن عامر السلمي. (٥) وعقبة بن عامر بن نابي.

والسبعة الباقون هم: (٦) معاذ بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عفراء أخو عوف المذكور. (٧) وذَكْوان بن عبدقيس البدري الزرقي[2]. (٨) وعبادة بن الصامت بن قيس. (٩) وأبو عبدالرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة[3]. (١٠) والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان[4] وهؤلاء العشرة من الخزرج. (١١) وأبو الهيثم مالك بن التَّيِّهان[5] من بني عبدالأشهل. (١٢) وعويم بن ساعدة ـ وهما أوسيان ـ فلما عادوا إلى المدينة أظهروا الإسلام ودَعوا إليه.

---

(١) جرى ابن إسحاق وغيره على عد هذه العقبة الأولى، وما بعدها الثانية، لأن هذه والتي بعدها هما اللتان حصلت فيهما المبايعة، ومن لم ينظر إلى المبايعة عدّ العقبات ثلاثاً. وعلى هذا جرى صاحب المواهب.

(٢) ذكوان: بفتح الذال المعجمة، وسكون الكاف، الزرقي بتقديم الزاي المضمومة، على الراء، وكذا كل ما في نسب الأنصار قاله ابن ماكولا وغيره، نسبة إلى جده زريق، وقيل: إنه رحل إلى رسول الله بمكة فسكنها معه، ثم هاجر لما هاجر المسلمون، فهو مهاجري أنصاري كما قال ابن هشام، وقتل يوم أحد.

(٣) بفتح المعجمتين كما ضبطه الطبري والدارقطني، وقال ابن إسحاق والكلبي: بسكون الزاي.

(٤) قيل إنه مهاجري أنصاري أيضاً.

(٥) بفتح التاء المثناة فتحتية عند أهل الحجاز، مشددة عند غيرهم، واسمه أيضاً مالك شهد أبو الهيثم العقبة، وبدراً والمشاهد كلها.

علام كانت المبايعة؟

وقد ذكر ابن إسحاق في سيرته بسنده عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنت ممن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تُفْترض الحرب: على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفَّيْتم فلكم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر».

وذكر عن ابن شهاب نحو ذلك ولكنه أوفى وأتم، ولفظه: «وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأُخذتم بحدِّه في الدنيا فهو كفارة له، وإن سُترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله ـ عز وجل ـ إن شاء عذَّب، وإن شاء غفر».

وقد تابع ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ بعضُ كتاب السيرة من القدماء، وبعض المُحْدَثين كالدكتور محمد حسين هيكل، وظاهر رواية الشيخين في صحيحيهما تفيد ذلك، فقد رويا بسندهما ـ واللفظ للبخاري ـ أن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ وكان شهد بدراً، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ـ قال: إن رسول الله ﷺ قال وعليه عصابة[1]: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفَى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك» وليس في هذه الرواية الصحيحة تصريح بأن هذه المبايعة كانت ليلة العقبة، وليس من شك في أن آية بيعة النساء نزلت بعد الحديبية بلا خلاف، وأين العقبة الأولى من الحديبية؟ فمن ثم سلك العلماء المحققون في مقالة ابن إسحاق على بيعة النساء مسالك:

---

(١) العصابة: الجماعة من العشرة إلى الأربعين، ولا واحد لها من لفظها، وجمعت على عصائب وعصب.

فقال ابن كثير: «وقوله على بيعة النساء يعني: على وفق ما نزلت عليه آية بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية، وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة. وليس هذا بعجيب، فإن القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب في غير ما موطن كما بيَّناه في سيرته، وفي التفسير، وإن كانت هذه البيعة وقعت على وجه غير متلو فهو أظهر والله أعلم»(١).

ولكن الإمام الحافظ ابن حجر يرى أن المبايعة المذكورة في حديث عبادة لم تقع ليلة العقبة، وأن المبايعة هذه الليلة كانت على الإيواء، والنصرة، والسمع والطاعة، ففي حديث عبادة عند البخاري قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره. . .» الحديث.

وأصرح من ذلك في المراد ما أخرجه أحمد، والطبراني من وجه آخر عن عبادة بن الصامت أنه جرت له قصة مع أبي هريرة عند معاوية بالشام، فقال: «يا أبا هريرة، إنك لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة: في النشاط والكسل، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول الحق، ولا نخاف في الله لومة لائم، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا، وأبناءنا، ولنا الجنة، فهذه بيعة رسول الله ﷺ التي بايعناه عليها».

وأما المبايعة على الصفة المذكورة فإنما وقعت بعد فتح مكة بعد أن نزلت الآية التي في الممتحنة، وهي قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢ ﴾(٢).

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥١.

(٢) الآية ١٢ من سورة الممتحنة.

ونزول هذه الآية متأخر بعد قصة الحديبية بلا خلاف، والدليل على ذلك ما عند البخاري في «كتاب الحدود» في حديث عبادة هذا «أن النبي ﷺ لما بايعهم قرأ الآية كلها» وفي صحيح مسلم قال: «فتلا علينا آية النساء قال: لا تشركن بالله شيئاً. .».

وفي رواية الطبراني للحديث: «بايعنا رسول الله ﷺ على ما بايع عليه النساء يوم فتح مكة. .» ثم قال: فهذه أدلة ظاهرة في أن هذه البيعة إنما صدرت بعد نزول الآية بعد صدور البيعة، بل بعد فتح مكة، وإنما حصل الالتباس من جهة أن عبادة بن الصامت حضر البيعتين معاً: العقبة، والبيعة على مثل بيعة النساء يوم الفتح، وكانت بيعة العقبة من أجلِّ ما يُتَمدَّح به. فكان يذكرها إذا حدَّث تنويهاً بسابقته، فلما ذكر هذه البيعة التي صدرت على مثل بيعة النساء عقب ذلك توهَّم من لم يقف على حقيقة الحال أن البيعة الأولى وقعت على ذلك(1).

وهذا الذي ذكره الحافظ هو الذي يجب أن يصار إليه، فهو ـ رحمه الله ـ من أعلم الناس بالقرآن وتنزلاته، والسنة وطرق الجمع بين رواياتها المختلفة، وبالسيرة وتواريخ الصحابة، وله انتقادات كثيرة صائبة على ابن إسحاق وغيره من كتاب السِيَر وتاريخ الرجال.

وهذه التحقيقات والتنبيه إلى المغالط والأوهام في الرواية هي من أهم ما يعنى به الدارسون للسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، وهي قد تخفى على غير المتخصصين في علوم القرآن والسنة وعلومها، فالحمد لله الذي هدانا لهذا.

والخلاصة: أن المبايعة في العقبة الأولى كانت على السمع والطاعة في العسر واليسر، وفي المنشط والمكره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول الحق، وأن لا يخافوا في الله لومة لائم، وعلى الولاء والنصرة لرسول الله إذا قدم عليهم يثرب، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم، وأولادهم، وأما المبايعة على مثل بيعة النساء فقد كانت بعد ذلك.

---

(1) فتح الباري ج ١ ص ١٢، ١٣.

أول جمعة جُمّعت في المدينة قبل الهجرة

وقد كان من مآثر السيد الصحابي الجليل أسعد بن زرارة النجاري الخزرجي أنه أول من صلّى بالناس الجمعة قبل مَقْدَم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، فقد روى ابن إسحاق بسنده عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك قال: «كنت قائد أبي كعب بن مالك حين ذهب[1] بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها صلَّى[2] على أبي أمامة أسعد بن زرارة، قال: فمكث حيناً على ذلك لا يسمع الأذان للجمعة إلا صلّى عليه واستغفر له، قال: فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لَعجزٌ أن لا أسأله: ما له إذا سمع الأذان للجمعة صلّى على أبي أمامة أسعد بن زرارة؟

قال: فخرجت به في يوم جمعة كما كنت أخرج، فلما سمع الأذان للجمعة صلّى عليه، واستغفر له، فقلت له: يا أبت مالك إذا سمعت الأذان للجمعة صلّيت على أبي أمامة؟ فقال: أي بني، كان أول من جمع بنا بالمدينة في هَزْم النبيت من حَرَّة بني بياضة، يقال له: نقيع الخضمات، قلت: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً» ورواه أبو داود وابن ماجه من طريق ابن إسحاق.

أول مبعوث في الإسلام

لما انصرف القوم من الأوس والخزرج إلى المدينة كتبوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا من يقرئنا القرآن، وقد صادف هذا هوىً من نفس النبي ﷺ، فأرسل إليهم الصحابي الجليل مصعب بن عمير بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار بن قصي[3]، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم

---

(١) ذهب بصره: كُفَّ وعمي.

(٢) صلى عليه: دَعَا له.

(٣) كنيته أبو عبدالله، وكان من أجلّة الصحابة وفضلائهم، سباقاً إلى كل خير وفضل، هاجر إلى الحبشة في أول من هاجر إليها، ثم أرسله رسول الله ﷺ إلى الأنصار كما رأيت فنجح في مهمته خير نجاح، وكان مصعب قد تربى في النعيم، وكان يعتبر فتى مكة شباباً، وجمالاً، وسمتاً، وكان رسول الله يذكره ويقول: «ما رأيت بمكة أحسن لمة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير» وقد آثر الإسلام، وسارع إليه على ما ناله بسببه من =

في الدين، وأن يؤمهم في الصلاة، وذلك أن الأوس والخزرج كره كل منهم أن يؤمه الآخر، وكان يسمى بالمدينة «المقرىء» و«القارىء»، وكان نزوله بالمدينة على السيد الصحابي الجليل السابق إلى الخير سيد الخزرج، ونقيب بني النجار أسعد بن زرارة بن عدس بن أبي أمامة.

نجاح مصعب في مهمته

وقد نجح داعية الإسلام بالمدينة في إسلام الكثيرين من أهلها، ومن أجلِّهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير[1]، وبإسلامهما أسلم الكثيرون من بني عبدالأشهل وغيرهم، وإليك قصة مصعب معهما، فإن فيها أسوة حسنة لكل داع إلى الله، وإلى الإسلام بإخلاص وعقيدة، وتفان في سبيل الدعوة.

ذلك أن مصعب بن عمير نزل على أسعد بن زرارة سابق الأنصار إلى الإسلام، فخرج أسعد بمصعب يريد دار بني عبدالأشهل، ودار بني ظَفَر، فدخل به أسعد حائطاً[2] من حيطان بني ظفر على بئر يقال لها: بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممّن أسلم، وكان سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير سيِّدَيْ قومهما من بني عبدالأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفّها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً.

فأخذ أسيد بن حُضَيْر حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة

= الإيذاء، والضيق، والتقشف، ورثاثة الحال، فلا تعجب إذا كان رسول الله إذا رآه بكى لحاله، وقد شهد بدراً، واستشهد بأحد لما حمى رسول الله بنفسه، ولما مات كان عليه ثوب إن «غطُّوا به رأسه تبدَّت رجلاه، وإن غطّوا به رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله: غطُّوا رأسه وضعوا على رجليه الإذخر»، فرضي الله عنه وأرضاه.

(١) بالتصغير فيهما.

(٢) حائطاً: بستاناً.

قال: هذا سيد قومه وقد جاءك فاصْدُقِ الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشتماً فقال: ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟! اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادىء الواثق من سماحة دعوته: أوَ تَجْلس فتسمع، فإن رضيتَ أمراً قبلتَه، وإن كرهته كفَّ عنك ما تكره؟!

قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لَعَرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلِّي، فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلَّف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!! فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك[1].

فقام سعد مغضباً مبادراً مخوفاً للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين، فعرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاءك ــ والله ــ

(١) كان غرض أسيد إثارة حمية سعد ليقوم ويذهب إلى أسعد وصاحبه مصعب، ويسمع منه.

سيد مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلَّف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا ـ والله ـ في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتطَّهر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلِّي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبدالأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبدالأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأصيرم(١) وهو عمرو بن ثابت بن وَقْش(٢)، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد بأحد، ولم يصلِّ لله سجدة قط، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

وقد روى ابن إسحاق ـ بإسناد حسن ـ عن أبـي هريرة أنه كان يقول: «حدِّثوني عن رجل دخل الجنة لم يصلِّ صلاة قط، فإذا لم يعرفه الناس قال

---

(١) بصاد مهملة تصغير أصرم، وبه كان يلقب أيضاً، وقيل: أصرم، وقدمه البعض على المصغَّر.

(٢) بفتح الواو وسكون القاف، وشين معجمة، ويقال: أقيش، وقد ينسب إلى جده فيقال: ابن أقيش.

هو أصيرم بني عبدالأشهل» ولم يكن في بني عبدالأشهل منافق ولا منافقة بل كانوا حنفاء مخلصين ــ رضي الله عنهم ــ وإلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف، وهم من الأوس بن حارثة، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت واسمه صيفي، وقيل: الحارث، وقيل: عبيدالله، وكان شاعراً وقائداً لهم يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام حتى كان بعد الخندق، وقد اختلف في إسلامه، فالأكثرون ــ ابن إسحاق والزبير بن بكار والواقدي ــ على أنه لم يسلم، وأن الذي حال بينه وبين الإسلام بعد أن عزم عليه ابن أبيّ رأس النفاق، وقيل: إنه أسلم، والأول هو الصحيح(١).

بيعة العقبة الثانية

ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة بعد أن دعا إلى الله بإخلاص وعزيمة صادقة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة، فوعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد بهم ما أراد من كرامته ونصر نبيه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وذويه، وكان في القوم كعب بن مالك، والبراء بن معرور سيد من ساداتهم وكبير من كبرائهم، فقال لهم: إني قد رأيت رأياً فوالله ما أرى أتوافقونني عليه أم لا؟

فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنيَّة ــ يعني الكعبة ــ مني بظهر، وأن أصلي إليها، فقالوا له: والله ما بلغنا أن النبي ﷺ يصلِّي إلا إلى الشام ــ ببيت المقدس ــ وما نريد أن نخالفه، فكانوا إذا حضرت الصلاة صلُّوا إلى بيت المقدس، وصلَّى هو إلى الكعبة، واستمروا كذلك حتى قدموا مكة، وتعرفوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس مع عمه العباس بالمسجد الحرام، فسأل النبي ﷺ العباس: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل»؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فقال النبي ﷺ: «الشاعر؟» قال: نعم، فقصَّ عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى الكعبة.

---

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ١٥٦.

وقال: فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها»[1] قال كعب: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، وصلَّى معنا إلى الشام، فلما حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجهوه قِبَل الكعبة، ومات في صفر قبل قدومه ﷺ بشهر، وأوصى بثلث ماله إلى النبي، فقبله وردَّه على ولده، وهو أول من أوصى بثلث ماله.

إسلام عبدالله بن عمرو بن حرام

قال كعب ـ راوي القصة ـ: فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام ـ والد جابر ـ سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا أخذناه معنا، وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا، فكلَّمناه، وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً.

عدَّة أصحاب العقبة الثانية

قال كعب: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشِعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من

---

(١) قال السهيلي في هذا الحديث: إنه لم يأمره بإعادة ما قد صلَّى لأنه كان متأولاً، وكان باجتهاد منه، وفي الحديث أنه ﷺ كان يصلِّي بمكة إلى بيت المقدس، وهو قول ابن عباس. وقالت طائفة: ما صلَّى إلى بيت المقدس إلا مذ قدم المدينة سبعة عشر شهراً أوستة عشر شهراً، فعلى هذا يكون حصل في القبلة نسخان: نسخ سنة بسنة، ونسخ سنة بقرآن، وقد بيَّن حديث ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة، فروي عنه من طرق صحاح: أن رسول الله ﷺ كان إذا صلَّى بمكة استقبل بيت المقدس، وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فلما كان عليه السلام يتحرى القبلتين جميعاً لم يتبين توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة.

نسائنا: نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار[1]، والثانية: أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي إحدى نساء بني سَلِمة، وهي أم منيع، وقال الحاكم: كان عدتهم خمسة وسبعين رجلاً وامرأة، وهو يزيد على ما ذكره ابن إسحاق.

وقال عروة بن الزبير وموسى بن عقبة: كانوا سبعين رجلاً وامرأة واحدة، أربعون من ذوي أسنانهم، وثلاثون من شبانهم.

وقد تكفَّل الإمام ابن إسحاق في سيرته بسرد أسمائهم، وقبائلهم، فمن أراد الاستقصاء فليرجع إليها[2]، وإليك خلاصة ذلك على ما ذكره ابن كثير في بدايته[3].

أسماء أصحاب بيعة العقبة الثانية

قال ابن كثير: وجملتهم على ما قال ابن إسحاق ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان.

فمن الأوس أحد عشر رجلاً: أسيد بن حضير أحد النقباء، وأبو الهيثم ابن التيِّهان بدري أيضاً، وسلمة بن سلامة بن وَقْش بدري، وظهير بن رافع، وأبو بردة بن نيار[4] بدري، ونهير بن الهيثم من بني نابي بن مجدعة بن حارثة، وسعد بن خيثمة أحد النقباء بدري، وقتل بها شهيداً، ورفاعة بن عبدالمنذر بن زنبر نقيب بدري، وعبدالله بن جبير بن النعمان بن أمية بن البرك بدري، وقتل يوم أحد شهيداً أميراً على الرماة، ومعن بن عدي بن الجد بن عجلان بن الحارث بن ضبيعة البلوي حليف للأوس، شهد بدراً، وما بعدها، وقتل باليمامة شهيداً، وعويم بن ساعدة شهد بدراً وما بعدها.

---

(١) سيأتيك من بطولتها وتضحياتها في سبيل الإسلام، وما كان من شأن زوجها زيد بن عاصم، وولديها: حبيب، وعبدالله صفحات مشرقة في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى.

(٢) السيرة، ج ١ ص ٤٥٤، ٤٦٧.

(٣) البداية والنهاية، ج ٣ ص ١٦٦، ١٦٨.

(٤) في البداية: دينار وهو تحريف والصحيح نيار كما في السيرة وغيرها.

ومن الخزرج اثنان وستون رجلاً: أبو أيوب خالد بن زيد شهد بدراً وما بعدها، ومات بأرض الروم زمن معاوية، ومعاذ بن الحارث، وأخواه عوف ومعَوِّذ، وهم بنو عفراء بدريون، وعمارة بن حزم شهد بدراً وما بعدها وقتل باليمامة، وأسعد بن زرارة أبو أمامة أحد النقباء مات قبل بدر، وسهل بن عتيك بدري، وأوس بن ثابت بن المنذر بدري، وأبو طلحة زيد بن سهل بدري، وقيس بن أبي صعصعة عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن كان أميراً على الساقة يوم بدر.

وعمرو بن غزية، وسعد بن الربيع أحد النقباء شهد بدراً وقتل يوم أحد شهيداً، وخارجة بن زيد بن أبي زهير بن مالك شهد بدراً، وقتل يوم أحد شهيداً، وعبدالله بن رواحة أحد النقباء شهد بدراً وأحداً والخندق، وقتل يوم مؤتة أميراً، وبشير بن سعد بدري، وعبدالله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه الذي أُري النداء[1] وهو بدري، وخلّاد بن سويد بدري أحدي خندقي، وقتل يوم قريظة شهيداً طرحت عليه رحى فشدخته، فيقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن له لأجر شهيدين» وأبو مسعود عقبة بن عمرو البدري، قال ابن إسحاق: وهو أحدث من شهد العقبة سناً، ولم يشهد بدراً، وزياد بن لبيد بدري، وفروة بن عمرو بن ودقة، وخالد بن قيس بن مالك بدري، ورافع بن مالك أحد النقباء.

وذكوان بن عبدقيس بن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق، وهو الذي يقال له: مهاجري أنصاري لأنه أقام عند رسول الله ﷺ بمكة حتى هاجر منها، وهو بدري قتل يوم أحد، وعبّاد بن قيس بن عامر بن خالد بن عامر بن زريق بدري، وأخوه الحارث بن قيس بن عامر بدري أيضاً، والبراء بن معرور أحد النقباء، وأول من بايع فيما تزعم بنو سَلِمة، وقد مات قبل مَقْدَم النبي ﷺ المدينة، وابنه بشر بن البراء وقد شهد بدراً وأحداً والخندق، ومات بخيبر شهيداً من أكلة مع رسول الله ﷺ من الشاة المسمومة التي صنعتها زينب زوجة

(١) أي الأذان.

سلّام بن مشكم اليهودية، وسنان بن صيفي بن صخر بدري، والطفيل بن النعمان بن خنساء بدري، قتل يوم الخندق، ومعقل بن المنذر بن سَرْح بدري، وأخوه يزيد بن المنذر بدري، ومسعود بن يزيد بن سبيع.

والضحاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بدري، ويزيد بن خذام بن سبيع، وجبار بن صخر بن أمية بن خنساء بن سنان بن عبيد بدري، والطفيل بن مالك بن خنساء بدري، وكعب بن مالك، وسليم بن عمرو بن حديدة بدري، وقطبة بن عامر بن حديدة بدري، وأخوه أبو المنذر يزيد بدري أيضاً، وأبو اليَسَر كعب بن عمرو بدري، وصيفي بن أسود بن عباد.

وثعلبة بن غنمة بن عدي بن نابي بدري، واستشهد بالخندق، وأخوه عمرو بن غنمة بن عدي، وعبس بن عامر بن عدي بدري، وخالد بن عمرو بن عدي بن نابي، وعبدالله بن أنيس حليف لهم من قضاعة، وعبدالله بن عمرو بن حرام أحد النقباء، بدري واستشهد يوم أحد، وابنه جابر بن عبدالله، ومعاذ بن عمرو بن الجموح بدري، وثابت بن الجذع بدري وقتل شهيداً بالطائف، وعمير بن الحارث بن ثعلبة بدري، وخديج بن سلامة حليف لهم من بَلِي.

ومعاذ بن جبل شهد بدراً، وما بعدها، ومات بطاعون عَمَواس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعبادة بن الصامت أحد النقباء شهد بدراً وما بعدها، والعباس بن عُبادة بن نَضْلة، وقد أقام بمكة حتى هاجر منها فكان يقال له: مهاجري أنصاري أيضاً، وقتل يوم أحد شهيداً، وأبو عبدالرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم حليف لهم من بَلِي، وعمرو بن الحارث بن لَبدة، ورفاعة بن عمرو بن زيد بدري، وعقبة بن وهب بن كلدة حليف لهم بدري، وكان ممن خرج إلى مكة فأقام بها حتى هاجر منها، فهو ممن يقال له: مهاجري أنصاري أيضاً، وسعد بن عبادة بن دليم أحد النقباء، والمنذر بن عمرو نقيب بدري أحدي، وقتل يوم بئر معونة أميراً.

وأما المرأتان: فأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية النجارية، والأخرى: أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي السلمية.

حضور العباس العقبة استيثاقاً لأمر ابن أخيه

قال كعب: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبدالمطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويستوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب، فقال: يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب إنما يسمـون هذا الحي من الأنصار الخزرج لخزرجها وأوسهـا ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومَنَعة في بلده، وإنه قد أبـى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومَنَعة من قومه وبلده، فقالوا: قد سمعنا يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

مقالة العباس بن عبادة بن نضلة

ولما اجتمع القوم لبيعة رسول الله ﷺ قام العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري ـ وهو أحد الذين بايعوا العقبة الأولى ـ فقال: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن، فهو ـ والله إن فعلتم ـ خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة[1] الأموال وقتل الأشراف، فخذوه، فهو ـ والله ـ خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه عـلى مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا بذلك؟ قال: «الجنة» قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه. وما أراد العباس ـ رضي الله عنه ـ بمقالته تلك إلا أن يشد العقد لرسول الله ﷺ في أعناقهم.

عهد رسول الله على الأنصار والمبايعة

وتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم، وأبناءكم».

---

(١) نقص.

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق نبيّاً لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا(١)، فبايِعْنا يا رسول الله، فنحن ـ والله ـ أبناء الحروب، وأهل الحلقة(٢) ورثناها كابراً عن كابر، وكانت وصاة رسول الله ﷺ لهم أن يوجزوا في القول، فقد روى البيهقي أنه قال: «ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة فإن عليكم من المشركين عيناً، وإن يعلموا بكم يفضحوكم».

وإنه لتوجيه كريم يدل على بعد النظر، وأصالة الرأي، وحسن التدبير في هذا الاجتماع الخطير.

مقالة أبي الهيثم بن التَّيِّهان

ولما فرغ البراء بن معرور من مقالته قام أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حِبالاً(٣) إنا قاطعوها، فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم والهَدْم الهَدْم(٤)، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» وقد وفى رسول الله ﷺ بما قال بل وبأكثر مما قال، فقد عرف للأنصار فضلهم وسابقتهم، وأوصى بهم خيراً.

مقالة أسعد بن زرارة

وكان ممن تكلم أيضاً السيد الجليل أسعد بن زرارة فقال: سَلْ يا محمد

---

(١) جمع إزار، أي نساءنا، والمرأة قد يكنى عنها بالإزار لأنها تُحمى كما يحمى الإزار، أو المراد أنفسنا، وقد يعبر عن النفس بالإزار والثوب، ففي الكتاب الكريم: ﴿وثيابك فطهر﴾ قال بعض المفسرين: ونفسك فطهر، وقال عنترة العبسي:

فشككت بالرمح الأصمِّ ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرَّم

أي نفسه وذاته. فيجوز أن يراد به أيّ المعنيين.

(٢) السلاح.

(٣) عهوداً والمراد ما كان بينهم وبين اليهود بالمدينة.

(٤) كانت العرب تقولها عند عقد الحلف والجوار، أي ما هدمت من الدماء هدمت أنا أي أهدرت، وفسر ابن عباس الهدم بالحرمة يعني ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم، فالعبارة تفيد المبالغة في الوفاء بالعهد.

لربك ما شئت، ثم سَلْ لنفسك بعد ذلك ما شئت، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب إذا فعلنا ذلك، فقال: «أسألكم لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا، وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم» قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة» قالوا: فلك ذلك.

أول من بايع

ثم أقبل الأنصار على مبايعة رسول الله ﷺ بإخلاص وعزيمة، وقد اختلف الرواة في أول من بايع، فابن إسحاق يقول فيما يرويه عن كعب بن مالك إنه البراء بن معرور، وبنو النجار يزعمون أنه أبو أمامة أسعد بن زرارة، وهو الذي رواه ابن سعد في طبقاته عن العباس قال: أول من ضرب على يده ﷺ تلك الليلة أسعد بن زرارة، ثم البراء بن معرور، ثم أسيد بن الحضير[1].

وبنو عبدالأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان، وقال ابن الأثير في «أسد الغابة»: وبنو سَلِمة يزعمون أن أول من بايعه ليلتئذ كعب بن مالك.

ولعل السبب في هذا الاختلاف أن كلًّا من هؤلاء تكلم ثم قام فبايع، فأخبر من رآه يبايع، ولم يكن علم بغيره أنه أول من بايع، ومثل هذه المواقف مما يحصل فيها الاشتباه، والأمر هيِّن ويحسبهم فضلاً وفاؤهم بما عاهدوا الله ونبيه عليه.

النقباء الاثنا عشر

وبعد أن بايع القوم على هذه الشروط قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا منكم اثني عشر نقيباً يكونون كفلاء على قومهم بما فيهم»[2] فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً[3]: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وها هي أسماؤهم: (١) أبو أمامة

---

(١) شرح المواهب، ج ١ ص ٣٨١ ــ ٣٨٢.

(٢) أخذ هذا النبي من قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق بني إسرائيل، وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً، وقال الله إني معكم...﴾ الآية ١٢ من سورة المائدة.

(٣) النقيب: الرئيس المسؤول عن القوم.

أسعد بن زُرارة. (٢) وسعد بن الربيع. (٣) وعبدالله بن رواحة. (٤) ورافع بن مالك بن العجلان. (٥) والبراء بن معرور. (٦) وعبدالله بن عمرو بن حَرَام. (٧) وعبادة بن الصامت. (٨) وسعد بن عبادة. (٩) والمنذر بن عمرو وهم من الخزرج. (١٠) وأسيد بن حضير. (١١) وسعد بن خيثمة. (١٢) ورفاعة بن عبد المنذر وهؤلاء الثلاثة من الأوس.

قال ابن هشام: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيِّهان، ولا يعدون رفاعة، واستشهد بقصيدة كعب بن مالك في النقباء، فإنه ذكر فيهم «أبا الهيثم» ولم يذكر رفاعة[1].

ثم قال رسول الله ﷺ للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي» يعني المهاجرين. قالوا: نعم، فكان هذا إلزاماً من الرسول لهم، والتزاماً منه لهم.

إذن رسول الله لهم بالانصراف

ثم أذن رسول الله ﷺ في الانصراف قائلاً: «ارفضُّوا[2] إلى رحالكم» وذلك مبالغة في الحيطة والحذر كي يبقى أمر الاجتماع في طي الكتمان، فقال العباس بن عبادة بن نَضْلة: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بهذا، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعوا إليها وباتوا حتى أصبحوا.

عند الصباح

وفي الصباح غدت جلّة قريش على الأنصار لـمّا نُمي إليهم نبأ البيعة، حتى جاؤوا إليهم في منازلهم، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه ــ والله ــ ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

فانبعث من هناك من المشركين يحلفون بالله ما كان من هذا شيء،

---

(١) السيرة ج ١ ص ٤٤٥.
(٢) تفرقوا.

وما علمناه، وصَدَقوا، فإنهم لم يعلموه، وأما المسلمون فصار بعضهم ينظر إلى بعض ولا يتكلم، ثم قام المشركون وفيهم الحارث بن هشام المخزومي وفي رجليه نعلان جديدان، فقال كعب: يا أبا جابر، أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟فخلعهما الحارث من رجليه، ثم رمى بهما إلى كعب، وأقسم عليه لينتعلنَّها، فقال أبوجابر: مه، أحفظتَ ــ والله ــ الفتى، فاردد إليه نعليه، فقال: والله لا أردهما، فألٌ ــ والله ــ صالح، لئن صدق الفأل لأسلبنَّه.

ثم ذهب المشركون إلى عبدالله بن أبي، فقالوا له مثل ما قالوا للخزرج، فقال لهم: والله إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوَّتوا علي بمثل هذا وما علمته كان، فانصرفوا عنه.

تأكد قريش من صدق الخبر وطلبهم الأنصار

ثم نفر الناس من منى، وتنطَّس[1] المشركون من أهل مكة الخبر فوجدوه صادقاً، فخرجوا في طلب الأنصار ولكنهم كانوا قد فاتوهم، ولم يدركوا إلا سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بِنِسْع رَحْله[2]، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته[3]، وكان ذا شعر غزير، وقد بقي في أيديهم يلكمه اللاكم، ويضربه الضارب، حتى هتف باسم رجلين من أشراف قريش كان يجير لهما تجارتهما إذا مرَّت بالمدينة، ويمنعهم من ظلمهم، فجاءا إليه فخلَّصاه من أيديهم، فانطلق وقد سلمت له نفسه راجعاً إلى المدينة.

إسلام عمرو بن الجموح

لما رجع الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية إلى المدينة

---

(١) تنطس الخبر: أكثر من البحث عنه، والتنطُّس: تدقيق النظر، ومنه الطبيب النطاسي أي البارع بعيد النظر.

(٢) النسع: الشراك الذي يشد به الرحل.

(٣) الجمة: ما يصل من الشعر إلى المنكبين، والمراد أنهم يشدونه من شعره.

أظهروا الإسلام بها، وكان في قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك، منهم: عمرو بن الجموح من سادات بني سَلِمة وأشرافهم، وكان قد اتخذ صنماً من خشب في داره يقال له «مَنَاة» كما كان الأشراف يصنعون، فلما أسلم فتيان بني سَلِمة منهم ابنه معاذ ومعاذ بن جبل، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو هذا فيحملونه، فيطرحونه في بعض حفر بني سَلِمة وفيها عِذَر الناس منكَّساً على رأسه، فإذا أصبح قال: ويلكم من عَدَا على إلهنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجده غسله، وطيَّبه، وطهَّره، ثم قال: والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه.

فإذا أمسى ونام عمرو عَدَوا عليه ففعلوا مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله، ويطيِّبه، ويطهره. ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك.

فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطيَّبه، ثم جاء بسيفه، فعلَّقه عليه، ثم قال له: إني والله لا أعلم من يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع، هذا السيف معك، فلما أمسى ونام عمرو غدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه.

ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سَلِمة فيها عِذَر الناس، وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه، فجعل يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكَّساً مقروناً بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه وبان له صوابه، ورجع إليه عقله، وعلم أنها أصنام لا تضر ولا تنفع، فما إن كلَّمه من أسلم من قومه حتى أسلم، وحسن إسلامه وقال ــ حين استبان له الرشد ــ يذكر صنمه هذا وما كان من أمره، ويشكر الله الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لو كنتَ إلهاً لم تكن   أنت وكلب وَسْط بئر في قَرَن(١)

---

(١) القرن: الحبل.

أفٍ لـمـلقـاك إلـهـاً مسـتـدن الآن فتشنـاك عن سـوء الغَبَن[1]
الـحمـد لله العلي ذي الـمـنـن الـواهب الـرزاق ديّـان الـدين[2]
هـو الـذي أنقـذني من قبـل أن أكـون في ظلمـة قبـر مـرتهن
بـأحمـد المهـدي النبـي المؤتمـن

من أوهام ابن إسحاق

وقد ذكر الإمام ابن إسحاق أن النبـي ﷺ بايعهم في العقبة الثانية بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله في القتال، وذلـك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة، ثم ذكر بعد أول ما نزل في القتال: ﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا﴾[3].

وهذا من أوهام ابن إسحاق على جلالته، فالجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية من الهجرة كما فصَّلنا القول في الجزء الثاني من هذا الكتاب، وقد وافقه على هذا الوهم ابن هشام أيضاً.

وليس أدل على عدم فرضية الجهاد قبل العقبة من أن العباس بن عبادة بن نَضْلة لما قال للنبـي ﷺ: والله لو شئت لنميلنَّ بأسيافنا على أهل منى غداً، فقال رسول الله: «لم نؤمر بهذا».

* * *

(١) مستدن: مستعبد ذليل، الغبن: السفه.
(٢) الدين: جمع دينة وهي العادة، ويقال لها دين أيضاً، ويجوز أن يراد بالدين الأديان أي هو ديان أهل الأديان، ولكن جمعها على الدين، لأنها ملل ونحل كما قالوا في جمع الحرة حرائر لأنهن في معنى الكرائم والعقائل.
(٣) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٤٥٤، ٤٦٧.

الفصل الثامن
الهجرة إلى المدينة

أسباب الهجرة

ها أنت قد رأيت طرفاً من تعذيب المشركين للمسلمين ولا سيما ضعفاؤهم، وأن النبي قد أذن لهم في الهجرة إلى الحبشة، فهاجر بعضهم إلى الحبشة الهجرة الأولى، ثم هاجر الكثيرون منهم إليها الهجرة الثانية.

وها هي طلائع النور قد بدت من جهة يثرب ـ المدينة ـ بعد التقاء بأهلها في موسم الحج، فقد التقى بهم النبي ﷺ في العقبة الأولى والثانية، فآمن من آمن، وعاهد من عاهد منهم على الولاء والنصرة، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم، ونساءهم، وأبناءهم، وما كان من انتشار الإسلام بين أهل المدينة انتشاراً لم يكن يتوقعه أحد حتى أذهل ذلك مشركي مكة، وبذلك أصبح للمسلمين إخوان مؤمنون صادقون في دار أمن وإيمان، وإسلام وسلام، وهي المدينة[1].

وقد آلم المشركين وأقض مضاجعهم انتشار الإسلام بالمدينة هذا الانتشار السريع، فأوغلوا في إيذاء المسلمين، ونالوا منهم غاية النيل، وضيَّقوا عليهم السبل والمسالك، فلم يكن لهم بدٌّ من الهجرة إليها، فقد أضحى لهم بها أهل

---

(١) عَلَم بالغلبة على مدينة الرسول، والظاهر أنها كانت معروفة بهذا الاسم في الجاهلية، وإن كان الاسم الغالب لها حينذاك «يثرب»، حتى نهى النبي ﷺ عن تسميتها بيثرب فيما صحَّ عنه، وسماها «طابة» و«طيبة»، ولا يزال اسم المدينة هو الغالب، وأشهر الأسماء.

بأهل، ودور بدور، وأيضاً فلم تعد مكة بوقوفها في سبيل الإسلام والمسلمين صالحة لأن تكون مركزاً لانتشار الدعوة الإسلامية، وأصبحت المدينة بفتح صدرها للإسلام والمسلمين جديرة بأن تكون مركزاً لانتشار هذه الدعوة، فكان من الضروري أن تنتقل الدعوة من مكة إلى المدينة وهذا ما كان.

إذن النبي لأصحابه في الهجرة

وكان الصحابة يشتكون إلى النبي ﷺ ما يجدونه من المشركين من الأذى والعنت، فيثبتهم، ويصبرهم، ويعدهم فرجاً ومخرجاً من هذا الكرب.

وكان النبي ﷺ قد رأى فيما يرى النائم أنه هاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب ظنه إلى أنها اليمامة، أو هَجَر[1]، ثم استبان له ﷺ أنها المدينة، ففي صحيح البخاري عن النبي ﷺ: «أُريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين[2]» وهما الحرتان[3].

فخرج النبي ﷺ إليهم بعد هذه الرؤية مسروراً وقال: «قد أُريت دار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد أن يخرج فليخرج إليها» وقال: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها» وقد صادف هذا الإذن بالهجرة إلى المدينة هوى في نفوسهم، فخرجوا إليها أرسالاً[4] وفرادى، منهم من خرج مستعلناً كالفاروق عمر ــ رضي الله عنه ــ ومن صحبه، وأبي سلمة بن عبدالأسد المخزومي، ومنهم من خرج مستخفياً وهم الضعفاء والموالي كصهيب الرومي، ورجع الكثيرون ممن هاجر إلى الحبشة إلى مكة، ثم هاجروا منها إلى المدينة.

---

(١) اليمامة: بلد بنجد بالجزيرة، هجر: بلد بالبحرين، وهي من بلاد عبدالقيس، وقد سبقوا غيرهم من القرى إلى الإسلام.

(٢) اللابة، والحرة: أرض ذات حجارة سود نخرة، والمدينة بين حرتين.

(٣) صحيح البخاري ــ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

(٤) جمع رسل ــ بفتح الراء والسين ــ أفواجاً وجماعات.

متى كان الإذن بالهجرة

والذي ظهر لي بعد البحث والتأمل أن الإذن في الهجرة كان بُعيد بيعةالعقبة الأولى، وأن ذلك كان قبل بيعةالعقبة الثانية بنحو عام، كما تدل على ذلك قصة هجرة أبي سلمة وزوجه أم سلمة الآتية عند ابن إسحاق، وكما قال موسى بن عقبة في «مغازيه»(١).

أول من هاجر إلى المدينة

وكان أول من هاجر إليها سيدنا أبو سَلَمة بن عبدالأسد(٢)، وذلك قبل بيعة العقبة الثانية بسنة، وكان قد عاد من الحبشة إلى مكة، فآذاه أهلها، فلما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار، وأذن النبي لأصحابه كان أول مهاجر إليها، وكان خرج بزوجه أم سلمة، ومعهما ابنهما سلمة، فخرج يقود بهما بعيره، فلما رأته رجال من بني المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ــ وهم عشيرة زوجه وابنة عمه أم سلمة ــ قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك قد غَلَبْتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فنزعوا خطام البعير من يده، وانتزعوها منه، فغضب عند ذلك بنو عبدالأسد ــ رَهْط أبي سلمة ــ فقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا «سلمة» فيما بينهم حتى خلعت يده، وانطلق به بنو عبدالأسد، وأما أم سلمة فقد حبسها بنو المغيرة عندهم، وفرّقوا بينها وبين زوجها وولدها، ومع كل هذا انطلق أبو سلمة إلى الله مهاجراً، ولم يلوِ على أهل، ولا ولد، ولا مال حتى وصل إلى قباء فأقام بها حتى وصلت إليه زوجه بعد عام.

محنة أم سلمة

أما أم سلمة فكانت تخرج كل غَداة فتجلس في الأبطح، فما تزال تبكي

---

(١) شرح المواهب ج ١ ص ٣٨٤.

(٢) هو أخو رسول الله ﷺ من الرضاع، أرضعتهما ثويبة جارية أبي لهب، وابن عمته برة بنت عبدالمطلب. وهو من السابقين الأولين، ومن خيار المسلمين، استشهد بعد أحد في أوائل السنة الرابعة للهجرة.

حتى تمسي، سنة أو قريباً منها، حتى مر بها رجل من بني عمها، فرأى ما بها، وحزنها على فراق زوجها، فرق لها ورحمها، وذهب لأهلها وقال لهم: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟! فقالوا لها: اِلْحقي بزوجك إن شئت، وحينئذ ردَّ بنو عبدالأسد إليها ابنها سلمة. وسأدع السيدة الجليلة أم سلمة تتحدث عن هجرتها قالت:

فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني ــ سلمة ــ فوضعته في حِجْري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله، فقلت: أتبلَّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم[1] لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبدالدار، فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية[2]؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أوما معك أحد؟! فقلت: لا والله إلا الله، وبُنيَّ هذا قال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل[3] أناخ بي ــ أي البعير ــ ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحطَّ عنه ــ أي الرحل ــ ثم قيده في الشجرة، ثم تنحَّى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فرحله[4]، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى، فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي.

فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية ــ وكان أبو سلمة بها نازلاً ــ فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعاً إلى مكة، فكانت السيدة

(١) موضع بين مكة وسرف على فرسخين من مكة.
(٢) هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وهي ابنة عم أبي سلمة، وكانت تكنى هي وزوجها بابنهما سلمة.
(٣) المكان الذي يستريحون فيه في السفر.
(٤) وضع عليه الرحل، وهو للبعير كالسرج للفرس.

أم سلمة تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبـي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة[1].

وإن لنا هنا لوقفة عند قصة عثمان هذا، فقد كان يومئذ كافراً، لأنه لم يسلم إلا أوائل عام الفتح، وهي تشهد لما ذكرتُه من نفاسة معدن العرب، وفضائلهم في الجاهلية، ولا سيما خلق المروءة والنجدة، وحماية الضعيف، فقد أبت عليه مروءته وخلقه العربـي الأصيل أن يدع امرأة شريفة تسير وحدها في هذه الصحراء الموحشة، وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش!!

فأين من هذه الأخلاق ـ يا قومي المسلمين والعرب ـ أخلاق الحضارة في القرن العشرين، من سطو على الحريات، واغتصاب للأعراض، بل وعلى قارعة الطريق، وما تطالعنا به الصحافة كل يوم من أحداث يندَى لها جبين الإنسانية، ومن تفنن في وسائل الاغتصاب، وانتهاك الأعراض، والسطو على الأموال.

إن هذه القصة ـ ولها مُثُل ونظائر ـ لتشهد لما قلته حينما تحدثتُ عن العرب من أن رصيدهم في الفضائل كان أكثر من مثالبهم ورذائلهم، فمن ثَمَّ اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله، وكانوا أهلاً لحمل الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة.

هجرة عامر بن ربيعة وزوجه

ثم قدمها بعد أبـي سلمة عامر بن ربيعة حليف بني عدي بن كعب، ومعه زوجه السيدة ليلى بنت أبـي حَثْمة، قال الإمام ابن عبدالبر: إنها أول ظعينة[2] قدمت المدينة، وقال موسى بن عقبة: أول ظعينة السيدة أم سلمة، ولكل وجهة، فالسيدة أم سلمة أول من خرجت مهاجرة من النساء، ولولا منع أهلها

---

(١) أسلم عثمان بن طلحة بعد الحديبية، وهاجر إلى المدينة في صفر عام ثمان، وقد قتل أبوه، وإخوته: الحارث، وكلاب، ومسافع، وعمه عثمان بن أبـي طلحة يوم أحد.

(٢) الظعينة: المرأة تركب البعير.

لها لكانت أول من وصلت المدينة، والسيدة ليلى أول من وصلت إليها من النساء.

هجرة مصعب، وابن أم مكتوم، وبلال، وسعد، وعمار

ثم تتابع المسلمون سراعاً إلى الهجرة، فهاجر مصعب بن عمير، وعبدالله ابن أم مكتوم، وكانا يقرئان القرآن للأنصار، وبلال بن رباح، وسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهم ـ. روى البخاري في صحيحه بسنده عن البراء بن عازب قال: «أول من قدم علينا ـ زاد في رواية الحاكم في الإكليل: من المهاجرين ـ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم».

بنو جحش

ثم هاجر بنو جحش: عبدالله بن جحش بن رياب الأسدي، ينتهي نسبه إلى أسد بن خزيمة حليف بني أمية بن عبدشمس، احتمل بأهله، ومعه أخوه أبو أحمد عبد بن جحش[1]، وكان أبو أحمد رجلاً ضرير البصر، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بلا قائد، وكان شاعراً، وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب، وكان معهما محمد بن عبدالله بن جحش، وكان منزلهما ومنزل أبي سلمة بن عبدالأسد على مبشِّر بن عبدالمنذر بقباء في بني عمرو بن عوف.

وكذلك هاجر نساؤهم: زينب بنت جحش، وحمنة بنت جحش ـ زوج مصعب بن عمير ـ وأم حبيب بنت جحش ـ زوجة عبدالرحمن بن عوف، فغُلِّقت دار بني جحش بسبب الهجرة، فمر بها عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبدالمطلب، وأبو جهل بن هشام، وهم مُصْعِدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يباباً[2] ليس بها ساكن، فلما رآها كذلك تنفَّس الصعداء ثم قال:

---

(١) عبد من غير إضافة، وكانوا ثلاثة: عبدالله، وعبيدالله، وعبد. أما عبيدالله فقد هاجر إلى الحبشة مع زوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، ثم تنصَّر ومات هناك، وأما عبدالله فقد استشهد بأحد، وأما عبد فطالت به الحياة، وهم أولاد أميمة بنت عبدالمطلب عمة النبي ﷺ.

(٢) قفراً.

كل دار وإن طالت سلامتها يوماً ستدركها النكباء والحوب[1]

ثم قال عتبة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها، فقال أبو جهل: وما تبكي من فل ابن فل[2]، ثم قال للعباس: هذا من عمل ابن أخيك هذا، فرَّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا.

وقد عدا أبو سفيان بن حرب على دار بني جحش فتملكها، وقيل: باعها من عمرو بن علقمة العامري، فذكر ذلك عبدالله بن جحش ـ لما بلغه ـ لرسول الله ﷺ فقال له: «ألا ترضى يا عبدالله أن يعطيك الله بها داراً في الجنة خيراً منها»؟قال: بلى، قال: «فذلك لك».

فلما فتحت مكة كلَّم أبو أحمد عبد بن جحش رسول الله ﷺ في دارهم، فأبطأ عليه الرسول، فقال الناس: يا أبا أحمد إنه ـ ﷺ ـ يكره أن ترجعوا في شيء أصيب منكم في الله، فأمسك أبو أحمد عن الكلام في ذلك، وقد سجل أبو أحمد هجرة بني جحش في قصيدة له[3].

بنو غَنْم بن دودان

ثم قدم المسلمون أرسالاً، وكان بنو غَنْم بن دودان أهل إسلام قد أوعبوا إلى المدينة هجرة: رجالهم ونساؤهم، منهم ـ غير بني جحش ونسائهم ـ: عكاشة بن محصن، وشجاع وعقبة ابنا وهب، وأربد بن حميرة[4]، ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن رقيش، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش وغيرهم.

ومن نسائهم: جذامة بنت جندل، وأم قيس بنت حصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيش، وسخبرة بنت تميم[5].

---

(١) الحوب: التوجع. وهذا البيت لأبي دؤاد الإيادي في قصيدة له.

(٢) هكذا في السيرة لابن إسحاق، وفل: فلان، وفي السيرة لابن هشام «من قل» بالقاف، قال ابن هشام: القل: الواحد، واستشهد ببيت لبيد بن ربيعة.

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٧٢، ٤٧٣.

(٤) بضم الحاء، وفتح الميم، وتشديد الياء المكسورة، وقال ابن هشام: ويقال: ابن حميرة بإسكان الياء.

(٥) السيرة ج ١ ص ٤٧٠ ـ ٤٧٢؛ والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٧٠، ١٧١.

هجرة عمر بن الخطاب، وعيَّاش في ركب من المسلمين

ثم هاجر الفاروق عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ وكان تواعد هو وعيَّاش بن أبـي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل السهمي على مكان من أضاة بني غفار[١]، وقالوا: أينا لم يصبح فقد حُبس، فليمضِ صاحباه، قال عمر: فأصبحت أنا وعياش بن أبـي ربيعة عند هذا المكان، وحبس هشام، وفُتن فافتتن.

وقد أخرج ابن عساكر وغيره عن علي ــ رضي الله عنه ــ قال: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلَّد سيفه، وتنكَّب قوسه، وأخرج أسهماً من كنانته، وجعلها في يديه، واختصر عَنَزته[٢]، ومضى قِبَل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلَّى ركعتين، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس[٣]، من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علَّمهم ما أرشدهم إليه، ثم مضى لوجهه، وقد صحبه في هجرته بعض أهله وقومه. كما صحبه بعض المستضعفين ليحتموا به.

وكان في ركب عمر نحو من عشرين راكباً، منهم: زيد بن الخطاب[٤]، وعيَّـاش بن أبـي ربيعة، وعمـرو وعبدالله ابنـا سراقـة بن المعتمر العـدوي،

---

(١) موضع على عشرة أميال من مكة.

(٢) حملها مضمومة إلى خاصرته، والعنزة: العصا.

(٣) شاهت: قبحت. لا يرغم الله: لا يلصق بالرغام وهو التراب. إلا هذه المعـاطس: الأنوف.

(٤) أخو عمر، وهو أسن منه، أسلم قبله، وشهد بدراً والمشاهد، واستشهد باليمامة وراية المسلمين بيده سنة اثنتي عشرة، وحزن عليه عمر حزنـاً شديداً، وكان يقول: سبقني إلى الحسنيين: أسلم قبلي، واستشهد قبلي، ولما رثى متمم بن نويرة أخاه مالكاً في شعره قال له: لو كنت أحسن الشعر لرثيت أخي مثل ما رثيت أخاك، فقال متمم: لو مات أخي على ما مات عليه أخوك لما رثيته، فقال عمر: ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به.

وخنيس بن حذافة السهمي[1]، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ابن عم عمر وزوج أخته فاطمة، وواقد بن عبدالله التميمي حليف لهم، وخولي بن أبي خولي، ومالك بن أبي خولي حليفان لهم، وبنو البكير الأربعة: إياس، وعاقل، وعامر، وخالد.

ولم يذكر ابن إسحاق غير هؤلاء الثلاثة عشر، قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «فلعل الباقين كانوا من أتباعهم» فنزل سيدنا عمر ومن معه، وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث على رفاعة بن عبدالمنذر في بني عمرو بن عوف بقباء.

قصة أبي جهل مع عياش

ولما قدموا المدينة خرج أبو جهل بن هشام وأخوه الحارث إلى عياش بن أبي ربيعة[2]، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما المدينة، وكان رسول الله ﷺ لا يزال بمكة، فكلم أبو جهل عياشاً، وقال له: إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل عن شمس حتى تراك، فرقَّ لها، فقال له عمر: إنه ـ والله ـ ما يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حرُّ مكة لاستظلت، فقال له: أبر قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه، فقال له عمر: والله إنك لتعلم إني لمن أكثر قريش مالاً فلك نصف مالي، ولا تذهب معهما، ولكنه أبى عليه إلا أن يخرج معهما فقال له: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم رَيْب فانجُ عليها.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال أبو جهل: يا ابن أخي ـ والله ـ لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ عياش، وأناخا ليتحول عليها، فلما استوى بالأرض عَدَوا عليه، فأوثقاه،

---

(١) كان صهر عمر على ابنته حفصة واستشهد في بدر.

(٢) اسم أبي ربيعة: عمرو ـ ويلقب: ذا الرمحين ـ ابن المغيرة، بن عبدالله، بن عمر، ابن مخزوم القرشي من السابقين الأولين، وهاجر الهجرتين.

(٣) أي تجعلني أعقبك عليها لركوبها.

وربطاه، ثم دخلا به مكة وفتناه، فافتتن، وكان دخولهما به مكة نهاراً موثقاً، فصارا يقولان: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا.

كتاب عمر لهشام

وروى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال: فكنَّا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم، وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا، وقولهم لأنفسهم:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ ﴾[1].

فكتبها عمر بيده في صحيفة وبعث بها إلى هشام بن العاص، قال هشام: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طُوى[2] أصعِّد فيها وأصوِّب، ولا أفهمها حتى قلت: اللهمَّ فهِّمنيها، قال: فألقى الله في قلبـي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري فركبت عليه ثم لحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة.

هذا ما ذكره ابن إسحاق.

وقال ابن هشام: حدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: «من لي بعيَّاش بن أبـي ربيعة، وهشام بن العاص؟» فقال الوليد بن الوليد[3] بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة فدخلها

---

(١) الآيات ٥٣ ــ ٥٥ من سورة الزمر.

(٢) بالقصر مكان بأسفل مكة.

(٣) أخو خالد أسلم قبله، وهاجر الهجرتين، وكان له قصة مع خالد في إسلامه ستأتي.

مستخفياً، فلقي امرأة تحمل طعاماً فقال لها: أين تريدين يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين ــ تعنيهما ــ فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسوَّر عليهما، ثم أخذ مَرْوة[1]، فوضعها تحت قيديهما، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما، فكان يقال لسيفه «ذو المروة» لذلك، ثم حملهما على بعيره، وساق بهما، فعثر فدميت إصبعه فقال:

هل أنتِ إلا إصبع دَمِيتِ ... وفي سبيل الله ما لقيتِ

ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة.

هجرة صهيب بن سنان الرومي

ولما أراد صهيب ــ رضي الله عنه ــ أن يهاجر قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلُّون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب». هكذا قال ابن هشام في السيرة.

وروى الإمام البيهقي بسنده قصة هجرة صهيب على نحو آخر قال: قال صهيب: خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبو بكر، وكنت قد هممت معه بالخروج، فصدني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد، فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه ــ ولم أكن شاكياً ــ[2]، فناموا فخرجت منهم يعني متسللاً، فلحقني أناس بعدما سرت يريدون ليردوني، فقلت لهم: إن أعطيتكم أواقيَّ من ذهب تخلُّوا سبيلي وتوفون لي؟ ففعلوا، فتبعتهم إلى مكة فقلت: احفروا تحت أسكفة[3] الباب، فإن بها أواقي، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين، وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ بقُباء قبل أن يتحول عنها، فلما رآني قال: «يا أبا يحيى ربح البيع»، فقلت: يا رسول الله ما سبقني إليك

---

(١) يعني قطعة من الحجر.
(٢) يعني أنه تصنَّع ذلك، ولم يكن به مرض كي يفلت منهم.
(٣) عتبة الباب.

أحد، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام: وكان نزول صهيب بن سنان على خبيب بن إساف[١] أخي بلحارث بن الخزرج بالسُّنْح.

منازل المهاجرين بالمدينة

منزل طلحة بن عبيدالله: ونزل طلحة بن عبيدالله بن عثمان على خبيب بن إساف الذي نزل عليه صهيب، وقيل: إنه نزل على أسعد بن زرارة نقيب بني النجار.

منزل حمزة وآخرين: ونزل حمزة بن عبدالمطلب، وزيد بن حارثة، وأبو مرثد كناز بن حصن، قال ابن هشام ويقال: ابن حصين وابنه مرثد الغَنَويان حليفا حمزة بن عبدالمطلب، وأنسة[٢]، وأبو كبشة[٣]، موليا رسول الله ﷺ، على كُلْثوم بن الهِدْم أخي بني عمرو بن عوف بقباء، ويقال: بل نزلوا على سعد بن خَيْثمة، ويقال: نزل حمزة على أسعد بن زرارة أخي بني النجار.

منزل عبيدة بن الحارث وآخرين: ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب، وأخوه الطفيل بن الحارث، والحصين بن الحارث، ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، وسويبط بن سعد بن حريملة أخو بني عبدالدار،

---

(١) ولم يكن حين نزول المهاجرين عليه مسلماً، بل تأخر إسلامه حتى خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ــ كما قال ابن عبدالبر ــ في الاستيعاب، وخبيب هذا هو الذي خلف على بنت خارجة بن زيد بعد وفاة الصديق، وقد مات في خلافة عثمان، وهو جد خبيب بن عبدالرحمن الذي يروي عنه الإمام مالك في الموطأ.

(٢) كان من مولدي السراة، ويكنى «أبا مسروح» شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ومات في خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

(٣) أصله من فارس ويقال: هو من مولدي أرض دوس، واسم أبي كبشة سليم، وقد شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله، ومات في خلافة عمر في اليوم الذي ولد فيه عروة بن الزبير، وأما الذي كانت قريش تنسب النبي إليه فالصحيح أنه أبوه من الرضاع كما قدمنا.

وطليب بن عمير أخو بني عبد بن قصي، وخباب مولى عتبة بن غـزوان على عبدالله بن سلمة أخي بلعجلان بقباء.

منزل عبدالرحمن بن عوف في آخرين: ونزل عبدالرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخي بلحارث بن الخزرج في دارهم.

منـزل الزبـير وأبي سبرة: ونـزل الزبـير بن العـوام، وأبـو سَبْـرة بن أبـي رهـم بن عبدالعزى على منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح بالعصبة ــ دارهم.

منزل مصعب بن عمير: ونزل مصعب بن عمير بن هـاشم أخو بني عبـدالدار عـلى سعـد بن معـاذ بن النعمـان أخي بني عبـدالأشهـل في دار عبدالأشهل.

منزل أبي حذيفة وسالم مولاه: ونزل أبو حذيفة بن عتبة وسالم مولاه على سلمة[1]، وقال الأموي: على خبيب بن إساف أخي بني حارثة.

منزل عتبة بن غزوان: ونزل عتبة بن غزوان بن جـابر عـلى عباد بن بشر بن وقش أخي بني عبدالأشهل في دار عبدالأشهل.

منزل عثمان بن عفان: ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر أخي حسان بن ثابت في دار بني النجار، فلذلـك كان حسـان يحب ذا النورين عثمان، وبكاه لما قتل.

وكان يقال: إن الأعزاب من المهاجرين نزلوا على سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عَزَباً، فكان أيسر لهم، وأبعد من الحرج.

* * *

(١) هكذا في «البداية والنهاية» وعزاه لابن إسحاق، وأما السيرة لابن هشام فلم تذكره.

هجرة النبـي صلى الله عليه وسلم
من مكة إلى المدينـــة

من بقي مع النبـي بمكة

وهكذا هاجر المسلمون جماعات وفرادى، وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين رجاء أن يؤذن له في الهجرة، ولم يبقَ بمكة من أصحابه إلا من فتن وحبسه المشركـون، وإلا أبو بكـر الصديق وعـلي بن أبـي طالب ـ رضي الله عنهما ـ فقد تخلَّفا معه.

وكان الصدِّيق قد همَّ بالهجرة إلى المدينة فقال له النبـي: «لا تعجِّل لعل الله يجعل لك صاحباً» فيفهم أبو بكر أن النبـي يعني بالصاحب نفسه، ففي صحيح البخاري في سياق حديث الهجرة الطويل: «وتجهَّز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلك[1]، فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال: وهل ترجو ذلك بأبـي أنت؟ قال: «نعم» فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمر ـ وهو الخبط ـ[2] أربعة أشهر...» استعداداً للهجرة إلى المدينة.

ائتمار قريش برسول الله

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد أصبح له أتباع كثيرون، وأنصار من أهل المدينة يفدونه بأنفسهم وأهليهم وأولادهم وأن أصحابه من المهاجرين قد

---

(١) بكسر الراء على مهلك.

(٢) السمر بفتح السين، وضم الميم: شجرة تسمى أم غيلان، وقيل ورق الطلح. والخبط بفتح الخاء والباء: ما يخبط بالعصى فيسقط من ورق الشجر.

أمسَوا بدار أمان وعزّ ومنعة بعد أن هاجروا إليها، وتجمعوا فيها، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وحينئذٍ تكون الطامة، فإنهم لا يلبثون أن يحاربوهم، ويغتضوا عليهم بلدهم، ويدخلوها عليهم.

فاجتمع أشرافهم ورؤساؤهم في دار الندوة ــ وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها[1] ــ يتشاورون في أمر النبي الذي أقضّ مضاجعهم، وأصبحت له ولأصحابه قوة تهددهم، واعترضهم إبليس في صورة شيخ نجدي عليه بتٌّ[2]، فلما رأوه واقفاً على الباب قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من نجد[3] سمع بالذي اتّعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً، قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم.

وقد اجتمع فيها أشراف من قريش منهم من بني عبد شمس: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وأبو سفيان بن حرب، ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام، ومن بني نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم، ومن بني عبدالدار: النضر بن الحارث بن كلدة، ومن بني أسد بن عبدالعزّى: أبو البختري بن هشام، وزَمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام، ومن

---

(١) قال في شرح المواهب، ج ١ ص ٣٨٧: قال الماوردي صارت بعد قصي لولده عبدالدار، فبقيت في نسله حتى اشتراها معاوية بن أبي سفيان من عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار، وجعلها دار الإمارة، وقبل لما حج معاوية اشتراها من الزبير العبدري بمائة ألف درهم، ثم صارت كلها في المسجد الحرام بعد توسعته.
وقال السهيلي: صارت بعد بني عبدالدار إلى حكيم بن حزام، فباعها في الإسلام بمائة ألف زمن معاوية، فلامه وقال له: أبعت مكرمة آبائك وشرفهم؟! فقال حكيم: ذهبت ــ والله ــ المكارم إلا التقوى، والله لقد اشتريتها في الجاهلية بزق خمر، وقد بعتها بمائة ألف، وأشهدكم أن ثمنها في سبيل الله، فأينا المغبون؟!!

(٢) كساء غليظ.

(٣) قال السهيلي في الروض: وإنما قال لهم إنه من أهل نجد فيما ذكر بعض أهل السير، لأنهم قالوا: لا يدخل معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة، لأن هواهم مع محمد، فلذلك تمثل في صورة شيخ نجدي.

بني جمح: أمية بن خلف، ومن بني سَهْم نبيه ومنبِّه ابنا الحجاج، وغيرهم ممن لا يعد من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً، فتشاوروا، فقال قائل منهم ــ وهو أبو البختري بن هشام ــ: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربَّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهيراً والنابغة، ومن مضى منهم حتى يأتيه الموت.

فقال الشيخ النجدي: لا، والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجنَّ أمره من وراء الباب إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من بين أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا غيره.

فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنَّا فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، وتعود لنا وحدتنا وإلفتنا كما كانت.

فقال الشيخ النجدي: ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال، فوالله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيتابعوه، ثم يسير بهم إليكم حتى يغلبكم، وينتزع الأمر من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: ما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً، نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها، فلم يقدر بنو عبدمناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل[١] فعقلناه لهم.

---

(١) العقل: الدية، سميت بذلك لأنهم كانوا يعقلون الإبل التي يقدمونها في الدية بالعقل جمع عقال، وهو الحبل الذي تشد به الإبل حتى لا تفلت.

فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي ولا رأي غيره، فتفرق القوم وهم مجمعون على هذا.

إذن الله لنبيه في الهجرة

وهكذا بيَّت المشركون أمراً، وبيَّت الله أمراً، وأرادوا أن يكيدوا النبي، فرد الله كيدهم في نحرهم، فنزل جبريل على النبي ﷺ مخبراً له بما كادوه به، ومخبراً له بأن الله أذن له في الهجرة، وأن لا ينام على فراشه الذي كان يبيت عليه، وقد أنزل الله[1] سبحانه في شأن هذه المؤامرة قوله:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ[2] وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠ ﴾[3].

إخبار الصديق بالإذن في الهجرة

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر كل يوم مرتين: بكرة وعشية، قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نَحْر الظهيرة[4] قال قائل[5] لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً[6] في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر! فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل، فاستأخر أبو بكر عن

---

(١) قيل نزلت على النبي وهو بمكة، وقيل وهو في طريقه إلى المدينة، أو بعد وصوله إليها.

(٢) قد يقول قائل: ما بال الترتيب في الآية لم يجيء على حسب الواقع، ولم وسَّط القتل مع أنه كان في المشاورة آخراً؟ والجواب: أن هذا من عجيب أسلوب القرآن، وبديع طريقته، ذلك أن الرأي الذي اختاروه هو القتل، فجاءت الآية على هذا النسق البديع من توسيط القتل بين الحبس والإخراج، لتدل الآية بوضعها وترتيبها على الرأي الوسط المختار، وهو سر من أسرار الإعجاز، فللّه ربُّ التنزيل ما أكرمه وأبلغه.

(٣) الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

(٤) أول الزوال وهو أشد ما يكون من حرارة النهار.

(٥) الظاهر أنها ابنته أسماء.

(٦) مغطياً رأسه.

السرير حتى جلس عليه، فقال لأبي بكر: «أخرج من عندك» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك[1] بأبي أنت يا رسول الله.

قال النبي: «فإني قد أُذن لي في الخروج» فقال أبو بكر وهو يبكي من الفرح: الصحبة[2] يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ!!

ثم قال الصديق: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا، فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن»[3] واستأجرا عبدالله بن أُريقط رجلاً من بني الدئل بن بكر، وكانت أمه من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً يدلهما على الطريق، ودفعا إليه الراحلتين اللتين أعدهما الصديق ــ رضي الله عنه ــ للهجرة، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما الذي واعداه بعد ثلاث.

تجهيز طعام السفر

واشتركت أسماء وعائشة ابنتا الصديق في تجهيز السفرة التي سيأخذها المهاجران، ووضعتاها في جراب[4]، فلما أرادتا ربط فم الجراب لم تجدا شيئاً،

---

(١) هكذا في صحيح البخاري، وفي السيرة: إنما هما ابنتاي، وقد فسرتُ المراد بالأهل، فعائشة كان عقد عليها النبي، وأسماء صارت بمنزلة الأهل بعد خطبة أختها، أو أن هذا من أبي بكر تنزيل لأهله منزلة أهل النبي.

(٢) أي أريد الصحبة.

(٣) إنما اشترط النبي أن يكون ذلك بالثمن مع أن أبا بكر أنفق ماله في سبيل الله ورسوله، لأنه أحب أن لا تكون هجرته إلا من مال نفسه. وكان ثمنها أربعمائة درهم، وقد قال الواقدي: إن هذه الناقة هي القصواء، وأنها كانت من نعم بني قشير، وقد عاشت بعد النبي قليلاً، وكانت مرسلة ترعى في البقيع، وماتت في خلافة أبي بكر، وذكر ابن إسحاق أنها الجدعاء، وكانت من إبل بني الحريش، وكذا روى ابن حبان من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أنها الجدعاء. (فتح الباري، ج ٧ ص ١٨٧).

(٤) الوعاء من الجلد.

فشقَّت السيدة أسماء نطاقها[1] نصفين، فربطت فم الجراب بنصفه وانتطقت بالآخر، فلذلك سميت ذات النطاقين أو ذات النطاق.

وقال ابن سعد: شقَّت نطاقها فأوكـأت بنصف منه الجراب، وشدَّت فم القربة بالآخر، فسميت ذات النطاقين، وقد ذكر ابن إسحاق في سيرته قصة النطاق بعد خروج النبـي وصاحبه بالغار لما جاءهما صاحبهما الذي استأجراه بعيريهما، وفي صحيح البخاري أن القصة كانت في بيت الصديق قبل خروج النبـي وصاحبه، وما «في الصحيح» هو الصحيح.

مبيت عليّ على فراش النبـي

ثم عاد رسول الله ﷺ بعدما أخبر أبا بكر بالإذن له في الهجرة، وبعد أن أعدَّا العدة للهجرة ـ إلى بيته، وكان جبريل عليه السلام أمر النبـي ﷺ أن لا يبيت على فراشه، فلما كانت عتمة الليل اجتمع فتيان من قريش على بابه، وبيدهم السيوف المرهفة، ويتطاير من عيونهم شرر الغدر والمكيدة، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبـي طالب: «نم على فراشي، وتسجَّ[2] ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فإنه لن يخلص إليك منهم شيء تكرهه».

وكان رسول الله ﷺ ينام في برده هذا إذا نام، فسمع عليٌّ لما أشار به رسول الله وأطاع طيِّبة بذلك نفسه، وبذلك كان أول فدائي شاب في الإسلام، فقد وقى رسول الله بنفسه، وهو يعلم أنه على قيد أذرع من سيوف المشركين ورماحهم، وكان هذا التدبير المحكم الذي أشار به جبريل عليه السلام مما لبَّس الأمر على المشركين المتربصين للنبـي، فكانوا إذا نظروا من خَلَل الباب[3] وجدوا النائم فيظنونه النبـي، بينما هو الفتى الشجاع علي.

---

(١) هو ما تشد به المرأة وسطها، وكان الانتطاق من عادة النساء العربيات.

(٢) تغط.

(٣) شقوق الباب.

خروج رسول الله ﷺ

وفي هَجْعَة من الليل خرج رسول الله ﷺ وقد أخذ الله على أبصارهم فلم يبصروا به، وكان أخذ كفاً من تراب، فصار ينثر منها على رؤوسهم زيادة في النكاية بهم(١)، وهو يتلو قول الله تبارك وتعالى:

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤
تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ
عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم
مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ
لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ ﴾(٢).

ثم انصرف رسول الله لشأنه، وبقي المشركون ينتظرون النائم حتى يخرج، فيفعلوا به ما اتفقوا عليه.

ذهاب الرسول إلى بيت الصدِّيق

وذهب رسول الله ﷺ من فوره إلى بيت الصدِّيق(٣) ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) قيل: الحكمة في وضع التراب دون غيره الإشارة إلى أنهم الأذلون الأصغرون، وأن مصيرهم إلى الذل والرغام.

(٢) الآيات ١ ـ ٩ من سورة يس.

(٣) هذا الذهاب خلاف الذهاب الأول في نحر الظهيرة، فالأول كان لإخبار الصديق بالإذن للهجرة، والثاني كان ليلاً بعدما أفلت من المشركين للخروج إلى الغار، وقد تحيَّر بعض كتاب السيرة وشرّاحها في هذا، فخروج الرسول من بيته كان ليلاً، ووصوله إلى بيت الصديق كان في الظهيرة كما ثبت في الصحيح وغيره، فأين كان النبي في هذه الساعات الطوال؟! وهذا الذي ذهبت إليه هو الذي ينبغي أن يُصار إليه، وقد جوَّز بعضهم أن النبي مكث في بيت الصديق حتى كانت الليلة المقبلة، فخرجا ليلاً وهو بعيد، والبعض جوز أنه خرج إلى الغار، ثم عاد إلى بيت أبي بكر في الظهيرة، ثم عادا إلى الغار معاً، وهو أشد بعداً من الأول، والحق ما هداني الله إليه، وهو الذي يتفق ومنطق العقل وتسلسل الحوادث.

وكان الصدِّيق يترقب وصوله في أية ساعة بعد أن اتفقا على الصحبة في الهجرة، وأعدّا للسفر عدته.

إلى غار ثور

خرج الرسول ﷺ وصاحبه وقد تزودا بالزاد والماء ليلاً من خوخة[1] في ظَهْر بيت أبـي بكر حتى لا يراهما أحد، وسلكا طريقاً غير معهودة، فبدلاً من أن يسيرا نحو الشمال ذهبا إلى الجنوب حيث يوجد (غار ثـور) وكان خـروج رسول الله ﷺ ـ كما قال ابن إسحاق ـ لهلال ربيع الأول، وقيل: في أواخر صفر.

نظر إلى البيت ودعاء

ولما خرج رسول الله ﷺ من مكة توجه إلى البيت وقال: «والله إنك لأحب أرض الله إلي، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»[2].

ثم توجه إلى الله بهذا الدعاء: «الحمد لله الذي خلقني ولم أكُ شيئاً، اللهمّ أعنّي على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام.

اللهمَّ اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فـذللني، وعلى صـالح خُلُقي فقـوِّني، وإليك ربـي فحببني، وإلى النـاس فلا تكلني.

ربِّ المستضعفين وأنت ربـي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقتْ له السمـاوات والأرض، وكُشفت به الـظلمـات، وصلح عليـه أمـر الأولـين والآخرين، أن تحلَّ عليّ غضبك، وتنزل بـي سخطك.

أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وتحوُّل عافيتك، وجميع سخطك، لك العتبـى عندي خير ما استطعت، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[3].

---

(١) باب صغير في ظهر البيت.

(٢) رواه أحمد والترمذي وصححه.

(٣) البداية والنهاية، ج ٣ ص ١٧٨، وقال: رواه أبو نعيم.

وفي الطريق إلى الغار رأى رسول الله ﷺ من أبي بكر عجباً، رآه مرة يسير أمامه، ومرة يسير خلفه، ومرة عن يمينه، ومرة عن شماله!! فسأله رسول الله ﷺ عن هذا، فقال: يا رسول الله أذكر الطَّلَب[1] فأمشي خلفك، وأذكر الرَّصَد[2] فأكون أمامك، ومرة عن يمينك، ومرة عن شمالك، لا آمن عليك[3]!

فقال له النبي: «يا أبا بكر لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني؟» قال: نعم والذي بعثك بالحق!!

وما زالا يسيران في ظلمة الليل وبين الرمال والصخور حتى وصلا إلى الغار.

استبراء الغار

ولما وصلا إلى الغار وأراد رسول الله ﷺ أن ينزل فيه قال له الصديق: مكانك حتى أستبرىء لك، فإن كان به أذى نزل بي قبلك، ثم نزل فتحسس الغار فلم يجد به شيئاً، فنزل رسول الله ﷺ وقد بلغ منه الإعياء والتعب مبلغه[4]، فما إن دخلا حتى توسَّد الرسول قدم أبي بكر ونام.

وكان الصدِّيق يأخذ من ثوبه ويسدُّ فم الأجحار خشية أن يكون شيء من الهوامّ فتؤذي رسول الله، فبقي منها جحر فألقمه عقبه، وكانت به حية فلدغته،

---

(١) الطالب للإنسان، وإنما يأتي من الخلف.

(٢) الرصد: المترصد في الطريق.

(٣) روى هذه القصة الإمام البيهقي (البداية والنهاية، ج ٣ ص ١٨٠).

(٤) لقد صعدت إلى هذا الجبل نهاراً في رفقة ونحن شباب، فاستغرقنا أكثر من ساعة، وقد حفيت أقدامنا من الصخور، فما بالك إذا كان ليلاً، وطلباً للنجاة من عدو مغيظ محنق؟ فللّه ما لقي النبي وصاحبه في هذه الليلة، وأذكر أن رحلتنا تلك كانت في مثل يوم الذكرى المجيدة، ذكرى الميلاد، وقد صليت في الغار ركعتين، وألقيت كلمة يومها في جلال هذه الذكرى.

فمنعه مكان رسول الله ﷺ منه أن يتململ، ولكن الألم لَّما اشتد به تحدَّرت دموعه، فسقطت على وجه رسول الله ﷺ فاستيقظ، فقال: «ما لك يا أبا بكر؟» فأخبره بما حدث، فتفل عليها رسول الله ﷺ فبرئت بإذن الله تعالى[1].

فلا عجب إذا كان شيخ الإسلام أبو بكر جديراً بأن يكون شيخ الفدائيين في القديم والحديث.

قصة الشجرة، والعنكبوت، والحمامتين

وقد روي أن رسول الله ﷺ لما دخل هو وصاحبه الصديق بالغار أمر الله سبحانه شجرة فنبتت على فم الغار، وانتشرت أغصانها على بـابه، وألهم العنكبوت فنسجت على أغصان الشجرة، وألهم حمامتين وحشيّتـين فعششتا وباضتا بين أغصان الشجرة[2]، وقد كان لهذه الآيات الثلاث أثرها في تضليل المشركين وصدِّهم عن اقتحام الغار ودخوله كما سترى عن كثب، وهكذا وقى الله نبيه وصاحبه بأضعف جنده.

تشكيك أميل در منغم

ويحاول أميل درمنغم أن يقلل من هذه المعجزات فيقول: هذه الأمور الثلاثة هي وحدها المعجزة التي يقص التاريخ الإسلامي الجد: نسيج عنكبوت، وهوى حمامة، ونماء شجرة، وهي أعاجيب ثلاث لها كل يوم في أرض الله نظائر.

وهي شنشنة نعرفها من أخزم، فالمستشرقون ـ إلا القليل ـ يحرصون على التقليل من معجزات النبـي ﷺ الحسية، ويشككون فيها، وإني لأقول لدرمنغم

(١) روى هذه القصة رَزين العبدري صاحب «تجريد الصحاح» (شرح المواهب، ج ١ ص ٤٠٤).

(٢) روى القصة الإمام أحمد في مسنده، والبزار في مسنده، وقاسم بن ثابت في الدلائل (شرح المواهب، ج ١ ص ٣٩٩)؛ ورواها أيضاً الحافظ ابن عساكر (البداية والنهاية، ج ٣ ص ١٨١، ١٨٢).

ومشايعيه: من الذي أخذ بأبصار المشركين فلم ينظروا تحت أرجلهم، ولو فعلوا لرأوا طلبتهم المنشودة؟ ومن الذي سمَّر أرجلهم في الأرض فلم يتقدموا نحو فم الغار؟! ومن الذي صرفهم عن الغار، وقد همَّ بعضهم بدخوله؟

أليست هذه آيات بيِّنات على أن النبي ممنوع ومحفوظ من ربه؟ وأنه نبي الله حقاً؟ ولو أن الأمور تجري على السنن العادي ـ كما زعم ـ لكان الأمر على غير ما كان، فسبحان الله تعالى الذي يسخر ما شاء من خلقه، لمن شاء من عباده المخلصين.

تخلف عليّ لردّ الودائع إلى أهلها

ولم يكن أحد يعلم بخروج النبي ﷺ حين خرج إلا أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، وقد أمره النبي ﷺ أن يتخلَّف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، إذ لم يكن أحد بمكة عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه، وأمانته حتى كان يُلَقَّب «بالأمين».

في الصباح

ولنعد إلى الفتيان المشركين الذين وقفوا يتربصون على باب الدار، يحرسون النائم ظناً منهم أنه النبي، بل صاروا يتشاورون فيما بينهم أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه، حتى آتاهم آتٍ فقال: ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمداً، قال: قد خيَّبكم الله، قد ـ والله ـ خرج محمد عليكم، ثم ما ترك أحداً منكم إلا وضع على رأسه التراب، وانطلق لشأنه، أفما ترون ما بكم؟! فوضع كل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، فكأنهم لم يصدِّقوا، فجعلوا يطَّلعون فيرون النائم على فراشه متسجياً ببرده، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائم، عليه برده.

فما زالوا كذلك حتى تنفس الصباح، فدخلوا على النائم، وكشفوا البرد فإذا به علي! فقالوا له: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدري، فعلموا وتيقنوا

أنه أفلت منهم، فأصابهم الحزن والكمد، «ويمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين»[1].

جن جنون قريش

ولما تبينت قريش إفلات النبي منهم جنَّ جنونهم، وصاروا يهيمون على وجوههم طلباً له، وجعلوا لمن يأتي به حياً أو ميتاً مائة ناقة، وبعثوا القافة[2] إثره في كل وجه، منهم: كرز بن علقمة، وسراقة بن جعشم، فصاروا يتبعون الأثر حتى انتهوا إلى جبل (ثور)، ثم صعدوا الجبل حتى وقفوا على فم الغار.

وهنالك وقفوا متحيرين

إذا كان دخل الغار فكيف لم يتهدم نسج العنكبوت، ولم ينكسر بيض الحمام؟!

ووقفوا مترددين، أيدخلون الغار أم لا؟ حتى إن أحدهم همَّ أن يدخل الغار فقال له الآخر: إن هذا العنكبوت لمن قبل ميلاد محمد!! وهكذا نرى أن الله صرف المشركين عن النبي وصاحبه، ويرحم الله الإمام البوصيري حيث قال:

وقـايـة الله أغنت عن مضـاعـفـة
من الـدروع وعن عـالٍ من الأطم

لا تحزن إن الله معنا

وكان المشركون واقفين على فم الغار يتحدثون بمسمع من رسول الله ﷺ وصاحبه، وكان الصدِّيق شديد الخوف على رسول الله حتى قال: يا رسول الله

---

(١) قد يراد بالمكر التدبير المحكم، وهو بهذا المعنى يجوز إسناده إلى الله، وقد يراد به التدبير في خفاء خشية الاستعلان، وهو بهذا المعنى لا ينسب إلى الله، وعليه فتكون الآية من قبيل المشاكلة اللفظية، أي ومكروا بالنبي هذا المكر السيىء فجازاهم الله على مكرهم بما هو أنكى لهم وآلم.

(٢) جمع قائف، وهو الذي يتبع أثر الأقدام في الأرض حتى يعلم أين ذهب صاحبه.

لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال له النبي ﷺ: «ما ظنك ـ يا أبا بكر ـ باثنين الله ثالثهما»، وفي هذا نزل قول الله تبارك وتعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

ومكث رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار ثلاث ليال حتى انقطع عنهم الطلب.

لطم أبي جهل للسيدة أسماء

قالت أسماء رضي الله عنها: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفرٌ من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقلت: لا أدري ـ والله ـ أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي!!.

وهكذا وصل السفه بأبي جهل أن يؤذي امرأة، وأن يتخلّى عن أخلاق العرب في الترفع عن مثل هذا، وأن ينزل بنفسه إلى هذا الدرك من الإسفاف.

كياسة السيّدة أسماء

روى ابن إسحاق بسنده عن السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل ماله كله معه، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه، فدخل علينا جدّي أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لا أراه إلا قد فجعكم بماله مع نفسه، فقلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في

---

(١) الآية (٤٠) من سورة التوبة.

البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضَعْ يدك على هذا، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، وإذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردت أن أسكِّن الشيخ بذلك.

البيت البكري وتضحياته في الهجرة

وقد كان لآل أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ تضحيات، ومفاخر خالدة في سبيل الهجرة، وقد علمتَ ما كان من السيدة أسماء لَمَّا شقَّت نطاقها نصفين، وستسمع ما كان من الشاب عبدالله بن أبي بكر، وما كان من مولى الصدِّيق عامر بن فهيرة، وبذلك اجتمعت هذه المفاخر الكبرى للصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وإليك ما رواه البخاري في هذا بسنده عن عائشة، قالت:

«ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال، يبيت في الغار عبدالله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف[1] لقن[2]، فيدلج[3] من عندهما بسَحَر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان به[4] إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر مِنْحة[5] من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسْل ـ وهو لبن ـ منحتهما ورضيفهما[6] حتى ينعق[7] بها عامر بن فهيرة بغَلَس، يفعل ذلك كل ليلة» وبذلك كان عامر

---

(١) بفتح الثاء وكسر القاف ويجوز إسكانها: حاذق.

(٢) بفتح اللام وكسر القاف: سريع الفهم جيد الوعي.

(٣) بفتح الياء وتشديد الدال بعدها جيم: أي يخرج بغلس.

(٤) من الكيد، وهو بضم الياء مبنياً للمجهول.

(٥) غنماً فيها لبن.

(٦) رضيف كرغيف: هو اللبن المرضوف، أي الذي وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته.

(٧) يصيح، والنعيق صوت الراعي إذا زجر الغنم.

يعفِّي على آثار عبدالله فلا يتفطن أحد إليه، ولا يستدل بآثاره على المهاجرين الكريمين.

خروج الرسول وصاحبه من الغار

وبعد ثلاث ليال وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من إدراكهما خرجا من الغار، وكان رسول الله ﷺ وأبو بكر استأجرا رجلاً من بني الديل[1] يسمَّى عبدالله بن أريقط، وهو من بني عبد بن عدي، وكان هادياً خرِّيتاً[2] قد غمس حلفاً[3] في آل العاص بن وائل السهمي، وكان على دين كفار قريش[4] فأمِناه[5]، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما، يردفه أبو بكر ويعقبه، فكانوا ثلاثة والدليل.

طريق الهجرة

فلما خرج بهما عبدالله بن أريقط[6] دليلهما سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من (عسفان)[7]، ثم سلك

---

(١) بكسر الدال، وإسكان الياء، وقيل بضم أوله وكسر ثانيه مهموزاً.
(٢) الخريت: الماهر بالهداية العارف بالطريق، وسمي كذلك لأنه يهدي بمثل خرت الإبرة أي ثقبها، أو لأنه يهتدي لأخرات المفازة وهي طرقها الخفية.
(٣) أي كان حليفاً لهم.
(٤) وهذا يدل على مروءة العرب ووفائهم وأمانتهم، وإلا فقد كان يمكنه أن يدل المشركين عليهما ويأخذ الجعل الكبير.
(٥) بفتح الهمزة وكسر الميم.
(٦) لم يعرف له إسلام كما جزم بذلك الحافظ عبدالغني المقدسي في سيرته وتبعه النووي، وقال السهيلي: لم يكن أسلم ولا وجدنا من طريق صحيح أنه أسلم بعد، ولا يعترض بأن الواقدي ذكر أنه أسلم لأنه ليس بصحيح، وضعف الواقدي معلوم خصوصاً مع الانفراد، وكأنه سلف الذهبي في عده صحابياً، وقال في الإصابة: لم أر من ذكره من الصحابة إلا الذهبي في التجريد (شرح المواهب، ج١ ص ٤٠٩).
(٧) عسفان: موضع بين مكة والمدينة بينه وبين مكة نحو ثلاث مراحل، قال الفيومي في المصباح: ويسمى في زماننا مدرج عثمان.

بهما على أسفل (أمج)[1]، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً[2]، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما (الخرّار)[3]، ثم سلك بهما ثنية المرة[4]، ثم سلك بهما لقفاً[5]، قال ابن هشام: ويقال: لفتاً، ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ـ ويقال: مجاج[6] فيما قال ابن هشام ـ، ثم سلك بهما مرجح[7] من ذي الغضوين، قال ابن هشام: ويقال: العضوين، ثم بطن ذي كشر، ثم أخذ بهما على الجداجد[8]، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تعهن[9]، ثم على العبابيد[10]، قال ابن هشام: ويقال: العبابيب، ويقال: العيثانة يريد: العبابيب.

ثم أجاز بهما الفاجة[11]، ويقال: القاحة فيما قال ابن هشام، ثم هبط بهما العرج وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهما، فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم يقال له: أوس بن حجر على جمل له يقال له: ابن الرداء إلى المدينة، وبعث معه غلاماً له يقال له: مسعود بن هنيدة.

---

(١) بفتح الهمزة والميم: موضع.

(٢) على صيغة المصغر: موضع.

(٣) بفتح الخاء وتشديد الراء: موضع قرب الجحفة.

(٤) بفتح الميم والراء المخففة، قال السهيلي: كذا وجدته مخفف الراء، مقيداً كأنه مسهّل الهمزة من المرأة.

(٥) بفتح اللام والقاف في قول ابن إسحاق، وفي رواية ابن هشام «لفتاً» بكسر اللام، والفاء.

(٦) مجاج: بكسر الميم وجيمين قال ابن هشام: ويقال فيها مجاج بفتح الميم وقيل مجاح بالحاء المهملة بعد الجيم.

(٧) مرجح: بتقديم الجيم على الحاء.

(٨) الجداجد بجيمين ودالين: كأنها جمع جدجد، وأحسبها آباراً، قاله السهيلي.

(٩) تعهن: بكسر التاء والهاء، والتاء فيه أصلية.

(١٠) العبابيد: كأنه جمع عباد، وقال ابن هشام: وهي العبابيب كأنها جمع عباب من عبيت الماء عباً.

(١١) الفاجة: بفاء وجيم وقال ابن هشام: القاحة بالقاف والحاء.

ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية العائر عن يمين ركوبة، ويقال: ثنية الغائر ـ فيما قال ابن هشام ـ حتى هبط بهما بطن رئم، ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين حين اشتد الضحاء، وكادت الشمس تعتدل.

في خيمة أم معبد

وفي الطريق إلى المدينة مرَّ النبي ﷺ بأم معبد، وإليك قصتها لما فيها من معجزة ظاهرة للنبي، ولما فيها من صورة صادقة للمرأة العربية في عفتها وشهامتها، ومروءتها، وكرمها، وبلاغتها وفصاحتها، فقد وصفت النبي ﷺ بما يعجز عنه بيان غيرها.

روى البيهقي وغيره[1] عن أخي أم معبد حُبيش صاحب رسول الله ﷺ قال: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه أبو بكر، وعامر بن فهيرة، وابن أريقط يدلهم على الطريق مرُّوا بقديد على أم معبد: عاتكة بنت خالد بن خليد[2] الخزاعية، وكانت برزة[3]، جلدة[4]، تحتبي بفناء القبة[5]، ثم تسقي وتطعم من يمر بها، وكان القوم مُرْملين[6] مُسْنتين[7]، فسألوها: هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئاً، وقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى[8].

---

(١) ورواها أيضاً ابن خزيمة، والحاكم وصحّحها، وصاحب الغيلانيات، ومن طريقه اليعمري عن أبي سليط الأنصاري البدري، وابن عبدالبر، وابن شاهين، وابن السكن، والطبراني وغيرهم.

(٢) على صيغة المصغر كما صرّح به ابن الأثير في الجامع، وقيل: ابن خنيف مصغراً، وقيل ابن منقذ، وهي صحابية خرَّج لها ابن السكن.

(٣) كضخمة عفيفة مسنة فلم تتخدر لسنها، وخرجت من حد المحجوبات.

(٤) قوية.

(٥) الفناء: المكان الواسع أمام البيت أو القبة وهي الخيمة.

(٦) نفدت أزوادهم.

(٧) أصابتهم سنة أي جدب.

(٨) القرى: إكرام الضيف أي ما منعناه عنكم.

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة[1] خلَّفها الجهد[2] عن الغنم، فسألها رسول الله ﷺ : «هل بها من لبن»؟ فقالت: هي أجهد من ذلك، فقال: «أتأذنين لي أن أحلبها[3]؟ فقالت: نعم بأبي أنت وأمي إن رأيت حَلَباً[4] فاحلبها، فدعا بالشاة فاعتقلها[5]، ومسح ضرعها ــ وفي رواية وظهرها ــ وسمَّى الله ــ وفي رواية: ودعا لها في شائها ــ فتفاجَّت[6]، ودرَّت، ودعا بإناء يربض[7] الرهط، فحلب فيه ثجاً[8]، وسقى القوم حتى رووا، وسقى أم معبد حتى رويت، ثم شرب آخرهم وقال: «ساقي القوم آخرهم شرباً» ثم حلب فيه مرة أخرى فشربوا عَلَلاً بعد نَهَل[9]، ثم حلب فيه آخراً، وغادره عندها ــ وفي رواية أنه قال لها أن «ارفعي هذا لأبي معْبد إذا جاءك» ــ ثم ركبوا، وذهبوا.

فقلما لبث أن جاء أبو معبد[10] زوجها يسوق أعنزاً عجافاً[11]، يتساوكن هزلاً[12] لا نقيَ بهن[13]، فلما رأى اللبن أبو معبد عجب، وقال:

---

(١) بكسر الكاف وفتحها: جانب الخيمة.

(٢) بضم الجيم وفتحها: المشقة والهزال.

(٣) بضم اللام وكسرها.

(٤) أي لبناً في الضرع.

(٥) وضع رجلها بين ساقه وفخذه.

(٦) فتحت ما بين رجليها كما هو شأن الغنم إذا حلبت.

(٧) أي يشبع الجماعة ويرويهم حتى يربضوا: أي يناموا ويمتدوا على الأرض.

(٨) أي حلباً كثيراً.

(٩) النهل: الشربة الأولى، والعلل: الشربة الثانية.

(١٠) قال السهيلي: لا يعرف اسمه، وله رواية عن النبي ﷺ وتوفي في حياته، وقال العسكري: اسمه أكثم بن أبي الجون، وقال الذهبي: قيل اسمه حبيش بضم الحاء، وفتح الموحدة، وسكون الياء، آخره شين معجمة على الأصح، وقيل بمعجمة مضمومة ونون مفتوحة، وقيل: أكثم قديم الوفاة.

(١١) جمع عجفاء أي هزالاً.

(١٢) يتمايلن في مشيتهن من الهزال.

(١٣) النقي: مخ العظام أي مخهن قليل.

ما هذا يا أم معبد؟ أنَّى لك هذا؟! والشاء عازب، حيال[1] ولا حلوب[2] بالبيت، فقالت: لا ـ والله ـ إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك فمن حاله كذا، وكذا[3]، فقال: صِفِيه يا أم معبد، فقالت:

رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[4]، مبلج الوجه[5]، حسن الخلق[6]، لم تعبه ثجلة[7]، ولم تَزْرِ به صعلة[8]، وسيم قسيم، في عينيه دعج[9]، وفي أشفاره وطف[10]، وفي صوته صحل[11]، أحور[12]، أكحل[13]، أزج[14]، أقرن[15]، شديد سواد الشعر، في عنقه سطح[16]، وفي لحيته كثاثة[17]، إذا صمت فعليه

---

(١) العازب: بعيدة المرعى، الحيال: بكسر الحاء المهملة جمع حائل وهي التي ليس بها حمل.

(٢) ذات لبن.

(٣) كناية عن القصة التي حدثت بها.

(٤) الحسن والبهجة.

(٥) مشرقه.

(٦) بفتح الخاء وسكون اللام، أو بضم الخاء واللام، وعرفت ذلك من تواضعه وحسن معاملته لرفقته.

(٧) بفتح الثاء وسكون الجيم عظم البطن.

(٨) صغر الرأس.

(٩) شدة سواد العينين.

(١٠) أشفاره: رموش عينيه، وطف: طول وغزارة.

(١١) بفتح الصاد والحاء بحة خفيفة فليس في صوته غلظ.

(١٢) الحور بفتح الحاء والواو: شدة بياض العينين، وشدة سواد سوادهما.

(١٣) الكحل بفتح الكاف والحاء: سواد في أجفان العينين خلقة، والرجل أكحل وكحيل، والمرأة كحلاء.

(١٤) دقيق الحاجبين في طول.

(١٥) مقرون الحاجبين.

(١٦) ارتفاع وطول.

(١٧) غزارة من غير دقة.

الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن[1]، حلو المنطق، فصل[2]، لا نَزْر[3]، ولا هذر[4]، أجهر الناس[5]، وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب[6]، رَبْعة لا تشنؤه[7] من طول، ولا تقتحمه[8] عين من قِصَر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفُّون به[9]، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا لأمره[10] محفود محشود[11]، لا عابس، ولا مفنِّد[12].

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش، لو رأيته لاتَّبعته، ولأجهدنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً[13].

مكافأة النبي لأم معبد

وقد روي أنها كثرت غنمها ونمت حتى جلبت منها جَلَباً إلى المدينة، فمر أبو بكر، فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمه هذا الرجل الذي كان مع المبارك،

---

(١) أي كلام متناسق، ومتصل بعضه ببعض، فاشبه في تناسقه الدرر، وفي تواليه الخرزات إذا تتابعت.
(٢) بسكون الصاد: أي كلام بيِّن يفصل الحق من الباطل، أو تفسيره ما بعده.
(٣) قليل الكلام.
(٤) كثير الكلام فهو وسط بين هذا وذاك، والفضيلة وسط بين رذيلتين.
(٥) أرفعهم صوتاً من غير إفراط مع الوضوح.
(٦) أفرد الضمير حملاً على لفظ الناس أو لإرادة الجنس.
(٧) لا يُبغض لفرط طوله.
(٨) لا تتجاوزه إلى غيره ازدراء له وإعراضاً.
(٩) يحيطون به.
(١٠) تسابقوا إلى امتثاله.
(١١) محفود: مخدوم، ومن ذلك ما ورد في دعاء القنوت: «وإليك نسعى ونحفد»، محشود: عنده حشد وهم الجماعة.
(١٢) عابس: مقطب الوجه، والمفنِّد بكسر النون مع التشديد اسم فاعل الذي يكثر من اللوم.
(١٣) شرح المواهب ج ١ ص ٤١٠ ـ ٤١٦؛ البداية والنهاية ج ٣ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

فقامت إليه فقالت: يا عبدالله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أوما تدرين من هو؟ قالت: لا، قال: هو نبـي الله، فأدخلها عليه، فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها ـ وفي رواية: فانطلقت معي وأهدت لرسول الله ﷺ شيئاً من أقط ومتاع الأعراب، فكساها وأعطاها، قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت.

وذكر صاحب «الوفاء» أنها هاجرت هي وزوجها، وأسلما، وفي شرح السنة للبغوي: هاجرت هي وزوجها، وأسلم أخوها حبيش، واستشهد يوم الفتح.

هادٍ يهديني الطريق

وكان أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ شيخاً[1] يُعرف، لأنه كان كثير التردد على هذا الطريق الذي يمر بالمدينة في أسفار تجارته، وكان النبـي ﷺ شاباً[2]، فيلقى الرجل أبا بكر وهو يعرفه، فيقول: يا أبا بكر: من هذا الرجل الذي بين يديك؟! فيقول: هذا رجل يهديني السبيل، فيحسب السامع أنه يعني الطريق المحسوس، وإنما يعني الصديق طريق الخير والهداية.

وقد كان ما فعله الصديق بإيحاء من النبـي ﷺ، فقد ذكر ابن سعد في طبقاته أن النبـي ﷺ قال لأبـي بكر: «ألْهِ الناس عني[3]» وهذا من التحوط الحكيم في وقت اشتد فيه الطلب للنبـي ﷺ، فكان إذا سئل الصديق ممن

---

(١) أدركه الشيب.

(٢) يعني لم يلحقه الشيب، وقد يفهم من ظاهر هذا الكلام أن الصديق ـ رضي الله عنه ـ كان أسن من رسول الله وهو غير صحيح، وأما الأثر المشهور على الألسنة أن النبـي قال لأبـي بكر: «أينا أسن أنا أم أنت»؟ قال: «أنت أكبر وأكرم، وأنا أسن منك» فقد قال فيه الإمام ابن عبدالبر: هذا مرسل ولا أظنه إلا وهماً، وقال الحافظ ابن حجر: وهو كما ظن، وإنما يعرف هذا للعباس، وأما أبو بكر فقد ثبت في صحيح مسلم عن معاوية أنه عاش ثلاثاً وستين سنة، وكان قد عاش بعد النبـي سنتين وأشهراً، فيلزم على الصحيح أن يكون أصغر من النبـي بأكثر من سنتين.

(٣) أي اصرفهم عن معرفة حقيقة أمري.

لا يعرفه: من أنت؟ قال: باغي حاجة، فإذا قيل له من هذا معك؟ قال: هاد يهديني.

قصة سراقة بن مالك بن جُعْشُم المدلجي[1]

كانت قريش قد جعلت في النبي ﷺ من يأتي به حياً أو ميتاً، وصاحبه أبي بكر دية كل واحد منهما مائة ناقة ـ كما ذكر موسى بن عقبة في مغازيه ـ وكان هذا الجعل مما حمل سراقة على متابعة النبي ﷺ.

وإليك قصة سراقة كما رواها قال:

«فبينما أنا جالس في مجلس قومي بني مُدْلِج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني قد وجدت آنفاً أَسْوِدة[2] بالساحل أراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفتُ أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم[3]، قال: لعل وسكت.

ثم قمت فدخلتُ فأمرتُ جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فحططت بزجه الأرض[4]، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها[5] تقرب بي[6] حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها[7]، فأهويت يدي إلى

---

(١) جعشم: بضم الجيم، وسكون العين، وضم الشين، والمدلجي بضم الميم، وسكون الدال، وكسر اللام، وهو مدلج بن مرة بن عبدمناف بن كنانة.
(٢) جمع سواد يعني أشخاصاً.
(٣) يقصد التعمية على قومه.
(٤) الزج: الحديدة التي في أسفل الرمح.
(٥) أسرعت بها السير.
(٦) التقريب دون العدو، وفوق العادة، وقيل: أن ترفع الفرس يديها معاً وتضعهما معاً.
(٧) سقطت.

كنانتي[1] فاستخرجت الأزلام[2] فاستقسمت بها[3] أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، وكنت أرجو أن أرده فآخذ المائة ناقة.

فركبت فرسي ـ وعصيت الأزلام ـ تُقَرِّب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، فقال أبو بكر: يا رسول الله هذا فارس قد لحق بنا، والتفت نبي الله ﷺ فدعا عليه قائلاً: «اللهمَّ اصرعه، اللهم اكفناه بما شئت» قال سراقة: فساخت يدا[4] فرسي حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، وصرعتني، ثم زجرتها، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثان[5] في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان[6] قائلاً: أنا سراقة بن مالك بن جعشم، أنظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، ادع الله لي ولا أضرك فدعا له.

فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أنه ممنوع[7]، وأن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني[8] مما معي شيئاً، ولم يسألاني، فقلت:

---

(١) كيس من جلد التي بها السهام.

(٢) جمع زلم وهي القداح التي كانوا يستقسمون بها، والقدح قطعة من خشب كالسهم إلا أنها لا ريش لها ولا نصل.

(٣) أي ضرب ليعرف حظه ونصيبه وقد حرمه الإسلام.

(٤) أي غاصتا في الأرض.

(٥) غبار صاعد جهة السماء.

(٦) هكذا في رواية الصحيح أنه ناداهم بالأمان بعد أن غاصت قدما فرسه في التراب في المرة الثانية، وفي السيرة لابن إسحاق أنه واصل الطلب، وأنه سقط عنها ثلاث مرات، وغاصت قدما فرسه في الثالثة فقام فناداهم بالأمان.
(السيرة ج ١ ص ٤٨٩) فلعل في رواية الصحيح اقتصاراً على المرتين.

(٧) محفوظ من الله تعالى ولن ينال منه أحد.

(٨) ينقصاني مما معي شيئاً.

يا رسول الله مرني بما شئت فقال: «قف مكانك، ولا تترك أحداً يلحق بنا، وأخْفِ عنـا».

وهكذا كان في أول النهار جاهداً[1] على رسول الله ﷺ وكان في آخر النهار مَسْلَحة له[2] قال سراقة: فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أَدَم[3] ثم ألقاه إلي، فأخذتـه ووضعته في كنـانتي ثم رجعت[4].

ستلبس سواري كسرى

ولم يقف الأمر في قصة سراقة عند هذه المعجزة الظاهرة البيِّنة الدالة على حماية الله لنبيه وحفظه له، بل تعدَّاه إلى نبوءة أخرى ما كان يجول مصداقها بخَلَد إنسان قط إلا أن يكون نبياً يوحى إليه من ربه، ذلك أنه لما همَّ سراقة بالرجوع التفت إليه النبـي ﷺ وقال: «كأني بك يا سراقة تلبس سِوارَي كسرى» فقال سراقة متعجباً: كسرى بن هرمز!! قال: «نعم».

فرجع سراقة وهو في حيرة من أمر هذه النبوءة، وتواردت على نفسه شتى الهواجس والخواطر والخلجات النفسية: محمد بن عبدالله الذي خرج مستخفياً مطارداً من قومه يخشى الطلب، ويخاف الرصد، ولا يكاد يأمن على نفسه من غوائل المشركين ــ يعدني سواري كسرى إنه للأمر العجب!!

وفاء سراقة بما وعد

وقد وفى سراقة بما وعد، فجعل لا يلقَى أحداً من الطلب إلا رده قائلاً: كفيتم هذا الوجه، فلما اطمأنَّ إلى أن النبـي ﷺ وصل إلى المدينة جعل سراقة يقصُّ ما كان من قصته وقصة فرسه، واشتهر هذا عنه، وتناقلته الألسنة حتى امتلأت به نوادي مكة، فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سبباً لإسلام بعض أهل مكة، وكان سراقة أمير بني مدلج، ورئيسهم فكتب أبو جهل إليهم:

---

(١) يريد النيل من رسول الله جهده.

(٢) مانعاً له، وحارساً له بسلاحه.

(٣) أدم: جلد.

(٤) صحيح البخاري، باب هجرة النبـي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، السيرة ج ١ ص ٤٨٩

بني مدلج إني أخاف سفيههم سراقة مستغوٍ لنصر محمد
عليكم به ألاّ يفرّق جمعكم فيصبح شتى بعد عزٍ وسؤدد

فقال سراقة يرد على أبي جهل:

أباحَكَم ـ والله ـ لو كنتَ شاهداً لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمتَ ولم تَشْكُكْ بأن محمداً رسولٌ وبرهان فمن ذا يقاومه
عليك فكُفَّ القوم عنه فإنني أرى أمره يوماً ستبدو معالمه
بأمر تود الناس فيه بأسرهم بأن جميع الناس طُرّاً مسالمه

إسلام سراقة

وتسير الأيام في صالح الدعوة الإسلامية بعد جهاد وكفاح وتضحية وصبر، ويدخل النبي ﷺ مكة منتصراً، وتدول دولة الشرك والأصنام، ويقابل سراقة رسول الله مرجعه من حنين والطائف «بالجعرّانة» فيطلعه على الكتاب، فيقول له رسول الله: «اليوم يوم الوفاء والبر، ادنُ» قال: فدنوت منه وأسلمت.

صدق النبوءة

وتدور عجلة التاريخ مسرعة، ويأتي زمن الخليفة العبقري الملهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فيفتح الله على المسلمين بلاد فارس ومنها المدائن، ويُثَلُّ عرش كسرى، ويُؤتى بالغنائم، وفيها سوارا كسرى، وتاجه، وبساطه، وجواهره الغالية التي قُدِّرت بألوف الألوف من الدراهم والدنانير، ويقف الفاروق متعجباً من أمانة الجند وقوادهم، فيقول: «إن قوماً أدَّوا هذا لذوو أمانة»!! فيقول له علي ـ رضي الله عنه ـ: «إنك عففتَ فعفَّت الرعية»!! ويقسم عمر الغنائم بين المسلمين، ويتعفف عنها فلم ينله منها شيء.

ويتذكر عمر والمسلمون نبوءة رسول الله ﷺ، ومقالته لسراقة، فأتى به، وألبسه سواري كسرى، وكان سراقة رجلاً أزب[1]، وقال له «قل: الله أكبر،

(١) أي كثير شعر الذراعين.

الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن جعشم أعرابياً من بني مدلج» ورفع بها عمر صوته، ثم أركب سراقة، وطيف به المدينة، والناس حوله، وهو يرفع عقيرته مردداً قول الفاروق: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن جعشم أعرابياً من بني مدلج!!

وكان يوماً مشهوداً من أيام المدينة الخالدة، وهكذا صدق الله وعده، ونصر جند الإسلام المتقين، وجعل وراثة الأرض لعباده الصالحين.

من تفاؤل النبي ﷺ

وقد روي أن رسول الله ﷺ مرَّ هو والركب بإبل لمالك بن الأوس الأسلمي بالجحفة ومعها غلام راع، فقال: «لمن هذه»؟ قال: لرجل من أسلم، فالتفت إلى أبي بكر وقال: «سلمتَ إن شاء الله» قال: «ما اسمك»؟ قال: مسعود، فالتفت إلى أبي بكر، وقال: «سعدتَ إن شاء الله»[1] وقد كان من خلق رسول الله ﷺ أنه يحب التفاؤل، ويكره التشاؤم.

إهداء الزبير وطلحة ثياباً لرسول الله وأبي بكر

ومما وقع في الطريق إلى المدينة أنه ﷺ لقي الزبير بن العوام في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسى الزبيرُ رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء، رواه البخاري[2]، وكذا روى أصحاب السِيَر أن طلحة بن عبيدالله لقيهما أيضاً وهو عائد من الشام وكساهما بعض الثياب[3].

في انتظار الرسول

ولما بلغ المسلمين بالمدينة مخرجُ النبي ﷺ من مكة هو وصاحبه الصديق رضي الله تعالى عنه، كانوا يخرجون كل غَدَاة إلى الحرَّة فينتظرونه حتى يردهم حرُّ الظهيرة، فعلوا ذلك مراراً، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم،

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٩٠.
(٢) صحيح البخاري ــ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.
(٣) فتح الباري ج ٧ ص ١٩٣.

فلما أوَوْا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم[1] من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيِّضين[2]، يزول بهم السراب[3]، فلم يملك اليهودي أن صاح بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جَدُّكم[4] الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح[5]، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرَّة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل في بني عمرو بن عوف.

في قباء[6]

وكانت منازل بني عمرو بن عوف في قباء، وكان ذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، وقيل لهلال ربيع الأول، وقيل: لليلتين خَلَتا منه، وقيل لثامن يوم منه، وقال ابن إسحاق لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وعند ابن سعد لثلاث عشرة منه.

فقام أبو بكر للناس يتلقاهم، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ ولم يعرفه من قبل يحيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلَّل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله عند ذلك.

فأقام رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف أربعة أيام[7]، الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وخرج يوم الجمعة قاصداً المدينة.

---

(١) الأطم: الحصن.
(٢) عليهم الثياب البيض التي كساهم إياها الزبير وطلحة رضي الله عنهما.
(٣) يزول بهم السراب عن النظر بسبب عروضهم له، أو ظهرت حركتهم للعين، والسراب: ما يرى في الظهيرة كأنه ماء وليس بماء.
(٤) حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعون وصوله.
(٥) لإظهار القوة، وحمايتهم له من أول يوم قدم فيه المدينة.
(٦) قباء بالمد والقصر، وبضم القاف وفتحها، وهو يصرف، ويمنع من الصرف.
(٧) والذي في صحيح البخاري أنه أقام فيهم أربع عشرة ليلة، وقد جمع الحافظ ابن حجر في الفتح بين ما في السيرة وما في الصحيح بأن المراد تتمة أربع عشرة ليلة بما فيها المدة التي استغرقها في السير من يوم أن خرج من الغار إلى أن وصل إلى قباء.

تأسيس مسجد قباء

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ لما قدم قباء أن أسس مسجد قباء، كي يكون للمسلمين مكان يصلون فيه، ويجمعهم على البر والخير والتقوى، وهو المسجد الذي أسس على التقوى، وهو أول مسجد بني في الإسلام لكافة المسلمين، وهو المراد بقوله تعالى:

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1].

نزول النبي وصاحبه بالمدينة

وكان نزول النبي ﷺ حين قدم قباء على كُلثوم بن الهِدْم[2] أخي بني عمرو بن عوف، ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة، ولا منافاة بين القولين، فقد كان النبي ﷺ يبيت عند كلثوم بن الهدم، فإذا أصبح جلس في بيت سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عَزَباً لا أهل له، وكان يقال لبيته: بيت العزاب، ولذلك نزل عليه العزاب من المهاجرين كما ذكرنا.

ونزل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على خبيب بن إساف أحد بني الحارث بن الخزرج بالسنح[3] وقيل: بل نزل على خارجة بن زيد بن أبي زهير أخي بني الحارث بن الخزرج.

هجرة علي رضي الله عنه

وأقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، ثم لحق برسول الله فأدركه بقباء بعد وصوله بليلتين أو ثلاث، فكانت إقامته بقباء ليلة أو ليلتين، ثم خرج مع النبي ﷺ إلى المدينة يوم الجمعة.

(١) الآية ١٠٨ من سورة التوبة.

(٢) قيل كان يومئذ مشركاً، وهو الذي جزم به الحسن بن زبالة في «أخبار المدينة».

(٣) مكان خارج المدينة قرب قباء.

مكرمة لسهل بن حنيف

وقد لاحظ سيدنا علي مدة إقامته بقباء امرأة مسلمة لا زوج لها، ورأى إنساناً يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه، فيعطيها شيئاً معه، فتأخذه، قال: فاستربت بشأنه، فقلت: يا أمة الله، من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه، فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟! قالت: هذا سهل بن حنيف، وقد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي رضي الله عنه يأثر ذلك من شأن سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق.

وبوصول النبي ﷺ وصحبه إلى قباء تمت خير هجرة عرفتها الدنيا لقوم مؤمنين، وأعظم حادث تاريخي كان له أكبر الأثر في تاريخ الإسلام والمسلمين، بل في تاريخ الدنيا قديمها وحديثها.

وإلى هنا نقف بك ـ أيها القارىء الكريم ـ لنسلمك إلى أحداث السيرة النبوية من الهجرة إلى وفاة النبي ﷺ في «القسم الثاني» من هذه السيرة العطرة، التي أراد الله أن يخرج قسمها الثاني قبل الأول ببضع سنين.

والحمد لله في النهاية كما حمدناه في البداية، وصلى الله ـ تبارك وتعالى ـ على سيدنا محمد نبي الهدى، والبر، والرحمة، والملحمة، وعلى آله وأصحابه الذين فدوه بالنفس، والأهل، والولد، والمال، وعزّروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أُنزل معه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنّا معهم بفضلك وكرمك يا إله العالمين، آمين ؟

وكان الفراغ من تأليفه في شهر ربيع الأول لعام ثمان وثمانين وثلاثمائة بعد الألف هجرية، الموافق يونيو لعام ١٩٦٨ ميلادية، وأنا بمدينة الرسول ﷺ.

* * *

وكتبه العاجز عن شكر ربه وراجي عفوه

أبو السادات محمد بن محمد أبو شهبة

من علماء الأزهر الشريف

والمتخصص في الأصلين الشريفين: القرآن والسنة

ثبت بأهم مراجع الكتاب

(١) القرآن الكريم.

(٢) تفاسير: ابن جرير الطبري، والزمخشري، والبغوي، وابن كثير، والقرطبي، والألوسي، وأسباب النزول للسيوطي.

(٣) الصحيحان: صحيح البخاري، وصحيح مسلم.

(٤) سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ومسند أحمد، والموطأ.

(٥) المستدرك للحاكم، السنن للبيهقي، سنن الدارقطني.

(٦) السيرة النبوية لابن إسحاق وابن هشام، ط الحلبي.

(٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ ابن حجر طبعة البهية.

(٨) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، للإمام القاضي عياض، ط استانبول.

(٩) الطبقات الكبرى، للإمام ابن سعد، ط بيروت.

(١٠) الإصابة في تاريخ الصحابة، للإمام ابن حجر، ط الأولى.

(١١) الاستيعاب في تاريخ الأصحاب، ابن عبد البر على هامش الإصابة.

(١٢) شرح المواهب اللدنية، للإمام الزرقاني، ط بولاق.

(١٣) زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ابن قيم الجوزية، ط أنصار السنة.

(١٤) البداية والنهاية، للإمام الحافظ ابن كثير، ط الاستقامة.

(١٥) الروض الأنف شرح السيرة لابن هشام، للإمام السهيلي، ط الجمالية ١٣٣٢هـ ١٩١٤م.

(١٦) السيرة الحلبية، للشيخ العلامة علي بن برهان الدين الحلبي.

(١٧) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، للعلامة الشيخ محمد الخضري.

(١٨) حياة محمد، للدكتور محمد حسين هيكل، ط الأولى.

(١٩) حياة محمد، لدرمنغم ترجمة الأستاذ عادل زعيتر.

(٢٠) حياة محمد ورسالته، لمولانا محمد علي.

(٢١) الدين، للدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز.
(٢٢) التاريخ الإسلامي والحضارة العربية، للدكتور أحمد شلبي.
(٢٣) جزيرة العرب في القرن العشرين، للشيخ حافظ وهبة.
(٢٤) دائرة معارف القرن العشرين، للأستاذ محمد فريد وجدي.
(٢٥) مكة والمدينة في عصر الجاهلية، للأستاذ أحمد الشريف.
(٢٦) معجم البلدان، للشيخ العلامة ياقوت الحموي.
(٢٧) الأصنام، لابن الكلبي.
(٢٨) أدلة اليقين في الرد على مطاعن المبشرين، للعلامة الشيخ عبد الرحمن الجزيري.
(٢٩) الرد على المنطقيين، للإمام أحمد بن تيمية الحراني.
(٣٠) مدخل لدراسة القرآن الكريم، للدكتور الشيخ محمد أبو شهبة.
(٣١) الإسراء والمعراج، للدكتور الشيخ محمد أبو شهبة.
(٣٢) تفسير سورة الفاتحة وملحقاتها، للإمام الشيخ محمد عبده.
(٣٣) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، لأستاذنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي، ط الحلبي.
(٣٤) البيان والتبيين، للإمام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ط ثالثة.
(٣٥) عبقرية محمد، للأستاذ العقاد، ط الهلال.
(٣٦) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للأستاذ العقاد، ط الهلال.
(٣٧) أم النبي ﷺ، للدكتورة عائشة عبد الرحمن، ط الهلال.
(٣٨) الملل والنحل، للإمام الشيخ محمد الخضر حسين، ط خاصة بكلية أصول الدين قديماً.
(٣٩) الملل والنحل، للأستاذ حامد عبد القادر، ط خاصة بكلية أصول الدين قديماً.
(٤٠) التاريخ الإسلامي، للدكتور محمد مصطفى زيادة، ط خاصة بكلية أصول الدين قديماً.
(٤١) التاريخ الإسلامي، للأستاذ محمد حبيب أحمد، ط خاصة بكلية أصول الدين قديماً.
(٤٢) كتب العهد القديم، والعهد الجديد أو التوراة والأناجيل، ط جمعية التوراة الأميركانية.
(٤٣) كتب اللغة: القاموس المحيط، والمصباح المنير.

* * *

فهارس

الجزء الأول

صنع فهارسه العلمية

عبد السّتّار الشيخ

١ ـ فهرس الآيات القرآنية.
٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية.
٣ ـ فهرس الأعلام.
٤ ـ فهرس القبائل والأمم والجماعات والدول والممالك والحضارات.
٥ ـ فهرس الأيام والغزوات والوقائع.
٦ ـ فهرس الأماكن والبلدان والبحار والأنهار والأصنام.
٧ ـ فهرس تأريخي متسلسل لأحداث السيرة والتشريعات ونحو ذلك.
٨ ـ فهرس الشعر.
٩ ـ فهرس الموضوعات.

١ ـ فهرس الآيات القرآنية(*)

(*) الآيات مرتبة في سورها حسب تسلسل أرقامها.

[سورة المدثر]

[انتهى فهرس الآيات القرآنية الكريمة]

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية(*)

(*) الأحاديث مرتبة ترتيباً ألف بائياً، وتشمل القولية والفعلية والتقريرية.

[المعرف بالألف واللام]

[الباء]

[الميم]

[المعرف بالألف واللام]

٣ - فهرس الأعلام(*)

(*) أسقطت في هذه الفهارس: أبو، ابن، أم، ابن أبي، ابن أم، أخت، بنت.

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(خ)

(ك)

(ل)

[انتهى فهرس الأعلام]

٤ ـ فهرس القبائل والأمم والجماعات والدول والممالك والحضارات(*)

(*) أسقطت في هذا الفهرس: بنو، قبيلة، دولة، مملكة، حضارة، قوم. ووضعتها على اليسار بين قوسين ( ) لتسهيل الكشف عن المراد.

[انتهى فهرس القبائل والأمم...]

٥ ـ فهرس الأيام والغزوات والوقائع(*)

(*) أسقطت هنا: غزوة، يوم، صلح، بيعة. ووضعتها كذلك على اليسار بين قوسين (   ).

[انتهى فهرس الأيام والغزوات]

٦ ــ فهرس الأماكن والبلدان والبحار والأنهار والأصنام(*)

(*) في هذا الفهرس لم أسقط شيئاً تسهيلاً للباحث.

(ت)

(ث)

(ج)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

[انتهى فهرس الأماكن]

٧ ــ فهرس تأريخي متسلسل
لأحداث السيرة والتشريعات ونحو ذلك

الحـــدث	التـــاريخ	الصفحـــة
تأسيس دولة حورابي بالعراق	القرن ٢٣ قبل الميلاد	٤٧، ٥٧، ١٠٥
مَلْك العماليق مصر وكونوا بها أسرة مالكة	القرن ٢٣ قبل الميلاد	٥٦، ١٠٥
نشأة مكة المكرمة	سنة ٢٠٥٠ قبل الميلاد	٥٦
ظهور الجفاف في شبه جزيرة العرب	الألف الثاني قبل الميلاد	٥٢
نشأة المدينة المنورة	١٦٠٠ قبل الميلاد	٥٧
ميلاد رسول الله محمد ﷺ	١٢ ربيع الأول عام الفيل ــ ٥٧٠م	١٧٣
إسلام حمزة بن عبد المطلب	السنة الثانية (أو السادسة) للبعثة	٢٩٩
هجرة الحبشة الأولى	رجب ــ السنة الخامسة للبعثة	٣٤٩
رجوع مهاجرة الحبشة (الهجرة الأولى) إلى مكة	شوال سنة خمس (أو ست) للبعثة	٣٦١
إسلام عمر بن الخطاب	سنة خمس (أو ست) للبعثة	٣٥١
تعليق الصحيفة الظالمة في جوف الكعبة	هلال المحرم سنة سبع للبعثة	٣٥٩
وفاة السيدة خديجة أم المؤمنين	السنة العاشرة للبعثة	٣٩٧
وفاة أبي طالب	السنة العاشرة للبعثة	٣٩٧
خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف	شوال السنة العاشرة للبعثة	٤٠١
الإسراء والمعراج	قبل الهجرة بسنة (أو سنتين أو ثلاث)	٤١٨
هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة	هلال ربيع الأول أو أواخر صفر	٤٧٧
قدوم النبي مهاجراً على بني عمرو بن عوف بقباء	الإثنين ١٢ ربيع الأول	٤٨٦
تشريع الجهاد	السنة الثانية للهجرة	٤٥٥
غزة بدر	١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة	٢٥٩

الحــدث	التــاريــخ	الصفحــة
قدوم مهاجرة الحبشة إلى المدينة	سنة ٧هـ عقب خيبر	٣٨٠
معركة اليمامة	سنة ١٢هـ	٤٦٤
بدء التدوين في السيرة على سبيل الاستقلال عن الحديث	النصف الثاني من القرن الأول الهجري	٢٨
تدوين الأحاديث تدويناً عاماً	آخر القرن الأول الهجري	٢٧
ترك الناس سوق عكاظ واندراسها	١٢٩هـ	١٠٢

٨ ـ فهرس الشعر

صدر البيت	قافيته	الشاعر	الصفحة
		(أ)	
ولد الهدى	وثنــاء	أحمد شوقي	١٧٦
الروح والملأ	بشــراء	أحمد شوقي	١٧٦
والعرش يزهو	العصمــاء	أحمد شوقي	١٧٦
بك بشر الله	الغبــراء	أحمد شوقي	١٧٦
يوم يتيه	وضــاء	أحمد شوقي	١٧٦
ذعرت عروش	أصــداء	أحمد شوقي	١٧٧
والنار خاوية	المــاء	أحمد شوقي	١٧٧
والاي تترى	غــدّاء	أحمد شوقي	١٧٧
ورأته خديجة	والجيــاء	البوصيري	٢٢٣
وأتاها أن	أفيــاء	البوصيري	٢٢٣
وأحاديث أن	الوفــاء	البوصيري	٢٢٣
فدعته إلى	الأذكيــاء	البوصيري	٢٢٣
		(ب)	
أرب يبول الثعلبان	الثعــالب	ـ	٧٢
وليلة من	الطنبــا	ـ	١٤٠
لا ينبح الكلب	الذنبــا	ـ	١٤٠
كل دار	والحَــوبُ	أبو دؤاد الإيادي	٤٦٣

صدر البيت	قافيتــه	الشاعـــر	الصفحــة
ألا قل	بكــرُ	أبو طالب بن عبد المطلب	٣٠٤
		(ف)	
تشتو بمكة	بالطــائف	–	٥٩
لبيت تخفق	منيف	ميسون بنت بحدل	٨٨
ولبس عباءة	الشفــوف	ميسون بنت بحدل	٨٨
وأكل كسيرة	الرغيف	ميسون بنت بحدل	٨٨
وخرق من	عنيف	ميسون بنت بحدل	٨٨
عمرو الذي	عجــاف	–	١٥١
سُنّت	الأصيــاف	–	١٥١
العبد حق	من المكلف؟	–	٤١٥
إن قلت	أنى يكلف؟	–	٤١٥
		(ق)	
وأنت لما	الأفـق	العباس بن عبد المطلب	١٧٦
فنحن في	نختــرق	العباس بن عبد المطلب	١٧٦
يا رب	ورقِّــه	حليمة السعدية	١٩٥
		(ك)	
لاهُمَّ	رحــالك	عبد المطلب بن هاشم	١٦٨
وانصـــر	آلـك	عبد المطلب بن هاشم	١٦٨
لا يغلبن	محــالك	عبد المطلب بن هاشم	١٦٨
إن كنت	لـك	عبد المطلب بن هاشم	١٦٨
		(ل)	
لك المرباع	والفضـــول	–	٦١
ومــوطىء	نــاعلِ	أبو طالب بن عبد المطلب	١٣٣
وثـــور	نــازل	أبو طالب بن عبد المطلب	٢٥٥
ولما رأيت	والوســائلِ	أبو طالب بن عبد المطلب	٣٠٥
وقد صارحونا	المــزايل	أبو طالب بن عبد المطلب	٣٠٥
وقد حالفوا	بالأنــامل	أبو طالب بن عبد المطلب	٣٠٥
صبرت لهم	المقــاول	أبو طالب بن عبد المطلب	٣٠٥
أعوذ برب	بــاطل	أبو طالب بن عبد المطلب	٣٠٥

[انتهى فهرس الشعر]

فهرس الموضوعات ـ الجزء الأول

الباب الثالث:
من البعثة إلى الهجرة ٢٥٧

* * *

الفهارس العامة

* * *

[تمت الفهارس]

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

* * *